ثروت عكاشه

مصر في عيون الغرباء

من الرحالة والفنانين والأدباء

(القرن التاسع عشر)

دار

هـــــذا الكتـــــاب

جولة بين عدد من كتب الرحلات ولوحات الفنانين الأوربيين والأمريكيّين الذين زاروا مصر خلال القرن التاسع عشر، تتناول نماذج من انطباعات الرّحالة والفنانين والأدباء الفرنسيين والإنجليز عن مصر والمصريين، قد يحمل بعضها مودّة صافية وقد يزخر البعض الآخر بنقد لاذع أو تشهير ماكر أو تحريض سافر. فلا بأس من أن يعرف القارئ المصرى والعربى ما قيل فيه من مدح وما قيل فيه قَدْحٍ. وليس كل ما قيل من ذم يخلو من تحامل. والقارئ وهو يطالع هذا أو ذاك قادر على التمييز بين ما هو حق وما هو باطل.

والكتاب بمجلّديه يعرض جملة من أبدع اللوحات ذات الأهمية التى صوّرها أو رسمها الفنانون الفرنسيون والإنجليز والأوربيون ممن زاروا مصر فى القرن التاسع عشر وانفعلوا بمجتمعها وأهلها وآثارها، وخاصة ما فيه إشارة إلى ما جاء على ألسنة الرحّالة والأدباء من وصفهم لأشياء أو ذِكْرهم لعادات، حتى يتسنّى للقارئ أن يربط بين ما جاء مصوَّرا وما جاء مدوّنًا. ومن هذه اللوحات ما هو بالألوان المائية، ومنها ما هو تصوير زيتيّ، ومنها ما هو بتقنية حفر الرسوم على الحجر وغيره، ومنها ما هو تسجيل فوتوغرافي حين اختُرعت آلة التصوير فى النصف الأول من القرن التاسع عشر.

وقد أضاف المؤلف إلى هذه الطبعة الثانية حديثًا ولوحات مصوّرة لم يردا قبلُ فى الطبعة الأولى، إثراءً لمضمون الكتاب، لاسيما موضوع التصوير الاستشراقى الذى رأى أن يكون جامعًا لكل ما فى العالم الإسلامى من مغربه إلى مشرقه [مراكش والجزائر وتونس ومصر والشام وتركيا] أدبًا ورحلةً وتصويرًا لما لهؤلاء الأدباء والرحّالة والفنانين من تجربة وخبرة عن تلك الأقطار بعد أن داستها أقدامهم وعاشوا بين أهلها.

ويضم الكتاب بمجلّديه ٦٥٠ لوحة كما ينفرد بنشر لوحات لم يسبق نشرها من قبل. وعلى هذا فالكتاب باقة اجتمعت زهراتها من حدائق الأدب والفن المختلفة قطفها د. ثروت عكاشه على هواه ونسّقتها يداه لتشيع شذى جديدا، وإن كان فى الحقيقة عصارة هذه الزهرات جميعا.

النـاشـــر

➤
جون فردريك لويس: وجبة الغداء في صحن الدار بحي الأزبكية.
أوين إدجار جاليري بلندن

ثروت عكاشه

مصر في عيون الغرباء

من الرحالة والفنانين والأدباء

(القرن التاسع عشر)

المجلد الأول

دار الشروق

mohamed khatab
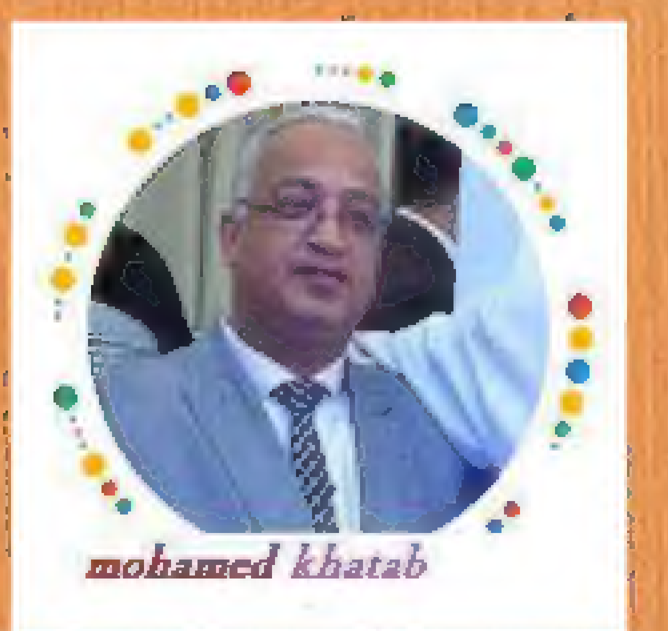
mohamed khatab

mohamed khatab

mohamed khatab

mohamed khatab

mohamed khatab

mohamed khatab

mohamed khatab

mohamed khatab

من الرحالة والفنانين والأدباء
(القرن التاسع عشر)

ثــروت عــكاشــه

من الرحـــالـة والفنـــانين والأدبـــاء
(القرن التاسع عشر)

المجلد الأول

دار الشروق

ثـروت عكاشـه
مصـر في عيون الغرباء
من الرحالة والفنانين والأدباء
(القرن التاسع عشر)

المجلد الأول

الإخراج الفنى
مجدى عز الدين

الطبعة الأولى ١٩٨٤ م
الطبعة الثانية ٢٠٠٣ م

٨ شارع سيبويه المصرى
رابعة العدوية - مدينة نصر
[illegible] القاهرة - مصر
تليفون: ٤٠٢٣٣٩٩ (٠٢)
فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
e-mail: dar@shorouk.com
www.shorouk.com

إهداء

إلى حفيدي محمد عبد المجيد اللبان

بالأمس القريب أهديتُ إليك كتابيّ «الإغريق بين الأسطورة والإبداع» و «الفن الإغريقي» ، وكنت عندها ما تزالُ تخطو أولى خطاك ولا تقوَى على قراءتهما ؛ ولكني تمنّيتُ لك حتى تشبّ .

والآن وقد شببتَ عن الطوق ومضيتَ تخوضُ مُعْترك الحياة أضمّ إليهما كتابي هذا الذي يصف لك مصر في الماضي غير البعيد على لسان بعض المؤرخين والأدباء والفنانين ، منهم مَن هو مُغرض ومنهم مَن هو مُنصف . ولسوف تقرأ هذا كله لترى أين سيكون مكانك في حياة مصر ، وكم أتمنى أن تكون من بين من تنشدهم مصر للنهوض بها إلى مصاف الأمم الحضارية الراقية .

ثم ما أحْرَصَني هنا على أن أفصح لك عما يُكنّه لك قلبي من حب فياض غامر وما يُجنّه لك خاطري من أمان .

ثروت عكاشه

شكر

أول من أتوجّه إليه بالشكر عن ذلك العون الكريم الذي لقيته من تيسير لي بالاطلاع وتزويد لي بالمراجع النادرة وتمكيني من تصوير ما أردت من لوحات هم : المرحوم الأستاذ الدكتور **عبد العزيز صادق** مدير عام مركز تسجيل الآثار بالقاهرة ، والأستاذ الدكتور **حمدي السكوت** رئيس قسم الدراسات العربية بالجامعة الأمريكية ، والسيدة **ليزلي ويلكنز** مديرة مكتبة الكتب النادرة بالجامعة الأمريكية سابقا ومساعداتها السيدات **نادية عبد السلام علي** و**ناهد مصطفى** و**نهال تمروز** ، والدكتورة **بول بوزنر** مديرة المعهد الفرنسي للآثار سابقًا. والدكتور **نيكولا جريمال** المدير الأسبق للمعهد الفرنسي ، والدكتورة **ضياء أبو غازي** مديرة مكتبة المتحف المصري للآثار . والمرحوم الأب **جورج قنواتي** عن مكتبة دير الرهبان الدومينيكان بالقاهرة . وكذا السادة السفراء **سميح أنور** و**جمال منصور** و**يحيى حسن** و**عزيز حمزة** و**كمال عبد الرحمن إبراهيم** لإذنهم لي بتصوير اللوحات المحفوظة بالنادي الدبلوماسي . وهذا إلى السادة أمناء متاحف الحضارة ومحمد محمود خليل وحرمه والأمير محمد علي بقصر المنيل .

ثم لا أنسى أن أخصّ بالشكر هؤلاء الأصدقاء الأوفياء الدكتور **مجدي وهبه** رحمة الله عليه والدكتورة **فاطمة موسى** والمستشار **أحمد لطفي** والمرحوم الأستاذ **محمد البخاري** الذين تفضلوا فقرءوا النص وأمدّوني بما عنّ لهم من رأي سليم .

ولا يفوتني أن أزجي الشكر خالصا للفنان **هبة عنايت** والأستاذ **عبد الله عبد اللطيف نصر** والدكتور **طارق سويلم** على ما قاموا به من تصوير بعض لوحات الكتاب .

يشكر المؤلف متحف المتروبوليتان بنيويورك لتفضله بالموافقة على نشر صور بعض مقتنياته في هذا الكتاب حسب ورود قرين كل صورة .

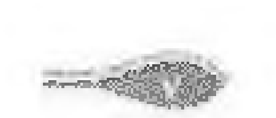

كلمة أولى

اتخذت مصر قرارها الجسور بإنشاء السدّ العالي في أسوان عام ١٩٥٤ . وكانت إقامة هذا السدّ إيذاناً بخلق بحيرة فسيحة من المياه تغمر منطقة النوبة الزاخرة بآثار حضارتنا العريقة التي شدّت إليها عيون العالم على مرّ العصور . وفي أواخر عام ١٩٥٨ كنت أحمل مهام وزارة الثقافة التي كان من مسؤوليتها الأولى الحفاظ على آثارنا القديمة بوصفها جزءاً مُهماً من تراث الحضارة الإنسانية .

وكانت الصورة وقتذاك : خطوات جادة تجري لإنشاء السدّ العالي ، وتسجيلات لآثار النوبة، وأيد مكتوفة أمام الخطر المحدق بآثار النوبة الغالية ، وحيرة عميقة في النفوس أمام هذا التساؤل. كيف لثورة يوليه ١٩٥٢ أن تشتري رخاء المستقبل بالتفريط في معالم خالدة من تراث الماضي ؟ وكيف يكون مستقبلنا مُشرقا إلا إذا كان امتدادا لماضينا العريق ؟ وهل يمكن أن يتحقق النمو الاقتصادي دون وعي ثقافي ؟ وهل يكتمل الوجه الحقيقي لثورة يوليه إذا شيّدت السدّ العالي الذي يهدف إلى رفع مستوى معيشة الإنسان المصري المعاصر دون أن تحافظ على أسمى ما أبدعه الإنسان في تاريخه البعيد؟ وهل يتألق وجدان إنسان الحاضر إذا وجد ما يُشبعه من ماديات دون أن يجد إلى جانبه ما يُشبع حسّه من روحانيات ؟ ومع كل يوم يقترب فيه وداع آثار النوبة كان الاحساس يتضاعف بوجوب عمل أي شيء من أجل إنقاذها حتى لا يأتي هذا اليوم أبدا. فبقاء هذه الآثار بقاء لميراث قومي عالمي خالد، وفقدانها فقدان لجزء هام من تاريخ الإنسان عامة وتاريخ مصر خاصة .

وحين وقفتُ أستعرض آثار النوبة متطلعًا إلى معبدي أبي سمبل المنحوتين في جوف الجبل ثم متأملا معابد فيله متخيّلا المياه وقد ابتلعت هذه الآثار التي ظلّت شاهدا مهيبا على عبقرية الإبداع المصري في فجر التاريخ البشري أحسستُ حسرة تملأ نفسي وتدفعني إلى التشبّث بهذه الآثار وراودني ما يشبه الحلم الأسطوري ، وتراءى لي وأنا موزّع النفس بين عالميّ الصحوة والغفوة أن يدًا عملاقة تنغمس في أعماق التربة وتزحزح هذه المعابد الهائلة من مرقدها وتصعد بها إلى قمم الجبال حولها ، وتترك لمياه السدّ مكانا تتماوج فيه على هواها . وعلى الرغم من إيماني بأن هذا الحلم أقرب إلى عالم الخيال منه إلى عالم الواقع، ومع علمي بأن حكومتنا مشغولة بهموم فك قيود الفقر عن ملايين المواطنين بما لا تحتمل معه أن توفّر من مالها وطاقتها المحدودين ما ينقذ للبشر تراث أسلافهم القدماء ، أخذت نفسي تسترجع ذكريات فترة أثيرة من حياتي حين أمضيت ما

بنوف عن سنوات ثلاث أعمل ملحقاً حربياً بسفارتنا بباريس كنت أتابع خلالها بشغف وإعجاب نشاط منظمة اليونسكو الوليدة وقتذاك والتي كانت تشغل وقتذاك مبنى قريباً من سفارتنا، مؤمنا إيمان المتفائل بما يمكن أن تحققه هذه المنظمة السامية الأهداف من خير للبشرية في ميادين الفن والثقافة والجمال . وتساءلت بيني وبين نفسي هل يمكن لليونسكو أن يكون لها دور في إنقاذ آثارنا؟ فقد رسخ في يقيني أن هذه المنظمة المنبثقة عن الأمم المتحدة والتي ينص ميثاقها على صيانة الآثار الفنية ذات الأهمية التاريخية هي الباب الوحيد المتاح الذي لابد أن نطرقه أملا في إنقاذ تلك الروائع على الصعيد الدولي ، فهي القادرة على تفهّم المخاطر الجدّية على هذا المستوى من الرصيد الثقافي للإنسانية . وإذ كنت وقتها أعيش في عذاب القلق الذي يبعثه الإحساس بمواجهة «المستحيل» تساءلت لماذا لا نمنح «المستحيل» فرصة كي يصبح محتملاً .. أو أملاً ، فاتصلت بالمسيو رينيه ماهيه نائب المدير العام لليونسكو أدعوه للقائي بالقاهرة . وحين وصل طرحت بين يديه الفكرة التي سكنت نفسي بإعداد مشروع لإنقاذ هذه الآثار تتبناه منظمة اليونسكو وتدفع مصر ثلث تكاليفه بينما يسهم عشاق الفنون في مختلف ربوع العالم بالثلثين الباقيين . وكنت شديد القلق بينما أقترح عليه أن تعد منظمة اليونسكو حملة دولية لإنقاذ هذه الآثار تجمع فيها المساهمات المادية والعلمية التي لم أشك في أن الهيئات الثقافية في العالم ستبادر بتقديمها . وكان مما أثار حماسته إقناعي له بأن مقترحاتي هذه تكاد تكون بمثابة هدية إلى اليونسكو تذيع معها لو أنها تبنّتها شهرة المنظمة لتتطرق إلى وجدان كل فرد من أفراد البشر . ثم هي لا شك سابقة للمنظمة سيكون لها ما وراءها ، وهذا ما حدث فعلاً إذ ما كادت منظمة اليونسكو تفرغ من هذا المشروع حتى شاركت في غيره . ودارت المناقشة ساعات ثلاث، وإذ هو يبعث في نفسي الأمل حين همس في أذني بالمثل القائل «إن الحياة إلى زوال ولكن الفن خالد»(*) .

وقد شاءت الأقدار أن أطالع وقتذاك كتابا اجتذبني عنوانه الأسر هو «موت فيله» (١٩٠٧) للأديب الفرنسي الشهير «بيير لوتي» الذي يحكي فيه بحسرة مريرة عن أطلال المعابد المصرية القديمة بنبرة حزينة كاشفا عن أمجادها الغابرة ، ثم ينهي حديثه مستصرخا المصريين أن يهرعوا إلى الحفاظ على تراثهم الخالد كي يبقى نبعا ثرا تستلهمه البشرية إلى الأبد . ومن هنا مضيت أشرح لرينيه ماهيه قضية إنقاذ آثار النوبة وفي أعماقي طمأنينة مستقرة ، لأني كنت أحس وأنا أحتضن كتاب بيير لوتي بين يدي أن يرفقني داعية قدير النفس القضية التي باتت أهم شواغلي على المستويين الحضاري والوظيفي . وفي ثقة عميقة قدمت نسختي من كتاب «موت فيله» إلى رينيه ماهيه لتكون رفيقة رحلة عودته إلى باريس . وكانت ثمرة هذا اللقاء - دون دخول في التفاصيل - طلب وزارة الثقافة من منظمة اليونسكو في أبريل ١٩٥٩ إمدادها بالعون الفني والعلمي والمالي

* انظر لكاتب هذه السطور :
١ - إنسان العصر يتوّج رمسيس. الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧١ .
٢ - **Ramès Recouronné Hommage Vivant au Pharaon Mort.** "UNESCO" 1974.
٣ - **مذكراتي في السياسة والثقافة**. الفصل السادس . الطبعة الثالثة دار الشروق ٢٠٠٠ .

لتحقيق الأعمال التي يتطلبها إنقاذ تراث النوبة، ثم إصدار منظمة اليونسكو لندائها إلى مثقفي العالم في ٨ مارس ١٩٦٠ للإسهام في إنقاذ آثارها النوبة . وهكذا بدأت الحملة الدولية التي مكنت مصر من نقل آثارها من موقعها الذي كان يهددها فيه الغرق إلى قمم الجبال المحيطة ، وكُتب لمعابد مصر أن تلوذ بالخلود دون أن يتعثر أو يتأخر بناء السد العالي الذي كان ضرورة تمليها حاجات شعب طموح إلى التقدم والرخاء .

ومنذ ذلك الحين حرك كتاب «موت فيله» لبيير لوتي في نفسي رغبة إلى التعرف إلى ما كتبه غيره من الأوربيين عن مصر والمصريين خلال القرن الماضي ، فكانت جولتي بين عدد من كتب الرحالة والكتاب والشعراء والفنانين الذين زاروا مصر خلال القرن التاسع عشر فألهمتهم معالمها وآثارها وعادات شعبها تلك الأفكار التي فاضت على أقلامهم وفرشاتهم فكتبوا وصوروا .

وقد وجدت بين ثنايا ما قدمه هؤلاء الكتاب والفنانون ما هو جدير بأن أنقله إلى القارئ العربي . ولم يكن من اليسير أن أقدم في مثل هذه العجالة المتداولة غير عدد محدود من أهم ما اجتذبني من آثار الكتّاب ولوحات الفنانين . وفي الحق إن اللوحات المصوّرة تنبئ في وضوح عن جمال وادينا وعراقة آثاره وطباع أهله وأعرافه أصدق تعبير وأحسنه في حين جاءت كتابات الرحالة متنوعة ، منها ما يحمل وداعة تلك الصور الهادئة ومنها ما يشتط في سخريته اللاذعة .

وقد تخيّرت لهذه الدراسة جملة من أبدع اللوحات المصوّرة منها ما هو مطبوع بطريقة الحفر على الحجر أو على الأسطح المعدنية، ومنها ما هو تصوير بالزيت، ومنها ما هو تسجيل فوتوغرافي حين نشأ في منتصف القرن التاسع عشر، بذلت جهودا في سبيل الوصول إلى بعضها وأن أسعى إليها باحثا عنها في كل مكان تقع فيه . وبهذه المحاولات استطعت أن أضع بين يدي القارئ هذه المجموعة من الصور الشائقة والنادرة التي لم يسبق لبعضها أن نُشر .

وأرى من واجبي أن أتوقف هنا لأسجل تحية تقدير لرجل بارز من رجال مصر المخلصين ندين له بالعرفان وهو محمد محمود خليل بك رئيس مجلس الشيوخ السابق الذي امتاز إلى حسه المرهف وولعه الشديد بالفنون بقدرة لا تجارى في العطاء والسخاء ، إذ كان كلما وقع بصره في أوروبا على لوحة مشهورة مصوّرة لفنان من كبار مصوري القرن التاسع عشر عن مصر والمصريين سعى لاقتنائها مهما كلفه ذلك من ثمن ، لا يأبه لما أنفق قدر حرصه على أن يزود المؤسسات والمتاحف والنوادي بكل ما يحتفي بمصر والمصريين ويكشف عن تاريخهم السالف . ولقد أهدى قبل مماته إلى نادي محمد علي [النادي الدبلوماسي الآن] كل ما جمعه عن مصر والمصريين من نتاج

مصوري القرن التاسع عشر الاستشراقيين، وهو ما سنلمس بعض أثره في بعض اللوحات المعروضة في هذا الكتاب، كما أوصى بأن تؤول مجموعته الفنية الخاصة بما تضم من روائع المدرسة الانطباعية الفرنسية إلى متحف قومي يحمل اسمه واسم زوجته. كان لي شرف الاضطلاع بتنفيذ وصيته وافتتاح متحفهما في ٢٣ يولية ١٩٦٢ بحكم مسؤوليتي وزيراً للثقافة.

وقد حرصت على أن أعرض من الصور ما فيه إشارة إلى ما جاء على ألسنة الرحالة من وصفهم لما تقع عليه عيونهم أو ذكرهم لعادات أهل البلاد، لهذا قد يكون من اليسير على القارئ أن يربط بين ما جاء مصوّراً وما جاء مدوّناً. كذلك أوردت إلى هذه الصور نماذج مما استهواني من أقوال الرحالة والأدباء المعاصرين لهؤلاء الفنانين فرنسيين وإنجليز، قُمت بنقلها إلى العربية بتصرف لا يُخفي ما تنطوي عليه أحياناً من مودة صادقة وما تزخر به أحياناً أخرى من نقد لاذع أو تشهير ماكر أو تجريح سافر. ولا يهولن القارئ ما قد يجده على غير ما يرضى من تناول من تاريخه؛ فلابد له من أن يعرف ما يُقال عنه من مدح وما يقال فيه من قدح، فليست كل الألسنة ولا كل الأقلام سواء، وإنما هي نظرات مختلفة منها المادح ومنها القادح ولكل نزعته التي يُملي عنها. وعلى المرء أن يعلم هذا كله ليستوي بين يديه تاريخه، فالتاريخ ليس إطراء فحسب بل لا معْدَى إلى جانب الإطراء من كلمات قد تبدو لاذعة، والتاريخ ليس صفواً كله بل قد ينطوي على ما يعيب وما يشين. ولست أعني أن كل ما قيل من مدح لا يخلو من غلوّ وأن كل ما قيل من ذم لا يخلو من تحامل، وعلى القارئ وهو يطالع هذا وذاك أن يميّز بين ما هو حق أو باطل سواء أكان إطراء أم ذماً، وبهذا الإحساس الذي أنشده من القارئ لا يضيرني ما قدمت، فإني قد تركته وحده على التمييز أضع ما جمعت من هنا ومن هناك من شتى المراجع والمصادر في المكتبات لتحليله والمتاحف، ثم ما حفزتني أحاسيسي إلى التعقيب به من رأي أو تذييل أو تعليل.

ولا ريب أيضاً أن هذا وذاك جزء من تاريخ مصر وإن كان قد كُتب بأقلام غير مصرية وصُوِّر على أيدي مصوّرين غير مصريين، ومن هنا تنبع أهمية مطالعته والإلمام به. فالمرء كما هو مطالب بأن يرجع إلى ما كُتب عنه بأقلام أهله جدير بأن يرجع كذلك إلى ما كُتب عنه بأقلام الغير، فبهذا وذاك يتكامل التاريخ، وفي تجاهل أحدهما انتقاص من كماله. على أني حرصت على أن أقدم شهداً على أحداث هذه الفترة إلى جوار الرحالة الأجانب نُتفاً من حوليات أديب مؤرخ مصري معاصر لهم هو عبد الرحمن الجبرتي تكشف طريقته ونهجه في الكتابة عن أسلوب العصر في التعبير الأدبي مما يتيح لنا أن نستشف عمق الأدب السلفي في نفس الوقت الذي ترتشف فيه عيوننا القيم الجمالية المعمارية والعادات والتقاليد السائدة في مصر خلال تلك الفترة. كما يتيح لنا

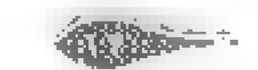

بالإضافة إلى ذلك التعرف على واقع مصر في عيون سائحيها ومن صورتها في عيون الرحالة العابرين على أرضها. ولا شك في أن التقاط ملامح من هنا وبصمات من هناك كفيل بأن يزوّدنا بوصف صادق لمصر وأهلها في هذا الماضي القريب. وتلك هي المتعة الوجدانية التي حرصت على ألا أستأثر بها وحدي وأن أضعها بين يدي قراء التاريخ وذوّاقة الأدب وعاشقي الفن والمعجبين بتراث مصر العريق.

ويضم ثبت المراجع المؤلفات التي رجعت إليها وأخذت عنها واقتبست منها، ولكن لا يفوتني هنا أن أنوه بكتاب Voyageurs et Écrivains Français en Égypte للأستاذ جان ماري كاريه الذي يعد من رواد هذا الميدان. ميدان الرحالة الفرنسيين إلى مصر. ولقد استأنست بالكثير من إشاراته إلى المنابع التي استقى منها كتابه ونقلت عنه نصوصاً مع تحوير في الأداء حيث تقتضي الموقف، وأشرتُ إلى ذلك في أمكنته من كتابي هذا. ومع أن الأستاذ كاريه قد استوعب جميع المراجع التي تناولت هذا الموضوع إلا أن هذا لم يمنعني من الرجوع إلى تلك المراجع علّي أجد مزيداً أضيفه، وقد وجدت هذا المزيد. كما رجعت إلى مراجع أخرى غير التي ذكرها مما ظهر بعد عام ١٩٣٢ وهي السنة التي ظهر فيها كتابه، وأشرتُ إلى هذا أيضاً في موضعه.

وقد ضممتُ إلى هذه الطبعة [illegible] ولوحات مصورة لم ترد في الطبعة الأولى، إثراءً لمضمون الكتاب، لاسيما موضوع التصوير الاستشراقي الذي رأيت أن يكون جامعاً لكل ما في العالم الإسلامي من مغربه إلى مشرقه [مراكش والجزائر وتونس ومصر والشام وتركيا]، أدباً ورحلة وتصويراً لما لهؤلاء الأدباء والرحالة والفنانين من تجربة وخبرة عن تلك الأقطار، بعد أن داستها أقدامهم وعاشوا بين أهلها.

وبعد فليس كتابي هذا غير باقة [illegible] من حدائق الأدب والفن [illegible]، فقطفتُ أوراقها على هواي ونسقتها بما [illegible] أُشبع [illegible] في خاتمة [illegible]
[illegible] جميعها

ثروت عكاشه

المعادي في ٢ ابريل ١٩٩٩

مَنْ يُمعن النظر في نظام المماليك وما جرى عليه يجد [illegible] هذا النظام لم ينشأ على غرار غيره من النظم الأخرى بل كان له نهجه الخاص وصبغته الجديدة ، أملته الظروف المحيطة وشكّلته البيئة بمختلف متطلباتها حين اضطربت الحياة الاجتماعية في ظل الخلافة العباسية اللاحقة وساد فيها العنف والقسوة وأخذ الأمور غلابا ، حتى باتت السادة وأمراء [illegible] بعضهم بعضا ويصارع الفريق منهم الفريق الآخر على الرياسة واحده في حاجة إلى ما يشدّ أزرهم [illegible] ساعدهم من غير [illegible] انعكس على فلاحة الأرض والاهتمام بأمور الحياة . كان السادة في حاجة إلى نفر ممن احترفوا القتال وعشقوه ووهبوا حياتهم من أجله . وهكذا حدثت [illegible] الحكام إلى المماليك الذين وجدوا في ميدان القتال متسعا لكسب هيبته لهم فتوتهم وقواهم البدنية في عهد الخلفاء العباسيين المتصارعين الذين [illegible] فاشتروا من المماليك مَنْ سمحت نفسه بهذا الشراء واستأجروا منهم مَنْ [illegible] الكراء . فكانت جيوش الخلفاء [illegible] وهم من هؤلاء الجند المرتزقة الذين دخلوا الحياة الإسلامية لينصروا خليفة على خليفة لا حبّا في إقامة عدل ولكن طمعا في مال وجاه وحياة أكثر رغدا .

ولقد نشأ المماليك عازفين عن حياة الاستقرار [illegible] أنهم طائفتان : طائفة البدو المقيمين [illegible] في الحقول وقد أنسوا أنهم على كدح هؤلاء الزرّاع يعيشون .

وقد واتت الخلفاء فرصة استجلاب هؤلاء المماليك حين عمّ الجدب أواسط [illegible] التركية [illegible] عبر الآفاق فردا ثمة مجالات في أشدّ تعود إلى قواهم وسواعدهم المفتولة فهجروا مواطن ضاقت بهم إلى مواطن اتسعت لهم وأسبغت عليهم من واسع رزقها . فكان من هؤلاء المهاجرين النازحين عن أرضهم فرسان رحبت بهم أرض الخلافة الإسلامية وحملتهم جندها الذين لم [illegible] بكثير من [illegible] . [illegible] يحدثنا عن بعض منهم وقد أعان الخلفاء بعض [illegible] مكانهم غيرهم حتى باتوا هم السلاطين الذين يملون كلمتهم ولم يعد للخلفاء من [illegible] معهم شيئا . ولم يكن من بين هؤلاء من تهديه عقيدة أو حضارة أو تؤهّله موهبة عقلية ، بل كانوا جميعا على مواهب بدنية اكتسبوها مع معاركهم التي كانوا يشنّونها بعضهم على بعض فوق أرضهم الأولى ، [illegible] سرعان ما حذقوا فنون الخداع والسياسة والمشاركة في شؤون الحياة

وكان لمصر موفور نصيبها من هؤلاء المماليك الذين حفرهم إليها ما كانوا يستمعون إليه وهم يسمرون ليلا حول نيرانهم الموقدة من الحطب من الرحالة العابرين الذين كانوا يعودون إليهم بالأحاديث المستفيضة عن خيرات مصر وما يصحبه من [illegible] وما يلقى من سيقوهم إلى مصر وما لقيه [illegible] من عيشة وصحة . فشجعت تلك الأحاديث من لهم هم على الرحيل ودفعت الآباء إلى أن [illegible] وسعوا بهم نحو الرقيق بكل من يشتري لا يغالون في أثمانهم ، بل كما حدثنا التاريخ أنهم كانوا أزهد ما يكونون في الثمن طمعا في ثراء واسع عريض سيحققه الأبناء حينما ينزلون أرض مصر مملوكين ليغدوا بعدها على أرض مصر مالكين . وبهذا رأينا كيف اتسعت تجارة الغلمان الذين جُلب منهم على أيدي تجار الرقيق جمعات كبيرة ورفاقات كثيرة زحموا هذا الوادي على أبنائه وسدّوا عليهم منافذ الحياة لا سيما تلك المنافذ التي كان ينبسط في ظلها العزّ والجاه ، وبهذا قنع السادة بما يُجلب إليهم من هؤلاء العبيد ولم يعودوا يحملون أنفسهم مؤونة شن الغارات لتظفر بالأسرى والسبايا والأمان . وحين استقر بهم المقام على أرض مصر ووجدوا في خيراتها ما يُغنيهم ، ووجدوا ما انتهوا إليه من حياة السيادة والتسلط بعد أن غدت الأمور ملك يمينهم ركنوا إلى شيء من الدّعة .

وعلى حين كان الرقيق الأسود يسمّى «عبدا» سمّي الأبيض «مملوكا» ، ومع مرّ الزمن أخذت أثمان المماليك تهبط ، فبينما بِيعَ الظاهر بيبرس بثمانية دنانير ثم رُدّ إلى بائعه لاكتشاف سحابة على إحدى عينيه الزرقاوين ، كان بعضهم يزهو بارتفاع الثمن الذي دُفع فيه ، بل إن منهم من أضافه إلى قائمة ألقابه مثل السلطان قلاوون [المملوك الوحيد الذي أسس أسرة تتوارث المُلك] الذي سمّي [illegible] الألفي نسبة إلى الثمن الذي دُفع فيه وهو ألف دينار ، ولو أن سلطانا آخر لا يقل شهرة عنه هو [illegible] لم يزد ثمنه عن خمسين دينارا . ويقول إيمانويل بيلوتي [الفينيسي المقيم بكريت والذي استقر عام ١٤٠٠ [illegible] فوق سطح الأرض] [illegible] تعرفه كبيرة من أحجامهم ، [illegible] لم يحد منهم [illegible] وثلاثين ومائة وأربعين دوقاتية ، [illegible] ما بين مائة وعشرة ومائة وعشرين ، [illegible] دوقاتية ، على حين يتراوح ثمن الصقلي أو الألباني ما بين خمسين وثمانين دوقاتية ، كما قدّر بيلوتي عدد المماليك في قصر السلطان بحوالي خمسة أو ستة آلاف مملوك .

ولقد لعب هذا النظام دورا حاسما في حماية مجتمع كانت تتهدّده من الشرق والشمال مطامع المغول والصليبيين . ولما كان الهدف من شراء المماليك هو القتال ، فقد أثبتوا بفروسيتهم وبطولاتهم جدواهم ، إذ كانوا عند حسن ظن سادتهم في الحفاظ على عروشهم وفرض هيبتهم ومدّ سلطانهم ، غير أنهم لم يظفروا بنفس التقدير من جانب الشعب المصري بالرغم من أن بطولتهم القتالية واستبسالهم هو الذي جنّب القاهرة المصير المفجع الذي لقيته بغداد على أيدي المغول بقيادة هولاكو ثم تيمور لنك من بعده . وبالرغم من خورهم وتعسفهم إلا أنهم كانوا رعاة لفنون التي لم تشهد مصر لها مثيلا منذ عهد البطالمة ، فإليهم يرجع الفضل في حشد سماء القاهرة بالمئات من المآذن الرشيقة والقباب البديعة . وكم حار المؤرخون في تعليل ازدهار الفنون على يدي مثل هؤلاء البرابرة ، فكتب ستانلي لين-بول عام ١٨٩٣ قائلا : «كيف نفسر مثل هذه الصحوة من [illegible] المتزعة نفوسهم تمرّدا وغدرا والذين وفدوا على مصر رقيقا لاحتراف القتال وسمحت الدماء أن يصبحوا ملوكا رهيفي الحس أمام الفنون ، فتقام على أيديهم صروح تشكل أمجادا

عدة لأي حاكم متحضر يعتلي عرشا شرعيا ؟ فعلى الرغم من همجية خلقهم وطباعهم اتسمت العمائر والزخرف والأربطة وقطع الأثاث التي أُنجزت في عهدهم بذوق جمالي لا يبارى» . ولا يجد لين-بول في النهاية تفسيرا لهذا التناقض إلا أنه «حرص البرابرة على الزهو والتباهي» . [illegible] البرابرة قد داسوا بقاع العالم كله دون أن يجري على أيديهم ما حدث في مصر وحدها ، [illegible] ما يثير في نفوسنا هذا التساؤل المشروع : لم لا تكون سمة [illegible] في صالحه [illegible] ؟ إن الذي يدفعنا إلى هذا القول أن علماء آخرين من أنصار [illegible] الأجناس خلال القرن التاسع عشر مثل الكونت جوبينو الفرنسي ومثل هوستون ستيوارت تشمبرلين الإنجليزي الذي تجنّس بالجنسية الألمانية فيما بعد ، حاولوا تفسير هذه الظاهرة بأن مهاجري أواسط آسيا وخاصة سكان القوقاز كانوا جنسا أشدّ قدرة على الخلق والإبداع من الشعوب التي حكموها . ولا شك أن هذه النظرية بعيدة عن الصواب ، ذلك أن الأتراك والشراكسة ليسوا من الجنس [illegible] الأوروبي الذي يؤثره الفلاسفة المتعصّبون للأجناس ، كما أن الصنّاع والحرفيين الذين شيّدوا هذه المساجد الرائعة وأنجزوا زخارفها الأسرة هم المصريون وحدهم الذين لا شك في أن مهارة أسلافهم الفراعنة وذوقهم قد استيقظا في أعماقهم فكانا متنفّسا لهم في ظل ما يلقونه من عنت المماليك واستبدادهم .

[illegible] ولعل أحدا لم يبدع في وصف عقلية [illegible] مثلما أبدع فولني ، ذلك الرحّالة الفرنسي الذي زار مصر قبيل اندلاع الثورة الفرنسية مباشرة عندما كان المماليك يحكمونها تحت الإشراف الاسمي للدولة العثمانية . وكان مجال شراء المماليك وقتذاك قد انفسح حتى شمل الولايات الواقعة على تخوم الإمبراطورية العثمانية وخاصة القوقاز ، فقد كان معظم المماليك أبناء أسر مسيحية باعهم آباؤهم لقاء ما يقدرون به من مال . ومع أن وصف فولني لطائفة المماليك جاء في فترة انحلالهم وتداعي دولتهم إلا أن ما سجّله عنهم في خاتمة القرن الثامن عشر جاء معبرا تعبيرا صادقا عما كانوا عليه من قبل في القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، إذ وصفهم قائلا : «إنهم خليط من الغرباء لا تربطهم رابطة الأسرة ، فهم بلا ماض يشدّهم ولا مستقبل يعملون من أجله ، يشيع بينهم الجهل والإيمان بالخرافات ، يدربهم القتل على الوحشية ، والمران على التمرد ، والتآمر على الغدر ، والرياء على النفاق ، والانغماس في شتى ألوان الملذات على الفساد . هذا إلى أنهم كانوا مدمنين على تلك الرذيلة التي كانت منذ زمن عار سمة الإغريق والتتار ، فقد كانت هي الدرس الأول الذي يتلقاه المملوك على يد مدرّب السلاح .

وما يكاد الفتى الذي بيع في إقليم الكرج أو غيره يصل إلى مصر حتى يتشكّل تفكيره تشكيلا ثوريا ، فثمة مستقبل زاهر بلا حدود يفتح له ذراعيه ، إذ يتضافر كل شيء لشحذ جرأته وطموحه ، ويراوده الإحساس بأن القدر يسوقه لكي يصبح سيّدا آمرا وهو ما يزال عبدا مملوكا ، وسرعان ما يتقمّص هيبة الشخصية التي سيكونها يوما ، ويزن حاجة سيّده إليه فيتقاضى ثمنا غاليا لخدمته وحماسته وولائه . وإذ كان المال هو الحافز الأول في هذا المجتمع فقد كان حرص السادة شديدا على اكتساب ولاء عبيدهم بإشباع جشعهم . ومن هنا كان الغلوّ في التبذير المخرّب لاقتصاد مصر الذي مارسه المماليك ، وهو ما كان السر وراء عصيان المماليك لبعض سادتهم بين الحين والحين ، ومن هنا كان تتابع الدسائس والمؤامرات دون توقف ، حتى إذا أُعتق المملوك

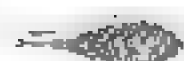

لوحة (١) جنتيلي بلليني
السلطان قايتباي

انفتحت أمامه أبواب الأمل وتعلّقت عيناه بأعلى المراكز ولِمَ لا ؟ و[illegible] المناصب [illegible] لا يربضون عنه شيئا [illegible] ، فهو لا يرى فيهم [illegible] السلطة إلا [illegible] القوة ، وما دام الحاكم قد انتزع مكانه بالقوة فإن في مكنته هو أيضا أن ينتزع [illegible] المكان ، ولن يكون أقل كفاية منه في فن الحكم الذي يتمثل في [illegible] بالسيف [illegible] .

وهكذا [illegible] يكاد المماليك يثبون إلى السلطة حتى يبرروا الحمايتهم عن طريق البطش ، [illegible] ما يعربون عن هيبتها ورموها بتشييد [illegible] ، [illegible] و[illegible] داع [illegible] «التوسيط» وهو شطر جسد الضحية شطرين من وسطه ، «والخازوق» الشهير . ويعلق د. موند ستيوارت على جزاء الخازوق في كتابه «القاهرة الكبرى» بقوله : إن مثل هذا التعذيب كان يذكّر السلطان على الدوام بأنه على حين أن المعجزات العينية يمكن أن تجتذب إعجاب الأجيال القادمة . [illegible] غير القوة وحدها حاميا له من أن تكون نهايته هو [illegible] أن يتربع على قمة الخازوق » . ومع هذا [illegible] هؤلاء [illegible] يلقون تدريبا جدا على ارتشاف المعاني الروحية للإسلام ، فما يكدون يصلون إلى مصر حتى يُودعوا ـ كما يشهد المؤرخ «بيلوتي» ـ في مبنى ضخم للتدريب مشيّد من عدة طوابق حيث [illegible] في قاعات فسيحة فوق حُصُرٍ من السمار ، ويشرف عليهم أساتذة من الأعوات يتعهد كل منهم فصلا يضم خمسة وعشرين غلاما يتلقون أصول العقيدة الإسلامية حتى يحل وقت النيل يُعرضون على السلطان لانتقاء النخبة المختارة من الجيل الجديد التي يضمّها إلى بطانته وحرسه .

[illegible] هناك ما يجعلنا نشك في إخلاص المماليك لعقيدة الإسلام ، ذلك أنهم إلى جانب حرصهم على التباهي باقتناء ثمين الجواهر وفاخر الأثاث و[illegible] قد حرصوا [illegible] على تشييد المساجد والسُّبُل والبيمارستانات التي كانت [illegible] تحفا معمارية شديدة [illegible] . وكان المماليك يقرّبون علماء الدين [illegible] المصريين من رجال الأزهر حرصا منهم على تدعيم سلطتهم بالنفوذ الديني واتخاذهم مظهرا شرعيا يؤمّن [illegible] ما يصدرونه من أحكام إنما يستمد شرعيته من فتاوى العلماء الأجلاء ورجال الدين فضلا عن أنهم [illegible] المصري إلى جانب الحكام [illegible] .

وكان الفاطميون هم أول من جلب المماليك إلى مصر في القرن العاشر ، ثم تبعهم السلاطين اللاحقون من الأيوبيين . وقد [illegible] المماليك الذين حكموا مصر حوالي ٢٥٠ عاما دولتين [illegible] دولة المماليك البحرية (١٢٥٠ ـ ١٣٨٢) وقد أسكنهم السلطان صالح الأيوبي جزيرة الروضة على بحر النيل وأشهرهم الظاهر بيبرس ، ودولة المماليك البرجية أو الشراكسة (١٣٨٢ ـ ١٥١٧) الذين أسكنهم السلطان قلاوون في [illegible] حول برج قلعة القاهرة . وقد أمضى قلاوون معظم فترة حكمه التي [illegible] أحد عشر عاما في حروب [illegible] . وكان يملك عددا من المماليك لا يقل عن [illegible] عشر ألفا [illegible] قادة [illegible] وتركاتهم [illegible] . وترك قلاوون اسمه حيا في ذاكرة [illegible] العدد الغفير من العمائر المتّسمة بالنفع والجمال التي خلّفها ، وأشهر

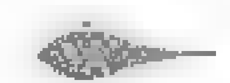

هذه العمائر مبناه الضخم الذي شُيّد بعناصر منتزعة من الأطلال والمباني القديمة [illegible] ليكون مجمعا يضم إلى جانب المسجد مدرسة ومكتبة عامة وموريستانا [مستشفى] ومأوى عَجَزة وضريحا وحديقة [illegible] .

[illegible] الحكام [illegible] المماليك [illegible] إليهم من [illegible] [illegible] كان مشكوكا فيه هو أنه انحدر إليهم من [illegible] المصرية [illegible] . فقد شيد الحكام المنحدرون من أصل تركي في وسط آسيا والهند والأناضول مثلما شيّدوا في مصر أضرحة ضريحية بديعة ، منها على سبيل المثال أضرحة جبانة شاهي زنده [illegible] شيّدها تيمورلنك [illegible] . و[illegible] الأضرحة [illegible] في [illegible] ، على حين كانت [illegible] الإسلامية [illegible] مثل جامع عمرو [illegible] طولون والمسجد [illegible] مكان [illegible] وتدريس [illegible] . فكان الأزهر [illegible] [illegible] حيث يحاضر الشيوخ طلبتهم إلى جوار الأعمدة المنتشرة هنا وهناك ، ثم أضيفت مساكن الطلبة الوافدين من مختلف أنحاء العالم الإسلامي . وما كاد المماليك [illegible] يتولون الحكم حتى باتت الأضرحة جزءا رئيسا من كيان المسجد الذي ظل مكانا للعبادة [illegible] وكان ما يُعقد حول الأضرحة من حلقات يُتلى فيها القرآن ويُعرض فيها تفسير [illegible] منه ما يرجو منه الحكام أن يمحو ما لهم من آثام وأن يسدل ستائر النسيان على ما كان لهم من [illegible] في زعمهم شآبيب الرحمة والمغفرة التي يرجون أن ينعموا بها في [illegible] الأخير . لهذا حرص هؤلاء الحكام الطغاة على أن يشيّدوا الأضرحة لتكون محط رحال تلك الحلقات التي معها [illegible] والسلوان .

وقد [illegible] المماليك البرجية الذين حكموا مصر من عام ١٣٨٢ إلى عام ١٥١٧ أضرحتهم على [illegible] المدينة المأهولة بالسكان في المنطقة القاحلة إلى الشمال الشرقي والجنوب الشرقي من [illegible] . ويرقد برقوق أول السلاطين الشراكسة في ضريح شيّده له ابنه [illegible] في القرافة [illegible] . ويعلو الضريح في جملته المسجد الذي شيّده برقوق [illegible] إلى جوار مسجد قلاوون [illegible] . ولم يقتصر استعماله على [illegible] فحسب بل كانت [illegible] [illegible] من بينهم المؤرخ المقريزي الشهير . وعلى مسيرة [illegible] من هذا الضريح [illegible] أعظم مساجد [illegible] هو ضريح [illegible] [illegible] المعماري [illegible] . [illegible] أنه جنتيلي بلليني دون أن يتأكد ذلك . صورتين شخصيتين تعدّان من الآثار النادرة [illegible] من أهم [illegible] العصر (لوحة ١ ، ٢)

[illegible] حين شيّد الفاطميون مدينة القاهرة لم يدر بخلدهم إلا أن يجعلوها معقلا لجنودهم وممرا لخلفائهم ، ومن ثم سوّروها وجعلوا لها البوابات المنيعة ولم يبيحوا سكناها إلا لمن ارتضوه [illegible] بها إلى أن اضمحلت دولتهم وأفلتت الأمور من أيدي حكامهم فتوقفت

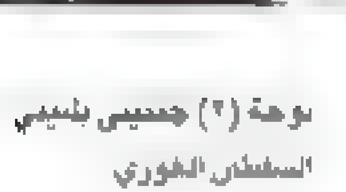

لوحة (٢) جنتيلي بلليني
السلطان الغوري

عليها من يشاء يبتني الدور ويشيّد القصور . وبزوال الدولة الفاطمية وقيام الدولة الأيوبية أُبيح سكنى القاهرة لجميع الأهالي وانبرت الدولة تجمّل العاصمة بغرس البساتين وبناء قصور النزهة .

ولقد تغيّرت قاهرة المماليك كثيرا عما كانت عليه إبان عهد الفاطميين ، ولعب نهر النيل الدور الأكبر في هذا التغيير ، إذ كان مجراه دائب الانحدار تجاه الغرب ، وهو ما أتاح لطمْيه أن يشكّل جزيرتين هامتين التصقتا بدورهما بالضفة الشرقية . وأولاهما هي بولاق التي تشكلت كجزيرة في صدر القرن الخامس عشر عندما كان المقريزي الذي كتب عنها يعيش بمسجد ضريح برقوق ، وقد ارتبطت بطريق معبّد يؤدي إلى الساحل القديم عند المقس [قرب قصر العيني الآن] . وكما حلّ ميناء المقس محل مرفأ الفسطاط القديم الذي عمره الطمي حلّت بولاق محل المقس . وبنهاية القرن الرابع عشر كانت المنطقة الواقعة خلف ساحل بولاق قد اتسعت مساحتها وغدت آهلة بالسكان إلى أن شُقّت قناة جديدة هي « الخليج الناصري » لتوصيل المياه إلى المزارع .

وصوب الشمال قليلا كانت ثمة سفينة تدعى « الفيل » قد غرقت أثناء العهد الفاطمي ولم يُنتشل حطامها ، فاجتذب هيكلها الطمي والرمال والأنقاض التي أخذت تتراكم عليها حتى شكّلت جزيرة ضخمة هي شبرا الآن لم تلبث أن استصلحت للزراعة في عهد صلاح الدين الأيوبي وصارت تدرّ دخلاً كبيرا فيما بعد حتى إن السلطان قلاوون أوقف عائداتها حين تولى الحكم للإنفاق على مدرسته ومورستانه . وفي نهاية القرن الرابع عشر التحمت هذه الجزيرة بجزيرة بولاق وشكّلا معا ضاحية زراعية لمدينة القاهرة تبعد عن قلبها بمسيرة غير قصيرة ، وتفصل القاهرة عن مصدر مياهها العذبة وشريانها الحيوي الذي يربطها بالعالم الخارجي .

وإذا كان الحج هو ذروة العام الهجري ، فقد كان فيضان النيل هو ذروة المباهج الدنيوية التي اكتسبت مع ذلك صبغة دينية ، فقد كان يقام له مهرجان شعبي كبير يفتتحه السلطان بالإنصات إلى تلاوة القرآن حتى تُمدّ مأدبة باذخة يجتمع حولها علية القوم وكبار العصاة ثم ينهض السلطان فيفتح السدّ لتتدفق المياه إلى الخليج .

وكان آخر سلاطين المماليك هو قنصوه الغوري [المعاصر لسيزار بورجيا] ، وهو السلطان السادس والأربعون بين المماليك عامة والعشرون بين المماليك البرجية ، حكم من سنة ١٥٠١ إلى ١٥١٦ ومات خلال معاركه ضد الأتراك العثمانيين الذين غزوا سوريا ومصر بقيادة السلطان سليم . والأتراك كما يصفهم أندريه سيجفريد في كتابه [سيكولوجية بعض الشعوب] هم : « أولئك المغول الذين لا يعدّون بحق من سكان حوض البحر المتوسط من ناحيتي الأصل والثقافة وإن بلغوا شواطئه وسيطروا عليه سيطرة تامة . وبالرغم من اعتناقهم الإسلام إلا أنهم ظلوا فيه كالغرباء ، وذهبت حصيلتهم في النواحي السياسية وضروب الفنون العسكرية أدراج الرياح على خلاف ما أحدثه العرب في هذه المنطقة » . وحينما زحف الأتراك مهددين نظام المماليك لم يبذل هؤلاء جهدا لتنظيم صفوف الشعب المصري لمواجهة هذا الغزو ، ولم يتفتق ذهنهم إلا عن العفو الشامل عن جميع السجناء من اللصوص والقتلة على أمل أن يشاركوا بما أوتوا من مواهب إجرامية في التصدي للغزاة . وقد اكتفى الشعب المصري عن حكمة أبية بالوقوف موقف المتفرج على ما يجري من معارك بين الغزاة القادمين والغزاة المقيمين .

ولم تكن مصر قد عرفت حتى السنوات الأخيرة من دولة المماليك حاجة لاستخدام الأسلحة النارية خلال الفترة بين غزوات التتار والفتح التركي - وهي الفترة التي تأصّل فيها استخدام الأسلحة النارية - إذ لم يكن ثمة تهديد خارجي على مصر يدفعها إلى طلب هذا السلاح من أوربا التي كانت على اتصال دائم بها . ثم إن تربة مصر لم تكن تنطوي على المعادن الأساسية لصب المدافع ، كما كانت الأوضاع الاقتصادية في مصر متدهورة نتيجة القحط والمجاعات والأوبئة . وعلى الرغم من ذلك فقد استخدمت الأسلحة النارية استخداما واسعا على عهد قنصوه الغوري ، بيد أن مصير دولة المماليك كان محتوما ليس فقط للتفوق الساحق للأسلحة النارية العثمانية بل لعجزهم عن استخدام الأسلحة النارية بكفاية ، وبخاصة أنهم عهدوا بها إلى وحدات أقل شأنا من الناحية الاجتماعية ، على حين بقي القسم الأكبر من المماليك الأصلاء بعيدا عن استخدامها . ومن ثم كان الموقف السلبي من الأسلحة النارية بالإضافة إلى الافتقار إلى الانضباط وتفشي النزعات الطائفية هي الأسباب الأساسية في هزيمة المماليك الذين كان جيشهم برغم هذه السلبيات ما يزال خصما قويا يحسب له أي جيش مزوّد بمثل أسلحته ألف حساب . ولو كان العثمانيون قد اشتبكوا معهم بالسيوف والأقواس والرماح لكان هناك شك كبير في انتصار العثمانيين عليهم ، ولو شاء المماليك استخدام الأسلحة النارية في القتال لبزّوا غيرهم ، ولكنهم أحجموا عنها احتقاراً لشأنها ولاعتبارهم أن طبيعة هذه الأسلحة تبتعد بها عن مبادئ الفروسية والخلق الحربي النبيل . وقد كشف ابن زنبل بأسلوبه الدارج عن هذه الحقائق بدقة بالغة في وصف المعارك التي دارت بين المماليك والعثمانيين في كتابه « فتح مصر » (١٢٧٨ هـ) حين قال : « إن النار لا يطيقها أحد ولم يستطع أحد أن يقف أمام ذلك . ومَن يقابل هذه النار المهلكة ؟ فلا قدرة لنا على عسكر الروم [الأتراك] وكثرتهم ونيرانهم . ولكن ما شتّت المماليك إلا هذه النار التي يرموننا بها ، فما يشعر الإنسان إلا وهو مضروب بها ، ولا يعرف من أي جانب جاءته . . وكان يجيء كل مدفع على نحو خمسين أو ستين أو مائة نفس فصارت تلك الصحراء [مرج دابق] كالمجزرة من الدماء . . فوجدوا الذي قتل من الشراكسة ألف نفس وأكثرهم من المدافع والبندقيات فلاقاهم الإنكشارية برشاش بندق خلّت الراقد أكثر من الواقف . وما قتل من الشراكسة أحد بالسيف والعود [الرمح] وإنما كان القتل فيهم بالبندق والمريزانات وآلات النيران على سائر الصنوف . . . وقد بقي منه قبضة ويكر كل واحد منهم مقوّم بألوف ، ولولا النار التي مع الروم لكف أنفسهم عن حريمهم » . وفي نهاية الأمر دارت معركة فاصلة دامت يومين بين طومان باي بقواته من البدو والمماليك وبين العثمانيين قرب الأهرام هزمت فيها الأسلحة النارية العثمانية المتفوقة شجاعة المماليك . ولقد شهد أهل القاهرة على مصير السلطان طومان باي الذي تولى السلطنة وقيادة مصر بعد مصرع قنصوه الغوري لأيام معدودة ولقي مصرعه هو الآخر شنقا على باب زويلة شنق صغار العبيد . وقد ظفر طومان باي بإعجاب المصريين لشجاعته وفضائله ، غير أن كثرة ما عانوه من ظلم المماليك وجورهم لم يترك في نفوسهم أملا بأن يستطيع سلطان بمفرده مهما كانت كفايته وتمسكه بالعصبية أن يخلّصهم من عسف هؤلاء الحكام الطغاة وجورهم . وقد راحوا يتأملون الغازي الجديد بعيون تحلم بصلاح الدين الجديد بينما هو يستعرض جنوده في طرقات القاهرة ، فدخل سليم من باب النصر يتقدمه المشاة والفرسان مجتازا القصبة الخالدة صوب باب زويلة في طريق عودته إلى

معسكره ببولاق . وكان هذا السلطان الضئيل الحجم الذي يخطو بقفطانه المخملي الفضفاض وعمامته الضخمة وسط زعانيف السنة في الأربعين من عمره محدودب الظهر حليق الذقن رمادي البشرة واسع العينين كبير الأنف كريه السحنة قلق النظرات ، بيد أن إفراطه في ذبح المماليك الشراكسة سرعان ما أثار غضب الشعب المصري السريع إلى المغفرة والتسامح ، فتحوّل شعوره إلى عداء ضد الغاصب الجديد الذي تخطّى جميع الحدود في تعقّبه للمماليك ، فلم تعد المساجد نفسها مأمنًا يحتمون فيه ، وبلغ عدد المماليك الذين جُزّت رؤوسهم على مشهد ومرأى من السلطان سليم ثمانمائة، فضلاً عمّن لقوا حتفهم خلال محاصرتهم لإلقاء القبض عليهم. وكان الجلاد يصنّف الرؤوس المفصولة عن أجسادها فيجمع رؤوس الشراكسة في كومة ورؤوس الخدم والعبيد في كومة أخرى . ولم تلبث رؤوس المماليك أن شُدّت إلى حبال لعرضها على الجماهير في الجزيرة الوسطى [الزمالك حاليا]، ثم قُذف بالجثث إلى قاع النيل . وغادر سليم القاهرة في ٩ مايو ١٥١٧ وقد جرفه الحنين إلى مناخ البسفور المعتدل بعد أن نزح معه الكثير من كنوز مصر التي انتهبها من المساجد والقلعة إلى جانب اصطحابه لألف وثمانمائة من أمهر العمال والصنّاع والحرفيين المصريين إلى إستنبول

وهكذا فقدت القاهرة على أيدي العثمانيين استقلالها السياسي والديني معا ، ولم يكن هذا وذاك إلا صفعة لكبرياء مصر وإن كانت في الحقيقة قد استبدلت لونا من الحكم الأجنبي بلون آخر . كما فقدت مصر على أيدي الأوروبيين ما هو أدهى من ذلك وأخطر وهو زوال مركزها الاقتصادي والإستراتيجي المسيطر . ففي مايو ١٤٩٨ في نفس السنة التي اكتشف فيها كولومبوس أمريكا أبحر ڤاسكو داجاما إلى كلكتا على الساحل الجنوبي الغربي للهند عن طريق رأس الرجاء الصالح . وهي رحلة لم تخف على السلطان الغوري خطورتها ، فقد أدرك رغم انشغاله بمشاكل مماليكه وتمرّد بدوه داخل البلاد وبوطأة العثمانيين على الحدود ، أن هذه الرحلة البحرية نذير شؤم على مصر ، ومن هنا كان سر زياراته المتعددة إلى السويس ومحاولته بناء أسطول لطرد الأوروبيين من مياه المحيط الهندي ، لأن التفاف ڤاسكو داجاما حول جنوب إفريقيا لم يكن مجرد رحلة بحرية مثيرة بل كان إيذانا بانفلات أوروبا من عزلة كانت مفروضة عليها بحكم وجود دولة المماليك القوية التي كانت الحاجز الحصين بينهم وبين [illegible] إلى الهند والصين ، إذ كانت دولة المماليك هي الوسيط التجاري الهام بين أوروبا والشرق الأقصى حتى إنها رفعت سعر التوابل الوافدة من الشرق إلى ثلاثة أضعاف ثمنها الأول فأحالت بذلك التوابل إلى ما يشبه الأحجار الكريمة ، ولا يخفى على أحد الأهمية التي يعلّقها الأوروبيون على التوابل والأفاويه لمذاق أطعمتهم . وقد تخطّى الأوروبيون هذا الحاجز كاسرين ذلك الاحتكار الذي لم يستطع السادة الجدد من العثمانيين الحفاظ عليه بله استرداده . فقد فقدت مصر أهميتها الاقتصادية بالنسبة للشرق لأوروبا . ومع فقد مصر لمركزها الإستراتيجي ولسلطانها السياسي ومصدر دخلها الأساسي فإنها لم تتحرر للأسف من سطوة المماليك الذين ما لبثوا أن عادوا يمسكون بخناقها ويجثمون على أنفاسها ، إذ كان الآلاف منهم قد بقي على قيد الحياة وأفلت الكثير منهم من المذابح الرهيبة التي حصرهم بها العثمانيون . ولم يجد السلطان سليم يوم ولّى وجهه شطر البلقان خيرا من المماليك الذين يمكن أن يعهد إليهم بجباية الضرائب بوصفهم الأداة المثلى للجور والعسف ، فعيّن أحد الباشوات لممارسة الحكم من القلعة يسانده خمسة آلاف من الجنود الإنكشارية المجندين من بين غلمان الصقالبة المسيحيين[1] ، كما شكّل ديوانا للمشورة لمساعدة الباشا مكون من الضباط العثمانيين وكبار رجال الدين . وفي نفس الوقت عيّن أمراء مماليك على ممتلكاتهم وحمل لقب سنجق [أميرا] لكل محافظة من المحافظات الإثنتي عشرة التي قُسّمت إليها مصر . وإذا كان المماليك قد كفّوا عن التطلع إلى تسنّم عرش السلطنة كسابق عهدهم إلا أن استحواذهم على حق جباية الضريبة [illegible] على البلاد قد منحهم التصرف لاستنزاف المصريين على هواهم [illegible] لم يعد هناك الكثير لاستنزافه كما كانت الحال من قبل ، إذ لم تعد مصر دولة ذات سيادة تتشعّب تجارتها مع دول العالم، كما ركدت سوق التجارة بها بعد أن غدت قبائل البدو تشكّل تهديدا سافرا . ويؤرّخ علي مبارك لهذه الحقبة في الخطط التوفيقية قائلا : «انحلّت عرى الضبط والسياسة ، واختل حال [illegible] الأمن ، وكثرت اللصوص وقطّاع الطريق حتى صاروا يدخلون البلاد للنهب جهاراً ليلاً ونهاراً بلا مبالاة . . . وكثرت الرشوة للحكام واتسع نطاقها حتى صارت أمرا معتادا . وجعل الحاكم همّه في جمع المال . يحتال بكل وسيلة لتحصيله . . . ولم يكن له أثر قط يُذكر به إلا تغيير زي اليهود والنصارى ، فألبس اليهود الطراطير السود وألبس النصارى البرانيط السود . . . كما فشا شرب الدخان بمصر ولم يكن معروفا قبل ذلك . وعمّ الهون أنحاء القطر وانحلّت الروابط بين الناس وخيّم الفقر وكثر القتل دون رادع ، فلا يقع بصر المار بشوارع القاهرة إلا على فقير في أسمال بالية مرقّعة أو على قتيل مجندل أو على إنكشاري أو أرناؤوطي ينهب أو على محتسب يجور ويظلم . فإذا رفع نظره إلى المباني لم ير إلا خرابا وأسوارا ، وإذا انتهى إلى أطراف المدينة لم ير إلا التلال والأكوام والأطلال تبكي على ما كان ، أما ما بقي من بيوت الأمراء والمساجد فقد صار مساكن للرعاع ومعاطن للدبغة ومرمى للأوساخ وملقى للسبخ »[2].

حدت القبضة العثمانية على مصر تتخاذل وتضعف، ومع تزايد ضعفها بدأت شوكة زعيم المماليك - الذي أصبح يدعى شيخ البلد - تقوى، كما استفحلت الصراعات بين فئات المماليك، وأسفر ذلك كله عن تدهور شديد حلّ بمدينة القاهرة . وخلال القرن والنصف التالي ازدادت عزلة مصر عن العالم الخارجي فلم يدر سكان القاهرة شيئا عن تفجر الاكتشافات العلمية المذهلة في أوروبا أو عن استعمار أمريكا أو عن اختراع المطبعة أو عن الاتصالات التجارية الحديثة بين أوروبا والشرق الأقصى . فعلى حين كان المسلمون هم الذين نقلوا الأرقام الهندية إلى الغرب وابتكروا علم الجبر وحافظوا على تقاليد مهنة الطب اليونانية إلا أنهم جهلوا ما أصاب هذا التراث من ازدهار على أيدي الورثة الأوروبيين ، كما كانت المجاعات والأوبئة تتوالى على المصريين حتى لقد افترس الطاعون وحده عام ١٦١٩ ستمائة وخمسة وثلاثين ألف نفس .

وقد خطّ الرحّالة ڤولني أنه بينما ترتفع معظم بيوت باريس خمسة طوابق فإن بيوت القاهرة لا تعلو أكثر من طابقين، وقدّر عدد سكانها بربع مليون نسمة وعدد سكان مصر بحوالي المليونين ويقول: «إذا قسنا مدينة القاهرة بمعايير القرن الثامن عشر الجمالية فلا شك أنها كانت تخطيطا غير متسق، إذ هي تفتقر إلى النسق المتعارف عليه لكل من المنشآت الحكومية والمنشآت الخاصة، وإلى الميادين الفسيحة المنتظمة وإلى الطرق المستقيمة التي تتيح للعمائر أن تكشف عن جمالها ، كما تحيط بأطراف المدينة التلال المتربة التي تتجمع فيها فضلات القمامة المتراكمة، والتي تتصاعد منها الروائح العطنة التي تزكم الأنوف إلى جانب مشهدها الذي يؤذي العيون . وأشدّ ما يثير نفور المرء هو أن يرى على مقربة من هذه الأكوام القذرة وثياب المارة المهلهلة مشهد فرسان الحكم والبكوات

(١) الإنكشارية فرقة متميزة [illegible] في الجيش العثماني كان أفرادها يجندون من بين الشبان المسيحيين تعلّمهم الأعاليم المسيحية خاضعة للأتراك [illegible] منذ نعومة أظفارهم على الولاء للسلطان ويتلقون تدريبا عسكريا خاصا ، وبلغ نفوذهم خلال القرنين ١٧ ، ١٨ حدا جعلهم ينصبون السلاطين ويخلعونهم وفق هواهم إلى أن قضى عليهم السلطان محمود في عام ١٨٢٦ في مذبحة باستنبول مترسّما خطى محمد علي في مذبحة [illegible] القلعة

(٢) انظر «الخطط التوفيقية» لعلي مبارك صفحة ١٤٨ ، ٣٠٠ الهيئة المصرية العامة [illegible]

يحظون في أرديه شديدة الأناقة والسرف، أولئك الذين يبترّون ثروات مصر التي تتكدس على أيديهم عاما إثر عام، فبات كل ما يراه المرء ويسمعه يحرك في نفسه الإحساس بأنه يحطو وسط بلاد تسودها العبودية والاستبداد ».

ويذهب فولني إلى أن المملوك كان يظفر بأكثر وأعلى مما ظفر به أي جندي على مدى التاريخ، فقد كان يحصل في شهر رمضان من كل عام على كسوة كاملة جديدة من أفخر الأقمشة الفرنسية والقيسية والدمشقية والهندية[٣]، ويتطلع تحقيق رغبته في اقتناء الجواهر والمسدسات والجياد العربية الأصيلة وشيلان الكشمير، كما كان يهدي حريمه جواهر الماس واللآلئ والزمرد وابتوب بعد أن سدت الترير أسواق في ترييب رؤوسهن وجيدهن، وكان مصدر الحصول على ثرواتهم التي يشترون بها هذه الحلي هي سواعد الفلاحين الكادحين. ولجأ المماليك إلى كتبة من الأقباط لتحصيل الضرائب منهم، فكانوا يمسكون سجلات لكل قرية يرصدون فيها ما يجمعونه من ضرائب يوردونها للخزانة، غير أن أمية الفلاحين كانت تتيح الفرصة للكتبة لاستغلالهم واستيفاء الضرائب منهم مرات، الأمر الذي كان يضطر هؤلاء الفلاحين أحيانا إلى بيع مواشيهم وأثاثهم بل وما يفترش على الأرض من حصير ونحوه سداداً لتلك الضرائب المتكررة التي كانت تثقل عواتقهم

كذلك وقعت الجمارك المصرية تحت سيطرة اليهود إلى أن قضى المملوك علي بك على نفوذهم عام ١٧٦٩، وحلّ محلهم النصارى الشوام. فقد استقر بمدينة القاهرة في مستهل القرن الثامن عشر عدد من الأسر الشامية بعد أن ترامى إليهم ما يمكن أن يحققوه فيها من ثروات خيالية فتضاعفت من ثم أعدادهم، وكان فولني يرميهم بأنهم أسوأ البشر خلقا لا ترتفع أخلاقهم إلى مستوى أخلاق المسلمين، ومع ما في سائر عباراته من قسوة إلا أنها قد تحمل بعض الصدق الواقعي مهما بدا فيها من سخرية لاذعة

وقد انحصر المركز الاقتصادي للقاهرة في شبه مستطيل طوله كيلو متر ونصف وعرضه نصف كيلو متر هو في واقع الأمر القاهرة الفاطمية، تلك الأحياء التي على جانبي القصبة ما بين باب الفتوح وباب زويلة [المتولي]، وكانت تتجمع في هذا المستطيل تجارة الدولية للبن والتوابل والأقمشة والنحاس والصابون والمرجان والأواني النحاسية والخردوات والصيرفة فضلا عن تجارة الترف وصناعة سلعها كالصاغة والجواهرجية والعقادين والقصبجية وصناعات العاج والكهرمان وتجار السلع الكمالية مثل الحلوانية والنقلية وكذلك الأنشطة الفكرية المرتبطة بالجامع الأزهر كالوراقة وبيع الكتب وبعض الحرف المتخصصة كصناعة الأثاث ونوع خاص من الأحذية كالخف والبلغ وتبدأ الأنشطة الثانوية بجوار هذا المركز لشدة اتصالها بما يدور فيه من أنشطة كالسكّرات والعرقسوس والصباغة التي تمركزت كلها بين القصبة والخليج. وبطبيعة الحال كانت تجارة الجملة تقع بالقرب من أبواب المدينة وكذلك الأنشطة الخطرة على الصحة العامة أو الملوثة للبيئة مثل مدابغ الماشية والمعاصر والمدابغ وصناعة الفحم البلدي وأفران الجص والجير ومصانع البارود (لوحة ٣ - ٤)

وقد استطاع الأستاذ المستشرق أندريه ريمون في كتابه « أصحاب الحرف والتجار في القاهرة في القرن الثامن عشر » تكوين فكرة عامة عن الهيكل الطبقي للمجتمع القاهري مستندا في ذلك إلى حجج الأوقاف وسجلات المحاكم الشرعية. فقدّم تقسيما رباعيا لا يفترق كثيرا عن التقسيم الذي سجّله المقريزي لمرحلة سابقة والتقسيم الذي أعدّه الأستاذ لوترل: فهناك طبقة عمال اليومية من فرّاشين وقوّاسين وسقّائين والمتجولين بالسحلب والعرقسوس والسوبيا ومسلكاتية الأرجيلات والحُصرية والدخاخنية. وهناك طبقة أهل الحرف الصغرى وأصحاب المتاجر الصغيرة

(٣) يقول علي مبارك في الخطط التوفيقية صفحة ١٣٥ ان بعض ... تكن عنده
جملة من الزركش والجوهر والذهب ... أن الواحدة منها تعوق جدا في المصاريف
فهي من الأطلسي الأحمر الرومي وتحته الأطلسي الأصفر والرومي وتحته الأطلسي الأصفر والرومي،
وعليها طراز وزركش ملعّب بكلاليب من الذهب وشاش ... رفيع موصول بعرقية حرير أبيض، ومرقوم عليه ألقاب السلطان، ومنقوش ...

لوحة (٣) روبرت هاي
صور وصفية للقاهرة، سوق
القشة والسجاد بالغورية

من القفاصين والإسكافيين أو القصرماتية والسروجية والفراجية. ثم أهل الحرف الوسطى كالمعمارية والسيرجية والصحافين والسكرية والعقادين والقصبجية والحريرية والنحاسين والبيطرية والسحارين والعطارين والنسبية والعاجية ودلالين العقارات والصدفية والمصطحية وأمناء خبز العبود والصاغين والقهوجية والخشابين والعصابين والفواسين [صناعة الأسهم] وشيخ القصبجية. وأخيرا طبقة التجار الكبار وعلى رأسهم تجار البن والتوابل والجواهر وتجار الأقمشة والأثاث وعلى رأسهم شهبندر التجار

وقد انتهى ريمون إلى أن المجتمع القاهري شهد في القرن السابع عشر والثامن عشر حركة تداخل بين طوائف الحرف والتجار والأثرياء وبين الطبقة الحاكمة والعسكرية الأجنبية من الأتراك، الأمر الذي أدى إلى تسمية هذه الطبقة الأخيرة «بالمصرلية» باللغة التركية نظرا لاندماجهم في الأسر المحلية. كما وصف العلاقة الاجتماعية التي تربط بين الأغلبية المسلمة في القاهرة وبين أقلياتها القبطية واليهودية، وكان المقريزي قد ذكر في خططه أن أكثر ما يتميّز به اليهود والنصارى هو كتابة الخراج والطب. كما يتميّز النصارى بلون ... في أوساطهم واليهود بعلامة صفراء في عمائمهم. وذهب إلى أن الأقباط ما لبثوا أن انضموا إلى بعض الطوائف الحرفية وانتموا إلى الأحياء المقصورة عليهم تقيلما مندمجين مع باقي السكان، على حين كان القرن الثامن عشر مرحلة تدهور اجتماعي بالنسبة لليهود بعد زحف سواد المسيحيين على كثير من الوظائف التي كان يشغلها اليهود وخاصة مصلحة الجمارك كما سبق القول. أما الشوام واليونانيون والأرمن فكان

لوحة (٤) روبرت هاي: صور وصفية للقاهرة: سوق الأقمشة والسجاد بالغورية

نشاطهم محدودًا [illegible] في هذه الفترة من تاريخ [illegible] مصر [illegible] تجارة
[illegible] والأخشاب [illegible] بيع الأسلحة [illegible]
على [illegible] مسجونون في الصيود .

وكما كان لأهل القاهرة أسواقهم كانت هناك أماكن لتجمّع المشعوذين كالحواة ومروّضي
القرود ، [illegible] حيث [illegible] الخيل والحمير [illegible]
[illegible] ومع مضي الزمن تحوّلت [illegible] إلى أكوام وعشش وأحواش
[illegible] ، وأحاطت بالمساجد أبنية قذرة شوّهت ما كانت له من بهجة .

وخلال هذه الفترة التي انطوت فيها مصر على نفسها وكان العالم الخارجي يحقق طفرات
واسعة ، [illegible] الإنجليز الذين كانوا أكثر توثبًا من غيرهم إلى أهمية موقع مصر ، كما جرى خيالهم
[illegible] [الإسكندرية [illegible] السويس] بوصفه أقصر الطرق إلى الهند التي
[illegible] سنة ١٧٧٩ [illegible] افترست قافلتهم قسوة
المناخ إلى جانب محاصرة البدو لهم وانتهابهم لتجارتهم فلم يصل منهم إلى القاهرة غير واحد
فحسب . وقد انعكس هذا الفشل على مركز إنجلترا التجاري في مصر الذي كان يدور حول بيع
الأسلحة [illegible]

وفي [illegible] فرنسا [illegible] في تاريخ [illegible]
[illegible] ولكن
[illegible] الهند [illegible]
[illegible] انتهاز الفرصة حين تسنح كي تحشد
[illegible] في حراسة استثماراتها على امتداد الطريق [illegible]

وكان فولني قد انتهى إلى أن عدّ المصريين جديرين [illegible]
ذلك أنهم في كثرتهم فلاحون كادحون يكابدون [illegible] في [illegible]
توجيههم أن يقيموا مجتمعًا أفضل [illegible]
حرمانهم من المعرفة . وشاء القدر أن يكون [illegible] هو أحد
قراء فولني المعجبين به . وكان [illegible] الشرق حتى [illegible]
الفرنسية موجزًا بخط يده لكتاب ماريني «تاريخ العرب» ، [illegible] من رسائله وأحاديثه أنه كان
مولعًا بأمجاد الإسكندر الأكبر بصفة عامة وبمصر بصفة خاصة . ولم يكد نابليون يقرأ كتاب
فولني الذي [illegible] موقعًا مثاليًا لتحقيق أطماع فرنسا الاستعمارية . شأنه
شأن [illegible] في وجدانه عطور الشرق الساحرة التي
استافها وهو في مدينة البندقية ، فشدّه الشرق إليه وأخذ يراوده في أحلام [illegible]

وكان يدرك استحالة غزو بلاد الإنجليز في عقر دارهم متفقًا في ذلك برأي مع [illegible]
[illegible] الذي تخفّف من ثوبه الكهنوتي ليتربّع إدارة سياسة فرنسا الخارجية . على أنه رأى [illegible]
[illegible] مصر ، تلك الولاية التابعة للإمبراطورية
العثمانية [illegible] ضربة لإنجلترا [illegible]
[illegible] أحلامه [illegible]
[illegible]

أهداف. واستولت عليه هذه الفكرة التي ألمّ بتفاصيلها إستراتيجيا وتكتيكيا وتاريخيا من خلال ما طالعه للكتّاب الكلاسيكيين والمعاصرين، ومن ثم كانت خطته لغزو مصر أول مرحلة من سلسلة مراحل الصدام بين أوروبا والشرق في العصر الحديث، معبأ خبرة المستشرقين المتخصّصة لخدمة الاستعمار لأول مرة كما أقدم في الوقت نفسه على تجنيد العلماء الذين صاحبوا حملته على مصر، وشكّل منهم «المجمع العلمي» الذي أعدّ الكثير من الدراسات حول شتى الموضوعات كما سيرد تفصيلا.

واستعد نابليون لتحطيم قوى المماليك في مصر كما حطّم قوى رجال الكهنوت في إيطاليا معتزما أن يحيل الإسكندرية عاصمة جديدة لإمبراطورية فرنسية تقود قارات العالم القديم الثلاث إلى مستقبل يرتكز على دعائم مبادئ الثورة الفرنسية. ومن الطبيعي أن يكون المرشّح لتسنّم عرش هذه الإمبراطورية هو صاحب الحلم: نابليون نفسه

وحين نجح نابليون في احتلال مصر عرف فيها على حد تعبيره هو أجمل سني عمره التي تشكّل المثال الذي طمح إلى صنع أيامه على غراره. وقد روى في مذكراته - التي أملاها على الجنرال برتران في منفاه بجزيرة سنت هيلانه - ما ذهب إليه فولني في كتابه من أن ثمة عقبات ثلاث لا مفر من التصدي لها كي تستتب لجيش فرنسا السيطرة على الشرق. وتتمثّل هذه العقبات في أن هذا الجيش مواجه بخوض حروب ثلاثة أولها ضد بريطانيا وثانيها ضد تركيا وثالثها وأصعبها ضد الأهالي المسلمين. وقد سلك نابليون مسلكا يؤكد تنبّه الكامل لوجهة نظر فولني، فما كاد يدخل مصر حتى بذل جهودا مضنية لاستمالة المصريين المسلمين، وكان أولها ذلك المنشور الشهير الذي طبعه ووزّعه على أوسع نطاق والذي يقول فيه حسب رواية الجبرتي في كتابه «عجائب الآثار»:

«. . بسم الله الرحمن الرحيم لا إله إلا الله لا ولد له ولا شريك له في ملكه، من طرف الفرنساوية المبني على أساس الحرية والتسوية بعرّف السر عسكر الكبير أمير الجيوش الفرنساوية بونابرته أهالي مصر جميعهم أن من زمان مديد يتعامل الصناجق الذين يتسلطون في البلاد المصرية بالذل والاحتقار في حق الملّة الفرنساوية ويظلمون تجارها بأنواع الإيذاء والتّعدي فحضر الآن ساعة عقوبة هذه الزمرة من المماليك المجلوبين من بلاد الإبازة (القوقاز) والجراكسة يفسدون في الإقليم الحسن الأحسن الذي لا يوجد في كرة الأرض، وقد حكم رب العالمين القادر على كل شيء على انقضاء دولتهم. يا أيّها المصريون قد قيل لكم إنني ما نزلت بهذا الطرف إلا بقصد إزالة دينكم فذلك كذب صريح فلا تصدّقوه، وقولوا للمفترين إنني ما قدمت إلا لأخلّص حقكم من يد الظالمين، وإنني أكثر من المماليك أعبد الله سبحانه وتعالى وأحترم نبيه والقرآن العظيم. . قولوا لأمتكم إن الفرنساوية هم أيضا مسلمون مخلصون، وإثبات ذلك أنهم قد نزلوا في رومة الكبرى وخربوا فيها كرسي البابا الذي كان دائما يحث النصارى على محاربة الإسلام. . طوبى ثم طوبى لأهالي مصر الذين يتفقون معنا بلا تأخير فيصلح حالهم وتعلى مراتبهم. . .». وأرفقت بقية هذه الديباجة المعسولة العبارات بضع سطور جافة مثل: «جميع القرى الواقعة في دائرة قريبة بثلاث ساعات عن المواضع التي يمرّ بها عسكر الفرنساوية واجب عليها أن ترسل للسر عسكر من عندها وكلاء كيما يعرف المشار إليه أنهم أطاعوا وأنهم نصبوا علم الفرنساوية الذي هو أبيض وكحلي وأحمر». وكما وقف المصريون أمام حملة سليم العثماني على مصر عام ١٥١٧ موقف

الفرنسيين. يقول الجبرتي: «كانت العلماء تجتمع بالأزهر كل يوم ويقرؤون البخاري وغيره من الدعوات، وكذلك مشايخ . . . وأطفال المكاتب ويذكرون الاسم اللطيف وغيره من الأسماء الحسنى، وخرجت الفقراء وأرباب الأشاير بالطبول والزمور والأعلام والكاسات وهم يضجّون ويذكرون بأذكار مختلفة، وصعد السيد عمر أفندي نقيب الأشراف إلى القلعة فأنزل منها بيرقا أسمته العامة البيرق النبوي فنشره بين يديه من القلعة إلى بولاق وأمامه وحوله ألوف من العامة بالنبابيت والعصي. . ويقيت مصر خالية الطرق لا تجد بها أحدا سوى النساء في البيوت والصغار وضعفاء الرجال الذين لا يقدرون على الحركة فإنهم مستترون مع النساء في بيوتهم، والأسواق مُصَفَّرة والطرق مجفرة من عدم الكنس والرش. . .».

غير أنه لم تستطع الدعوات الدينية ولا ثقة المماليك بيأسهم وقوتهم الصمود أمام التفوق الفرنسي في النيران ولا أمام كفاية تدريب الحملة الغازية، فوقعت عند إمبابة هزيمة المماليك ومن معهم من المتطوعين القاهريين والبدو المتعاونين. وسكن بونابرت بقصر محمد بك الألفي بالأزبكية، ولم يدخل المدينة إلا القليل من الجنود الذين: «تبعوا الأوباش الذين نهبوا البيوت الخالية، فأخذوا منهم عددا وافرا وعاقبوهم»[4]، ومشوا في الأسواق من غير سلاح يضاحكون الناس ويشترون ما يحتاجون إليه بأغلى الأثمان فأنس بهم البعض وخرجوا إليهم بالكعك والخبز والبيض والدجاج وفتح البعض الحوانيت والمقاهي. كذلك عني الفرنسيون بنظافة العاصمة وكنس الأزقة والحارات، كما أزالوا بوابات الدروب والعطفات وأمروا بتعليق القناديل على أبواب البيوت ليلا، وما كاد يظهر وباء الطاعون حتى حرّموا دفن الموتى في المقابر الكائنة في وسط العاصمة (لوحة ٥).

(٤) انظر المرجع السابق صفحة ١٥٨

غير أن الفرنسيين سارعوا بفرض الضرائب الباهظة على التجار وأهل الحرف باعتبارها سُلَفًا تُرَدّ، كما انبرى الجنود ينهبون الدور دون مبالاة بآثار سخط الأهالي وبات المرء لا يأمن على نفسه وعياله إلا بتعليق راية أو بطاقة على بابه تصرفها له سلطات الاحتلال. واتسع نطاق القلق في العاصمة وخارجها، وتحيّر الناس في أمرهم؛ فهم إن غادروا المدينة باتوا عرضة لغارات الأعراب وفلول المماليك، وإن استقروا بها استهدفوا لمكائد جيش الاحتلال ونزوات جنوده. فما لبث أهل القاهرة أن هبّوا للوقوف في مواجهة الفرنسيين مثلما فعلوا مع جميع المعتدين على بلادهم، فلم يطيقوا السكوت على ما بدأ يحدث من عصبيات ثأرية اتسمت بالضراوة إلى حد قضى تماما على علاقة المجاملات التي نشأت في الأيام الأولى بين المسلمين الأصلاء في مصر ومدّعي الإسلام من الغزاة الفرنسيين. ولم تكد تنشب أول ثورة حتى استخدم الفرنسيون أبشع ألوان العنف والوحشية لإخمادها واعتدوا على حرمة الجامع الأزهر فدخلوه راكبي الخيول [بقيادة ألكسندر دوما والد مؤلف روايتي «الفرسان الثلاثة» و «الكونت دي مونت كريستو»] وربطوا جيادهم بقبلته وكسروا القناديل وهشّموا خزائن الطلبة ونهبوا ما وجدوه من المتاع والأواني والودائع والمخبآت بالدواليب والخزانات ورموا الكتب وداسوا المصاحف بنعالهم ونهبوا بكثير من الدور منتهكين حرمة القلعة التي كانت أشرف القلاع وكان الناس يهمون بسكناها ويودعون عند أهلها ما يخافون عليه من الضياع. وقبض الفرنسيون على كثيرين وأخذوهم إلى السجن وذبحوا جموعا غفيرة ثم قذفوهم في مياه النيل (لوحة ٦)

لوحة (٥) بورحان ، دخول نابليون إلى القاهره

غير أنه لم يأت شهر أغسطس عام ١٧٩٨ إلا وقد أصبح الفرنسيون في موقف حرج لا يحسدون عليه ، ذلك أن الأميرال نلسون الإنجليزي قد هاجم الأسطول الفرنسي ودمره في أبي قير ، فانقطعت بذلك الصلة بين الحملة الفرنسية وقاعدتها في فرنسا بعد أن باتوا في مصر سادة محصورين ، وكان هذا إيذانا بفشل حملة نابليون على مصر . على أن سلطان تركيا لم يعترف للفرنسيين بجميلهم في دحر المماليك بل أعلن الحرب عليهم . ولم يطل بقاء نابليون في مصر عن سنة كان قد أصيب فيها بلوثة وحشية تجلت بشاعتها في حصاره لعكا ، دون أن تتوقف مع دفع مشروعاته الذي كان قد خططها في البداية لتطوير المجتمع المصري

وإذا كان نابليون قد أدرك منذ البداية قيمة علماء الدين المصريين ودورهم في دعم وحدة المجتمع الاجتماعي ، علاوة على أن يضيف إلى ذلك دراسات الهندسة المصرية من أجل بعث مصر من جديد . فقد كان يحلم بأن تشكل خمسون سنة من الرخاء في مصر مجتمعا حديثا بفضل بناء آلاف القناطر والسدود لترويض مياه النيل وتوزيع ما يفيض منها على جميع أنحاء مصر بدلا من أن تضيع هذه الثمانية أو العشرة مليون متر مكعب من المياه كل عام في البحر المتوسط ، وفي قدرتها لو حولت إلى الأماكن المنخفضة من الصحراء والواحات أن تحيلها إلى حقول مثمرة يانعة وبساتين تفيض بالخير والبركة على السكان . غير أن شيئا من إصلاحات نابليون ومشروعاته لم يكتب له أن يتحقق كما أراد ، بل إن حملته على مصر لم تكن إلا حدثا خاطفا عابرا ، إذ سرعان ما خلف مصر سرا إلى فرنسا في أغسطس ١٧٩٧ تاركا جيشه نهبا للمرارة في أيدي ... إلى حكم نابليون في التعاون مع الأغلبية المسلمة حتى إنه ... الشعائر ... بالرغم من أن نابليون قد أوصى خليفته كليبر بأن يستعين في إدارة ... بالزعماء الدينيين مسلمين ... من مغبة ... سياسة أخرى قد تكون عاقبة حمقاء . وكان نابليون قد اتبع مع سياسة الحزم والشدة سياسة التقرب إلى الجماهير المصرية والتودد إليهم من خلال احترام تقاليدهم ومشاركتهم أعيادهم مثل احتفال وفاء النيل ، حيث توجه بصحبة كبار القادة وأعضاء ديوان مصر إلى مقياس النيل ليلتقي ... الجماهير ... على ... النيل والخليج والمحتشدة فوق المراكب ... المحتفلة ... وما كاد موكب نابليون يصل حتى أطلقت المدافع وعزفت الموسيقى العسكرية وبدأ العمل في قطع الجسر ، فتدفقت مياه النيل بشدة ونثر نابليون النقود وقطع الذهب على الناس من فوق أول سفينة تعبر الخليج (لوحة ٧) .

ولم يكتف نابليون بذلك بل انتهز فرصة الاحتفال بمولد النبي لتوطيد سلطته ، فأمر بالاحتفال به احتفالا ... على ... بحيث يجمع بين الأبهة الأوروبية والطابع الشرقي التقليدي . ... نابليون على الناس ... طريقه ... الجامع حيث ... ، وأخذ مجلسه ... فوق ... مفروشة في الأرض عاقدا يديه على صدره ... ، واستمع إلى ... الشريفة وهو يهتز ... كما يفعلون ويميل برأسه ... الأمر الذي أثار دهشة الحاضرين وعجبهم

لوحة (٦) لوي جيروديه، ثورة القاهرة (تفصيل) ١٨١٠، متحف فرساي

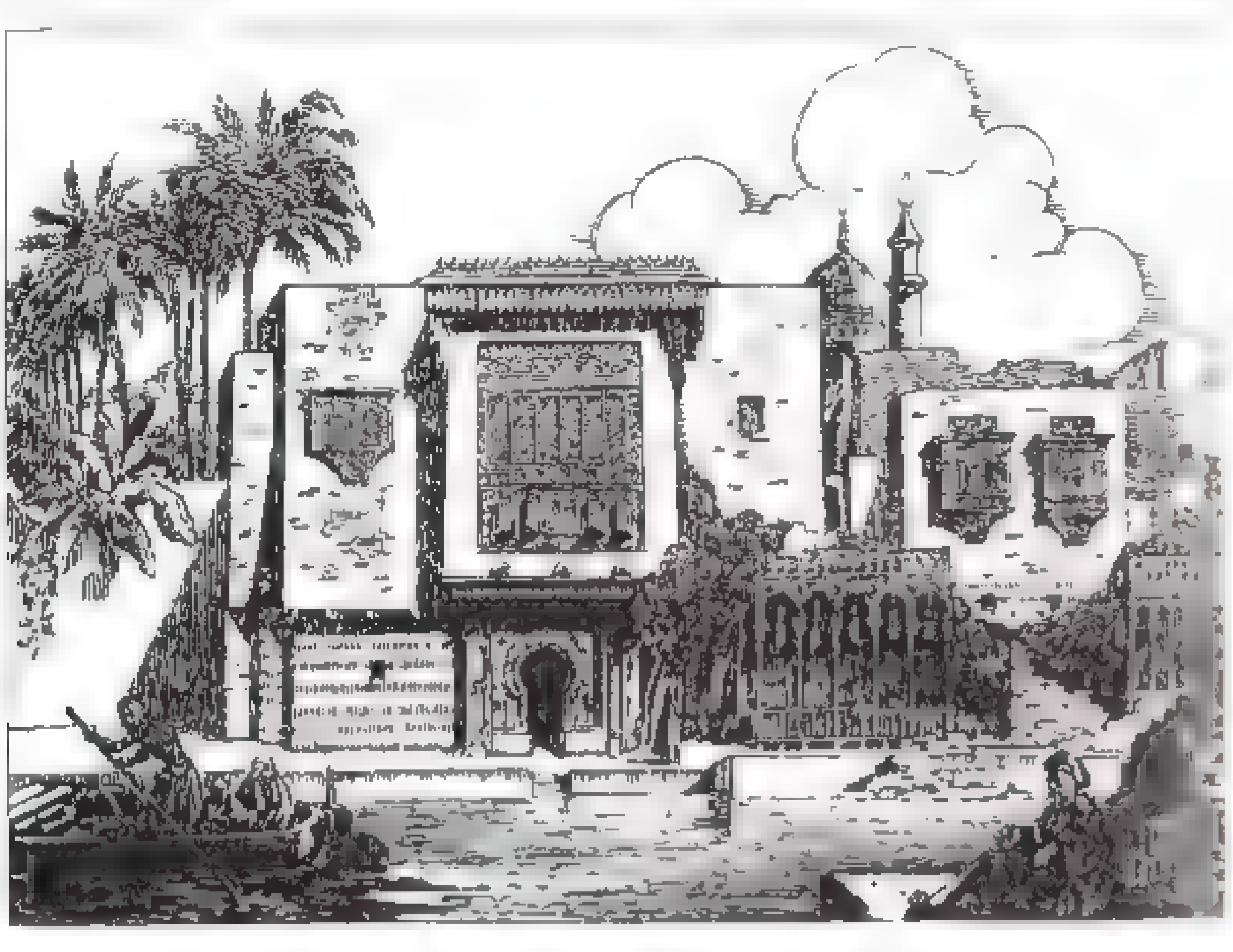

لوحة (٧)
ترعة الخليج

واصرف نابليون على مرأى من الجماهير متوجهاً إلى منزل الشيخ البكري نقيب الأشراف
[illegible] فوق رأسه وجموع الشعب تهلّل من حوله ثم
[illegible] وصار في شهود حفل الذكر حتى
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible] (٥) (لوحة ٨)

[illegible] (لوحة ٩) [illegible]
[illegible]
[illegible] عام ١٨٠١ [illegible]
[illegible]

[illegible] ١٨٠٠ [illegible]
على [illegible] مع جيش الاحتلال [illegible]

(٥) [illegible]

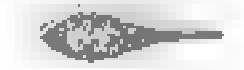

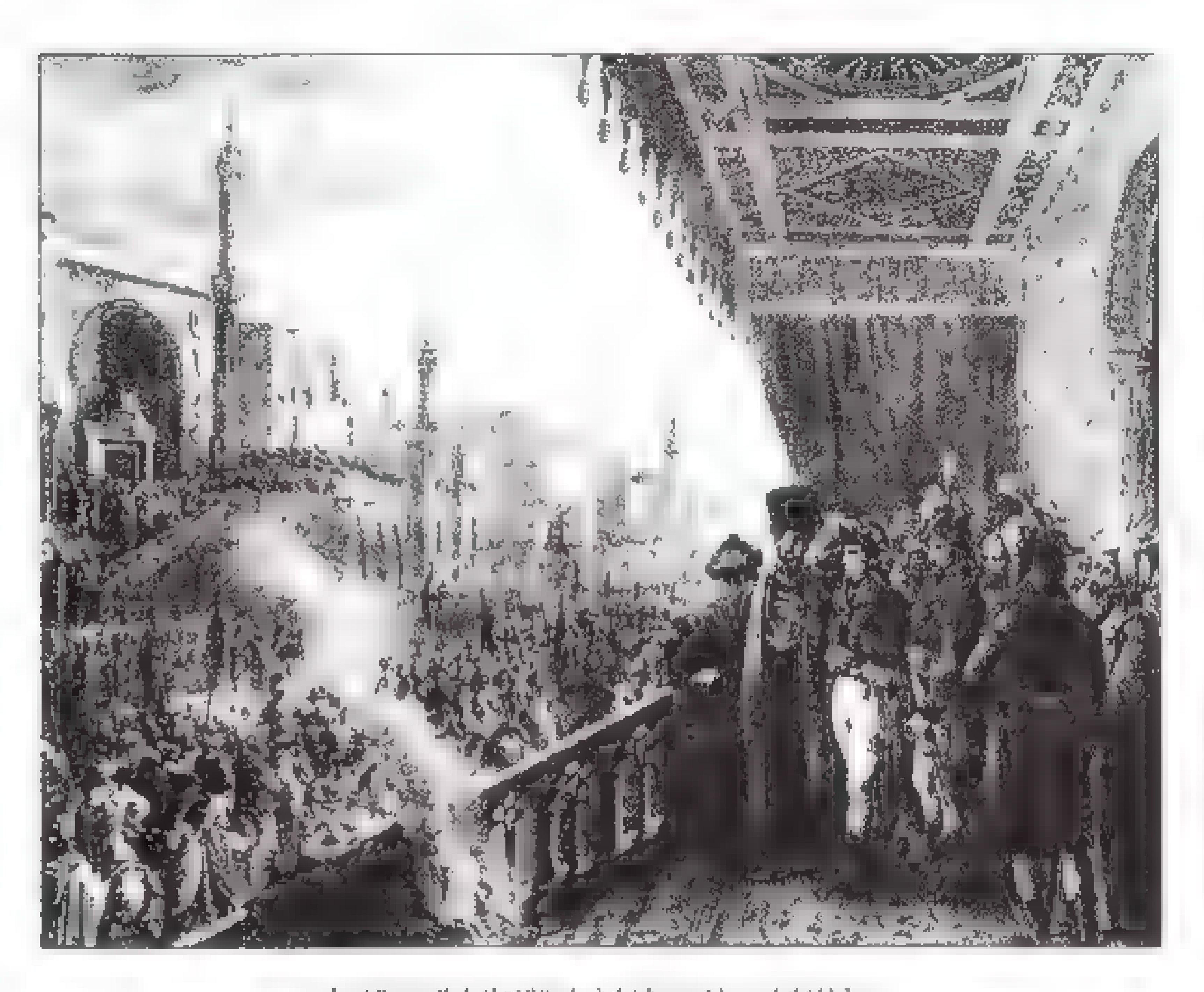

لوحة (٨) كولون، نابليون يشارك في احتفالات المولد النبوي الشريف

لوحة (٩) المسيو الجنرال كليبر

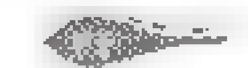

لوحة (١٠) دوترتر. إعدام سليمان الحلبي ورفاقه

ظرفة، وكان رد كليبر قذف مدينة القاهرة بالقنابل . وفي ١٤ يونيه [illegible] شاب سوري مسلم
[illegible] سليمان [illegible] الجنرال كليبر في حديقة منزله بالقرب من الأزبكية ، واختبأ بالحديقة حتى
عثر عليه الجنود وأرغموه على الاعتراف على أعوانه من طلاب الأزهر الذين أبلغهم عن عزمه على
[illegible] كليبر . وأحضروا ثلاثة منهم واتهموهم بالمشاركة في القتل لتسترهم وعدم إبلاغهم
[illegible] بذلك . وقد قُدِّم الأربعة لمحكمة عسكرية أصدر قضاتها حكماً بجزّ رؤوس الثلاثة
[illegible] سليمان ورَكْزها في عِصِيّ وحرق أجسادهم أمام سليمان قبل حرق يده اليمنى ووضعه بعد
[illegible] على خازوق حتى يخترق جسده [illegible]
[illegible] أن يصدر هذا الحكم الوحشي الجائر من حملة مشبعة بمبادئ الثورة الفرنسية [illegible]
[illegible]، مقصلة جيوتين وفقاً بالمحكوم عليهم بالإعدام، ظانين أن تطبيق عقوبة مماليك
[illegible] كفيلة بتلقين الأهالي الدرس المنشود.

وبدأ الجلاد برطلمين بحرق يد سليمان القاتلة حتى المرفق . ومن الطريف أن
[illegible]
[illegible] ولم
[illegible]
[illegible] أصبح الجلاد [illegible]
[illegible] حتى لا يمنح سليمان [illegible] تخفف سكرات الموت الرهيبة التي ظل
يكابدها ساعات أربع قبل أن تهمد الحركة في جسده الشهيد
(لوحة١٠) . وحاول مينو خليفة كليبر استرضاء المصريين بإعلان [illegible]
الإسلام وإقصاء النصارى الشوام عن المناصب الإدارية ، غير أنه أعلن في
[illegible] مصر محمية فرنسية (لوحة١١) .

لوحة (١١) دوترتر.
الجنرال مينو.

على أن الحملة الفرنسية بقدر ما ولدت في المصريين روح المقاومة الوطنية للغزاة
الأجانب قد فجّرت فيهم نوعا من الإعجاب، وهو ما نراه في سلوك الجبرتي الذي
كان واحدا من فئة المثقفين الذين توسَّم فيهم نابليون أملا كبيرا في تطوير مستقبل
البلاد، فقد أبدى إعجابه بالفرنسيين حين زار علماء المجمع الفرنسي بقدر ما تمردت
روحه ضد سوء سلوك الجنود الهمجي مع عامة الشعب من حرق للقرى ومصادرة
للماشية والغلال وسبي النساء وسوق للأعيان رهائن وقطع للرقاب عقابا وتأديبا
على أن أكثر ما أثار اهتمام الجبرتي حقا هو المكتبة الفرنسية التي أعدّت في بيت
المملوك الأمير حسن الكاشف ، وتردّد عليها الجبرتي المرة تلو المرة ، إذ وجد فيها:
[illegible]
المراجعة فيراجعون فيها مرادهم ، فتجتمع الطلبة منهم كل يوم قبل الظهر [illegible]
ويجلسون في فسحة المكان المقابلة لمخازن الكتب على كراسي منصوبة موازية [illegible]
عريضة مستطيلة ، فيطلب من يريد المراجعة ما يشاء منها فيحضرها له الخازن، فيتصفّحون
ويراجعون ويكتبون حتى أسافلهم من العساكر . وإذا حضر إليهم بعض المسلمين ممن يريد
الفرجة لا يمنعونه الدخول على أعزّ أماكنهم ، ويتلقّونه بالبشاشة والضحك وإظهار السرور
بمجيئه إليهم ، وخصوصا إذا رأوا فيه قابلية أو معرفة أو تطلعا للنظر في المعارف بذلوا له مودّتهم

ومعجبتهم ، ويحضرون له أنواع الكتب المطبوع بها أنواع التصاوير وكرات البلاد والأقاليم والحيوانات والطيور والنباتات وتواريخ القدماء وسير الأمم وقصص الأنبياء بتصاويرهم وآياتهم ومعجزاتهم وحوادث أممهم مما يحيّر الأفكار . ولقد ذهبتُ إليهم مراراً وأطلعوني على ذلك ، فمن جملة ما رأيته كتاب كبير يشتمل على سيرة النبي صلى الله عليه وسلم ، ومصوّرون به صورته الشريفة على قدر علمهم واجتهادهم وهو قائم على قدميه ناظر إلى السماء كالمرهب إلى الخليقة ، وبيده اليمنى السيف وفي اليسرى الكتاب ، وحوله الصحابة رضي الله عنهم بأيديهم السيوف» .

وكانت هذه المكتبة بمثابة المنارة التي لم يقتصر إشعاعها على المصريين وحدهم بل تخطتهم إلى سكان الشرق الأدنى كله . وعلى النقيض من سائر الغزاة اصطحب نابليون معه جملة من كبار العلماء الفرنسيين من المؤرخين والمهندسين والرسامين والكيميائيين والبيولوجيين والأركيولوجيين والجراحين كانوا بمثابة الفيلق الثقافي المتحرك للجيش والذي كان منهم نابليون «المجمع العلمي» الشهير . ومن المحدثات الأولى للاحتلال حرص نابليون على أن يباشر المجمع العلمي نشاطه وأبحاثه واجتماعاته على هيئة لجان تقصّي الحقائق ، تعكف على دراسة الطبيعة والآثار والأوضاع السائدة ورصدها وتسجيلها في كتاب موسوعي من عدة أجزاء كبيرة الحجم نُشر تحت اسم «وصف مصر» في ثلاثة وعشرين مجلدا ضخما فيما بين عامي ١٨٠٩ ، ١٨٢٨(لوحة١٢)

كذلك أحضر نابليون معه أطقم كاملة من الحروف المطبعية العربية واليونانية ، لغتي الشرق الأدنى القديمتين . وهكذا [illegible] المصريين [illegible] أجاد الأخيرون استخدامها فيما بعد حتى ضد الفرنسيين أنفسهم ، إذ فتحت أمامهم آفاق الثقافة الفرنسية التي بقيت رغم قصر مدة الاحتلال الفرنسي موضع التقدير العميق .

ونرى الجبرتي دقيقا متشوّقا إلى المعرفة حين يعلم أن الفرنسيين ينوون إطلاق بالون في سماء الأزبكية [illegible] فلما حدث لم [illegible] ظنوه من أنه على هيئة مركب تسير في الهواء بحكمة مصنوعة ويجلس فيها أنفار من الناس ويسافرون فيه إلى البلاد البعيدة لكشف الأخبار وإرسال المراسلات ، بل ظهر أنها مثل الطيارة التي يعملها الفراشون بالمواسم والأفراح» .

ومن مآثر علماء الحملة الفرنسية تلك الخريطة التي رسموها للقاهرة فيما بين عامي ١٧٩٩ و١٨٠١ والتي تكشف عن أن عرض مجرى النيل في منطقة القاهرة كان ضعف عرضه الحالي ، وأن القاهرة وقتذاك كانت مكونة من ثلاث مدن تفصلها عن بعضها المزارع والتلال . فعلى حين عمر القاهرة الوسطى بالمساجد والعمائر الإسلامية التي تسمو عليها جميعا قلعة الجبل حيث قصور الولاة والباشوات ، [illegible] بولاق [illegible] الفرنسيون [illegible] مصر القديمة بكنائس القبطية وجامع عمرو

لوحة (١٢) [illegible] المجمع العلمي المصري

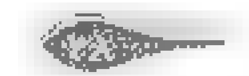

ويبدو تاريخ الجبرتي «عجائب الآثار» بصورة صادقة عن خطط القاهرة القديمة وهي الصورة المتوسطة بين قاهرة المماليك خلال العصور الوسطى وقاهرة إسماعيل في منتصف القرن التاسع عشر. فصوّر مدينة شرقية في روحها وفي عمارتها وفنها وطرقها على الرغم مما أصابها من حروب على أيدي العثمانيين أو دمار بقنابر الفرنسيين. ويصف د. عبد الرحمن زكي قاهرة الجبرتي بأنها: «لم يكن لها في تلك الأيام تنظيم خاص لشوارعها، فكنت تجد بعض البيوت خارجا عن حدود الطريق العام وترى البعض الآخر داخلا، كما ترى بيوتا لها مشربيات مرتفعة من مستوى الطريق وأخرى لا ترى لها منافذ. ومن شيّد عمارة ورأى أمام منزله فضاء أدخل منه في المنزل ما أحب بلا قيد. وكذا الشوارع لم تزد سعة عن الحارات. ولم يكن للحكومة إذا صح القول بأنه كان هناك في ذلك العصر شيء جدير بهذا الاسم اعتناء بأمر النظافة أو الصحة، فكانت تُلقى القاذورات أمام المنازل وعلى مداخل الأزقة، وما تبقّى من أنقاض الهدم من الأتربة والأحجار يلقى به بالقرب من أبواب المدينة فتصير تلالا حتى إذا نسفتها الرياح تكونت منها فوق البلد سحابة تراب كريهة تنقل معها شتّى العلل والأمراض. وكانت مقابر الموتى في وسط المدينة، وكان كثيرون من الناس يدفنون موتاهم داخل بيوتهم وفي المساجد وفي المدارس. ولما عادت القاهرة إلى حكم العثمانيين (١٨٠١) وشيخ البلد بعد انسحاب الفرنسيين كانت محرّمة تنعق على أنقاضها البوم، واستأنف الألبانيون الأرناؤوط ورعاع الأروام والأرمن حوادثهم، وعمّت كوارث القتل والخطف والنهب، وعاد المماليك إلى رذائلهم ومفاسدهم بينما جنود حامية القاهرة لا يسكتون عن المطالبة بمتأخر رواتبهم».

وبعد أن ركز نابليون أول حجر أساس في البناء الحضاري الحديث في مصر، تواتت بعده أفراد أسرة جديدة على حكمها أنشأها ابن أحد المزارعين في شمال اليونان هو محمد علي الذي كان قد أمضى شبابه في تجارة الدخان. وفي عام ١٧٩٨ جاء إلى مصر وهو في سن التاسعة والعشرين قائدا ثانيا لإحدى كتائب المتطوعين المجندين من بين مسلمي الإقليم الواقع في منتصف المسافة بين مقدونيا وطراقيا، وهو نفس الإقليم الذي شهد مولد الإسكندر والبطالمة. وبالرغم مما يشاع من أن محمد علي كان ألبانيا أو تركيا إلا أنه كان دائم التباهي بأنه كان مقدونيا. فبينما كان يستقبل قنصل فرنسا ذات يوم وبرفقته نفر من الضيوف الفرنسيين إذا به يتسلم نسخة مهداة من كتاب «الإسكندر المقدوني» وكانت مجلدة تجليدا فاخرا يليق بمُهدى إليه. فيبرى محمد علي في حماس يفرد مزهوا أمام ضيوفه: «إنني أنا الآخر مقدوني النشأة». والتفت إلى أحد التراجمة يسأله عن المدة التي تستوعبها ترجمة هذا الكتاب فيعلم أنها تطول إلى أشهر عشرة. وتهول محمد علي هذه المدة فينزع حجرا من أحد القواسين إلى جانبه ويشطر الكتاب أثلاثا ثم يقول: «أصبح بهذا قد صغت ترجمة الكتاب في شهرين». وخلال زيارته الأولى مصر لم يشترك محمد علي بكتيبته في القتال مع الفرنسيين، غير أنه أتى إليها مرة ثانية بعد أن صدر فرمان بتعيينه واليا عثمانيا عليها في عام ١٨٠١، وهو نفس العام الذي تم فيه جلاء الفرنسيين عن مصر. وكان العثمانيون قد اهتلؤوا أملا لإحكام قبضتهم على مصر بعد أن مهّد لهم الفرنسيون بالقضاء على المماليك. وكالعادة بدأ خيال محمد علي يراوده طموح الأحلام العريضة التي كانت تعشّش من قبل في صدور غلمان المماليك الوافدين من الكرج والقوقاز. وكان بكوات المماليك الدائمو التنازع فيما بينهم قد عقدوا العزم على مقاومة أية محاولة عثمانية من جانب خصومهم من السيطرة على مصر ومقدراتها. ومنذ اللحظة الأولى أخذ محمد علي يستفيد من كل شيء يدعّم سلطانه، فهو يظهر احترامه للعثمانيين الذين يستمد شرعية سلطته من فرماناتهم، كما يوالي البكوات المماليك الذين يعرف قوة قبضتهم على زمام الأمور في مصر، حتى إذا حل عام ١٨١٠ كان قد وطّد العزم على الانفراد بالسلطة. ولقد اكتشف السر وراء امتداد سلطة العثمانيين في مصر حين اتبعوا سياسة التفريق بين الأثرياء واستغلال الفقراء مكوّنين بذلك مثلث يشكّل الباشا وجنوده أحد أضلاعه، والعلماء الدينيون المصريون الضلع الثاني، مستخدمين البدو بين ... فيه حلفاء غير نظاميين، على حين يتكون ضلع القاعدة من طبقة المماليك المتمرسة. وكان ... سلطة يقدر تدميره لمصر يقف حائلا حقيقيا دون تجميع السلطة في يد رجل واحد.

إذ فطن بحسّه الغريزي إلى أن الحملة الفرنسية قد زعزعت الوجود العثماني بقدر ما زعزعت سطوة المماليك في أعين الشعب المصري. وكان العثمانيون يبدون في عينيه خصما نائيا في حين المماليك التهديد المباشر ... عقد العزم على توجيه ضربته الأولى إليهم، فأخذ على عاتقه نسج لهم المناورات المتّسمة بالخديعة والغدر. فكان أن وجّه إليهم ضربته الأولى في عام ١٨٠٥ والمماليك يتنازعون بعضهم مع بعض ويتنازعون في نفس الوقت سلطة محمد علي كوال على مصر، إذ نصب لهم شَركا بمناسبة عيد سد الخليج السنوي في ١٧ أغسطس، وكان قد أوعز إلى بعض أعوانه أن يحرّضوا المماليك على الاستيلاء على القاهرة العارية عن الحراسة في اللحظة التي يكون فيها الوالي وسط الحفلة، في حين أنه كان قد أعدّ لذلك بتوزيع جنوده على مواقع استطاعوا منها حصد المماليك عندما تحركوا لتنفيذ الخطة. على أن محمد علي لم يكتف بما ألحقه بزعماء المماليك من تعذيب وحشي وقتل بالجملة، فلم تكد تمر ست سنوات حتى انتهز في أوائل عام ١٨١١ فرصة الحروب الوشيكة مع الوهابيين الذين ناوءوا سلطة العثمانيين في غرب شبه الجزيرة العربية فاحتلوا جدة ومكة والمدينة لإعداد ضربته الثانية للقضاء على بقية المماليك. وكان السلطان قد عهد إلى محمد علي بتجهيز حملة تأديبية ضد الوهابيين، فأخذ محمد علي يطمئن المماليك ويشجعهم على التعاون معه برد إقطاعياتهم بالفيوم والصعيد إليهم، وقرر تنصيب ابنه الأثير طوسون قائدا للحملة في احتفال مهيب يُلبسه فيه السيف والخلعة اللتين وهبتهما له السلطنة العثمانية، ودعا أمراء المماليك المصريين بقيادة شاهين بك الألفي، وأقام الخيام لاستقبالهم وأعدّ لهم كل مظاهر التكريم وحسن الوفادة. وفي صباح يوم الحفل صعد الجميع إلى القلعة حيث تنطلق منها مسيرة الموكب. وبعد أن أمضى كبار القوم وأمراء المماليك لحظات في حضرة الوالي يرشفون القهوة ويتضاحكون معه بدأت مسيرة الموكب تنحدر القلعة طائفة في إثر طائفة حتى جاء دور طائفة المماليك فإذا البوابة تُغلق في وجوههم ويجدون أنفسهم محاصرين داخل الأسوار في المضيق المنحدر بين الباب الأعلى والباب الأسفل والرصاص يمطرهم من كل جانب والسيوف تتعقب عناق محاولي الفرار: «واحتز بعض الجنود رأس شاهين بك وسارعوا بتقديمه إلى الباشا كي يظفروا «بالبقاشيش»[٦]»، بينما كان جنود الباشا خارج القلعة يهاجمون بيوت المماليك ويغتصبون نساءهم بعد تجريدهن من الحلي والجواهر، ويقتلون من كان باقيا في الدور أو في الطرقات من المماليك المطعونين في السن أو الفقراء حتى بلغ القتلى يومئذ ألف قتيل. وحين استتب للباشا الأمر وزّع بيوت المماليك على خواصّه بما فيها ومن فيها من نساء (لوحة ١٣، ١٤).

(٦) انظر المرجع السابق صفحة ٢٠٠

لوحة (١٣) اوراس فرنيه
مذبحة المماليك . لوحة زيتية
المتحف الحربي بالقلعة

ولقد [illegible] جيمس ويستر احد الرحالة الإنجليز الذي زار القاهرة عندما كانت أحداث هذه [illegible] على [illegible] وصفا لمكيدة محمد علي في كتابه «رحلات القرم وتركيا ومصر ١٨٢٥-١٨٢٨» لا يخرج في [illegible] عما رواه الجبرتي حتى وصل إلى حافة المأساة ليصف المذبحة بعد تلك الأحداث [illegible] حيث بدت وكأنها مجزر بشع يعج بطوفان من دماء الضحايا ، تناثرت فوق ربوعها مئات الجثث المتعفنة . وهنا وهناك استلقت الجياد المبقورة بحللها المزركشة وسروجها البديعة وقد خضبها مزيج الوسخ والدم المتخثر [illegible] أجساد [illegible] بعضهم مقطوع الأطراف والبعض الآخر مقطوع الرؤوس ، وأغلبهم ما يزال قابضا على سيفه لمحدب قبضة الهوس واليأس . وقد انطرحت إلى جوارهم جيادهم مستطحة في برك من دمائهم [illegible] . وما أكثر ما ألهمت قصة المملوك الذي قفز بجواده من فوق سور القلعة [illegible] المصورين المعاصرين [illegible] بين قاعات اسطنبان [illegible] أسرة محمد علي [illegible] هذه القصة في [illegible] فلا شك [illegible] الأمير [illegible] القلعة يومها [illegible] [illegible] جدران القلعة [illegible] جميل [illegible] مرصدة فريسته»

على أنه [illegible] بالإنجليزي [illegible] مصر في نفس العام [illegible] رؤية جيمس [illegible] في كتابه [illegible] الأدبي [illegible] مؤكدا صدق قصة [illegible] من فوق سور القلعة [illegible] محمد علي [illegible] أكثر من مرة [illegible] جواده [illegible] وقت الصراع المملوكي .

لوحة (١٤) مذبحة المماليك
لوحة مطبوعة بطريقة الحفر
على الحجر

[illegible] الأقدار [illegible] والأمر في [illegible] في [illegible] وأفقر [illegible] في [illegible] حتى [illegible] وكان يوما فريدا تورع [illegible] مصرع [illegible] وسط حشد [illegible] خيولهم [illegible] في [illegible] من [illegible] على [illegible] [illegible] ولوجودهم داخل مصر ، وأوقعت مصر [illegible] محمد علي [illegible] الوحيد بلا منازع . [illegible] على [illegible] الأصمة شكلية [illegible] قد عزم لاستقلال مصر [illegible] إلى مستوى حضاري أشد تميزا . وقد استند في [illegible] على [illegible] سلاطين المماليك ، غير أنه بدلا من شراء العبيد [illegible] أثر استبدال [illegible] على [illegible] على تجنيد المصريين [illegible] [illegible] أو أتراك [illegible] على توسيع [illegible] ملكه إلا أنه [illegible] السلاطين المماليك في حماسته المتأججة لتبني [illegible] العربية [illegible]

لوحة (١٥) قصر محمد علي بالإسكندرية، لوحة مطبوعة بطريقة الحفر على الحجر

[illegible] بمهارة [illegible] الذي [illegible] إلى [illegible] الباب العالي المستند إلى عون الإنجليز

وقد عرف المؤرخ الفرنسي جوزيف ميشو الذي زار مصر سنة ١٨٣٠ [illegible] (لوحة ١٥) [illegible] من مثيله، وأنه أصغر لكي يحوز [illegible] ويتجسس، فجعل نصف الشعب يعاني من [illegible] نصفه الآخر [illegible]

[illegible] إلى حد أحدث معه الإنكشارية التي كانت [illegible] السلطان محمود الذي [illegible] محمد علي [illegible]

لوحة (١٦) شاسرلو: مذبحة الإنكشارية ١٨٢٧ لوحة زيتية ٦٢٨×٤٧٢ سم متحف مدينة روسفور سور مير

[illegible] أن هذا أسير هذا الإلهام الماكر، فلم تمض وقت قصير حتى لقي الإنكشارية على يديه نفس مصير المماليك (لوحة ١٦)

[illegible] محمد علي في حقيقته [illegible] العرب [illegible] وتدعيم سلطته كحاكم مطلق، [illegible] المماليك (لوحة ١٧) [illegible] الجبرتي [illegible] الشرطة [illegible] من الناس والخنود إلى حيث تضرب عنقه، [illegible]

لوحة (١٧) الكسندر بيدا: جنود الأرناؤوط
«ما من أحد من الأرناؤوط إلا وصار له عدة بيوت وزوجات والتزام بلاد وسيادة لم يتخيلها ولم تخطر بذهنه ولا بفكره ولا يسهل الانسلاخ عنها والخروج منها ولو خرجت روحه»

الجبرتي
عجائب الآثار جزء ٤ ص ١١

أطلق عليه رصاصة أردته قتيلا ولم يلبث أن اغتال ثلاثة جنود آخرين . وعندما كانت بقية رجال الشرطة قد تمكنوا من الإمساك به . ومع أنه كان مدركا أن نهايته قد أصبحت [illegible] لم يرتعد [illegible] ولا [illegible] بكل [illegible] ورباطة جأش [illegible] وكأنه يتأمل مشهد حز عنق شخص غيره . كذلك [illegible] من جرحه وقدفه في الحشى في هدوء بينما كانت دماؤه تسيل على الأرض [illegible] رأيت [illegible] فعل [illegible] من جنود الأرناؤوطي القسم ، إذ كانت [illegible] في ذلك [illegible] للمرأة [illegible] أن [illegible] ، [illegible] أحد جنود الأرناؤوط قتيلا [illegible] فتسهدي [illegible] زميلي » ، ثم أخرج مسدسه وقتل المرأة وسط حشد تجمع من الجنود والمواطنين ، فألقى القبض عليه وقطعت رأسه في اليوم التالي

ولم يكن هذا الحدث وحده هو الذي [illegible] ذكري من سلوك هؤلاء [illegible] من الأرناؤوط الذين [illegible] الرعب في قلوب الأهالي جميعا . ذلك أنه شهد أيضا [illegible] أحد الأرناؤوط لصاحب حانوت في بولاق لأنه رفض أن يبيعه بطيخة بالثمن الذي أراد وفصل عنقه عن جسده على تقديم بضع ملاليم إضافية لهذا التاجر . وقد دفعه هذا كله إلى أن يتساءل في أسى عميق وتهكم لاذع : «لماذا لا يدعو معالي الباشا الجنود الأرناؤوط إلى وليمة في القلعة كما دعا المماليك ، ويقدم لهم إفطارا مماثلا لما قدمه لسابقيهم ؟» . ولعل ذكري نسي [illegible] أن محمد علي قد ذبح المماليك لا لأنهم كانوا يسومون المصريين سوء العذاب بل لأنهم كانوا يفعلون ذلك لحسابهم هم ولتدعيم سلطتهم لا لدعم سلطان محمد علي ، بينما كان الأرناؤوط هم أداة محمد علي وعدّته في فرض سلطانه وهيبته

ورُبَّ سائل يسأل ما مكان محمد علي من هذا التمهيد التاريخي ؟ فأقول إنه على امتداد النصف الأول من هذا القرن الذي نعرض له في هذا الكتاب ونتحدث فيه عن زوار مصر من الأدباء والفنانين الذين كتبوا عنها وصوّروها كان محمد علي على رأس السلطة في مصر طوال هذه المدة (لوحة ١٨) . لهذا كان على صلة وثيقة بجمهرة كبيرة من الأدباء والعلماء الأجانب الذين وفدوا على مصر لاسيما الفرنسيين منهم ، كما يسّر لكثرة منهم أداء مهامهم العلمية التي [illegible] أنها تأخذ بيد مصر إلى النهوض والرقي ، وكانت زيارة «الباشا» محمد علي [illegible] في أغلب كتب الرحلات التي ظهرت عن مصر في عهده حتى رأينا الأديب [illegible] يتحدث [illegible] سواء لمحمد علي أو غيره من [illegible] في أحد فصول كتابه [illegible] لا [illegible] محمد علي [illegible] في [illegible] مصر [illegible] من [illegible] والمهندسين و[illegible] الفرنسيين ، ففي عهده [illegible] البريد و[illegible] ومصانع [illegible] السكر ومصانع [illegible] غير ذلك من الصناعات [illegible] محمد علي [illegible] من [illegible] الفرنسيين [illegible] في [illegible] مصر [illegible] في [illegible] الإصلاح الزراعي [illegible] الفرنسي [illegible] اسمه ، وعهد إلى الفرنسي [illegible] وإلى [illegible]

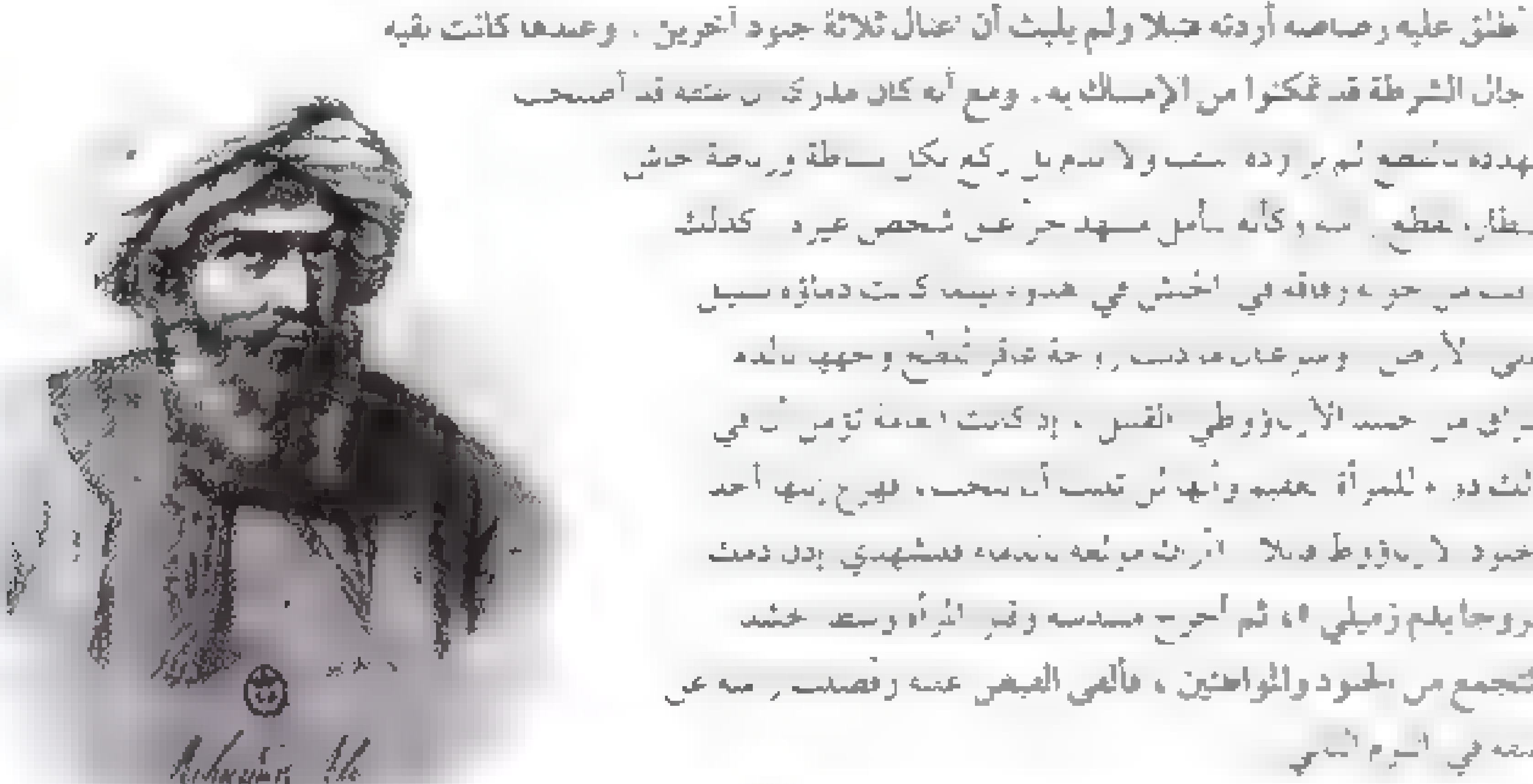

لوحة (١٨) محمد علي باشا

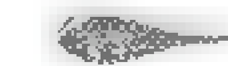

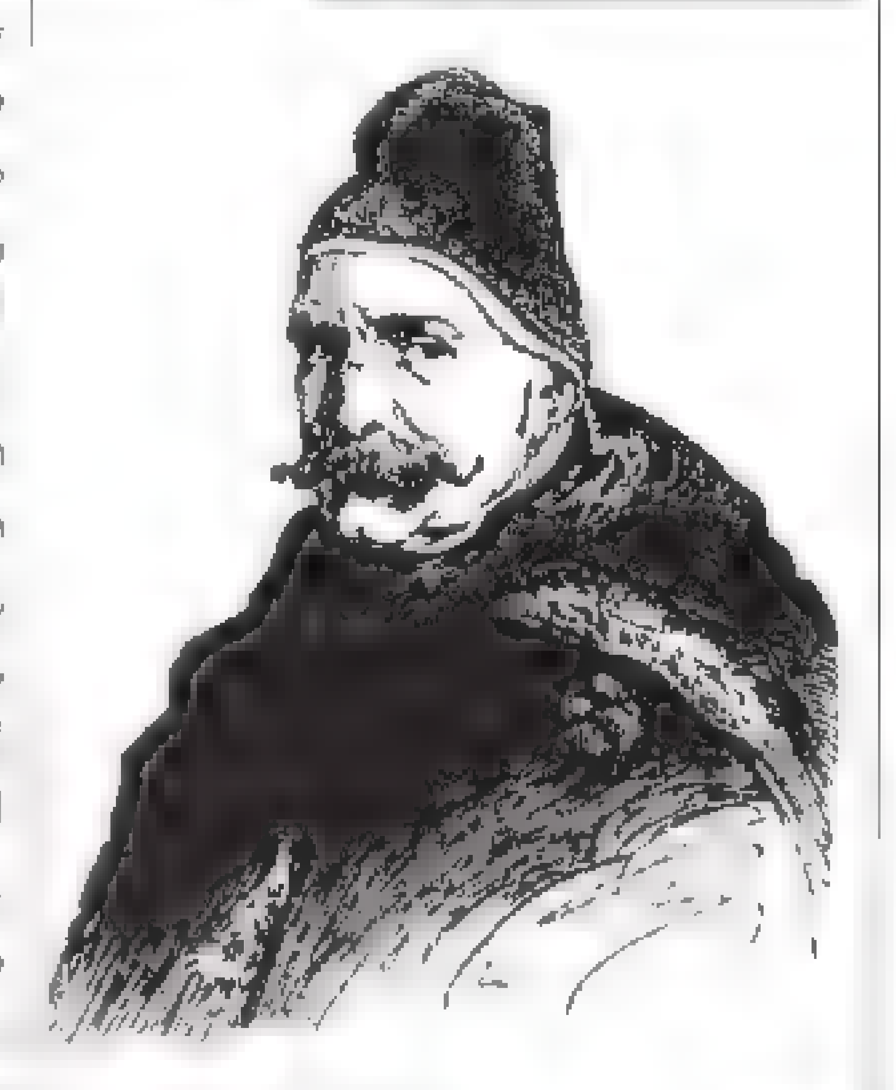

لوحة (١٩) نادار
كولونيل سيف
(سليمان باشا الفرنساوي).
مجموعة خاصة: عادل ثابت

مدرسة الطب والمستشفيات ومركبات الإسعاف التي يرأسها الأطباء الفرنسيون، وقد عهد بإدارة مدرسة الطب إلى الطبيب الفرنسي كلوت بك. كما وكلت إدارة مدرسة المولدات لآنسة جوبرت الفرنسية. وأوفد محمد علي صفوة الشباب المصري لتلقي مختلف فروع العلم في فرنسا. ووضع برئاسة المعلم الفرنسي جومار النواة الأولى للبعثة العلمية التي أخذت تقوم بدورها في مستقبل الأمة المصرية. وأسند الإشراف على تنظيم الجيش المصري الحديث الذي يشمل جنودا من أهالي مصر ... في مقدمة هؤلاء ضابط صف بالجيش الإمبراطوري الكولونيل أوكتاف جوزيف أنتلم سيف (لوحة ١٩)، تلك الشخصية التي أسهمت بالكثير في إنجازات هذا العصر. وقد ولد سيف بمدينة ليون عام ١٧٨٧، وكان منذ نعومة أظفاره ذا نزعة عسكرية فالتحق في سن السابعة عشر بالبحرية الفرنسية ليعمل ضابطا، وبعد خمس سنوات عين ضابطا بالمدفعية البحرية. ولكن ما كادت الجيوش الفرنسية تجوب أوروبا حتى ترك خدمة الأسطول إلى خدمة الجيش واشترك في المعارك التي خاضها الجيش الإمبراطوري بقيادة نابليون، وكان تحت إمرة المارشال ناي أثناء الانسحاب من موسكو، كما اشترك في القتال أثناء معارك المائة يوم. وإذ كان واضحا صريحا لم يستطع أن يكتم تعاطفه مع نابليون بعد معركة ووترلو، لذا كان من الاستحالة بمكان قبوله في الجيش الملكي الجديد، فقنع بأن يستأجر مزرعة في الريف الفرنسي، غير أن ما في طبعه من شغف بالحرب والقتال ما زال يلحّ عليه للانخراط في سلك الجندية من جديد، إلا أن هذا الأمر كان دون تحقيقه صعوبات جمّة، لذا عزم على الرحيل إلى بلاد الفرس التي كانت تعدّ العدة لتطوير جيشها، وعرّج وهو في طريقه إليها على مصر وقابل محمد علي الذي أعجب به فاستبقاه وضمه إلى خدمته بعد أن وعده بتحقيق كل ما يطمح إليه ... في ذلك، واعتنق سيف الإسلام وسمي سليمان بك، ... الفرنسي ... الجيش لم تعصف له ... عليه أن يطالب هؤلاء الذين يضمرون له العداء ... في أول مهمة يعهد إليه الباشا بإتمامها محاصرًا في قصره بعدد من الجنود، لكنه أفلت من تلك المؤامرة بما كان يتحلى به من حنكة. وكم حيكت من حوله من مؤامرات للتخلص منه غير أن شجاعته كانت تنقذه دوما. وذات يوم بينما كان يشرف على تدريب الجنود أطلقوا رصاصة كادت تصيبه في رأسه ولم تصبه إلا بخدش بسيط، ولم يفزع لذلك بل أهاب بجنوده قائلا: «... لتكونوا أدق تصويبا حين ترمون. هيا أطلقوا أعيرتكم». وأطلق الجنود رصاصهم، وعندها لم تتجه رصاصة إلى ناحية رأسه، وما لبث المتآمرون به أن استسلموا وخضعوا فانتهى من تدريب الجيش في سنوات ثلاث على النهج الذي سُمي «بالنظام الجديد» (لوحة ٢٠آ، ب).

لوحة (٢٠آ) جندي مدفعية
مصري من «النظام الجديد»

وكان أهل شبه جزيرة المورة قد دخلوا تحت طيات جيوش تركية أربعة خلال حرب الاستقلال اليونانية حتى غدا الطريق إلى إستنبول ممهدًا أمام «جيوش الكفار» فأسرع السلطان محمود في عام ١٨٢٤ يطلب من محمد علي أن يقضي على هؤلاء الثوار ويخضع له المورة واعدًا إياه أن يسند إليه ولايتها هي وسوريا. حين تلقى محمد علي رجال ديوانه بما طلبه منه السلطان صاح ... الأرمني بوغوص بك متملقا: «قد وفق الله جيشك بفتحك الأرض أجمع ...» ... نابليون ... ويقول المؤرخ الفرنسي إدوار جوان إن محمد علي: «كان يشبه نابليون يمشي مثله مشية عسكرية ويسير وقد شبك ذراعيه خلف ظهره ... كما كان يفعل نابليون، ويحيا مثله حياة بسيطة مسلكا وملبسا. وكان محمد علي مثل نابليون في شأنه إذ صنع نفسه بنفسه ووطد ملكه بالسيف مثله. وكما كان نابليون يحلم بأن يعيد إلى مصر مجدها السالف وعظمتها القديمة وأن يختار لنفسه عرشا تحت سماء الشرق كان محمد علي يحلم بتلك الأمنية التي راودت نابليون من قبل. وحتى عندما كان نابليون سيد أوروبا بلا منازع كان يردد أن الولايات العثمانية الناطقة بالعربية في حاجة إلى تطوير حضاري، وهي لا شك ترقب الرجل الذي يحقق لها تلك الأمنية». وكما كان جان جاك روسو يقول: «من غيري خدم زمانه أكثر مني؟»، كان محمد علي يناجي نفسه قائلا: «من خدم مصر بعد الله والنيل أكثر مما خدمتها أنا؟».

لوحة (٢١) إبراهيم باشا، صورة مطبوعة بطريقة الحفر على الحجر. مكتبة دار الصناعات البحرية بباريس.

استجاب محمد علي لنداء الباب العالي فأرسل جيشه بقيادة ابنه إبراهيم إلى المورة يعاونه الكولونيل سيف، فكُتب له الفوز على الثوار في كل المعارك (لوحة ٢١). ولكن سرعان ما تحركت أساطيل فرنسا وإنجلترا حين رفضت تركيا إجلاء جنودها عن المورة للتحرش بالأسطولين المصري والتركي في مياه نفارين حيث نشبت معركة فاصلة أسفرت عن تدمير أسطولي مصر وتركيا اللذين لم يكونا على قدم المساواة مع الأساطيل الأوروبية، فاضطر محمد علي إلى استدعاء إبراهيم بجنوده من اليونان عام ١٨٢٨. وكانت حرب المورة ... محمد علي وإبراهيم ... ظهرت فيها كفاءة الجيش المصري الذي دربه وشارك في قيادته الكولونيل سيف. ولهذا كان إبراهيم كثيرا ما يخصصه على مرأى من الجنود، وهو يقول له: «نحن ... لا غنى لأحدنا عن الآخر» معلنا أن ... على ما ... معه من مصر؟

لوحة (٢٠ب) جندي مشاة
مصري من «النظام الجديد»

وكان السلطان محمود قد وعد محمد علي بعد أن أخمد ثورة الوهابيين في شبه الجزيرة العربية وبعد حرب المورة أن يسند إليه ولاية سوريا مكافأة له على ما بذل من خدمات للباب العالي، ولكنه لم يلتزم بوعده واكتفى بأن يولّيه جزيرة كريت المعدمة فأسرّها محمد علي في نفسه وظل ينتهز الفرصة لينال الولاية السورية الغنية الموعودة بحدّ سيفه إلى أن واتته الفرصة حين قرر والي عكا أن يضم دمشق إلى ولايته، فأرسل محمد علي إبراهيم باشا على رأس جيشه يعاونه الكولونيل سيف. فغضب السلطان على محمد علي واستصدر فتوى بإزهاق روحه وبادر بإرسال جيش من ستين ألف جندي تحت قيادة قائد لم يكن له رصيد من مجد سوى تخليصه السلطان من جنوده الإنكشارية بمؤامرة تنهج نهج ما قامت به محمد علي في القضاء على

لوحة (٢٢) إبراهيم باشا والكولونيل سيف في معركة نصيبين

المماليك . غير أنه لم يكن يملك حنكة محمد علي ولا كان جيشه في كفاءة الجيش المصري ، وسرعان ما انهار جيش السلطان أمام جيش محمد علي (لوحة ٢٢) ، بل لقد باتت الدولة العثمانية على حد تعبير أحد رجال الدين الأتراك «أشبه بالجثة الهامدة التي يقف على رأسها قائد في جلال لقمان دون أن يكون مالكا حكمته»

وفي أقل من ست ساعات قضى إبراهيم باشا على جيش بأكمله ، وفي أقل من ستة أشهر صد حملتين تركيتين حتى وصل الجيش المصري إلى مدينة كوتاهية بالأناضول على بعد خمسين فرسخا من العاصمة استنبول . غير أن الدول الأوروبية التي هالها قوة محمد علي سرعان ما اجتمعت في لندن في يوليه ١٨٤٠ لتعيد سوريا بكاملها إلى الباب العالي وتحرم محمد علي من نتيجة نصره . ووجدت إنجلترا الأمير دي بيير بالاشتراك بأسطول مع أسطول الروسيا والنمسا به في حصار الموانئ السورية التي كان جيش المصري يرابط فيها ، ثم حاصر الاسكندرية وهدد بضربها وعقد على مسؤوليته الشخصية معاهدة مع محمد علي ضمن له بها ولذريته من بعده حكم مصر ، ووافق على اخلاء جنوده من سوريا . ولم تشترك فرنسا في هذا المؤتمر زاعمة أنها لا تريد أن تورط نفسها في مشاكل السياسة ، وحين صدر فرمان توريث أسرة محمد علي أسرعت فرنسا فتنته وبادرت إلى دعوة إبراهيم باشا إلى زيارة باريس وفي صحبته سليمان باشا الفرنساوي . وتم تحط في ساحة مارس في باريس منذ عهد نابليون أن شهد عرض جنود عسكري مثل تلك الأبهة

لوحة (٢٣) إبراهيم باشا وفي صحبته سليمان باشا في ساحة العرض العسكري بباريس

، والحماسة التي تجلت في استقبال إبراهيم باشا . إذ حضره ثمانية أمراء وست أميرات ومن يربو عن ستين جنرالا من قادة الجيش الفرنسي تكريما لبطل المصري . وكما كان استقبال فرنسا لوالدي احتفالا بإبراهيم باشا كان كذلك احتفاء غير مباشر بعودة «ابنها الضال» بعد أربعين عاما ، تثقفته مصر وهو برتبة متواضعة وأعادته أميرا برتبة اللواء . ومع ذلك حاول نفر من الفرنسيين أن يندد من إسلامه كما حاول نفر آخر أن يعزو إسلامه إلى ما وُعد به المسلمون من جنة أشد بهجة وروعة من تلك التي وُعد بها النصارى (لوحة ٢٣).

وكما كان سليمان باشا جنديا وفيا من جنود نابليون كان كذلك وفيا لمحمد علي ، ودلّل على هذا الوفاء بما كان منه من إقدام وبسالة في ساحات المورة وسوريا والأناضول . وكان لا يفتأ يقول: «لقد أحببت في حياتي ثلاثة رجال هم أبي ونابليون ومحمد علي . أما الأولان فقد رحلا ولذلك انحصر حبي البنوي في محمد علي باشا» وكان محمد علي هو الآخر يقول: «لقد خرج سليمان من صلبي وكأنه أحد أبنائي ، وهو لن يترك مصر إلا إذا تركتها أنا»

وإذا كان محمد علي قد وُفق في اختيار هذا القائد العسكري الفذ ليهض بجيشه الفتي فقد كان موفقا كذلك في اختيار الطبيب الفرنسي المتفاني في عمله كلوت بك الذي أنشأ كما قدمنا مدرسة الطب بأبي زعبل . وقد نشر هذا الطبيب في عام ١٨٤٠ كتابا أشرك فيه معه جمهرة من الخبراء الفرنسيين الذين أسهموا في بناء مصر الحديثة هو كتاب «لمحة عامة عن مصر»[٧] عقد فيه

Clot Bey, Apercu Sur (٧) L'Egypte

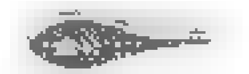

فصولاً متنوعة عن تاريخ مصر والأصول العرقية للمصريين وعن التاريخ الطبيعي والعقائد الدينية والشرائع المطبّقة وعن الآثار المصرية وإنجازات حكومة محمد علي ، وكان الكتاب في أكثره دعاية للوالي. كما خصّص فصلاً للتعليم العام في مصر أورد فيه أنه منذ إنشاء البعثة المصرية التي كان يرأسها جومار عام ١٨٢٦ أوفد الباشا مائة وأربعة عشر طالبا إلى باريس عادوا ليتقلدوا مناصب هامة، من بينهم الشيخ رفاعة الطهطاوي إمام البعثة ومؤلف كتاب «تخليص الإبريز في تلخيص باريز» والذي عيّن ناظرا لمدرسة الألسن ، كما أسس عددا من المدارس على غرار المدارس الفرنسية الابتدائية والإعدادية المتخصّصة تكفلت الدولة بإيواء طلبتها وبطعامهم وكسائهم بل ودفع مرتبات لهم. وذهب كلوت بك في كيل المديح لمحمد علي إلى حد وصفه بأنه امتداد لعبقرية نابليون وشارل الثاني عشر وبطرس الأكبر!

Clot Bey. Aperçu Sur L'Egypte (٧)

وقد كان من الطبيعي أن تجهر بنقد سياسة محمد علي جمهرةٌ أخرى من المفكرين الفرنسيين من أمثال شنتوبريون الذي لم تُبهره السفن والقطر البخارية ولا أرقام حصيلة بيع المنتجات المصرية أو الثروات الخيالية التي كدّسها بعض العسكريين من الفرنسيين والإنجليز والألمان والإيطاليين ، فإنه لم ير في شيء من ذلك بادرة تدل على ارتقاء مصر الحديثة سلّم الحضارة والمدنية ، على الرغم من أن محمد علي قد استطاع بشخصيته القوية وانتصاراته العسكرية ودعايته الماهرة أن يجتذب إلى صفّه الحكومة الفرنسية التي كانت تنظر إلى تركيا على أنها تجسيد للاستبداد والروتين والماضي على حين كانت ترى في محمد علي رمزا للحرية والتقدم. على أن صحفيا فرنسيا هو بوسكيه ديشام[8] الذي كان قد زُجّ به في السجون الفرنسية لتهجّمه العنيف على حكومة لويس الثامن عشر اختار الرحيل إلى مصر بعد انقضاء عقوبته في السجن ليضع قلمه في خدمة الباشا باعث مصر الحديثة من خلال صحيفة أسبوعية يصدرها باسم «صدى الأهرام» . وقد وافق الباشا على إصدار هذه الصحيفة ولكنه لم يلبث أن صادرها بعد شهر واحد بتهمة إذاعتها أسرارا للعرض في نفس ديشام . وكانت هذه ضغنة لبوسكيه ارتحل بعدها إلى أزمير في تركيا حيث رأس تحرير صحيفة «أزمير» وبدأ في تصفية حسابه مع محمد علي ووزيره الأرمني بوغوص بك في حملة عنيفة استخدم فيها إلى جانب موهبته الفذة في الهجاء ضراوة شرسة ، فقد صوّر مصر في عهد محمد علي على أنها مزرعة يستغلها حاكم أجنبي ، ولم ير في المدنية المزعومة في مصر إلا مأساة تختفي وراء ديكور إحدى المسرحيات الهزلية ، وخلف بضع قصور أعيد طلاؤها وثُبّت على واجهة كل منها لافتة تحمل اسم مدرسة لا وجود لها بغرض التباهي الأجوف . كما لم يجد في المستشارين العاملين في خدمة محمد علي إلا زمرة من الأجانب الذين كانت تُسند إليهم أعمالا ليسوا أهلاً لها : «فعلى حين كان الموظفون العموميون من الأرمن الذين لا تعنيهم شؤون البلاد، كان مَنْ يلون الوزارة من الشراكسة الخانعين لأوامر الوالي ، وكانت رتبة البكوية والباشوية قاصرة على هؤلاء الذين يخرجون من دياناتهم ويُسْلمون، ورأينا الذين يُرقّون إلى رتبة الضباط من الألمان الذين لم يتجاوزوا في بلادهم رتبة ضباط الصف ، ووجدنا تلك الثلة من السويسريين نافخي الأبواق تُحشر في زمرة المحاربين الأكفاء ، وكذا كان البدو الحفاة يُحشدون في جملة الجنود النظاميين. ورأينا من بين من ينتحلون صفة الأطباء نفرا من الحلاّقين لا صلة لهم بالطب. وبدا في محيط مدرّسي اللغات الأجنبية من لم يزاولوا هذه المهنة قط وغاية علمي عنهم أنه وفدوا إلى مصر طهاة. وانضم إلى طائفة العلماء الموسوعيين

Bosquet Deschamps (٨)

الساسمونيون الذين زعموا أنهم على خبرة بالهندسة ، وما لبثت دعيات الساسيمونية من الغانيات أن غدون محظيّات بعد أن اعتنقن الإسلام». ثم هو لا يرى في ذلك كله إلا مأساة عامة يتنافس فيها هؤلاء جميعا على أرض الفراعنة الجميلة التي كانت عامرة بسكانها ناعمة بخصب تربتها وثراء ماضيها فإذا هي تتقلّص في عهد محمد علي ، فينكمش سكانها وتتضاءل ثروتها حتى لتحرك في النفس الأسى والأسف. وقد أحدثت هذه الضربات التي كالها بوسكيه لمحمد علي هزّة في علاقته بفرنسا ، بل لقد كانت نذيرا بانتهاء شهر العسل الذي نَعِم به محمد علي طوال نسبي الصحبة مع الكتّاب الفرنسيين . إذ ما لبث أن توالى خلال السنوات الأخيرة من حكمه ظهور العديد من الكتب الغاصّة بالنقد والمعارضة . ويكفي اقتباس جزء من رسالة خطّها الفنان المصوّر أوراس فيرنيه في ١٦ نوفمبر ١٨٣٩ يصف فيها موريستان قلاوون. وهو مستشفى الأمراض العقلية الذي أقيم في القرن السادس عشر. حيث نطالع وصفا صارخا متناقضا مع ما سجّله كلوت بك فيقول : «تتخلّل الجدران فجوات تغطّيها شبكات حديدية ضخمة يرتمي فيها المرضى التعساء عراة فوق الأرضيات الحجرية دون حشيّة من القش سوى فضلاتهم وطبقة سميكة من التراب، وقد أحاطت بأعناقهم سلاسل ثقيلة مزدوجة تثبّت أطرافها بحلقات خارجية. وهو منظر مشين رهيب لا يُتصوّر وجوده في منتصف القرن التاسع عشر في دولة تزهو بأنها تخطو حثيثا نحو الحضارة. . . . إن أولئك الذين يترقّبون إصلاحا في مصر يُفضي إلى مدنيّة واهمون ويخطئون خطأ جسيما ، فما يدور هنا هو انضباط محكم للطغيان لا يستطيع بشر الفكاك منه» .

كما يكشف أوسيب ده سال[9] أحد الرحالة الفرنسيين : «إن حكومة محمد علي تختلف كثيراً عن الصورة التي أشيعت عنه، ولكنه عرف كيف يحيي صحافة فرنسا لخدمة أهدافه بمجاملاته المحسوبة. فما يكاد زائر ذو مكانة مرموقة يطأ أرض مصر حتى يحاط بآيات التكريم ، فتُعدّ له الرحلات المجانية في طول البلاد وعرضها، ينعم بأشهى طعام ويستقل المراكب الفاخرة ويمتطي الجمال والبغال ويحفّ به السّواس والقوّاسون بأعداد لا حصر لها ، ويعامل معاملة الأمراء فتُطلق له المدافع وتُفرش له درجات القصور بالسجاد . إن الباشا يتمتع بذكاء خارق ويخفي وراء دماثته الفائقة دبلوماسية بارعة . فعلى حين يتخذ أمام رعاياه المسلمين صفة المسلم الورع المتمسك بقواعد الدين المحافظ على التقاليد ، يتخذ أمام الأوروبيين صفة الحاكم الإنساني المتحرر» .

Eusèbe De Salles (٩)
Pérégrenations en Orient, ou Voyage Pittoresque, historique et Politique en Egypte, Nubie, Syrie, Turquie, Grèce en 1837-39
Paris 1840

وكتب هامون[10] ناظر مدرسة الطب البيطري بالقاهرة في كتابه الذي ظهر سنة ١٨٤٣ بعنوان «مصر تحت حكم محمد علي» أنه: «بعد معاهدة لندن تأجج سخط محمد علي على الأوروبيين بصفة عامة وعلى الفرنسيين بصفة خاصة لخذلانهم له ، حتى إنه بناء على نصيحة ابنه إبراهيم وحفيده عباس تراجع عن إصلاحاته فأغلق بعض المدارس وشرّد العديد من المدرّسين والمعيدين ، إن مصر الحديثة ليست إلا واجهة زائفة نصبها طاغية مستبد يعبث بمقدّرات شعب مستذلّ يعيش في هوة البؤس».

P.N. Hamont (١٠)
L'Egypte, sous Mehemet Ali,
Leauty et Lecomte
Paris 1843

ويقول فيكتور شولشيه[11] أحد الدعاة ضد الرق في كتابه «مصر في عام ١٨٤٥» : «لم تكن المدارس في نظر محمد علي سوى أداة من أدوات الحرب، فما كاد دوره العسكري ينتهي حتى تخلّى عنها. وإن الفلاح ليتضوّر جوعًا إلى جوار مخازن الوالي المكتظة بالغلال. أما اتسام محمد علي بالجنسية المصرية فليس سوى أكذوبة سياسية ، فليس محمد علي سوى تركي ظل

Victor Schoelcher (١١)
L'Egypte, en 1845
Pagnerre Paris 1846

لوحة (٢٤) عباس باشا - دار الكتب القومية بباريس

طول عمره تركي ولم يفكر لحظة واحدة أن يغدو مصريا ، بل إنه يعد مصر دولة فتحها بحد سيفه ويعامل المصريين معاملة الشعب المقهور ، ويحرص على أن يظل شعبا مقهورا » . على حين يقول المحافظ جسكيه في كتابه «مصر والأتراك والعرب»[١٢] إن محمد علي يستنزف مصر ويعدّها مزرعته الخاصة ، وقد يكون مع ما سبع ولكن عن غير جدارة .

وليس من العسير على المرء أن يتبين سر حملة كثرة من الأوروبيين على محمد علي ممن كانوا بالأمس القريب يظاهرونه ، وهذا حين رأوا منه عزمه على الوقوف في وجه الباب العالي هادفا إلى أن ينشيء من مصر دولة قوية يستقل بها . هنا فزعت أوروبا التي كانت تطمع في تقسيم الإمبراطورية العثمانية المتداعية واقتسام أمصارها ، وتعاورها القلق وهي تشهد علائم ميلاد قوة كبرى تأخذ مكان الإمبراطورية التركية . ومن هنا تحول الأصدقاء القدامى إلى أعداء جدد وبات من الضروري توجيه ضربة قاصمة لقوة مصر الحديثة تنهض فيها الأقلام والسيوف جنبا إلى جنب ، وتشترك المؤامرات السياسية والاقتصادية مع المدافع والقنابل من أجل تدمير الخطر الجديد على أوروبا الطامعة في شرق مستسلم ذليل ، وهي السياسة التي ظل الاستعمار الغربي طويلا متمسكا بها حريصا على ألا تكون لمصر قوة تترعم بها المنعة فتستطيع عن سيطرته . وهو ما رأيناه يتكرر على نفس الصورة تقريبا وبنفس الاتساق الجماعي بين الأطراف الطامعة في ثروات المنطقة يوم قام جمال عبد الناصر وحقق لمصر استقلالها السياسي والاقتصادي والاجتماعي وأخذ يستقطب العالم العربي حول زعامته وسياسته التي رأى الغرب فيها تعاظم قوة كبرى لا يسهل ليّ ذراعها ، وهكذا تم استدراج مصر إلى حرب عام ١٩٦٧ التي زلزلت من الكيان الجديد الناشئ خلف مفهوم القومية العربية والمتجمّع حول زعامة رجل أحدث تأثيرا حقيقيا في انفلات أكثر دول آسيا وإفريقيا من قبضة الاستعمار الغربي .

ولم تلبث المؤامرات التي حاكها الغرب ضد محمد علي أن آتت ثمارها ، فانكمشت إمبراطوريته تحت الضغط البريطاني ، وانزوى منشئها العظيم يندب في مرارة حظ دولته العاثر حتى وفاة الأجل المحتوم عام ١٨٤٩ وخلفه عباس ابن نجله الأثير طوسون الذي توفي في سن العشرين .

وكان عباس كما وصفه بيير كرابيس في كتابه «إسماعيل المفترى عليه» مزيجا من الجهل والجبن والتعصّب ، كثير التقلب متأخرا رجعيا يمقت الأساليب الأوروبية وكل ما هو غربي ، ويخشى نفوذ المسيحيين في مصر . وكان يسخر من محمد علي بقوله : «كان جدّي يزعم أنه أوتوقراطي ، وفي الحقيقة أنه كان أوتوقراطيا على رعيته وأولاده فقط في حين كان أمام قناصل الدول بمنزلة الخدم لهم ، وإذا كان حتما عليّ أن أذعن لأحد فأولى بي أن أذعن لخليفة المسلمين لا للنصارى تابعين أمر مهم» . وعاش عباس في عزلة عن رعيته قلما يراه أحد ، مقيما في قصور حصينة مستورة عن الأنظار في الصحراء أو على سواحل البحر وحوله نفرٌ من عبيده المتملقين وطائفة من الوحوش الضارية التي كان يلهو بجمعها وترويضها (لوحة ٢٤) .

هكذا كانت فترة حكم عباس ردّة قصيرة عن سياسة التحديث التي بدأها جدّه فسرّح جزءا كبيرا من الجيش وأغلق المدارس والمصانع التي أنشأها محمد علي ، موقنا أن قيادة شعب جاهل أيسر من قيادة شعب متعلم . وكان مقتله في قصره ببنها هو الحدث الوحيد المثير في سيرته ، والغريب أن أحدا لم يوجّه إليه الاتهام على ارتكاب هذه الجريمة . وإذا كان عباس ضائقا بكل حدة

H. Gisquet (١٢) L'Egypte, Les Turcs et les Arabes. Amyot, Paris 1848

لوحة (٢٦) يمين فرديناند دلسبس

لوحة (٢٥) يسار: سعيد باشا

بالفرنسيين الذين وصفهم جراح بريطاني معاصر لهم بأنهم شرذمة من سفلة المغامرين وحثالة أهل جنوا ومرسيليا . اتجه نحو الأنجلوساكسون ، فشجّع صمويل شيرد على تأسيس فندق عدت شهرته من ذلك شهرة الأهرام ، كما منح البريطانيين امتياز إنشاء خط سكة حديدية بين الإسكندرية والقاهرة ، ثم خلفه بعد عمه سعيد الذي اشتهر بالذي حكمه على العرش من عام ١٨٥٤ إلى عام ١٨٦٣ لينفق على مزارعه في قطرة مزركشة بزخارف التوريق المنقوشة ومجهّزة بالأرائك الجلدية (لوحة ٢٥) . وكان من بين رفاق صبا سعيد فرديناند دلسبس ابن قنصل فرنسا في القاهرة منذ عام ١٨٠٢ الذي لم يظل إغراؤه لسعيد بشق القناة في برزخ السويس غير نيله واحدة ، فمنحه امتياز حفرها ناقضا بذلك سياسة سلفه الذي كان يقاوم مشروع شق القناة بكل قوة لعلمه أنها ستقضي على استقلال مصر (لوحة ٢٦) . على أن محمد علي كان قد اقترح بدلا من شق القناة عقد معاهدة بين مصر وإنجلترا تضمن للأخيرة سهولة اجتياز الأراضي المصرية في زمن وجيز ، وذلك خلال مرور حاكم الهند البريطاني بمصر عام ١٨٤٤ . وهكذا قُدّر لدلسبس أن يحرر بقناته فتحة إلى الشرق ويمتص «إكروتيسه»[١٣] التليدة ويحطم الأسوار التي كانت تفصل الغرب عن دقائق الحياة اليومية في الشرق . وكان سعيد قبل وفاته بثمانية عشر يوما قد قضى على مصر بأن تتورط في حرب طاحنة في المكسيك ليس لها فيها مصلحة على الإطلاق ولا يهمّها شيء منه من قريب ولا شك في أن اشتراك مصر في تلك الحرب يومئذ كان دليلا جليا على مبلغ سعيد من المحظوظ بتبعيته إلى حد عدم ممانعته من تحركه صنيعة فرنسا من وراء ستار . وبعبارة موجزة أورث سعيد خلفه شعبا موثق اليدين والقدمين بمشروع قناة السويس وسياسة خارجية أملتها فرنسا وديونا باهظة تثقل كاهل البلاد ، وإن كان كل من عباس وسعيد من خلال مد شبكة السكة الحديدية وشق القناة قد أعادا إلى مصر سابق عهدها كمركز عالمي للمواصلات قبل رحلة فاسكو داجاما البحرية حول رأس الرجاء الصالح

(١٣) Exoticism الإكروتية أو الإغراب هي شغف بكل غريب والمدمن بعد ناء ، ووجدت له بحمسة من كل عجيب محجوب تنجذب إليه النفوس ، أو هو تعلق بكل ما هو غريب ... [illegible] النصور لونجمان ١٩٩٠ م .

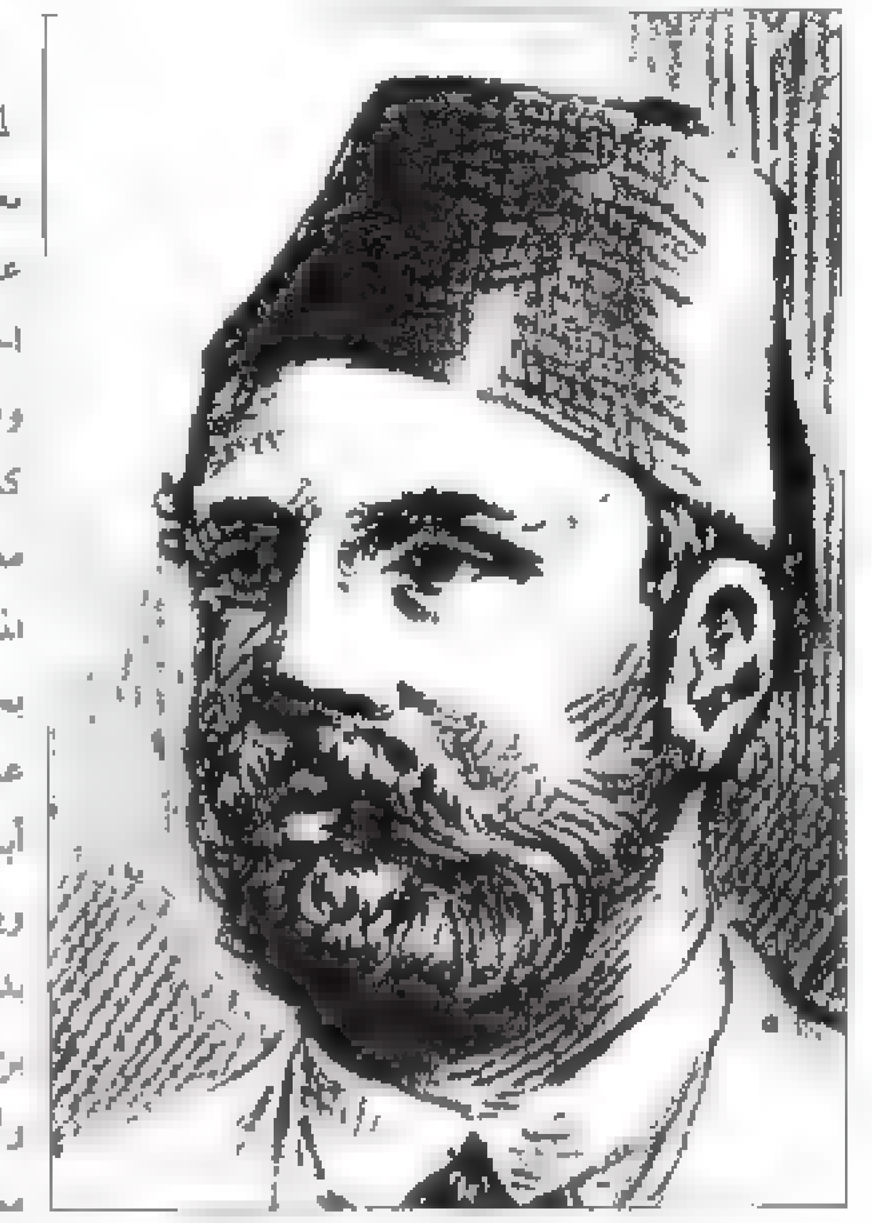

لوحة (٢٧) إسماعيل باشا

كتب الجنرال وليم لورنج ، وكان قائدا عسكريا مرتزقا بالجيش المصري في عهد سعيد : «استقبل شعب مصر ارتقاء سعيد العرش بغبطة لأنه كان يرحب بأي تغيير يخلصه من حكم عباس ، ولكنه ما عتم أن تملكه الحزن بسبب عبء الضرائب الباهظة الذي ألقاه عليه الحاكم الجديد ، وكانت سياسة سعيد تقوم على كثير من الظلم والاندفاع وراء الأهواء» . ويذهب كرابيتز إلى أن دفاتر الحسابات كانت يومئذ في عهدة طائفة من الكتبة الأقباط الذين استنبطوا أسلوبا معقدا لمسك الدفاتر ، ولم يكن غرضهم من ذلك الاختلاس أو مد يد المساعدة إلى وزير المالية وإنما احتكار جميع الأعمال المتعلقة بحسابات الحكومة المصرية لأنفسهم ولإخوانهم في العقيدة . وبناء عليه توارث الأقباط أسلوبا سريا ينطوي على خفايا تلك الحسابات أبا عن جد ، وإذا حاول اليوم أحد أن يطلع على حقيقة تلك الدفاتر ويفك طلاسمها لم يظفر بطائل . لقد كانت التركة التي خلفها سعيد بدء الارتباك المالي الذي أوقع مصر في المصائب» . وكان إسماعيل بن إبراهيم باشا هو الذي هيأه القدر لاستلام هذه التركة المثقلة ، ولاستغلال الأهمية الإستراتيجية الجديدة لمصر ، وكذلك الإفادة من محصول القطن الذي أدخل محمد علي زراعته إلى مصر . ومنذ البداية عقد إسماعيل العزم على أن يمنح القاهرة وجها عصريا جديدا هو الذي تكاد بصماته الواضحة تبدو به حتى اليوم (لوحة ٢٧) . وخلال مدة حكمه التي دامت من عام ١٨٦٣ إلى ١٨٧٩ أنفق إسماعيل ببذخ شديد على شتى مظاهر الدولة المصرية ، من منارات لتيسير الملاحة إلى مكاتب للبريد ومدارس للبنات وفنادق للأوربيين . غير أن ذروة بذخ إسماعيل قد تمثلت في احتفالات افتتاح قناة السويس عام ١٨٦٩ ، وهي المناسبة التي [illegible] دار للأوبرا ، ولكي يربط مصر بحضارة أوروبا عهد إلى الموسيقار فردي بتلحين أوبرا عن مصر القديمة هي «عايدة» [illegible] غير أن أهم ما كان يشغل بال إسماعيل الذي تدفقت في عهده جموع الأوروبيين على البلاد هو زيارة [illegible] أوجيني [illegible] الثالث وأجمل جميلات أوروبا ، فشيد لها قصرا [illegible] ذوقه بإعجاب بعض الأوروبيين [illegible] لقصر في الجزيرة الوسطى أو الزمالك ، وهو الاسم الذي أطلق على بضع أكواخ كان محمد علي قد شيدها في هذا الموقع . وقد حصل إسماعيل من الباب العالي على أمر بتوليه حكم مصر على أن يكون انتقاله إلى [illegible]

وكان إسماعيل مولعا بالتشييد والبناء كما قدمت فشرع في [illegible] مثل سراي عابدين وقصر النيل وسراي الجيزة والقصر العالي [illegible] وكما على امتداد ضفاف النيل بجزيرة الروضة والجزيرة [illegible] من قصور في الإسكندرية والمنصورة والمنيا ، التي [illegible]

لوحة (٢٨) أعمال الحفر بقناة السويس

[illegible] لعل [illegible] إسماعيل في بناء هذه القصور كان لأن مخصصاته بلغت ضعف مخصصات الملكة [illegible] إمبراطورة الهند التي كانت تعاصره[14] [illegible] على [illegible] جميع [illegible] أن يعتبر [illegible] في احتفالات افتتاح قناة السويس (لوحات ٢١ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣) [illegible] الأوروبية [illegible] في موطن [illegible] على [illegible] في العالم [illegible] الرق وبجاحه في إلغاء نظام السخرة الذي كان مطبقا في مشروع قناة السويس وفق شروطه الأولى . وقد شيد أثرياء هذه الجاليات الأجنبية أحياء جديدة تناثرت فوق المنطقة ما بين الأزبكية ونهر النيل ، فبنوا قصورا [illegible] محاطة بحدائق [illegible] عاش الفقراء منهم في بيوت سيئة [illegible] في كتابه «المسألة الشرقية» إن هذا الطوفان من الأوروبيين الذين بلغ عددهم [illegible] عام ١٨٦٥ وحدها كان له أثر ثوري على العاصمة المصرية : «العاصمة منذ ستة قرون كانت [illegible] مع عامة الشعب من المصريين ، يتخالطون في السراء والضراء في شوارع المدينة دون حاجز . وقد يستند كوخ إلى جوار قصر كما يتحادى الشحاذ والأمير في صفوف الصلاة بالمساجد . أما اليوم فقد تبدلت الحال وبانت هناك قاهرة مصرية وأخرى أوروبية لا

(١٤) بلغ ما أنفقه إسماعيل على قصر الجيزة ٣٧٤ ، ٣٩٣ ، ١ جنيها ، وعلى قصر عابدين ٦٦٥ ، ٥٧٠ جنيها ، وعلى قصر الإسماعيلية ٢٨٦ ، ٣٠١ جنيها ، وعلى [illegible] ٦٧٩ ، ٣٣٣ ، ١ جنيها [انظر الخطط التوفيقية لعلي مبارك صفحة ٢١٣]

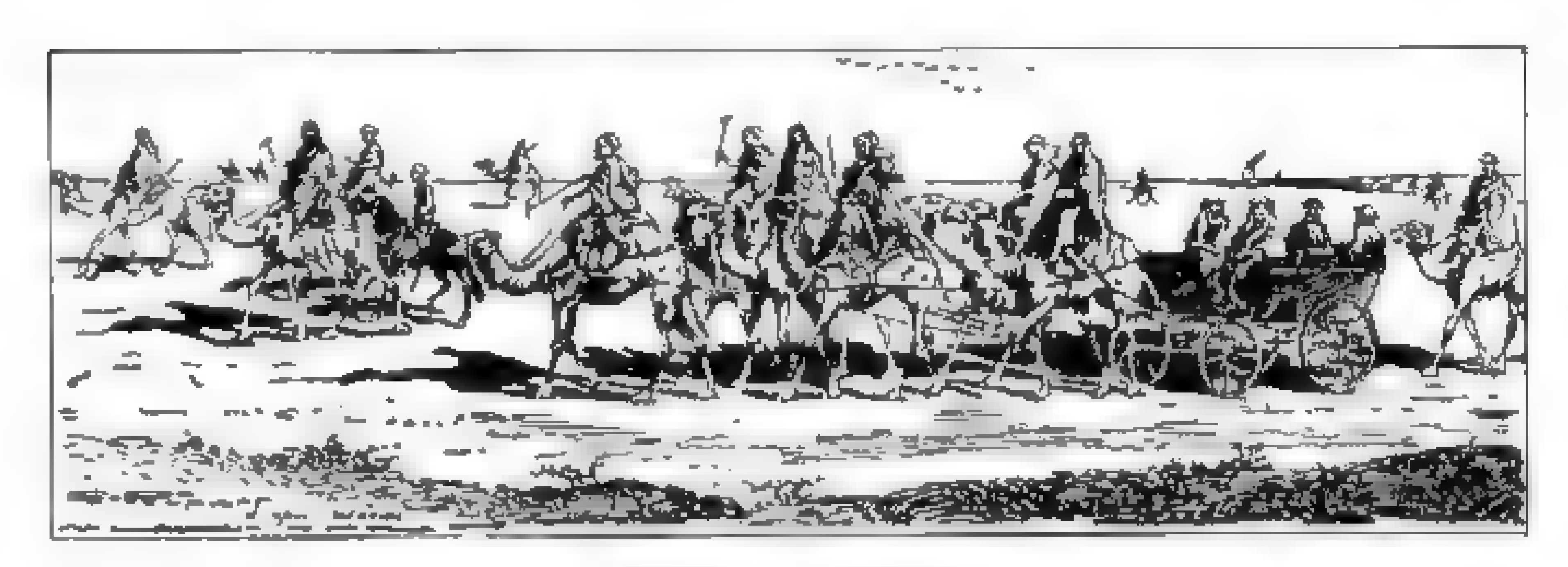

لوحة (٢٩) دلسبس في حوبة بالمنشية

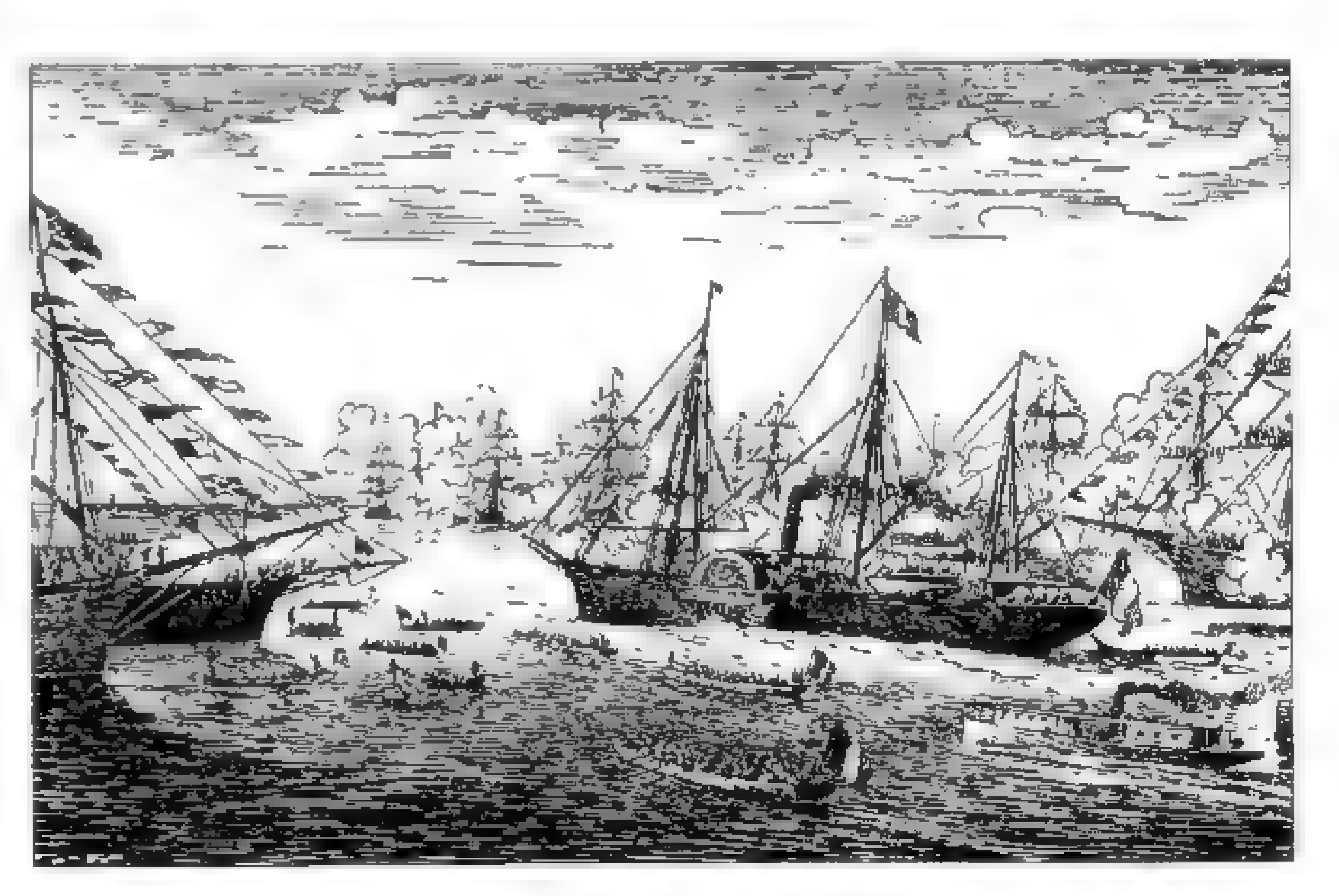

لوحة (٣٠) وصول سفينة « النسر الصغير» إلى بورسعيد

لوحة (٣١) موكب الملوك في حفل افتتاح قناة السويس بالإسماعيلية

يربط بينهما شيء ، فبينما كانت القاهرة الأوروبية تتفسح لأبنية وطرقات جديدة أنيقة ، كانت القاهرة الأولى تعيش في ظل إهمال مطلق ، إذ شقّت الحكومة طرقا جديدة مثل شارع محمد علي الذي يربط القلعة بالأزبكية ضحّت في سبيل مدّها باستقامة بهدم كثير من المساجد والقصور ذات القيمة الأثرية التي لا تعوّض.

ولعل عدم مبالاة إسماعيل بإصلاح الآثار والأبنية الإسلامية كان مردّه إلى أنه كان مهتما باستحداث عاصمة جديدة ، فقد تملّكته رغبة عارمة في أن يشهد الغرب أن ثمة عاصمة أوروبية في القاهرة تحكم دولة عصرية تقوم على ضفاف النيل وتمتد ما بين الإسكندرية والخرطوم ويرسم س. س. هيل في كتابه «رحلات في مصر وسوريا» صورة أدبية كئيبة للقاهرة وقتذاك وهو يطلّ عليها من فوق تلال المقطم فيقول إن : «كل شيء تغطيه الرمال وتضفي عليه ألوان الصحراء، من مساكن الفقراء العارية عن السقوف إلى منازل الموسرين الكبيرة . وحتى مآذن المساجد وقبابها التي تزيّن أفق المدينة باتت هي الأخرى بالية مشوّبة بألوان الموت الصحراوية، وقد مالت بعض المآذن وانكفأ بعضها الآخر وكأنما أصابته قذيفة مدفع!.»

غير أن الإنصاف يقتضي أن نقول إن القاهرة لم تكن آنذاك دون الكثير من عواصم العالم سوءًا في حالة المداعبة وصروفها الصحية التي دون المستوى وبانعدام وسائل الصرف الصحي وبعملية رفع القمامة والمخلفات . فبالرغم من دأب الرحّالة الأوروبيين على تعديد أوجه النقص في تنظيم المرافق بالقاهرة فإنها في حقيقة الأمر لم تكن أسوأ حالا من بعض أحياء روما أو لندن أو باريس . فقد كان ثمة فارق عظيم بين شرق لندن وغربها التي جاء وصفها على أيدي الرحالة

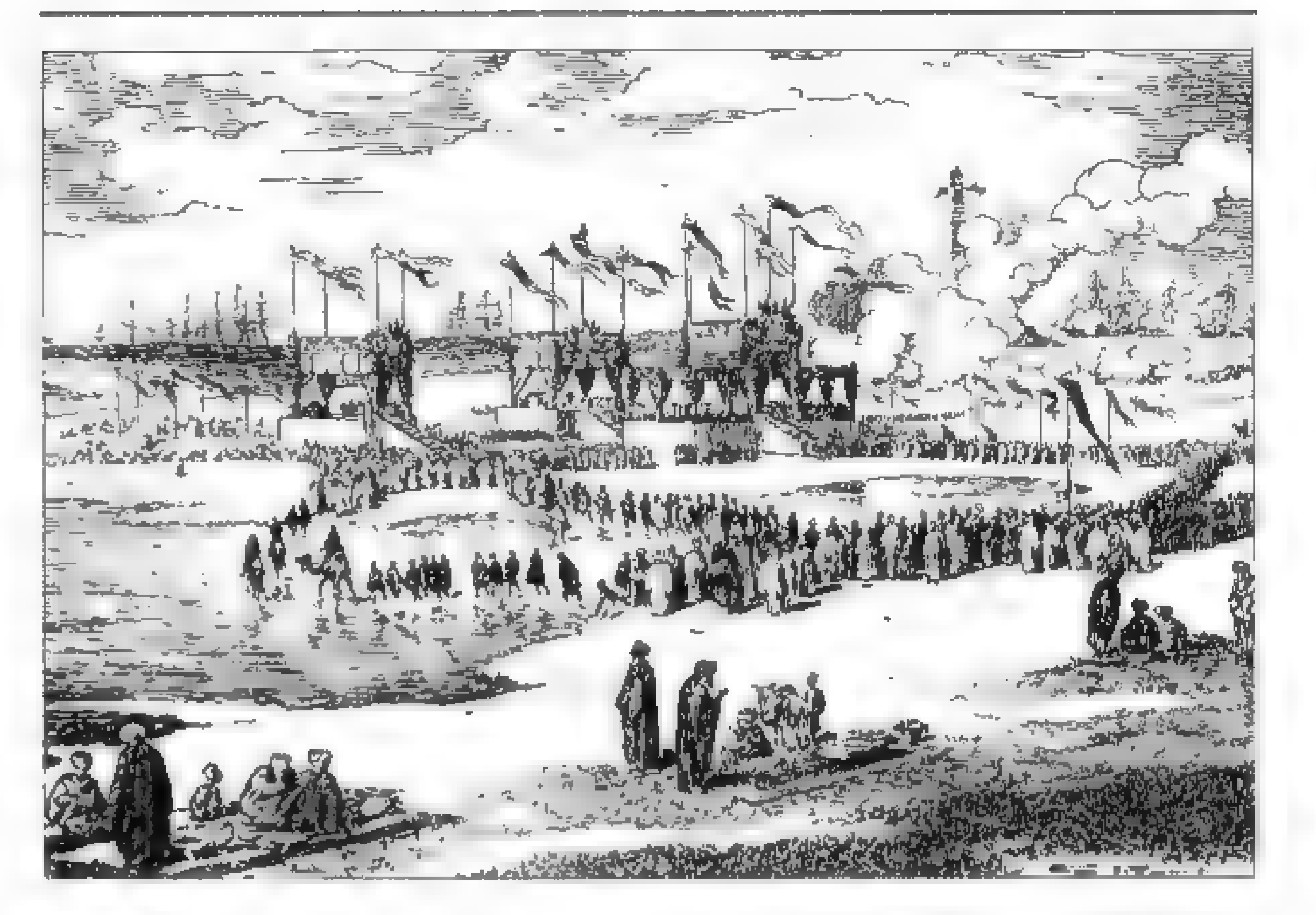

لوحة (٣٢) حفل افتتاح قناة السويس

الأوروبيين خلال القرن الثامن عشر ، فعلى حين تجد في غربها الطرق المرصوفة والأطورة الممهدة والمجاري الخفية في باطن الأرض والإضاءة والسكون والأمن ، كانت الطرق في شرقها موحلة غير مرصوفة ، كما كانت مجاريها على سطح الأرض يُقذف إليها بفضلات الطعام والقاذورات من النوافذ وقد تصيب المارة أثناء سيرهم في الطريق ، كما كان القصابون يذبحون الماشية في الطريق العام ويرمون أمعاءها فيها تتنازعها كلاب الحي . كذلك لم تشرع السلطات الفرنسية في إصلاح حال باريس إلا في شهر يونية عام ١٨٥٣ عندما عين نابليون الثالث البارون جورج أوجين أوسمان محافظا لها وعهد إليه أن يعمل على تخليص مدينة باريس من «أسمال القرون الوسطى وتحويلها إلى عاصمة العواصم». وكانت مدينة باريس وقتها تكتظ بمليون نسمة محشورين في متاهة يعسر اختراقها من المساكن المتداعية والأزقة الضيقة الموحلة حتى وصفها الروائي أوجين سو بقوله: بيوتٌ بلون الوحل تتخللها قلة من أطر النوافذ نخرها الدود . . وما أشد ضيق الشوارع التي كانت عبارة عن حارات قاتمة وسخة ، تؤدي إلى درج أشد قتامة وأكثر وسخا ، يبلغ انحدارها من الشدة ما كان المرء يعجز معها عن صعودها إلا بمساعدة حبل مثبت بمحابس حديدية في الجدران اللزجة» . وبطبيعة الحال كانت باريس ما تزال تحمل نماذج باهرة من عصر القرن السابع عشر مثل ميدان فوج والتويلري وميدان الكونكورد وقصر فرساي، غير أنه عندما بدأ أوسمان مشروعاته التي استغرقت سبعة عشر عاما كان ثمة ستة وتسعون مصرفا مكشوفا للمجاري تلوث نهر السين ، وحين انتهى منها كان لكل شارع في باريس مصرفه المغطى ، فأنشأ ثلاثمائة ميل من هذه المصارف كانت جميعها دهاليز فسيحة جيدة الإضاءة وهي

لوحة (٣٣) حفل العشاء الذي أقامه إسماعيل باشا لضيوفه من الملوك والحكام .

التي تضمُّ اليوم أنابيب المياه وأسلاك التليفون والتلغراف . ولقد أثارت كفايتها المبتكرة سخرية كاتب من الكتّاب الفرنسيين وقتذاك فإذا هو يقول : «ما من شك في أن إنشاء هذه المصارف يؤذن بأنها ستكون معرضا لحدث عجيب يقع فيها»

ويثير دهشتنا ذلك الحماس الذي يبديه علي مبارك في «الخطط التوفيقية» للدعوة لسياسة التحديث المعماري فيصم مباني القاهرة التقليدية بأنها تفتقر إلى التناسب ، لا يُعنى فيها بتجديد الهواء ولا بحسن التصميم ، بينما يوفر الطراز «البناء الرومي» الجديد بهجة المنظر وحسن الوضع وقلة التكاليف ، فهي إما مربعة أو مستطيلة لا تحتاج إلا لحجمها بخلاف الطراز القديم حيث تشغل القاعة الواحدة أكثر مساحة الدار . كما استعيض عن المشربيات المصنوعة من خشب الخرط بنوافذ مستطيلة تحميها ضلف رجاجية ، واستبدلت بخردة رخام الرقاعات والحمامات بلاطات الرخام الأبيض والأسود ، وأهملت عادة زخرفة أركان الزوايا بالمقرنصات الباهظة الثمن وحلّت محلها السقوف الرومية المستوية أو المفرّغة ، وتغيّرت واجهات البيوت التي كانت تُعدّ في الماضي على غير قانون هندسي حتى غدت مماثلة لواجهات أحواش الموتى ، فصار تقسيم الواجهة عرضا وارتفاعا بكرانيش بارزة تمر بالطلال طولا وعرضا . وانصرف الناس عن الأبواب الدقيقة المكفتة بالصدف وقطع الخشب المشغّة ذات الأشكال الهندسية واستعيض عن هذه الأبواب بالأبواب الحشو ، واختفت صب الخشب المرصّعة بالعاج والأبنوس لتحل محلها الكوالين ، وبطل استخدام الرفوف والدواليب «الصافات» التي كانت تُحفر في سمك الحائط كي تصطف عليها أواني الزينة للزهو والتباهي . وإذ كانت الصنائع الأوروبية زهيدة الثمن تغير الأثاث والمفروشات فحلّت محل

السبع الهندية والعجمية، واستبدل الصيني بالأواني النحاسية، وأضاءت المصابيح الزجاجية وشمع النّحل الأبيض مكان مسرح الصفيح والشمع الكريه الرائحة[15]

* * *

على أن مصر لم تجتذب إليها المماليك والتجار المغامرين بحثا عن الثراء وأصحاب المشروعات الصناعية والهندسية فحسب، بل لقد اجتذبت أكثر من كل هؤلاء جمهرة من الأدباء والفنانين والرحّالة المفكرين. وكانت قد تفشّت بين أصحاب النزعة الرومانسية[16] من الفلاسفة والكتّاب والشعراء والفنانين في مطلع القرن التاسع عشر ظاهرة النزوح الروحي، تلك الظاهرة التي تواكب الشعور الوجداني بالإحساس بالحاجة إلى الفرار من بيئتهم التي عاشوا فيها إلى بيئة أخرى، لا يعنيهم من تلك البيئات القديمة إلا ماضيها الحافل بالتاريخ والعظات والعبر، وما تحفل به من مشاهد مثيرة للخيال، إذ كانت الثورة الصناعية قد خلقت من بيئتهم بيئة كابية مُغْبِشة، وكلما امتد الزمن زادت بُعدا عن الصفاء السالف. وعلى حين كانت حكومات أوربا البورجوازية تحول بين شعوبها وبين المغامرة خارج أوطانهم كانت لا تجد بأسا من أن تطلق أيديهم في المغامرة كيفما شاؤوا في الأقطار التي كانت لها في حسبانهم ميزات اقتصادية وإستراتيجية. وانتشرت هذه الظاهرة أول ما انتشرت في الأدب. وكانت البيئة التي هاجر إليها الكتّاب هي الشرق من أدناه إلى أقصاه، هاجروا إليه بروحهم وخيالهم لا بأجسادهم. وكان في مقدمة هؤلاء فردريك شليجل الذي نادى بالتقصّي في الشرق عن أنقى ينابيع الرومانسية وإن كان يقصد بالشرق الهند. وجاء في إثر شليجل الشاعر الذائع الصيت يوهان فلفجانج جوته الذي كان ينادي بأن الأوفق الاتجاه صوب الشرق، بعد أن آمن بأنه لا معدى عن الفرار من عالم الواقع الحافل بالأخطار والمشقة إلى ذلك العالم الخيالي المثالي المنطوي على المتعة بالملاذ وإطلاق الخيال لوفق مقدور كل إنسان، عالم الشرق، عالم البساطة والفطرة الأولى الذي نفت حضارته على حدتها دون غير. وكان جوته قد ألّف ديوان شعره الخالد «الديوان الشرقي للمؤلف العربي» الذي نهج فيه نهج أدباء الشرق وشعرائه وخاصة الفرس منهم.

ويعبّر الديوان عن نظرة جوته إلى الديانات المختلفة. وما من شك في أن عقيدة الإسلام قد ظفرت من بين سائر العقائد بأوفى قسط من اهتمام الشاعر، حتى إنه آثر أن يأخذ القصص ذات الأصول التوراتية والإنجيلية من القرآن الكريم مباشرة، فإن ديوانه يفيض بإعجابه الشديد بالإسلام، وإذا هو يقول: «لو انتهينا إلى أن معنى كلمة الإسلام هو تسليم أمورنا لله فنحن جميعا مسلمون». ولم يجد حرجا وهو المسيحي الغربي في أن يبدو في عداد المسلمين يؤمن كما يؤمنون برسالة محمد عليه الصلاة والسلام، فلقد كانت عقيدته مزيجا من أنقى ما تنطوي عليه الديانات جميعا. ونرى له في ثنايا الديوان كم تغنّى بهذا كله:

الشمال والغرب والجنوب يتهاوى ويتناثر
والعروش تُثَلّ والممالك تتزعزع وتضطرب
فلتهاجرْ إذن إلى الشرق الطاهر النقي،
كي تستروح جو الهداة والمرسلين.
هنالك حيث الحب والشراب والغناء.
سيعيدك نبع «الخضر»[17] شابا من جديد
إلى هنالك حيث الطاهر والحق والنقاء،
بودّي أن لو أقود الأجناس البشرية
حتى أنفذ بها إلى أعمق الماضي السحيق
حين كانت تتلقى من لدن الرب
وحي السماء بلغة الأرض دون بلبلة الرأس بالتفكير.
أجل، هنالك أود التملي بنبع الشباب
فيكون إيماني واسعا عريضا، وفكري ضيقا محدودا
وودّي أن لو أتعلم كيف تقدّس الكلمات
لا لشيء إلا لأنها كلمات فاهت بها شفاه..
في نيتي أن أدخل في زمرة الرعاة،
وأن أجدد نشاطي في ظلال الواحات.
وفي عزمي أن أسلك كل سبيل،
من البادية إلى الحضر، ومن الحضر إلى البادية،
يا حافظ[18] إن أغانيك لتبعث السلوى
إبان المسير في الشعاب الصاعدة الهابطة،
حين يغنّي حادي القوم ساحر الغناء،
وهو على ظهر دابته،
فيوقظ بغنائه النجوم في أعلى السماء،
وإنه ليحلو لي أي «حافظي» الأقدس أن أحيّي ذكراك
عند الينبوع الصافي، وفي حانات الصهباء،
وحين تكشف المحبوبة عن نقابها قليلا
فيفوح منها مهتزا عبير المسك والعنبر[19].

وكان من إعجاب الأديب الفرنسي تيوفيل جوتييه بهذا الديوان أن قال فيه: «إن جوته قد وضع ديوانه الشرقي خلال قصف المدافع في حروب الإمبراطورية ليجعل منه واحة نضرة يراح إليها الفن، مُطّرحا جانبا شكسبير، مقتفيا إثر الشاعر الفارسي نظامي ليعبّق كلامه بعبير صندل الشرق، متحديا لأغنية الهدهد غطا شرقيا». كذلك بدأ هينريش هاينه ١٨٢٧ بكتابة عن الأندلس في ديوانه «المنصور» التي تدور أحداثه في قصر الحمراء بغرناطة. ولم يكتف هذا الشاعر اليهودي عن الثناء على بلاد الإسلام على الرغم من أنه لم يزرها قط، وحاكى هاينه في ديوانه أوزان «نشيد الأنشاد» والقصائد الفارسية، ومن ذلك شعره الذي قاله فيه: «أسمعت الزهرة ست عشرة مرة ودمدمت ست عشرة مرة. وشدا البلبل أغنيته وسكت عنها ست عشرة مرة وطوال هذا المدى ظل الشاعر عاكفا آناء الليل وأطراف النهار أمام نول أفكاره لينسج أبيات قصيدته الطويلة».

على أن النزوح إلى الشرق كان أحد معالم الحركة الرومانسية في إنجلترا قبل فرنسا، وكان الشاعر بايرون من عُمُدها الكبار. وما لبث هذا الاتجاه أن نشط في أوروبا وخاصة في فرنسا

(١٥) نص «الخطط التوفيقية» صفحة ١٩٨

(١٦) Romanticism هي منحى ينحو فيه إلى التعبير الذاتي والانفعالي دون التفات إلى جمال «الشكل». ومع أن هذه النظرة قديمة قدم العصور، غير أنها لم تأخذ معناها الاصطلاحي إلا مع ظهورها في حركة فنية تشمل الأدب والتصوير والموسيقى في أواخر القرن ١٨ وازدهرت أثناء العقد الرابع من القرن ١٩ [المعجم الموسوعي للمصطلحات الثقافية لكاتب هذه السطور]

(١٧) سيدنا الخضر [إيليا] فتى موسى عليه السلام، يلتقيان معا بمجمع البحرين على نحو ما جاء في سورة الكهف (٥٩-٨١). [illegible] شبابه.

(١٨) حافظ الشيرازي (١٣٢٠-١٣٨٩). سُمّي حافظ لأنه كان يحفظ القرآن. ويعدّ من أعظم شعراء الفرس المتصوفة. اشتهر بغزلياته التي هام بها مواطنوه لما تنطوي عليه من دعوة إلى الزهد والتصوف. بلغ إعجاب جوته به حدا بعيدا لاسيما مزجه بين الحسّية والروحانية

(١٩) نص «الديوان الشرقي للمؤلف الغربي» جوته ترجمة د. عبد الرحمن بدوي

فكان من أكثر من كتبه على الخروج إلى الشرق بأرواحهم لا بأجسادهم هم الآخرون مثل فيكتور هوجو الذي كتب في مقدمة ديوانه «الشرقيات»: «لقد أصبحت العناية بالشرق هذه الأيام [illegible] في عهد لويس الرابع عشر [illegible] ما هو يوناني. تجمعهم الآن مولعين بالشرق. ففي كل مكان يستحوذ الشرق، حيث الخصب والثراء والوفرة، على العقل والخيال، وباتت أوروبا بأجمعها ترنو إليه».

وبلغ من شيوع «الشرقيات» (١٨٢٩) أن تحولت بعض قصائده إلى أغان شعبية مثل أنشودة القرصان التي تقول:

«لا تبالوا بتأوهات الأسيرة زاعمة أنها تحتضر.
فهل تنعم الراهبة في ظلال الدير
بأعمق مما تنعم به الأسيرة المحظية في مخدع السلطان؟
وهل يومض الدر على مقابض الخناجر
أكثر مما تتألق به المحظيات بين أحضان السلاطين؟».

وإلى هؤلاء [illegible] لم يرحلوا إلى الشرق [illegible] كان ثمة من رحل إليه بأجسادهم، مزودين بقراءاتهم عنه في المراجع الكلاسيكية والآداب المعاصرة والاستشراق الأكاديمي. [illegible] بعد أن اجتذبهم سحر المناطق «الإكزوتية» الغريبة النائية فجاء شرقهم شرقا عايشوه واندمجوا معه جماليا وخياليا لا شرقا مستشفعا منها، فهم لم يكتفوا بالنصوص المأثورة عن المستشرقين المعاصرين لهم وتحولاتهم [illegible] مستخدمين لغة الاستشراق المعهودة آنذاك، بل كانوا حريصين من وراء رحلاتهم هذه إلى الشرق على إرواء أنفسهم بما يوحي إليه [illegible] عن وحي جديد في أرض الأدب والوحي والماضي العريق، لا يبالون بأن يكون إنتاجهم متفقا وميول حكوماتهم الاستعمارية.

ولم يكن يتوافد على الشرق ويتدافع الكتاب والفنانون والمستشرقون فحسب بل كان هناك أيضا العديد من السياسيين والمغامرين والمهندسين ورجال الجيش الفرنسي الذين أمضوا حياتهم في خدمة الشرق. وكانت مصر في طليعة الدول التي رحبت بهم فاعتنق بعضهم الإسلام وأخذوا بعادات أهل البلاد. ومنذ نهاية حروب نابليون غدا الشرق الأدبي موطن الإثراء السريع للبعض، وموطن الحرية بلا قيود للبعض الآخر، ومهبط السحر والغموض لفريق ثالث، ومرتع المغامرة والمتع وإشباع الشهوات لفريق رابع، تلك المتع التي أثارتها قصص شهرزاد في «ألف ليلة وليلة». وكان من هؤلاء من جاءوا مصر للتحقق عن أنفسهم من غلواء رومانسيتهم فإذا هم يتحولون أدباء ساخرين، وكان منهم أيضا من رحل عن مصر بغير الأغراض التي وفد إليها بها وإذا هم قد امتلأت نفوسهم بذخيرة أدبية بديعة وتحولوا بوجدانهم من الإبهام إلى الإفصاح.

تلك نبذة تاريخية موجزة كان علي أن أسوقها، إذ هي تكشف عما وراءها من إنتاج هذا الحشد الهائل من الكتاب والأدباء والرحالة والفنانين الذي حان الآن أن نطالعه.

الفصل الأول

«الرحّالة الحقيقيون هم مَن يرحلون حبّاً في الترحال وحده، بقلوب في خفّة الرّيش وبتقبّل لقدرهم المحتوم، مردّدين دائماً: هيّا بنا، دون أن يتبيّنوا حافزهم الخفيّ إلى ولوج هذه السبيل».

بودلير

«أزهار الشر»

الباب الأول

الرحّالة الفرنسيون

لم يكن الغرب يعرف مصر الإسلامية خلال القرن الثامن عشر معرفته بها في عهدها الفرعوني، إذ خيّم عليها ظلام الحكم التركي فمُنيت فنونها بالتدهور وحجبت عيونه آثارها الإسلامية العظيمة، فضلا عن أن الفن الإسلامي لم يكن قد مسّ وجدان أهل أوروبا الذين نشأوا على تذوّق الحضارتين الكلاسيكية والمسيحية، كما نشأوا على التوجّس من غارات عرب الأندلس المسلمين وغزوات الأتراك العثمانيين. هذا إلى ما كان يجده الأوروبيون المسيحيون من صعاب ومشاق إذا ما رغبوا في دخول المساجد والأضرحة والأحياء الوطنية المُعتمة على نفسها، ومن ثم قلّ مَن كتب عن العمارة الإسلامية بين الرّحالة المسيحيين، وإن كان بعض القسوس الذين اجتذبتهم روح البحث العلمي قد غامروا بالاختلاف إلى الأزهر سعيا وراء شراء بعض الوثائق ومخطوطات العصور الوسطى الإسلامية.

Les Abées d Orval et (1) Fourmont

ومن بين جميع الرحالة الغربيين في القرنين السابع عشر والثامن عشر لم يحسّ بالفن العربي قبل حملة بونابرت غير قنصل فرنسا بنواده ماييه(2) الذي عكف على دراسة العمارة الإسلامية ووصفها، وإن خص معظم الرحّالة في تصوير العادات والمناسبات والأعياد، يرسمون كل ذلك في لوحات فيها كثير من التفاصيل المتّسمة بالإثارة والسحرية في أغلب الأحيان وكأنهم كانوا يتقمّصون أرواح أجدادهم الصليبيين المشبعة بالكراهية للمسلمين. فتراهم يشنون حملة ضارية ضد ما يرونه بعيد عن النظافة مشوبا بالإهمال، وضد استبداد الحكم التركي المُمسك بخناق المصريين وضد عادات الأهالي وأعرافهم. غير أن بنواده ماييه ما لبث أن يشذّ عن هذا المسْلك، فقد كان يجيد اللغة العربية قراءة وكتابة وطالع ما سجّله المؤرخون العرب، ومن ثم استطاع بفضل إقامته المديدة التي لا تتسنّى للرحّالة العابرين أن يفسّر الحاضر على ضوء الماضي.

Benoit de maillet (2)

على أن مصر التي صوّرها بعض الرحّالة الأوروبيين في صورة وطن غامض الملامح يسكنه أقوام متخلّفون تعُجّ بالجان والأقزام والوحوش الخرافية مالبثت أن اتخذت في أذهان الأوروبيين صورة أقرب إلى واقعها، بفضل رحّالتين فرنسيّين لهما نفاذ في البصيرة وعمق في التأمل هما كلود إتيين سافاري والكونت شاسبيف ده فولني. وقد سجلا مشاهداتهما في كتابين لهما أهميتهما الخاصة هما «رسائل من مصر»(3) (١٧٨٥ ـ ١٧٨٦) و«رحلة إلى سوريا ومصر»(4) (١٧٨٧). وقد أحس الأوروبيون بقدر هذين الكتابين فرحّبوا بهما ترحيبا كبيرا جعلهما يظفران بترجمة إلى الألمانية، كما ظهرت بالمثل ترجمة إنجليزية «الرسائل» سافاري (١٧٨٦) و«الرحلات» فولني (١٧٨٧).

C.E. Savary: **Lettres Sur l'Egypte**, Paris 1785 - 86. (3)

Volney (C.F. Chasse-boeuf) **Voyage en Syrie et en Egypte**. Paris 1787 (4)

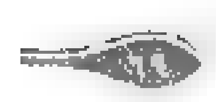

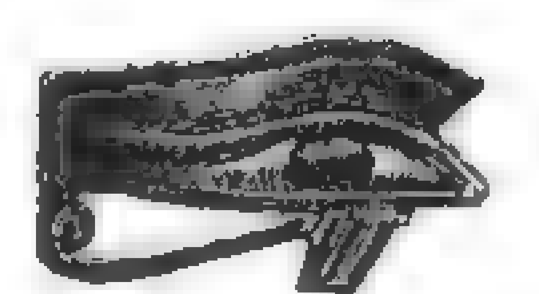

ارهاصة رومانسية
بشاعرية مصر

سافاري

١٧٥٠ ـ ١٧٨٠

أمّا سافاري فكان نموذجاً للشباب الفرنسي المثقّف الذي شدّته مؤلفات جان جاك روسو [وبالأخص قصته «إلويز الجديدة» ذات الطابع الرومانسي قبل ظهور الرومانسية في الأدب الفرنسي] وبرناردان دي سان بيير في قصته «بول وفيرجيني» التي تعدّ قصة روسو إغراقاً في الرومانسية. وقد نشأ سافاري في مقاطعة بريتاني المنعزلة التي يعيش في أرجائها المختلفة نبلاء إقطاعيون دأبوا على تثقيف أبنائهم وتزويدهم بشتى المعارف، هذا إلى ما توحي به طبيعة الإقليم الفريدة من شاعرية تدعو إلى التأمل وإمعان الفكر. وقد تأثر سافاري بأسلافه «الدرويد» كهنة وشعراء القبائل الكلتية الوثنية، وكانوا يدينون بمعتقدات خرافية تعمل بحكايات السحر والأساطير، وهو ما جعله يشبّ حالماً مولعاً بالمغالطة التي لم تلبث أن مهّدت له آفاقاً في المجالين المادي والخيالي معاً، فاغترف من مؤلفات الإغريق أساطيرهم، ومن بينها قصص الرحّالة أمثال سترابو[5] الذي لفته إليه خلفيته الثقافية الغزيرة. وهكذا اكتشف مناخاً جديداً لوجدانه الغضّ، فمضى يوازن بين ما طالعه في مؤلفات روسو عن «الإنسان الطبيعي» وطهارته ونقائه قبل تشبّعه بالحضارة، وبين ما رواه سترابو عن أهالي وادي النيل، وما لبثت روحه أن هفت إلى أنه من الممكن أن يكون لمثل هذا «الإنسان الطبيعي» نظير في الأراضي المصرية، تلك الأراضي التي جذبته أيضاً بحضارتها العريقة، ولسبقها في هذا الميدان الحضاري أولئك الإغريق الذين كان يعرف عنهم كل صغيرة وكبيرة، فحثّه هذا إلى التطلع إلى أولئك السلف ومن هنا التقت نزعته الوجدانية بتشوقه إلى النهل من تلك الثقافة العريقة فاعتزم القيام برحلة إلى الشرق وقد اتقدت فيه روح الشباب وفتوّته وحماسته. ولم يلبث أن دلف إلى مصر عام ١٧٧٣ ليستقر بها سنوات ثلاث بمجرد أن أكمل دراسته الجامعية وبلغ السابعة والعشرين من عمره، وكان قد أعدّ لهذه الرحلة بمطالعة كل ما وقعت عليه عيناه من مؤلفات عن مصر والشرق. ومنذ أيامه الأولى في مصر أخذ يخالط العامة هائماً بالطبيعة المصرية مما أتاح له زيارة أماكن لم يعرها الرحّالة من قبله التفاتاً، فجال في ربوع الدلتا مسايراً النيل حتى مصبّه في رشيد. ولنترك له هو المجال كي يصف لنا مشاعره: «.. وبين احتشاد الأشجار الظليلة تتناثر أحواض الزهور التي يعبق بها الجو بأريجها العطر رغم لفح الظهيرة فتجعل منها الفردوس الموعود للظامئ

(٥) أو سترابون، وهو جغرافي يوناني شهير وُلد في عام ٥٨ قبل الميلاد.

العطشان. على حين ارتوى في إحدى الخمائل وسط ظلال المدينة رجل يقبض بيده على غليون طويل من عود مفرغ من أغصان الياسمين مجلّل بالعنبر وقد استغرق في نشوته وكأنه انتقل إلى جنّات النعيم... وتخطر بين هذه الخمائل المحظيات الشركسيات الفاتنات اللاتي وفدن من [illegible] محجبات ثم ما لبثن أن خلعن العذار وتحررن من قيودهن وسرن يتأودن في خطى [illegible] مترنمات بأنغام حانية، منشدات أناشيد أسطورية تصف تقاليدهن القديمة وحنينهن في [illegible] الجديد حيث يخالط صحوة الجو عبق زهور البرتقال وأريج الورود العطرة لتثير فيهن كوامن الرغبة التي يعجزن عن مقاومة سلطانها...». ترى كيف لشاب في مثل سن سافاري تفيض روحه رومانسية أن يقاوم كل هذا الإغراء! يغلب على الظن أنه وقع أسير غرام مبرّح على ضفاف النيل بالقرب من رشيد، وهو ما ذهب إليه حدس المؤرخ جان ماري كاريه حين طالع قصة «جميلة» التي حاكها سافاري حول فتاة شركسية عشقت شاباً أوروبياً كان يلقاها بين الخمائل العطرة في ضوء القمر الفضي وقد انتثرت الزهور على العشب الأخضر فإذا الجو مشبع بأنفاس عبقها الفوّاح».

ويمضي سافاري يصف الريف والقرويين أو بالأصح القرويات اللاتي أعجبه منهن جمال تكوين أجسادهن وفطرة سلوكهن: «... انتصبت أعواد البوص على ضفّة النهر، كما تكدّست الوديان بالمحاصيل، وشارفت شجيرات الأرز على الحصاد، ومالت لفحات النسيم بأعواده فعل الأمواج بسطح البحر، وشغل الفلاحون بريّ حقولهم بينما تدور البقرات بالسانيات [السواقي] ألا ما أبدع هذا السكون في بلاد المتع!».

ولا يفوت سافاري أن يوصينا بزيارة جزيرة بالقرب من فوه اشتهرت بفاكهة لشمام عذب المذاق لا يشبع منه المرء قط، كما تظلّ أشجارها بأغصانها بائعات الهوى اللاتي يعرضن بضاعتهن على السابلة. ثم ما يلبث أن يصف لنا مشاهد ريفيه سافرة تفيض رشاقة شعرية مثيرة: «إذ تتوافد الصبايا من القرى صوب النهر في خطى متمايلة لغسل ثيابهن وملء جرارهن على ضفافه، ثم يهبطن إلى النهر يستحممن بعد أن يخلعن أرديتهن التي يعلّقنها على الشاطئ، فتبدو أجسادهن الممشوقة جذابة يلكتها بطمي النيل، ثم ما يلبثن أن يغصن تحت سطح الماء، يتابع بعضهن بعضاً وسط أمواجه الحانية وقد استرسلت خصائل شعورهن على أكتافهن القمحية الداكنة وبشرتهن التي لفحتها الشمس الملتهبة».

وليس ثمة غرابة بعد قراءة هذه المقتطفات أن نجد ضباط وجنود الحملة الفرنسية إلى مصر الذين تحقق قلوبهم بصورة الشباب يؤثرون مطالعة رؤى سافاري الآسرة وهم على متون سفن الأسطول المتجهة بهم إلى الإسكندرية على تصفّح كتابات مواطنه فولني المحتشدة بالأرقام والأسرار العسكرية البحتة، ذلك الرحّالة العاتي الذي بدا لهم وكأنه لم يبادل امرأة الحب في حياته، فإن مشاعر الشبان على الرغم منهم كانت تجنح إلى أسلوب سافاري العذب المشرق بالمرح والموحي بالألوان الخيالية الرقّاقة وهو يصف الليالي القمرية على ضفاف النيل بمثل هذه البهجة، وحتى نابليون نفسه الذي كان وقتذاك ما يزال في التاسعة والعشرين من عمره لم ينس أن يحمل بين متاعه إلى جوار كتاب فولني الجاد نسخة من «رسائل» سافاري وقصة آلام فيرتر للشاعر جوته

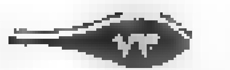

وبعد وصول ساڤاري إلى القاهرة أخذ يختلف إلى المساجد القديمة مختتماً جولاته بحدائق الروضة، متسللاً بين أشجار التمرحنة والبرتقال والجميز. ولم يكن ظهور الحارس المكلف بحماية مداخل الحمام التركي يستطيع أن يمنع تلصصه على الغانيات المستحمات، ثم يواصل جولته حيث ترقص العوالم تكسوهن ثياب شفافة تصل إلى أقدامهن بينما تتدلى شعورهن السوداء المعطرة على ظهورهن، ولا يغطي نهودهن سوى نسيج دقيق شفاف: «وما يكدن يشرعن في الاهتزاز حتى تتكشف محاسنهن وتبدو أطرافهن وكأنها على وشك الانفصال عن أجسادهن في خلاعة عارمة وتصدح الأنغام من الناي المبهج والصاجات المنعشة والدفوف التي تضبط حركات أقدامهن فيبدون وكأنهن سكارى أو كعابدات باكخوس (١) المجذوبات وَجْداً».

وعلى الرغم من أن كبار النقد يأخذون على ساڤاري أن أسلوبه كان ما يزال مُشبعاً بكلمات السلف وبالتركيبات الأكاديمية كما تُثقله حذلقة الثقافة المتعمقة، إلا أنهم يجمعون على أنهم يلتقون فيه بواحد من كبار الكتّاب تنساب عبارته رشيقة خفيفة موجزة. فهدفه دائماً جليّ واضح، والمشهد الذي يصفه مبسّط تسفر فيه النشوة، حتى عُدّ ساڤاري من رواد تعلّقه بطبيعة إرهاصة بالرومانسية، تنحدر عن روسو وبرناردان ده سان بيير وتبشّر بشاتوبريان وفيكتور هيجو.

ويأسرنا ساڤاري بوصفه الوثّاب السريع لأهرامات الجيزة الذي يفسح ويضمر في سطور لا تخلو من التأمل الصافي والهيبة النبيلة قوله المأثور: «ليس ثمة منظر في العالم كله يفوق هذا المنظر جمالاً وتنوّعاً وتأثيراً. إنه يسمو بالروح ويحضها حضاً على التأمل».

ولم يكتف ساڤاري بالتغنّي بالمباهج المصرية وعادات شعبها التي شدّته إليها، فقد راعه تمسّك المصريين بعقيدتهم الإسلامية التي تتحكم في توقيت حياتهم لكأن حياتهم قد هُيّئت ونُسّقت وفق تعاليم عقيدتهم، فازداد شغفه بالتعمّق في وجدان مصر والتجوّل في ربوع هذا الإيمان. وإذ كانت معرفته باللغة العربية وثيقة عميقة فقد طالع القرآن الكريم وتأثر به، كما طالع معظم المراجع التي تتحدث عن حياة الرسول صلى الله عليه وسلم وخلقه وحياته ومآثره إنساناً، فأحاطه عند عودته إلى فرنسا بالإجلال والتكريم، وتعجّل نشر كتابه «رسائل عن مصر» تحت رعاية شقيق الملك لويس الخامس عشر، وأعقبه بترجمة شائقة لمعاني القرآن الكريم، ثم بكتاب عن حياة محمد عليه الصلاة والسلام (١٧٨٣)، كما خصّص لشمائل الرسول مؤلفاً ضخماً (١٧٨٤)، فضلاً عن كتاب يبحث في قواعد النحو العربية لم يُنشر إلا بعد وفاته عام ١٨١٣.

وللأسف كانت حياة ساڤاري قصيرة إذ قد عجّل بها نهمه الثقافي وولعه بالترحال وأسفاره العديدة المرهقة فمات عام ١٧٨٨ عن ثمانية وثلاثين عاماً. ومن يدري لعل وفاته المبكرة هي التي أعاقت ذيوع صيته!

(٦) باكخوس عند الرومان [ديونيسوس عند اليونان] أحد آلهة الإغريق، كانت تقام له مهرجانات تضج بالمرح والسكر والعربدة والموسيقى والرقص والغناء وذبح القرابين، فتنتشر بين المحتفلين به حالة الوجد المحموم الذي يسيطر على العقول والأجساد ويفقدها اتزانها، فتنهتك النساء العابدات يُرسلن صرخات داوية ويؤدين رقصات عنيفة على دق طبول وحشية وأنغام مزامير مشبوبة ويمزقن لحم الذبائح في جنون ويأكلنه نيئة [المعجم الموسوعي للمصطلحات الثقافية لكاتب هذه السطور].

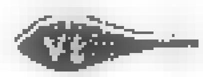

رحّالة غاز
بعقل عالم
وروح جاسوس

ڤـولـنـي
١٧٥٥ - ١٨٢٠

كان قسطنطين [illegible] فولني يعرف أنه [illegible] بصحته لم يكن [illegible] بوليه العثمية المألوفة ، فاتشحت طفولته بالتعاسة ودب الضعف إلى بدنه ، وتضاعف حزنه حين أدخله أبوه وهو في السابعة مدرسة داخلية فشب ابنا باقرا دائب التأمل والتفكير ، وكانت تلك بداية تعوّقه في العلوم الإنسانية عند التحاقه بالجامعة . وحين أحس باكتماله الذاتي رفض اسم «بواجيريه» الذي كان أبوه قد سماه به واتخذ لنفسه اسما جديدا شكّله من المقطع الأول من اسم فيلسوفه الأثير «فولتير» ومن المقطع الأخير من موطن أستاذه في «البرني» . وانتقل الفتى إلى باريس فلم تجتذبه إلى إنفاق ما زوّده به أبوه من ميراث أمه في الاستمتاع بمباهج العاصمة ، بل أخذ يتردّد على المكتبات لاستكمال معارفه بدراسة الفلسفة والتاريخ ثم الطب ، حتى إذا هبط عليه عام ١٧٨١ ميراث لم يكن يترقّبه وجدها فرصة ليقوم برحلة إلى الشرق ، إلى مصر وسوريا حتى يدلي بدلوه في الكتابة الأدبية ويُصدر أحكامه النهائية ، بعد أن وجد في الترحال حقلا مواتيا لتسجيل ملاحظاته السياسية والجغرافية والعسكرية والاجتماعية . ومع أنه كان قد بلغ الخامسة والعشرين من عمره إلا أن صحته كانت ما تزال معتلّة ، كما كان [illegible] في حاجة إلى الترويض ليقوى على الترحال . وإذ لم يكن فولني من ذلك [illegible] أموره نهبا للظروف ، غادر باريس إلى الريف ليعدّ لرحلته الهامة الشاقة ، وشرع يدرّب نفسه على قطع المسافات الطويلة لأيام عدّة سيرا على الأقدام ، وعلى اجتياز الحفر الواسعة وتسلق الجدران وضبط خطواته وفقا لزمن يحدّده لينتهي بذلك إلى تعرّف ما قطع ، [illegible] من الطعام أياما كاملة وعلى النوم في العراء وامتطاء الخيل دون سروج على غرار بدو الصحراء . وبعد أن اطمأن إلى أن تدربه قد اكتمل مضى إلى مرسيليا في طريقه إلى مصر في نهاية عام ١٧٨٢ دون أن يخطر أباه بعزمه ، وقد علّق على ظهره حقيبة حاجياته ، وشدّ بندقيته إلى كتفه ، وتمنطق بحزام من الجلد حوله وسطه فيه ستة آلاف فرنك من الذهب . ورحل إلى مصر ليحقق هدفا علميا محددا بوصفه مؤرخا وفيلسوفا يضم إلى ملاحظاته ومشاهداته الأرقام والأسانيد التي تدعمها .

ولم يكن فولني راوية يهتم بسرد مشاهداته فحسب بل كان موسوعي النظرة مؤمنا بقوة الفكر حريصا على تقديم سجل شامل للتعرف على مصر من خلال منهج علمي . فنسّق خلاصة

ملاحظاته في مؤلف ضخم دقيق التبويب ، وهو ما جعله أقرب في أسلوبه إلى نهج كتّاب القرن الثامن عشر الكلاسيكيين منه إلى نهج الرحالة السابقين مباشرة على الرومانسية مثل سافاري الذي جاء أسلوبه مترعا بالعفوية والتلقائية والبساطة والتفاؤل . والواقع أن فولني لم يجنح إلى الخيال وهو يقدّم صورة مصر إلى القرّاء الأوروبيين برغم أنه لا يجهل جاذبية الخيال لأغلب هؤلاء القراء ، ذلك أنه كان يؤمن أن فن الرحلات ينتمي إلى علم التاريخ لا إلى الفن القصصي . ثم هو يعترف أنه لم يصوّر البلدان بأجمل مما رآها ، كما لم يصف الناس بأفضل ولا بأسوأ من حقيقتهم .

وقد قضى فولني بالقاهرة سبعة شهور اعترضته خلالها الكثير من العقبات التي حالت دون أن يجوس داخل البلاد أو أن يلقن اللغة العربية ، كما لم يجد من الجالية الفرنسية بالقاهرة أي [illegible] من المعلومات ، [illegible] القنصل الفرنسي نفسه يكترثون بعادات [illegible] وتقاليدهم المحلية . ولعل هذه الأسباب هي التي دفعته إلى التحامل على مصر [illegible] إلى سوريا التي [illegible] حيث [illegible] فيها أكثر استفادة منه في مصر [illegible] كانت تمور بالنزاع بين طوائف المماليك ، فأمضى في سوريا ثمانية شهور بين الدروز في أحد الأديرة العربية حيث لقن اللغة العربية .

وإذ لم يأنس فولني كثيرا بمصر نجده شديد القسوة عليها . ولعل مرد ذلك أيضا إلى أنه على حد قول سانت بيف « لم يحس في عظمة أعماقها أو ينفذ إلى عبقريتها » ، فهو لم يدرس إلا طبيعة مصر وموقفها المعاصر على حين لم يعر التفاتة إلى مصر الفرعونية ومصر في ظل المسيحيين الأوائل أو الأديرة القبطية أو أضرحة الخلفاء والمماليك ، فضم كتابه قسمين أحدهما عن طبيعة مصر [النيل والدلتا والرياح والمناخ] والثاني عن الموقف السياسي من حيث الأجناس التي تدخل في أصول الشعب المصري وحكومته وطائفة المماليك والتجارة والأمراض المتفشية إلخ ، ولم يتخلل كتابه الصارم إلا لماما أي انطباع شخصي ، [illegible] الشعب [illegible] وطوائف وفئات ، ورسم صورة واضحة لحكومتها المجردة من النزاهة والتي لا تتمتع بثقة أي مواطن ، واستعرض العسكرية المملوكية الفظة الماجنة ملمحا إلى العادة المخزية المأثورة عن اليونانيين والتتار على أنها أولى الدروس التي يتلقاها فرسان المماليك على أيدي مدرّبي السلاح ، وعرج على تخلخل كفاية الدولة العسكرية وكأنه يدعو فرنسا دعوة صريحة إلى احتلال مصر العارية عن أي دفاع ، والتي يمكن اجتياحها في يسر وسهولة فليس ثمة حصون ولا قلاع على امتداد حدودها ، وليس ثمة استحكامات أو مدفعية أو مهندسون ، ولا يتجاوز أسطولها الرابض في مرفأ السويس ثمانية وعشرين مركبا حربيا زوّد كل منها بأربعة مجانيق صدئة ، ويقوم عليها بحّارة لم يستخدموا البوصلة طوال حياتهم كلها ، كما يشير إلى أن ميناء الإسكندرية خال من أية حصون وليس فيه غير أربعة مدافع صالحة ، وليس بين جنوده من يعرف كيف يصوّب مدفعه ، على حين أن حامية الثغر التي تبلغ الخمسمائة من الإنكشارية قد انخفض عددها إلى النصف ، أكثرهم من العمال الذين لا يجيدون غير شدّ أنفاس النرجيلة . ترى أية أحلام بمطمع ، أية أطماع يسيرة المنال هيأها هذا التحريض السافر في ذهن الضابط بونابرت المغامر حين طالع كتاب فولني ؟

ولا نجد بكتاب ڤولني ما يمكن مقارنته باللوحات الريفية الخلابة التي رسمها ساڤاري في «رسائله» حتى إننا لا نعثر في سائر بحوثه التي ضمّنها كتاب رحلته على أكثر من وصفين أحدهما للقاهرة والآخر للإسكندرية خاليين من أي إطراء ، فما أكثر ما يحقّر الرائد الأوروبي حين تطأ قدماه أرض مصر من أمور يراها شائنة . وقد وجد في المصريين شعباً أسمر ضامر الجسد حافي القدمين لا يملك الواحد منهم سوى قميص أزرق يشدّه إلى وسطه بحزام أحمر ، بل إنه أحس في لغتهم جَرْسًا بربريا وفي صوتهم نبرات حلقية غليظة تؤذي سمعه المرهف . وما نظننا نراه كان يحلم بأن يرى على أرض مصر وجوها حليقة كما يرى في أوروبا ، وهذا لا شك هو ما جعله يُشْده وهو يتطلع إلى الوجوه الملتحية بشواربها السمراء وقد لفحتها الشمس والرؤوس الصلعاء وقد تُوّجت بالعمائم ، والثياب الواسعة المنسدلة من الأكتاف إلى أخمص القدمين ولا تبرز منها تقاسيم الجسم . كذلك عاف الأسواق التي تكدّست فيها أكداس البلح والرعدان المفصحة وحشود الكلاب الضالة في الطرقات . ولم ير في سيدات مصر إلا أشباحا جائلة ملتفة بعباءات فضفاضة ، ولولا العيون التي تنفذ من ثقوب البراقع ما فطن المرء إلى أنوثتهن . كما ضاق بالطرقات الضيقة التي لا تكتنفها طوارات وبالمساكن الخفيضة التي لا تتيح مشربياتها إلا بصيص ضوء النهار أن يمد خلالها . لقد وجد أن الحياة العامة بما تشير إليه من بؤس يكسو وجوه الناس وغموض يحجب ما في البيوت تثير في نفسه الاشمئزاز من ضراوة الطغاة ووطأة الاستبداد . وهكذا سجّلت الصور التي رسمها ڤولني للشرق هذا التكدس البشري وتلك الزركشة في ثياب ساكنيه ، وما يستافه الزائر من عطور أرجة وروائح عفنة ، وما يسمعه من صخب الباعة مختلطا بأذان الصلاة ، وكذا أنين الشحاذين ممتزجا بألحان ناياتهم المشروخة .

وفي الحق إنه لم تتهيأ لڤولني قدرة ساڤاري على تلوين الصور التي رسمها للدلتا ، فأين صور ساڤاري البديعة من الوصف الجاف الذي جاء عنها على لسان ڤولني : «بيوت القرى مبنية من الطين وكأنها أطلال متداعية . والدلتا سهل لا نهاية له ، يتبدل شكله حسب الموسم ، فهو إما بحر راكد أو مستنقع موحل أو بساط أخضر أو حقل مغبر . وعلى مدى البصر من كل ناحية أفق ناء مشبع بالضباب يصيب العيون بالكلل والملل . . وأشجار مصر خشنة مغطاة تراكب بؤس الأكواخ التي تحجبها ولا توحي بغير الإهمال والفقر» . ويرسم ڤولني صورة رهيبة لبؤس الأهالي المصريين بعد وباء عام ١٧٨٣ ومجاعة ١٧٨٤ فيقول : «رأيت تحت جدران الإسكندرية القديمة بعض التعساء منكبين بجثة ميت يتناهشون مع الكلاب بقاياه العفنة»!

على أن ڤولني لا يقف عند رسم هذه الصورة الكئيبة لمصر ، ولا يكتفي بالحكم عليها بأنها دولة أنهكتها الفوضى والتفسّخ السياسي والاجتماعي والعسكري ، بل إنه لا يرى خلاص مصر إلا في «تدخّل أوروبي» ينقذها من وهدتها ، ولا يتورّع عن ترشيح فرنسا : «لكي تكون القوة الخارجية التي تبعث فيها الحياة بعد أن تمحي ماضيها وتُشفيها من أسقامها الحاضرة وتهيئها لمستقبل أفضل» . ولا يمكن أن يخفى على أحد ما وراء دعوته هذه من النوازع السياسية التي كانت تجعل فرنسا تطمع في الوثوب إلى موقع مصر الإستراتيجي للهيمنة على الطريق إلى الهند . فبعد ظهور هذا الكتاب بخمس سنوات في عام ١٧٩٢ قصد ڤولني جزيرة كورسيكا لاستزراع بعض النباتات العربية وتوطينها ، وتشاء الظروف أن يلتقي فيها بضابط شاب من

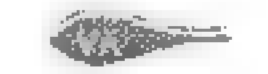

ضباط المدفعية يدعى بونابرت أخذ يستمع في شغف إلى ما رواه ڤولني عن مصر مما حفزه بعد لقراءة كتابه الذي قدّر فيه قوة حجج المؤلف وصفاء وضوحه ودقة وثائقه . وكان عهد الإرهاب الثوري قد ولّى وعيّن ڤولني من حكومة المديرين «الديركتوار»(٧) أستاذا للتاريخ بمعهد المعلمين العالي(٨) . وما إن استقر رأي نابليون على غزو مصر حتى عرض على ڤولني أن يصحبه إليها غير أنه اعتذر .

وعلى حين كان صغار ضباط الحملة الفرنسية يأنسون بقراءة «رسائل» ساڤاري كما قدّمنا كان كتاب ڤولني هو الكتاب الأثير بين أيدي قادة الجيش والعلماء ، إذ كان لهم دليلا ممتازا وموجزا مبينا للجغرافيا الاقتصادية والسياسية . ونستطيع القول بلغة العصر إن ڤولني كان جاسوسا من الطراز الأول ، وهو ما يؤكده أنه لم يعرّض الحملة الفرنسية لأية خيبة أمل ، إذ أنه لم يُجمّل الواقع في أعينها أو يخدعها بمعسول الحديث عن مصر . وإذا كان ساڤاري محل تقدير الشعراء والمؤرخين فإن ڤولني كان موضع احترام العسكريين والجغرافيين ، سجّل الأول قصة رحلته في تفصيل كما أحسّها بأسلوب لا يبارى وإن جاء منمّقا ، بينما كتب الثاني دراسة واقعية موضوعية مجردة بأسلوب عار من كل زخرفة جامد صريح مدعّم بالحجج والبراهين ، ولا يعني ذلك أن ڤولني لم يكشف عن موهبته كاتبا ، فهو لم يكن مصوّرا بقدر ما كان رسّاما فذّا . والحق أن كلا من ساڤاري وڤولني قد أسهما بكتابيهما في جعل حضارة مصر كعبة يتسابق إلى السعي إليها الرحّالة والمفكرون والأدباء والفنانون ، وهو ما أشاع في الرأي العام الفرنسي ترويجا وتأييدا لحملة نابليون التي صُوّرت وكأن الغرض منها اكتشاف منابع تلك الحضارة العريقة .

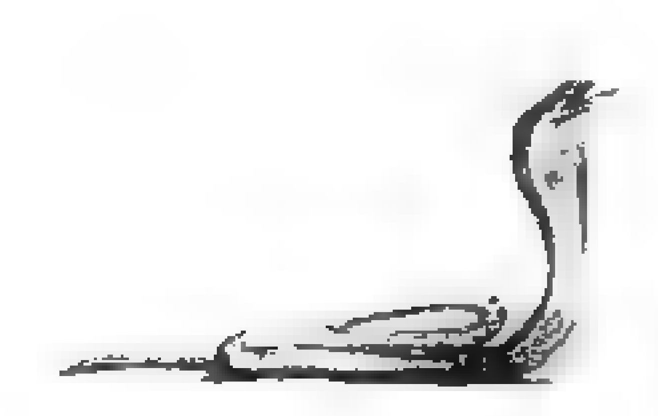

(٧) Directoire حكومة مديرين خمسة ألى حكم فرنسا من ١٧٩٥/١٠/٢٦ الى ١٧٩٩/١١/٢٩ بمساعدة مجلس الشيوخ ومجلس الخمسمائة.

(٨) Ecole Normale

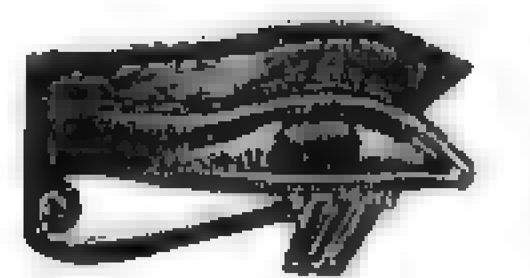

الومضة الأولي
لعلم المصريات

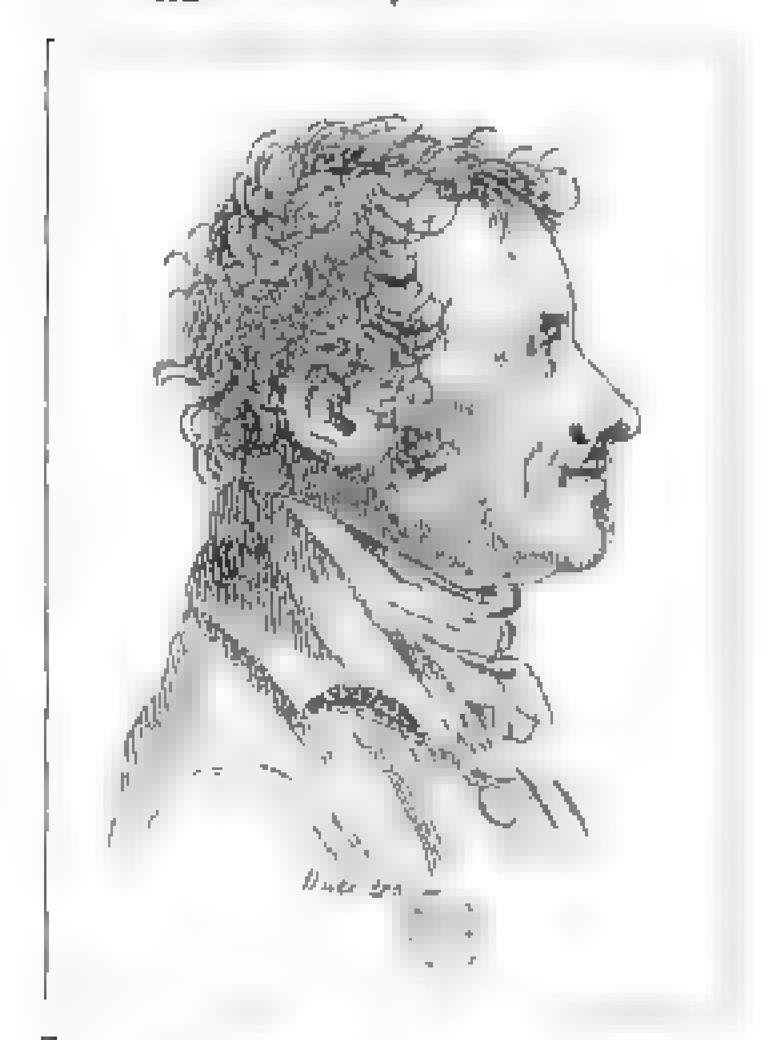

ڤيڤان دينون

بعد أن انتُخب الجنرال بونابرت عضواً بالمعهد العلمي القومي خطر بباله اختيار نخبة من العلماء والباحثين والفنانين والدارسين لمرافقته في حملته إلى مصر ليعهد إليهم بمهمة تسجيل واقع البلاد وحضارتها السابقة ومن ثم النهوض بها، فطلب من عالم الكيمياء برتوليه أن يختار هؤلاء العلماء من بين أساتذة المعاهد والجامعات. وكان المشروع الذي تحرك من أجله إلى مصر وإن أحكم إخفاءه هو شق قناة السويس وفتح الطريق إلى الهند. ولكي يتجنب برتوليه إثارة شكوك الإنجليز على أية صورة تعمّد عدم الإشارة صراحة إلى المشروع. وكان عالم الهندسة والطبيعة مونْج الذي صاحب بونابرت أثناء حملة إيطاليا ما يزال على وفائه فقبل الاشتراك في المهمّة. هذا إلى عدد آخر يربو على مائة عالم انخرطوا طواعية في هذه [illegible] إيماناً منهم بكفاية القائد العام وإعجاباً بفكرة هذا المشروع الجريء دون أن يحاولوا معرفة تفاصيله، مكتفين بأنهم سيبحرون من ميناء طولون وطيف نابليون يظلّ عليهم، حتى إن حماسة عالم الرياضة فورييه الذي كتب مقدمة كتاب «وصف مصر» لم تتضاءل وهو يترك مكانه العلمي في مدرسة «البوليتكنيك» دون أن يعرف بالتحديد أين هو ذاهب ودون أن يتبيّن بدقة المهمة التي سيؤديها.

وكان هدف الحملة قد بدأ يذيع عندما وصل نابليون [illegible] من رحل في الخمسين من عمره للمشاركة فيها هو الفنان المصوّر الأديب البارون دومينيك فيفان دينون. وكان [illegible] شخصية مرحة جذّابة لا يدع متعة إلا اقتنصها معاش حياة مترعة بالرفاهية. كما كان من أشراف البلاد الذين يحق لهم حضور مراسم استيقاظ الملك لويس الخامس عشر[9]، وكان أثيراً عنده ومحدّثه الذي يؤنس وحشته على نحو ما كانت تفعل شهرزاد مع مولاها شهريار وإن كان أكثر جنوحاً إلى الفحش. كما بات بالمثل أثيراً لدى فولتير الذي كان دينون ينظر إليه نظرته إلى ملك من الملوك، وما زال يلحّ عليه حتى وافق على أن يصوّره فأبدع له تلك اللوحة المعروفة باسم [illegible] في [illegible] وقد أعانته موهبته الفائقة في الرسم وروحه المرحة وحيويته [illegible] في ساحتي الآداب والفنون، وإلى النفاذ إلى أرقى المنتديات التي بات [illegible] الممثلات اللاتي التففن حوله بالحنان والإغواء حتى كتب لهن مسرحية مُثّلت على مسرح الكوميدي فرانسيز وإن لم تلق نجاحاً كبيراً، كما رشّحه نبوغه في الرسم لتسجيل صورة [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] ١٧٩١ [illegible] المواهب. وما كادت [illegible] تنشب حتى بات الخطر يهدّد حياته لولا صداقته للرسام دافيد التي

(٩) عندما كان يحين وقت نهوض الملك الشمس لويس ١٤ في الصباح من فراشه مطلاً على الوجود من حوله كانت طقوس الـ Lever du roi تصحب بمطه [illegible] لا تقل شأناً وإبهاراً عن طقوس شروق الشمس، فإذا جمهرة من الأشراف والأتباع قد هرعوا إلى حجرة النوم الملكية مع الثامنة وهي موعد نهوضه يبادر كلّ منهم فيما يقدّمه للملك مما هو في حاجة إليه بعد أن خلع عنه رداء النوم وتأهب ليأخذ زينته ويرتدي ثيابه الملكية، ومع العاشرة مساءً تكون طقوس نفسها أو قريبة منها على أضواء الشموع [illegible]

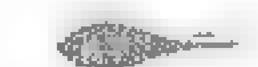

جنّبت عنقه نصل المقصلة تحت حكم الإرهاب، فعهد إليه دافيد بإعداد رسوم «الأزياء الجمهورية» الجديدة التي كلّفه روبسبيير بتصميمها لطبعها بطريقة الحفر على الحجر.

وكان دينون قد التقى في عام ١٧٩٧ في حفل راقص عند تاليران بجنرال شاب سمحه بطلب كوباً من عصير الليمون فناوله الكوب الذي كان بيده فشكره الجنرال وتبادلا الحديث الذي كشف فيه دينون عن طلاوته المعهودة والتي لم تلبث بعد دقائق أن عقدت أواصر الصداقة بينه وبين بونابرت وزوجته جوزفين بوهارنيه حتى أصبح من المترددين الدائمين على صالون جوزفين. وفي العام التالي بينما كان في زيارتها فاجأته بسؤالها عما إذا كان يرغب في المشاركة في الحملة الفرنسية إلى مصر، وكان اختيار العلماء والفنانين والمرافقين للحملة قد تم والأسطول على وشك الإقلاع في ظرف بضعة أيام. وما لبث أن قبل عرضها حين اطمأن منها إلى أنه لن تكون هناك قيود على حرية حركته وبادر بإرسال التماسه إلى الجنرال[10].

(١٠) Anatole France: La Vie Litteraire. Le Baron Denon.

وما كادت قدماه تطآن أرض مصر في الإسكندرية حتى عكف على تسجيل كل ما وقعت عليه عيناه، وقد حمل حافظة أوراقه وعلّق نظارة الميدان على كتفه وأمسك أقلامه بيده وهو يركض بجواده متقدّماً الصفوف حتى يجد متسعاً من وقت يتيح له الرسم قبل وصول الجنود، محاولاً ترسيخ مضمون مؤلفات سافاري وفولني التي لم تفارقه بتسجيلها تصويرياً. وقد كان أول انطباع له عن الإسكندرية أنها مدينة حزينة، بل إنه حين وقف عند عمود السواري - المنسوب خطأً إلى بومبي بينما يُعزى في الحق إلى الإمبراطور دقلديانوس - رآه أقل عظمة مما بلغه من شهرة. وتجهت الحملة بعد وقت قصير صوب القاهرة عن طريق النيل دون أن يصحبها دينون الذي لم يرها إلا بعد شهرين ونصف، إذ كان الجنرال مينو قد جُرح أثناء القتال في الإسكندرية فعهد إليه نابليون بتنظيم سلطة الاحتلال في رشيد والضرب على أيدي الأهالي المصريين العصاة، فطلب مينو من صديقه دينون مصاحبته. وبعد رحلة بحرية منهكة من الإسكندرية إلى رشيد أصيب فيها دينون بدوار البحر وصلوا إلى فرع رشيد، واشترك دينون في حملات التأديب ضد قرى الدلتا المتمرّدة التي كان أهلوها لا يكفّون عن مهاجمة المراكب المحمّلة بالمؤن والذخائر المتجهة إلى القاهرة. وقد أتاحت له هذه المهمة تسجيل صور المشاهد الريفية وملامح الأهالي النمطية كما أتيح له وجوده في رشيد أيضاً المشاركة في معركة أبي قير. وبعد تأمين الدلتا اتجه صوب القاهرة التي ما كاد يصل على بعد عشرة فراسخ منها حتى تبدّت له «الأهرام وقد اخترقت الأفق» على حدّ قوله.

وكان نابليون بعد هزيمة المماليك بقيادة مراد بك ودخوله القاهرة ظافراً قد أنشأ المعهد العلمي المصري في ٢٠ أغسطس ١٧٩٨، ولم يكد دينون يصل إلى القاهرة في ٢٢ سبتمبر سوى منصب عضو في المجمع حتى عرف بتشكيل نابليون لسرية قوامها مئتان من الجنود لحراسة ثلاثمئة من العلماء الذين يتحرّقون شوقاً لزيارة أهرام الجيزة فانضم دينون إلى فريق العلماء الذين أمضوا الليل في قصر مراد بك بالجيزة ووصلوا إلى الأهرام بعد ظهر اليوم التالي. ولم تستغرق الزيارة كلها أكثر من ساعتين مكث خلالها دينون نصف ساعة داخل الهرم الأكبر وخرج منه منهكاً فمرّ مروراً عابراً بأبي الهول. وفي طريق العودة نراه يخاطر بنفسه فيتجوّل في دروب القاهرة وأزقتها ليصوّر حي الأزبكية الذي اتخذ القائد العام للحملة مقرّه في أحد القصور المقامة على ضفاف بركته التي يغمرها مياه الفيضان فتحلو بها النزهة في القوارب ليلاً تحت ضوء القمر. ويمضي يصوّر القلعة

وأضرحة المماليك مشغولاً عن كل ما حوله حتى يفاجأ باندلاع ثورة القاهرة. ولقد شغل التصوير دينون أكثر مما تشغله أعمال المجمع العلمي، إذ كانت حيويته المتدفقة وحساسيته الفنية الجامحة تحولان بينه وبين الالتزام بحضور جلسات المجمع ومشوراتهم الطويلة، فرُبّ مشهد على الطريق العام أو سحنة بدوي أو أطلال معبد أو مئذنة مسجد تشدّه أكثر مما تشده مذكرة عن الري أو الزراعة، فضلاً عن غيبته المتصلة عن القاهرة سواء في الدلتا أم في مصر العليا. ولا يعني هذا أنه لم يشارك في أبحاث المجمع على الإطلاق فلقد أعدّ بحثاً وافياً بتكليف من المجمع عن بعض أعمدة قديمة عُثر عليها ملقاة إلى جوار سور قناطر المياه، بيد أنه لم يدع الفرصة تفلته خلال هذا البحث كي يعدّ رسومه عن قناطر المياه وأضرحة الخلفاء وحيّ مصر القديمة وبولاق وحديقة المجمع العلمي وإحدى غارات البدو.

وكانت ثمة فكرة مسيطرة عليه تراوده ولا يستطيع منها فكاكاً هي الاتجاه إلى الجنوب، فكان لا يفتأ يعلن عن رغبته العارمة لزيارة آثار مصر العليا مبرّراً ذلك بأنه لم يغادر باريس كي يقرّ بالقاهرة. ولم تلبث أن سنحت له الفرصة حين عهد بونابرت إلى الجنرال ديسيه بغزو الصعيد فأذن لدينون بمرافقة الحملة. وكانت معاملة الضباط والجنود له في مبدأ الأمر فظة غير لائقة، إذ لم يكن العلماء يحظون باحترام رجال الجيش، وكان فيه أركان الحرب تغار منهم إذ يتمتعون به من عطف القائد العام وتقريبه لهم ولإغداقه الأموال الضخمة على أبحاثهم، كما كانوا ضحية ذلك العداء التقليدي بين المدنيين والعسكريين الذين كانوا يبرمون بهم ويرون في وجودهم عبئاً ثقيلاً عليهم، وسرعان ما تهاوى حكم رجال الجيش أمام روح دينون المرحة الجذابة وبساطته وشجاعته التي كانت مضرب الأمثال، وغدت العلاقة بين دينون والضباط والجنود عميقة المودة شديدة الصفاء. ومضى دينون في إنجاز الشطر الأهم من مهمته يستطلع ويسبق غيره إلى مشاهدة شتّى المعالم ويحسن التأمل ولا يشتط في الوصف والتقييم وهو يرتاد أرضاً ظل الغموض يكتنفها أكثر من ألفي سنة. فمنذ هيرودوت صعد الرحّالة في النيل لا يجرؤون على مغادرة مراكبهم والإبعاد في الصحراء إلا بضع ساعات يشاهدون خلالها الآثار عجلين، على العكس من دينون الذي كان يبعد في الصحراء وقتاً طويلاً في صحبة الجند بعد أن اعتاد حياتهم الخشنة واستمرأها.

ومرّ اللواء الواحد والعشرون الذي التحق دينون به بالمنيا ثم ملّوي. ولم تلق أنتينوبوليس على الضفة الشرقية اهتمامه إذ لم يكن يحفل بما شيّده الإمبراطور هادريان من عصر، غير أن هرموبوليس على الضفة الغربية ما لبثت أن حظيت باهتمامه برواقها الذي زالت معالمه اليوم تماماً وقد ملكه الإعجاب حين تطلّع لأول وهلة إلى الطراز الفرعوني المعماري: «ما أظن الإغريق أتوا بجديد، فليس ثمة أبدع مما أراه، كما أنه ليس ثمة أبسط ولا أدق من تلك الخطوط القليلة التي يتألف منها هذا المعمار. فما أخذ المصريون شيئاً عن غيرهم من الأمم، وما رحموا خطوطهم الأساسية بزخارف لا ضرورة لها بالغين بذلك ذروة الدقة والبساطة. فلخطوطهم قدسيتها. وما يبدو للناظر عن قرب من إفراط في الزخارف سرعان ما يتلاشى على البعد، فلا يجد بين يديه غير الصورة الحقة المجردة من الحشو. ومن أجدرنا أن نطرح جانباً القول الشائع بأن العمارة المصرية كانت تمثل الفن المعماري في طفولته، بل هي في الحق النموذج الأصلي له».

وإذا دينون يرسم تخطيطاً أوّلياً للرواق يضم إليه وصفاً لتيجان أعمدته الضخمة وقواعدها الجميلة. ويقف مشدوهاً أمام جمال الخطوط الرئيسة وكمال التكوين المعماري والاستخدام المرهف للزخارف التي تُثري المبنى دون طغيان على البساطة التي تُفيض عليه العظمة. وكانت هذه أولى مشاهدات هذا الفنان للفن المصري القديم مشغولاً به وناكباً عليه على الرغم من قلة الطعام الذي يتناوله، وعلى الرغم من رقدته الخشنة في المعسكرات، وعلى الرغم من امتطاء جواده ما بين اثنتي عشرة وست عشرة ساعة يومياً، وعلى الرغم من أن ريح الصحراء قد أكدّت جفونه، وعلى الرغم من أن عينيه الملتهبتين أصبحتا لا تريان في وضوح لما غشيهما من دماء.

وكان على ذلك اللواء مواصلة التقدم جنوباً لملاحقة المماليك، ممرّاً بمنفلوط وأسيوط ثم سوهاج حيث رسم دينون ديري الأقباط الشهيرين الأحمر والأبيض إلى أن بلغوا جرجا. وهنا استقر اللواء ثلاثة أسابيع في انتظار السفن الحاملة للعتاد والتموين بما في ذلك الأحذية التي كانوا يفتقدونها. وبعد الالتحام في عديد من المعارك وصل الجيش إلى دندرة حيث معبد حتحور الذي أوحى للفنان بضع صفحات نابضة بالحماسة للفن المصري العملاق مبيّناً كيف خضع النحت والتصوير لفن العمارة المبكّر. وهنا يقع دينون في خطأ من أخطائه القليلة، فلم يكن معبد حتحور مبكّراً كما قال إذ قد شُيّد بأخرة على عهد البطالمة، وإن كان لدينون عذره في التردّي في هذه الهفوة لأن الحروف الهيروغليفية لم تكن قد فُكّت رموزها بعد حتى يستطيع تحديد تاريخ هذا المعبد أو غيره. وقد خصّص دينون لدندرة ثلاث لوحات جميلة في أطلسه. والأمر العجيب أن زملاءه من العسكريين بدؤوا يشاركونه هذا الإعجاب فإذا أحدهم يقول: «منذ وطئت قدماي أرض مصر خابَ ظني واستولت علي الكآبة وتملكني السأم، غير أن ما شهدته في دندرة قد ردّ علي قواي وذهب بكل متاعبي». وحتى قائد اللواء نفسه الجنرال بيار قد تلبّث وحده عند سقف المعبد وقت الغروب برفقة دينون يتأمل في إعجاب ودهشة النقش العاثر المعروف باسم نقش البروج السماوية «الزودياك» والمحفوظ اليوم بمتحف اللوفر.

وبعد بضعة أيام يصل الجيش إلى الضفة الغربية من طيبة، تلك المدينة النائية التي تغض الأرماد ولا تفصح عما تحتويه بين طيّاتها من روائع. ولهذا كان من العسير على الخيال أن يستشف ما وراء حجبها، فبدت كشبح مهيب تحول معه قوى المشاهد، حتى إن جنود الحملة عندما قدموا خلالها ملكتهم الخشية فإذا هم مبهورين بها فتصطفق أيديهم مصفّقة، ثم إذا هم دون وعي يؤدون التحية العسكرية على دق الطبول، وكأنهم ببلوغهم هذه الغاية الجليلة قد انتهى بهم مطاف الحملة.

وسرعان ما بادر دينون بوضع مخطط لما وقع عليه طرفه وكأنه يخشى أن يفلته هذا المشهد، مشهد طيبة. واستجاب له الجنود يعاونونه قيد أخذ فيه، فمدّوا سيقانهم ليجعلوا منها مناضد يتكئ عليها في رسمه، وتحلّقوا حوله ليظلّوه ويدفعوا عنه وهج الشمس، كي ييسّروا له أن يمضي في رسم ما يرسم ليُمتع به القراء بعدُ بعظمة طيبة، فأحسّ الزهو والفخار لمشاركة الجند إياه هذا الشعور المرهف وما قدّموه له من عون صادق.

على أن الجنرال ديسّه كان عجلاً فلم يُمهل دينون كثيراً في طيبة، وأحدث حوت جوس خلال أطلال الضفة الغربية مصحوبة إلى أرمنت ثم صوب زحفهم نحو الجنوب حتى بلغت إسنا التي حرّكت في نفس دينون شعوراً جارفاً بالإعجاب، ثم هيراكونبوليس [الكوم الأحمر الآن

أمام الكاتب بجوار [إدفو] حيث يقدم لنا دينون صورة حيّة لنفسه وهو واقف أمام البوابة المتهدّمة في زي مهترئ وقبعة ممزقة وحذاء مثقوب يرافقه خادمه النوبي وبوقه وجواده وحماره وكرسيه المطوي. وينتقل دينون مع الجيش إلى إدفو حتى يبلغوا أسوان وقد أبلى الحصى أحذية الجند فلفوا أقدامهم بما بقي لهم من أسمال ثيابهم الداخلية ، وهم يتهاوون فوق الرمال الملتهبة يتهكهم الجوع ويضيبهم العطش.

وما يكاد الجيش يصل إلى أسوان حتى يعكف دينون على رسم شلالاتها ويحلو إلى تسجيل مشاهد النوبة الريفية ، ويعبر الجيش النيل فوق القوارب التي خلّفها المماليك ، ويسكر دينون مع الجنرال بيلار في أحد المدن ويجد في الرحلة بعد أن قضي أسابيع قلقة حيث ظروف العيش القاسية في المعسكرات ، وتصبح جزيرة الفيلة الخضراء الحافلة بالزهور فيئه الريفي ؛ حيث المتعة والتأمل والدراسة ، فلم يبق فيها حجر إلا توقف عنده ولا صخرة إلا أمعن النظر فيها. أما جزيرة فيله فكانت عصيّة منيعة على الفرنسيين إذ دافع عنها الأهالي بسهامهم ورماحهم وبنادقهم، وكان لا مفر أمام الجيش الفرنسي من زحزحتهم عنها برصاص الرشاشات بعد حصار دام خمسة أيام

وبعد أن استقر الجيش بأسوان ثلاثة أسابيع وتخلص من مراد بك ومماليكه الذين انسحبوا إلى جنوب الشلالات قفل الجيش راجعا في ٢١ فبراير ١٧٩٩ . ومنذ تلك اللحظة لم يعد دينون يصحب الجنود ، فاعتلى مراكب الأسطول النهري وأخذ وهو على ظهرها يرسم تخطيطا أوليا لمعبد كوم أمبو ، لكنه إلى هذا شارك في عدة مناوشات عسكرية في منطقة طيبة التي تأمل فيها معبد الكرنك وأخذ يسائل نفسه أقصرا هذا أم معبدا ويتمتم مذهولا : « أي رتابة هنا ، وأية حكمة تبعث على الأسى ، فإن ما كان من هؤلاء الذين شيّدوا هذه الصروح يملؤني هلعا ، فهذه الآثار بكثرتها تُثقل دعني وتبعث الجمود في أطرافي »[١١] . وفي الحق إن دينون لم يبلغ بفهمه كنه هذه الطلسمات والرموز التي تتخلل الأشكال المنحوتة فجاء فهمه لها خاطئا ولم يقترب من إدراك خبايا الفن المصري القديم

(١١) Vivan Denon. Voyage Dans La Basse et la Haute Egypte.

وواصل دينون مسيرته مع الجيش في طريق العودة مارا بقنا وفيها التقى بالمهندس جيرار عضو المجمع العلمي ومعه أعضاء ثمانية من لجنة الفنون ، مما أتاح له الفرصة في أن يتدارس معهم شيئا عن الكرنك والأقصر وإسنا وإدفو ، وأن يزور وادي الملوك زيارة خاطفة نظرا لكثرة المناوشات التي كانت تقع بين الجنود والأهالي ، وإذا بالنفير لامتطاء الخيل يُعجّله وهو في غرفة مقبرة رمسيس الثالث يتأمل رسوم الأسلحة والتروس والسهام والجعب والقناطر والسُّرر المتسطة والمصورة والكراسي والموائد وكانت ثمة لوحة قد أخذته بفتنة في ثوب أبيض يعزف على قيثارة بأحد عشر وترا وهو يسأل نفسه كيف له أن يترك هذه الكنوز دون أن يرسمها ، ولم يلبث أن استسمح القائد لإمهاله خمس عشرة دقيقة ، فسمح القائد ومنحه عشرين دقيقة. ومضى في المقبرة يصحبه جنديان يقوده أحدهما ويحمل له الآخر شمعة يضيء ما يتوق إلى رسمه . وبينما هو يحظو في مقبرة على غير هدى يسقط ما يقع عليه من مشاهد ، تماثيل حجرية وما دق من دقائق ، وإذا هو يعثر بقدمه مومياء وصفها بقوله : « يخيّل إلي أنها كانت في مقتبل العمر رشيقة رقيقة محكمة السنان ، من إبهاميها ... وخصرها المستوي ونحرها الناهض وانحناءتها الرهيفة ، هذه كلها تُنبئ عن أنها من أسرة رفيعة لم تخف قدماها من عناء السير ولم تحز فيها خيوط

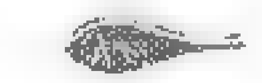

لوحة (٣٤) دينون : مدخل الهرم الأكبر بالجيزة

[illegible] كما [illegible] على نحو ما تفعل نساء مصر اليوم حين يطلين أظافرهن وأكفهن وأقدامهن»، ويشدّه إعجابه بمشهد القدم ويثير فيه شاعريته، وإذا هو يمسك بقلمه [illegible] – كما سنرى – هي التي أوحت فيما بعد إلى تيوفيل جوتييه بأن يؤلف قصته المعروفة «قدم المومياء».

ولقد خلعت طيبة فيه شعوراً بالقلق وقلة الرضا وإذا هو يقول مفصحاً عن ذلك: «لقد صبغتني إقامتي العابرة بطيبة بمزيج من اللهفة ونفاد الصبر والحماس والتعصب والإثارة والإنهاك». فهذه الشطحات المحدودة العجلة في أهم مناطق مصر العليا ماكانت لتتيح له أن يحقق ما كان يخطر بخاطره ويحسه بوجدانه، فلو أنه أتيح له قضاء أسابيع ثلاثة في هذا الموقع مثلما حدث في أسوان لكان أصدق حكماً وأكثر استمتاعاً. ولكن لواء الجنرال بيار كان على [illegible] إلى قنا عليه أن يعود مرة أخرى لطرد الأهالي المتمردين من قرية القر[illegible] والاحتفاظ [illegible] على أن العمليات العسكرية لم تحقق أغراضها جميعاً إذ نجح فريق من الأهالي في الفرار إلى الصحراء، فأشعل الجيش النار أمام الكهوف والمغارات لتمتلئ دخاناً فتحمل من بقي فيها على الخروج ثم سد الجيش المداخل بالمتاريس، ولكنه لم يقع إلا على ثلاثمائة عنزة [illegible] ديون الهدنة لتعرّف على [illegible] وجد سحراً وعجباً في ذلك

العين الحديد بمقابر الأشراف من لوحات منقوشة صغيرة لمناظر طبيعية قد تعبّرت [illegible] الخامدة المُحابية التي [illegible] المقابر الملكية [illegible] طبيعة ترفّ سلاسة، كما بدت مجموعات [illegible] الأولى [illegible] المعادن [illegible] التي تجلت في هذه المشاهد الخدارية فانبرى يسجل في [illegible] للمباهج الشعبية من ألعاب وموسيقى ورقص، بعد أن أدرك الفرق بين الأسلوب الكهنوتي التقليدي لمقابر الملوك وبين الأسلوب اللطيف الرائق المتحرّر لمقابر الأشراف. وقد عهد القائد إلى ديون – وكان يثق بلباقته إذ كان دبلوماسياً سابقاً – بمفاوضة الأهالي في تسليم الشيوخ، ولكنه [illegible] ألا يتعجل الأمور وعمد إلى التسويف والتأجيل حتى يفرغ من جولاته ورسومه ووضع مهارته الدبلوماسية في خدمة أهدافه الأركيولوجية، فمضى يتراخى في المباحثات إلى أن تم له اكتشاف مدينة هابو، وما إن انتهى من هذه المهمة حتى أقلع إلى القاهرة بعد رحلة استغرقت من ديسمبر ١٧٩٨ إلى يوليه ١٧٩٩ في مصر العليا.

وما [illegible] ديون يصل [illegible]

لوحة (٣٠) ديون: منظر القاهرة من ميدان الأزبكية وقد غمرته مياه الفيضان «وميدان الأزبكية هو أكبر ميادين القاهرة، تفتقر مبانيه إلى التناسق وتجرى فيه على مدار السنة تحولات، أولاهما حين تغمره مياه النيل أثناء موسم الفيضان، وثانيهما حين تنحسر هذه المياه لتخلف [illegible] خضراء. وقد سجلتُ هذا المنظر الأول حيث يحتشد السكان من مختلف الطبقات للاحتفال بهذه المناسبة [illegible] الميدان إلى [illegible] بالقوارب [illegible] الناس على سطحها ناعمين بهدوء الليل وجمال الطقس، ويبدو قصر الألفي بك الذي نراه إلى اليمين مضاءً بالمشاعل وقد غدا أثراً تاريخياً بعد أن أقام به بونابرت إبان وجوده بمصر»

فيفان ديون

مشدوهين . [illegible] رسوم رسمت كثرة منها على ركبتي وأنا جالس ، وسائرها وأنا على صهوة جوادي ، ولم يكن لي أن أتم إحداها على غير هذا الوجه ، إذ لم [illegible] لم أجد مظلة [illegible] تستطيع أن [illegible] لا [illegible] [12] فقد كان دينون يحتفظ برسومه [illegible] المماليك وهو هادئ الأعصاب كما لو كان يرسمها في هدأة على منضدة في مرسمه ، مبدعا لنا رسوما تلقائية واقعية بسيطة صريحة قد تكون أشد إيحاء من الكثير من اللوحات الكبيرة وإن لم ترق من ناحية الأسلوب [illegible] إلى مستوى اللوحات التصويرية العظمى [illegible] الدقة التامة التي نلمسها في كتاب «وصف مصر» إلا أنها تتسم بخفة [illegible] كثيرا ما [illegible] التسجيل الأركيولوجي الصارم أو بالحذلقة والادعاء [illegible] دينون [illegible] فحسب بل كان كاتبا أديبا كذلك ، فهو لم يكتف [illegible] لوحات [illegible] بطريقة الحفر على الحجر أو سواه [13] والتي رسمها من [illegible] [illegible] حولاته ومغامراته هو «رحلة في مصر [illegible] [illegible] [illegible] زوده بأطلس شامل من الرسوم في عام ١٨٠٢ (لوحات من ٣٤ إلى ٩٢)

ولقد نجح هذا الكتاب المواكب لوجود علماء الحملة الفرنسية في أن يقدم لأوروبا صورة أمينة صادقة لمصر في نهاية القرن الثامن عشر قبل ظهور الجزء الأول من كتاب «وصف مصر» ببضعة أعوام ، كما تقدم رحلة دينون لمصر التي استوعبت ثلاثة عشر شهرا عطاء أكثر سخاء ونفعا مما سبقه من [illegible] وما من شك في أن صوره المطبوعة بطريقة الحفر لمصر [illegible] المطبوعة التي سبقته والتي كان يتشدق بها رسّاموها في نهاية القرن الثامن عشر . كما أن لوحته الأدبية التي وصف بها مصر جاءت أكثر شمولا من لوحة فولني وأشد موضوعية من لوحة سافاري . ولم يقصر دينون تسجيلاته على ما شاهده في البلاد من آثار وعادات وتقاليد بل قدّم لنا صورا لأروع لحظات المعارك خلال الحملة . وهكذا أدّى دينون من بين أعضاء لجنة العلوم والفنون في جيش الشرق دورا رياديا فضلا عن تفوقه عليهم [illegible] أخرى ، إذ كانوا علماء فحسب بينما كان هو كاتبا وفنانا أيضا ، غير أنه لابد من الاعتراف بأن تصاويره كانت تفتقر إلى الدقة التسجيلية التي يلتزمها الأركيولوجيون [illegible] [illegible] أحاطت به وسط حصار [illegible] أن يمتطي [illegible]

وإلى جوار رسومه عن مصر الفرعونية زودنا برسوم شتى لمصر القبطية والإسلامية والعادات والتقاليد المصرية ، فقد صوّر أضرحة الولاة والأولياء وسلاطين المماليك والمساجد والمشاهد المألوفة في طرق القاهرة ومواكب الجنازات والأعياد ومجالس الشيوخ ومشاهد المعارك والمناظر [illegible] والحمال والمراكب ذات الأشرعة المنسابة فوق مياه النيل [illegible] [illegible] ، كما صوّر المماليك في شكة القتال وبزّة المراسم ، إلى جانب [illegible] الأزياء وتصفيفات الشعر ، ولا سيما رسومه لوجوه الرهبان اليونان والقسس الأقباط والتجار اليهود ، فلم يترك صغيرة ولا كبيرة إلا بسطها أمام عيوننا . ولا مراء أن كتاب دينون هو أشمل مجموعة إيقونوغرافية [15] وأشهر حصيلة من الصور المطبوعة بطريقة الحفر عن مصر عرفتها أوروبا في نهاية القرن الثامن عشر .

(١٢) المرجع السابق نفسه

(١٣) Engraving فن التصميمات المطبوعة هو فن الطباعة اليدوية بواسطة الحجر [illegible] أو [illegible] على الخشب [illegible] [illegible] Etching [illegible] [illegible] [illegible] [المعجم الموسوعي للمصطلحات الثقافية [illegible]]

(١٤) [illegible] الفرنسي للآثار بالقاهرة ، وقد أعاد المعهد طبع هذا الكتاب عام ١٩٩٠

(١٥) Iconography إيقونوغرافية هي قائمة الموضوعات التي تُعنى بها حضارة من الحضارات أو يُشغل بها عهد من العهود أو يتناولها فنان من الفنانين وهي أيضا كل ما يخص موضوعا في مصوّر تصنيفا ووصفا [المعجم الموسوعي للمصطلحات الثقافية]

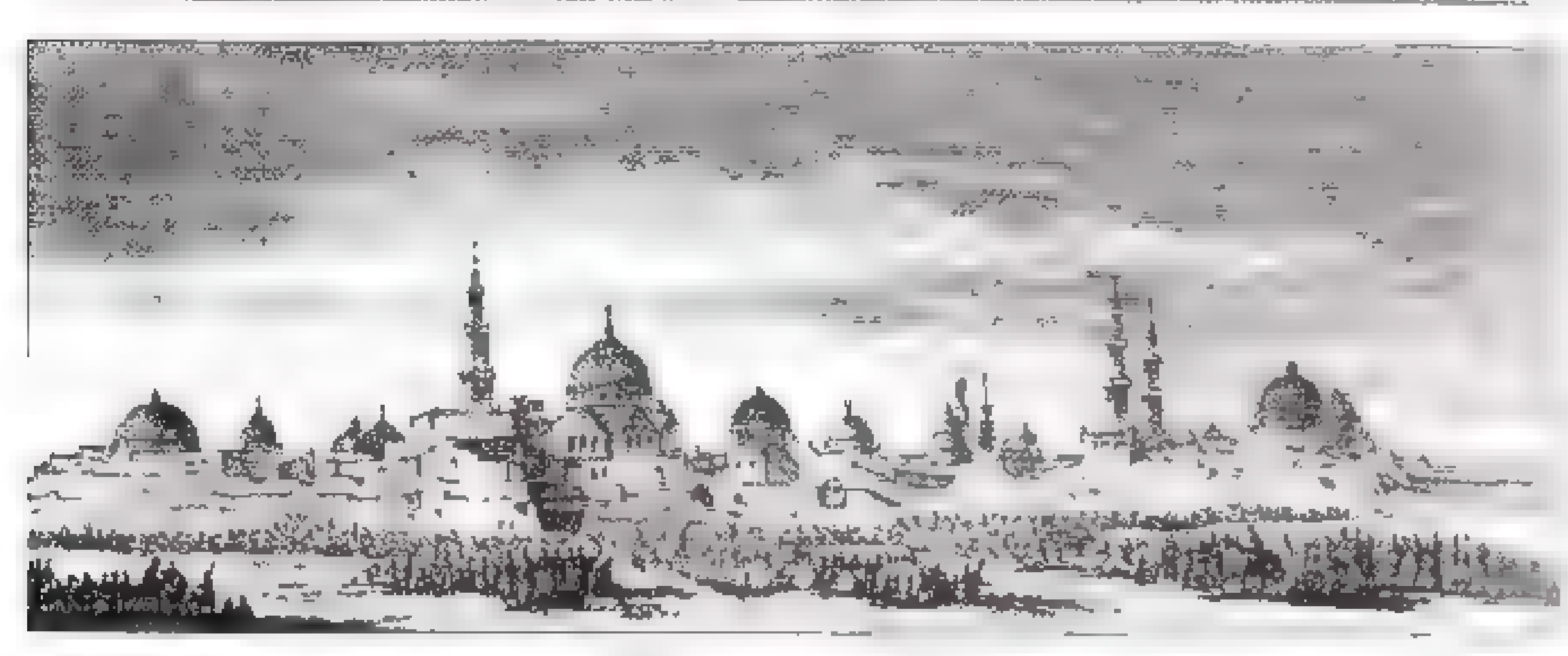

لوحة (٣٧) دينون : وادي مقابر الخلفاء

لوحة (٣٨) دينون : حديقة المجمع العلمي بالقاهرة

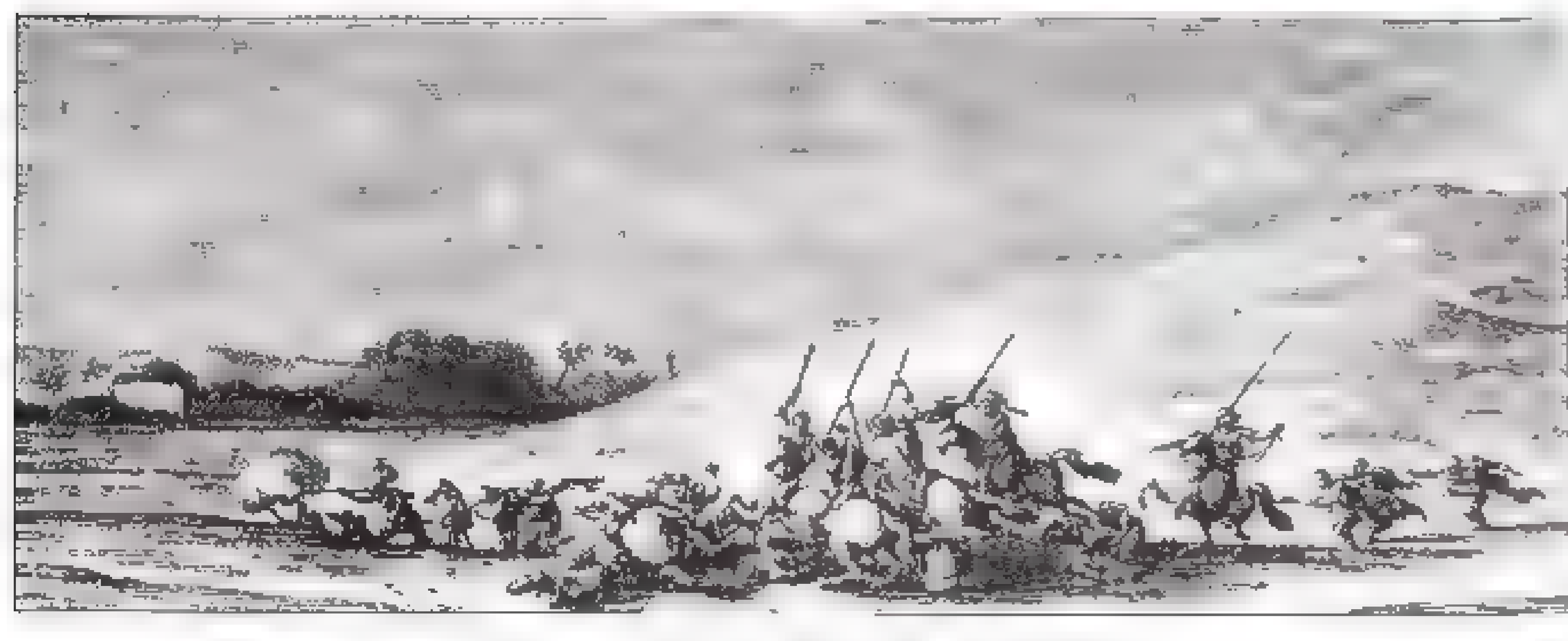

لوحة (٣٩) دينون : غارة البدو قرب أسوار القاهرة مع شروق الشمس

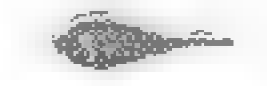

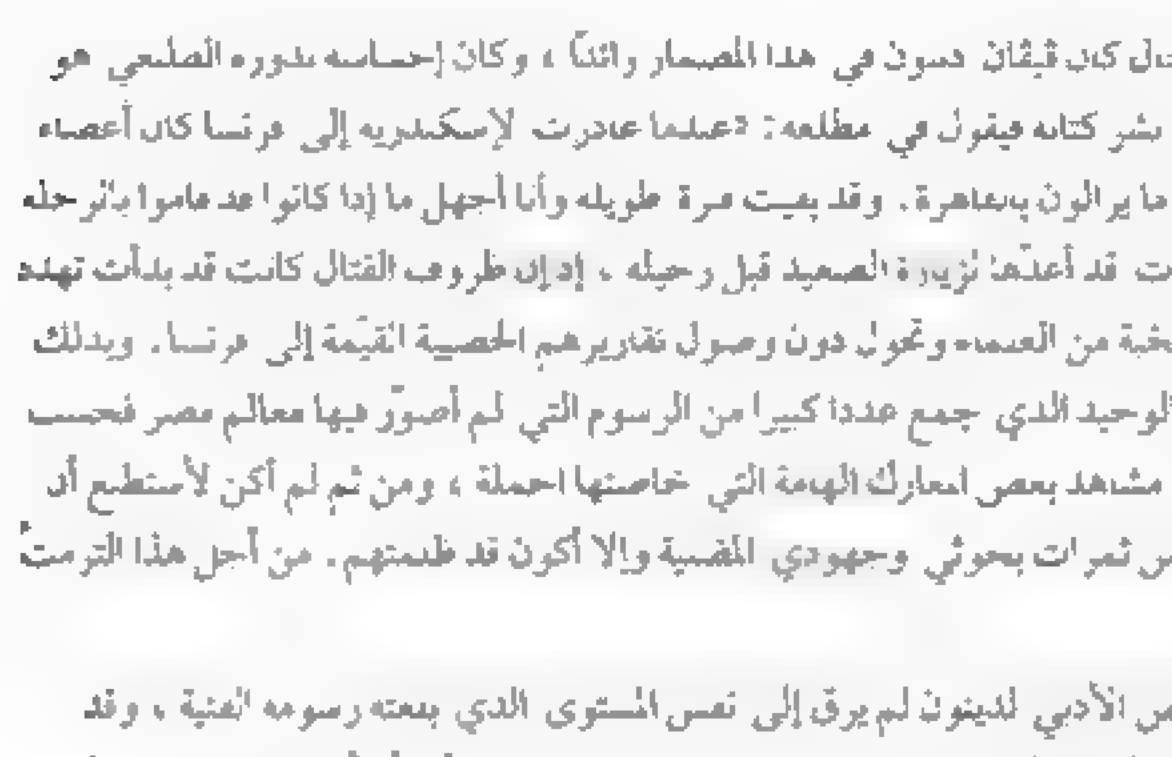

وعلى أية حال كان ڤيڤان دينون في هذا المضمار رائداً ، وكان إحساسه بدوره الطليعي هو الذي دفعه إلى نشر كتابه فيقول في مطلعه: «عندما غادرت الإسكندرية إلى فرنسا كان أعضاء المجمع العلمي ما يزالون بالقاهرة. وقد بقيت مدة طويلة وأنا أجهل ما إذا كانوا قد قاموا بالرحلة التي كان بونابرت قد أعدّها لزيارة الصعيد قبل رحيله ، إذ إن ظروف القتال كانت قد بدأت تهدد حركات هذه النخبة من العلماء وتحول دون وصول تقاريرهم الخصبة القيّمة إلى فرنسا. وبذلك وجدت نفسي الوحيد الذي جمع عدداً كبيراً من الرسوم التي لم أصوّر فيها معالم مصر فحسب بل صوّرت فيها مشاهد بعض المعارك الهامة التي خاضتها الحملة ، ومن ثم لم أكن لأستطيع أن أحرم موطني من ثمرات بحوثي وجهودي المضنية وإلا أكون قد ظلمتهم. من أجل هذا التزمت نشرها».

على أن النص الأدبي لدينون لم يرق إلى نفس المستوى الذي بلغته رسومه الفنية ، وقد اعتذر دينون عن ذلك فقال في صراحة : «كنت أعتزم في بادئ الأمر أن أسوق بعض ملاحظات نقدية عن الآثار ، وأن أناقش ما جاء به الرحالة من قبلي . ولقد استشرت بعض كبار الشخصيات لإضافة بعض الملاحظات العلمية إلى كل ما هو جدير بالانتباه مما قد صوّرته ، غير أنه ما كاد يبلغني أن المجمع العلمي قد قام برحلته وأن أعضاءه قد عادوا مزوّدين بحصيلة كبيرة من المعلومات ، وأن الدولة ستقوم مشكورة بالإنفاق على نشر موسوعة علمية نفيسة تتناول سائر النواحي ، حتى طرحت جانباً هذا المنهج الذي يمكن أن يقوم به غيري ممن هو خير مني» . فهو لم يشأ أن يسلب العلماء ما هم أحق به منه ، ومن ثم اختصر كتابه في تواضع فجعله يوميات للحملة وسرد للرحلة فحسب واستبعد جانباً كل ما خاطر بنفسه في سبيله

على أنه لم يتهيأ لدينون الوقت كي يقدم تقريراً لهيئة المجمع مجتمعة عن نتائج رحلته ، فبعد عودة بونابرت من فلسطين أمره بأن يصحبه إلى الدلتا وطلب منه تسجيلاً مصوّراً لمعركة أبي قير - التي انتصر فيها على الجيش التركي الذي نزل في "أبي قير" في ١١ يولية ١٧٩٩ بقيادة مصطفى باشا - بعد أن نالت رسومه لمصر العليا إعجابه. وعندما أدرك نابليون انتهاء مهمة دينون واقترح عليه أن يرافقه في رحلة العودة إلى فرنسا . وسرعان ما ظهرت ثمار رحلة دينون حين أمر القائد العام بناء على طلب العديد من أعضاء المجمع بتشكيل لجنتين متخصصتين على وجه العجلة من العلماء والفنانين لتسجيل ورسم جميع آثار الصعيد على نحو موضوعي علمي دقيق ، أحدهما برئاسة فورييه والأخرى برئاسة كوستاز ، حلّتا القاهرة في ٢٠ أغسطس ١٧٩٩ أي قبل رحيل نابليون إلى فرنسا بثلاثة أيام مصطحباً معه مونج وبرتوليه

تلك كانت مغامرة ڤيڤان دينون على أرض مصر التي أراح بها الستار لأول مرة لفرنسا ثم لأوروبا كلها عن روائع الحضارة الفرعونية ، وبلغ ما قدّمه للعالم من الرسوم المطبوعة ما ينيف عن ثلاثمائة وخمسة وعشرين رسماً . وقد عثر دينون شيخوخته بمتحفه الذي أقامه في داره الأنيقة بطريق الفرنسي فولتير ، ... على نهر السين ومن بينه مقتنيات الطريفة ، ومنها قطعة من رفات ... ، وشعيرات ... من شارب هنري الرابع ، وقطعة من عظام موليير وأخرى من عظام لافونتين ، وضرس من أضراس فولتير ، وقطرة دم من دماء نابليون راعيه الجليل[16]

(16) M. Henri Gauthier, Vivant Denon en Egypte.

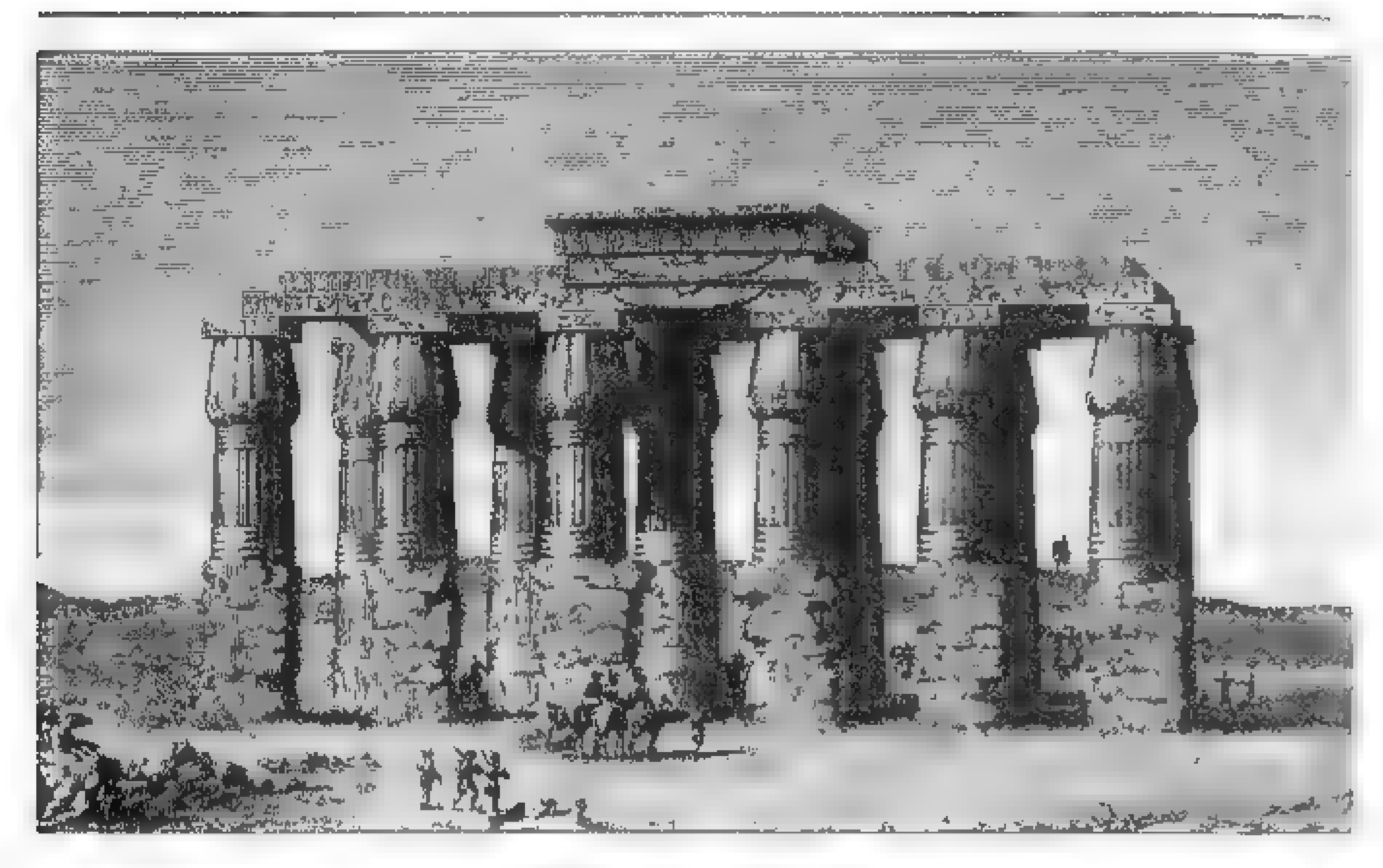

لوحة (٤٠) دينون أطلال معبد هرموبوليس.

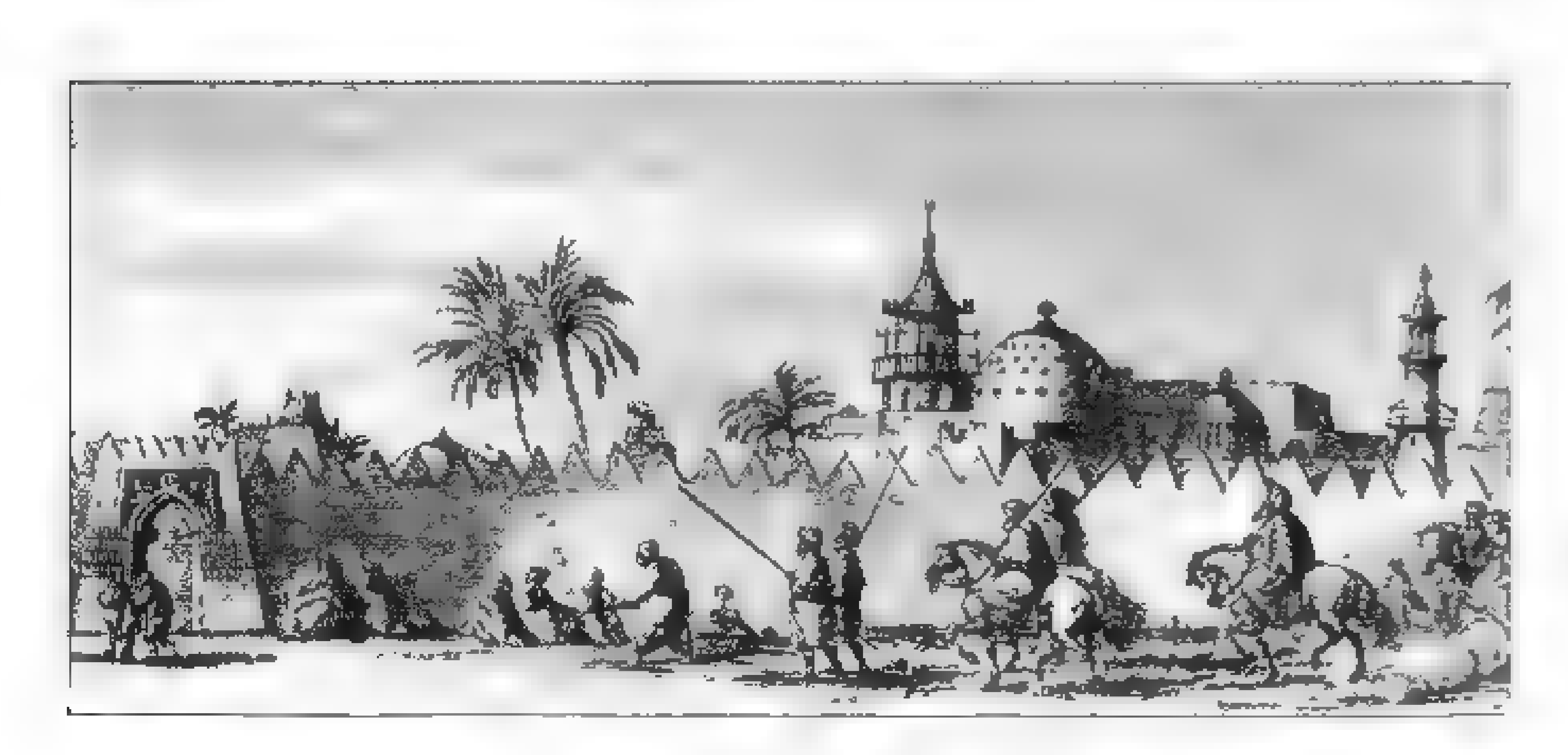

لوحة (٤١) دينون أحد أحياء مدينة جرجا

لوحة (٤٤) دينون. مدخل
معبد دندرة

لوحة (٤٣) دينون. الجزء الجنوبي من معبد دندرة

لوحة (٤٢) دينون. معبد دندرة

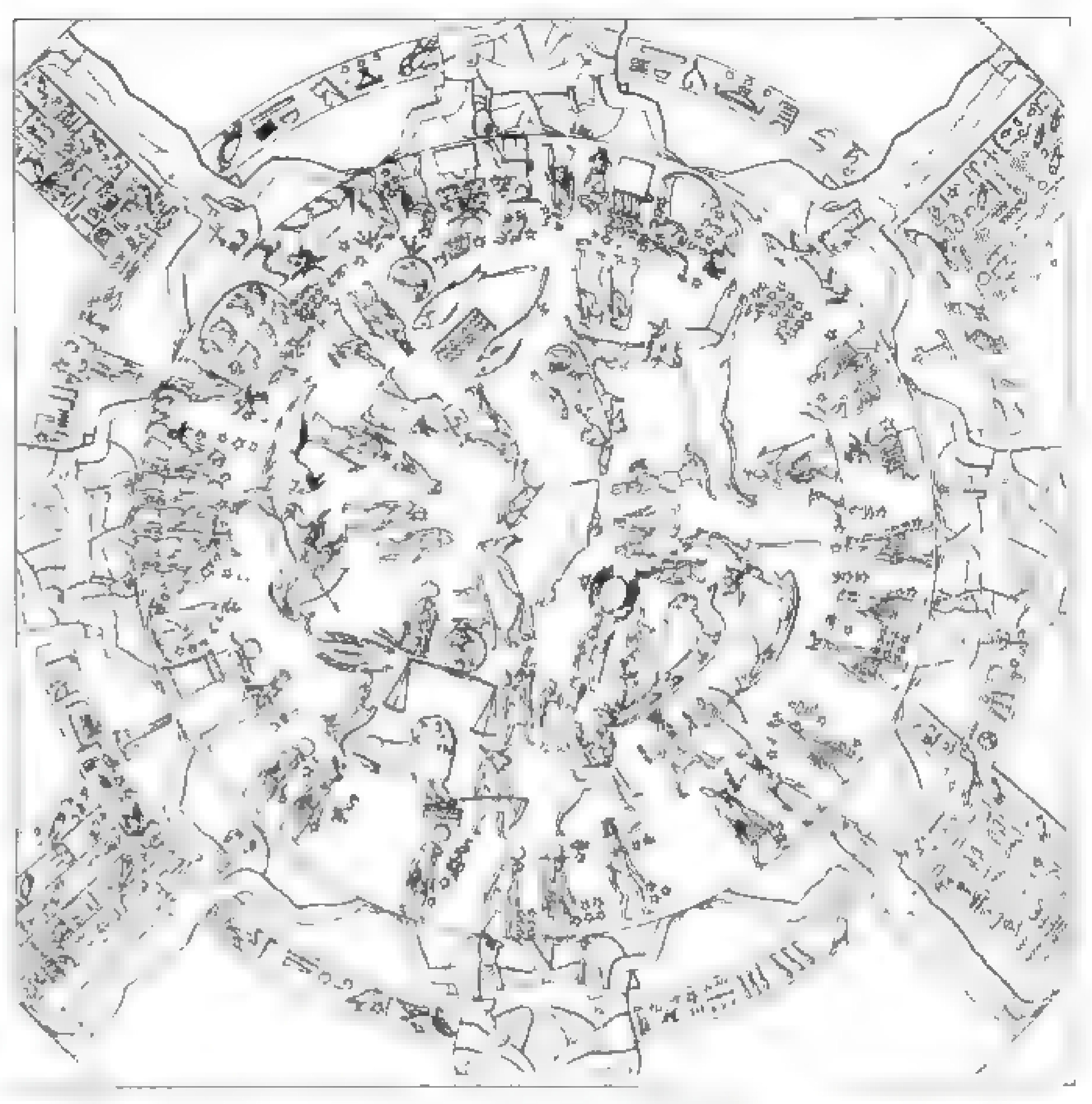

لوحة (٤٥) دينون، لوحة البروج السماوية، زودياك، معبد دندرة

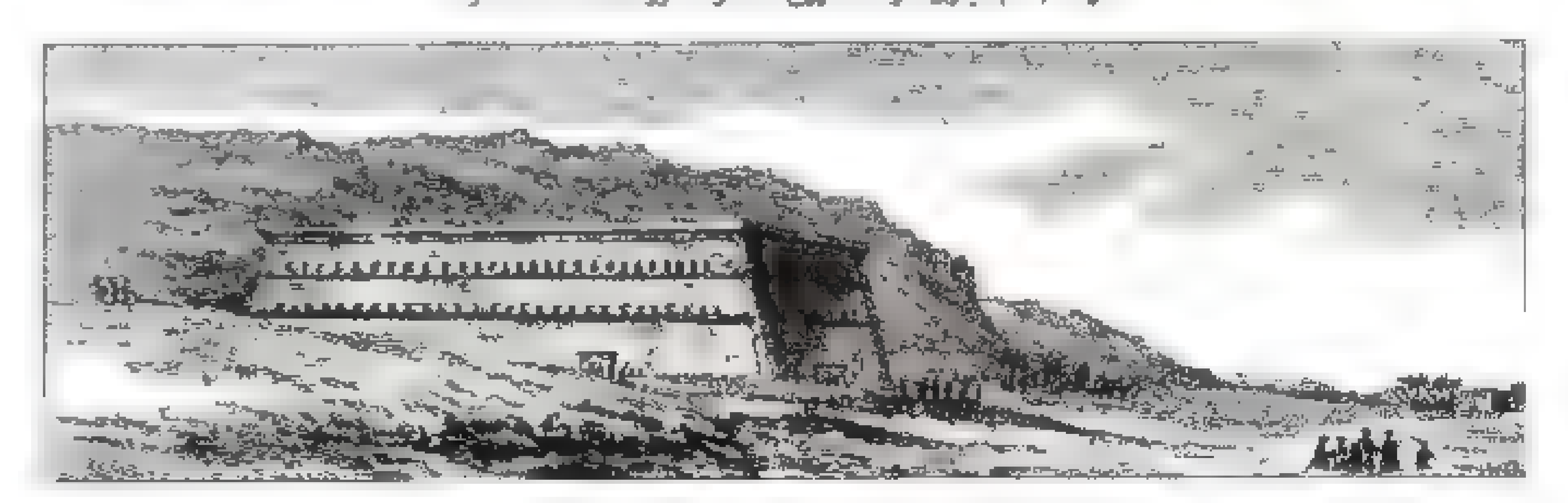

لوحة (٤٦) دينون، الدير الأبيض بسوهاج

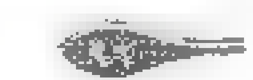

لوحة (٤٧) دينون، طيبة، الأقصر.

لوحة (٤٨) دينون، معابد طيبة [الأقصر]. «أي تعانق بين الصمت والعظمة، يعلو ويهبط عبر الرمال مواكباً الجلال مع البساطة»

جوستاف فلوبير

لوحة (٥٤) دينون. قدم المومياء: «قدم مومياء رشيقة لفتاة في مقتبل العمر لا شك أنها لأميرة صغيرة لم تحتك قدماها من عناء السير، ولم تحزّ قدميها خطوط نعل خشن. وقد ظفرت من مطرس بهذه القدم بعد مسوق إليه رجل حين يظفر بامرأة. لقد خيّل إلي أنني قد بادلت الغرام خلسة فتاة فرعونية»

فيفان دينون

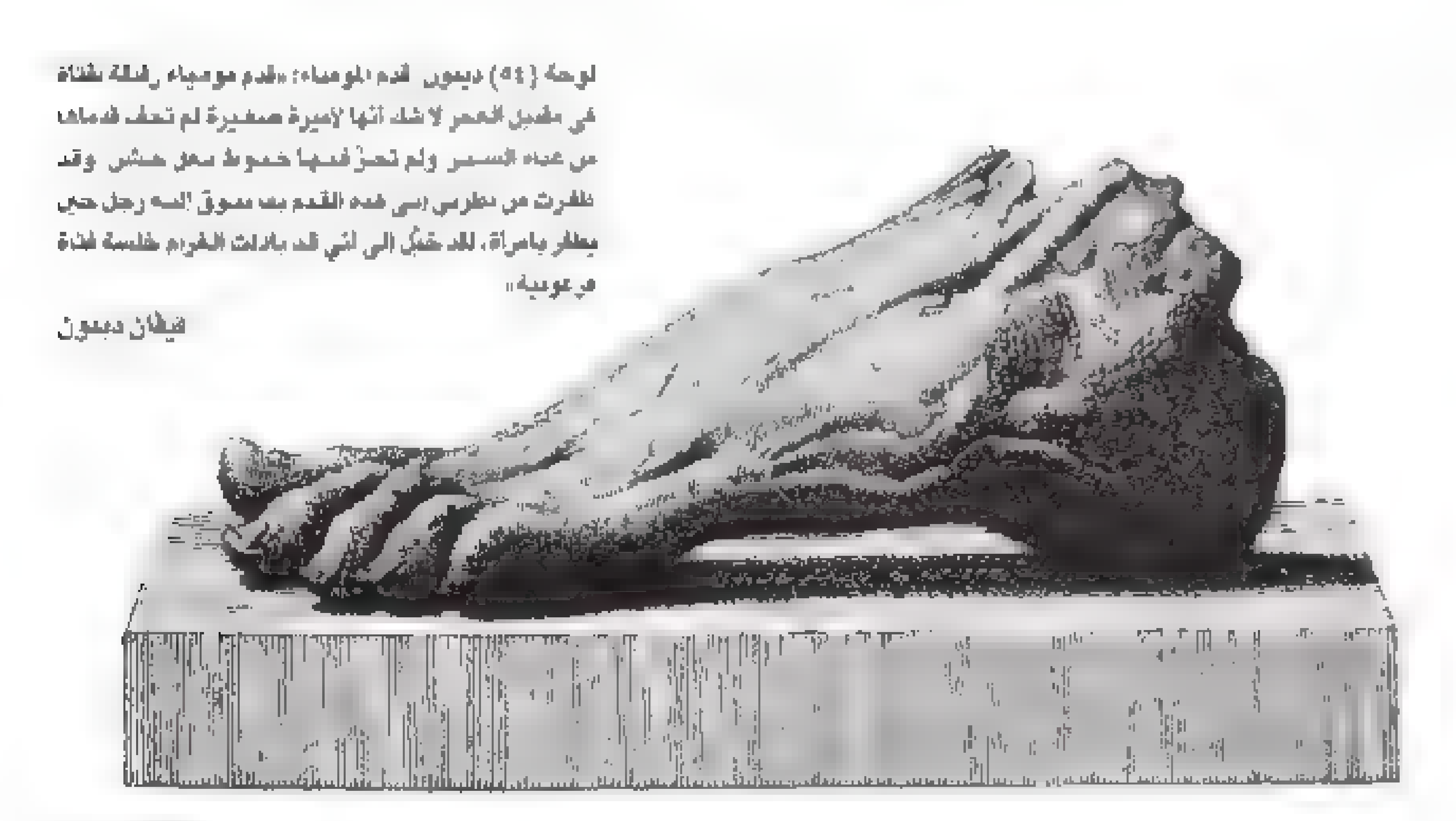

لوحة (٤٩) أطلال معبد بجزيرة الفانتين

لوحة (٥٠) ديدون جزيرة فيله

لوحة (٥٣) ديدون، معبد الكرنك : « ما أكثر ما تصادفك مسلة شاهقة مستقيمة تكسوها طبقة بيضاء من روث الصقور والحدآت يدق سُمكها كلما هبطت صوب القاعدة ، وهي في تصوري الرمزي لافتة للنظر، بل إنني اكتشف فيه رمزية غريبة تشير الى أن ربة الطبيعة قد غضبت على آثار مصر التي ترفض أحجارها مذ العصائب بالفناء فسلطت عليها الحدآت لتلطخ بزبلها بعض مجدها القديم »

جوستاف فلوبير

لوحة (٥١) ديدون طيبة : « ينبسط السهل الفسيح خلف الأقصر في اتجاه الكرنك وكأنه المحيط ويمتد ضوء القمر المنساب إلى أعماق الحديقة حيث نواة الكون .. وتتألق السماء بالنجوم التي تبدو النسمة وكأنها أهلة أو حبات عقود من الماس تناثرت هنا وهناك إلا أنا أقربها لغة تلك التي تشبه النجوم بالماس »

جوستاف فلوبير

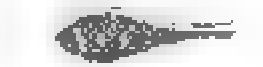

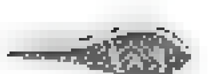

لوحة (٥٧) دينون، مشهد داخل معبد إدفو

لوحة (٥٤) دينون، معبد الكرنك

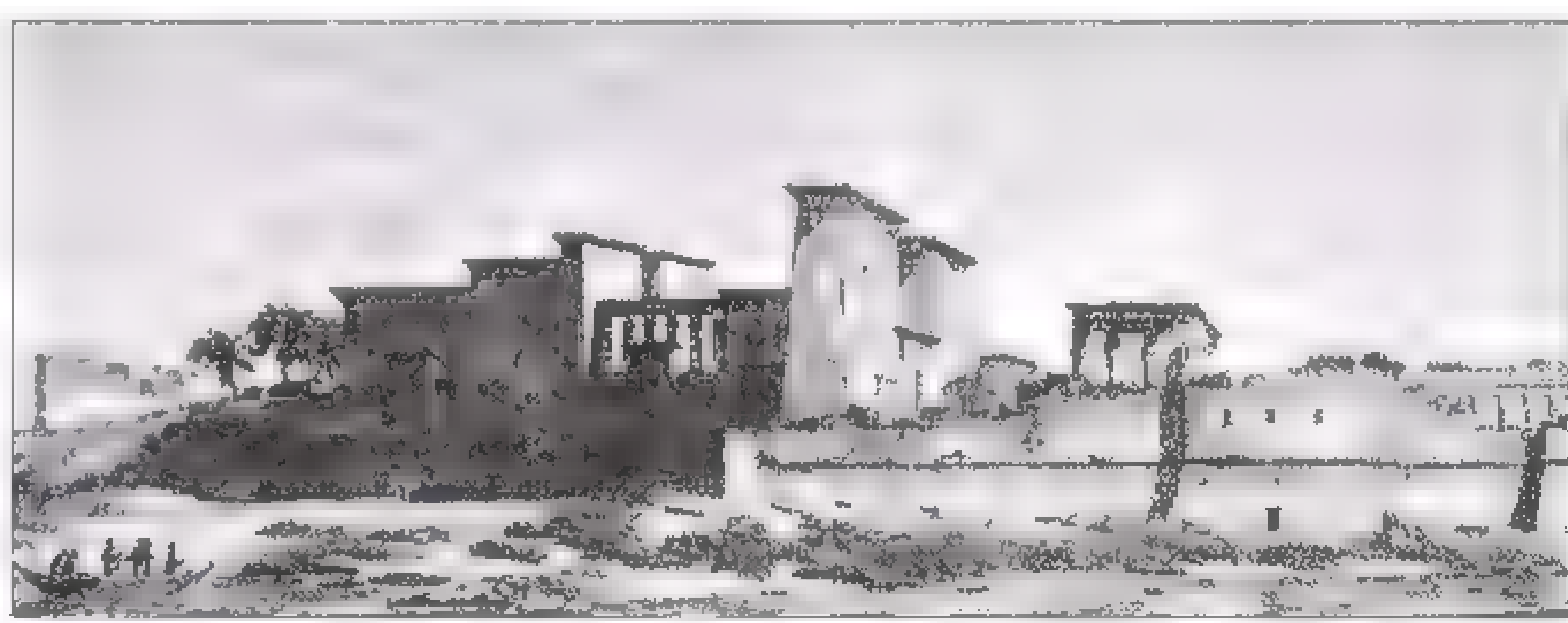

لوحة (٥٥) دينون، معابد جزيرة فيله

لوحة (٥٦) الفنان دينون أمام بوابة معبد هيراكونبوليس المهدمة في زي مصري وقبعة مرقة وحذاء مثقوب، برفقة خدمه النوبي وبوقه وجواده وحماره وكرسيه القابل للطي

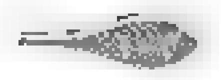

لوحة (٥٨) دينون ، قصر بطيبة [هو في واقع الأمر معبد بمدينة هابو]
« ما أشبه فصلات الطير التي تلطخ المباني في مصر بالطحالب التي تغشى مباني أوربا ، فهذه وتلك مظهر لاحتجاج الطبيعة على مشيئة الإنسان من عمان » .

جوستاف فلوبير

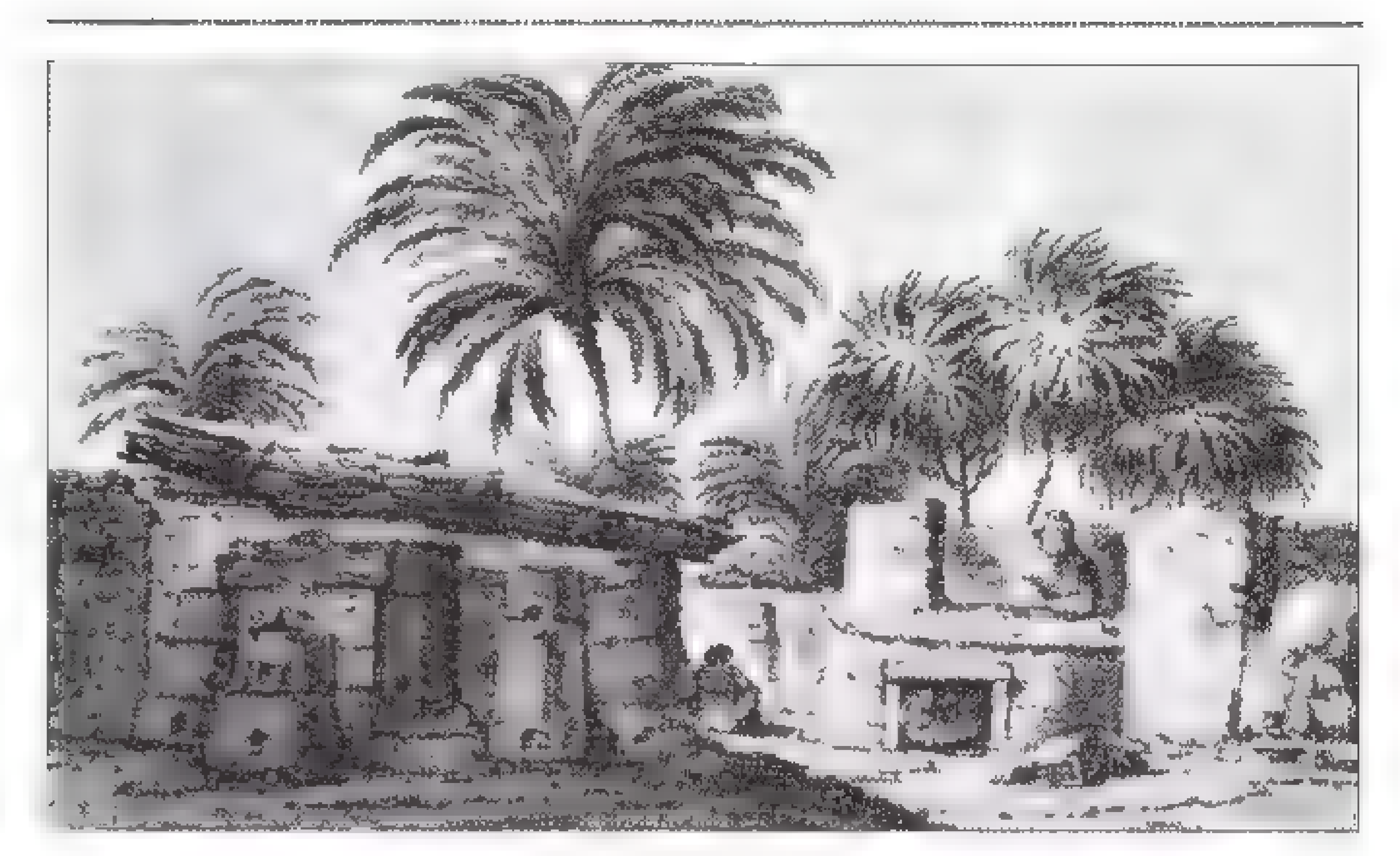

لوحة (٥٩) دينون ، معبد نوبي قرب الشلال

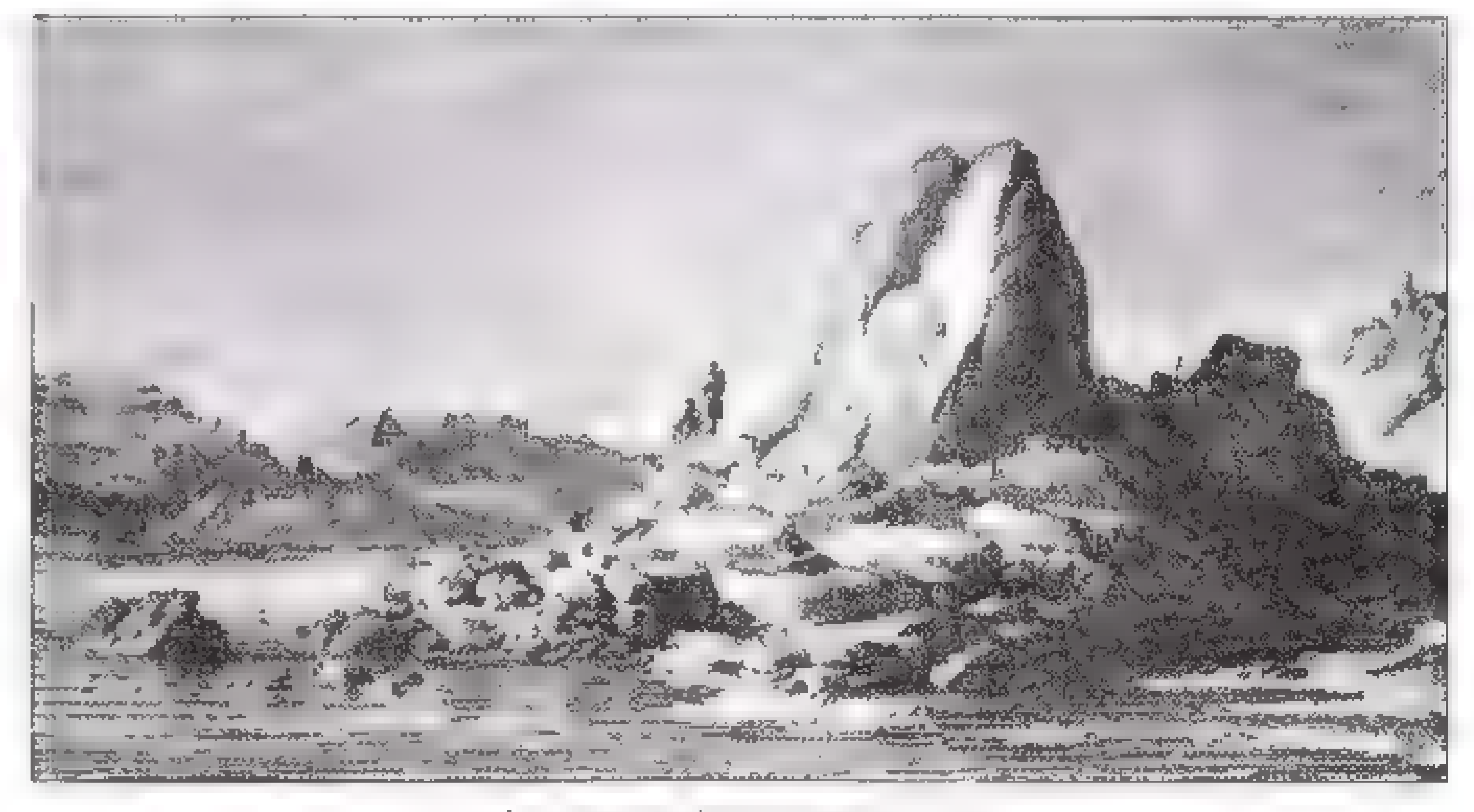

لوحة (٦٠) دينون ، صخرة من الجرانيت بالقرب من فيلة

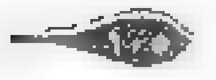

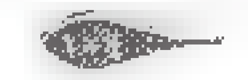

لوحة (٦١) دسور: خيمة بدوي

لوحة (٦٢) ديبو: المحكمة العسكرية، وقد امتد القاضي الفرنسي مجلسه إلى جو ر علم الجمهورية الفرنسية وإلى جانبه مترجمان، وجلس أمامه الشاكون والمشكو منهم.

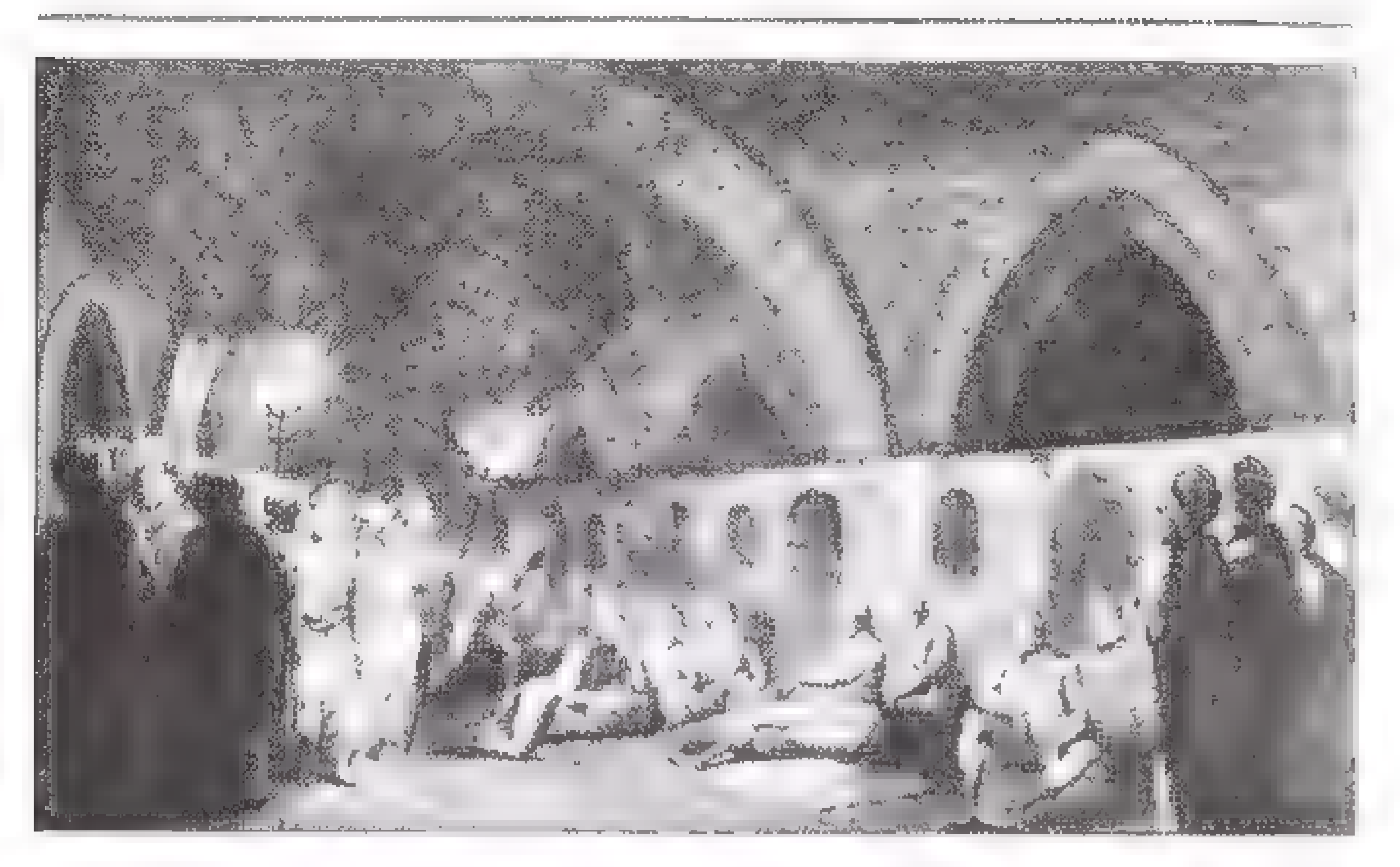

لوحة (٦٣) دسور: القيادة الفرنسية في حوش خد الغامر ابن محمد

لوحة (٦٤) ديبو: جندي فرنسي جريح يقود جندياً جزائرياً بصرد وسط المقابر، على حين عد العصر ابن آوى ضبع ينبش على جثة جندي فرنسي ينهش ما تبقى منه

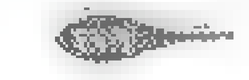

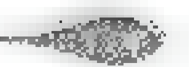

لوحة (٦٥) دنون ، معركة أبي قير البرية

« لحظة انحسار الأعداء الأتراك . نرى فرسان الفرنسيين يطاردون فلول العدو وهم يفرون صوب البحر محاولين اللحاق بأسطولهم، غير أن نيران مدفعيتين تردهم على أعقابهم لتقابلهم نيران المدافع والبنادق . وتكشف الأعلام والغنائم عن مدى انتصار الفرنسيين . ونرى بونابرت يعلو جواده في مركز القيادة الذي انتزعه من الأتراك والباشا الأسير الجريح يُساق إليه » . دنون

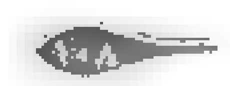

لوحة (٦٦) دينون. معركة سد موية بمحافظة الفيوم [وردت خطأ في النص الفرنسي باسم سيدي مان].
« نسجل في هذه اللوحة اللحظة الرهيبة التي اضطرت فيها كتيبة المشاة إلى التخلي عن جرحاها عابرة الوادي صوب الهضبة التي انتصبت فوقها المدفعية لتحتمي بها. وبظهور العدو الأعراب وقد اندفعوا بخيولهم فوق قمة الربوة مسارعين رغبة في الظفر بأكبر قدر من الغنائم من خلال اجتياح المدفعية أو ضرب بقايا المشاة. ويحتل صدر اللوحة عدد من القتلى والجرحى. وسط هذا الدمار يبرز من بينهم جندي يحاول إنقاذ زميله الجريح الذي توسل إليه أن ينقذ جثمانه قبل فوات الفرصة، على حين يخفي جريح ثالث وجهه كي لا يقع بصره على الموت الذي يترصده ملتمساً من رفاقه الإجهاز عليه قبل أن ينال منه [البرابرة]. لقد بقيت مظاهر الشجاعة واحدة على مر الزمن. فعندما أحس مارك أنطونيو بدنو أجله ناشد كليوباترة ألا تذرف الدمع عليه بعد حياة حافلة بالأمجاد، سعيداً بأن هزيمته لم تأت إلا على يد روماني مثله». دينون.

لوحة (٦٧) دينون.. معركة سد موية بالقرب من بحر يوسف حيث يطارد فرسان المماليك فلول الجرحى من الفرنسيين. ويتصدر اللوحة جندي يسحب زميله الجريح وقد غطى سمعه انقضاض فرسان المماليك». دينون

لوحة (٦٩) دينون قتال متلاحم بين أمير اللواء دوبليسيس والمملوك عثمان، خر الأول فيه صريعا

لوحة (٧٠) دينون، اجتماع شعبي تحت شجرة الجميز الضخمة يناقش فيه الأهالي شؤون الري ويحددون الترع الواجب شقها لاستقبال مياه الفيضان ويقتسمون النفقات، كل قرية حسب ما تناله من فائدة

لوحة (٧١) دينون خان القوافل وتبدو أشجار الدوم والتمر حنة والنخيل التي تضفي على الخان الطابع الشرقي

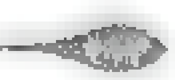

لوحة (٦٨) دينون: معركة الأهرام

« فيلقان من المماليك يهاجمان فرق الجنرالات ديجو وديسيه ورينييه ، ويتصدى الآخر لكتيبة الجنرال رامبون ، في محاولة لتصوير إحدى هجمات المماليك التي كنت شاهد عيان لها عدة مرات ، والتي كانت تستدعي بسرعتها المذهلة وفروسيتها الباسلة والصيحة المفزعة بالأرواح . كذلك سجلت بالتبر شظايا القنابل على فرسان المماليك وهم يقتحمون صفوفنا في شجاعة نادرة حتى بلغوا فوهات المدافع . وشاهدت رجال إسعافهم يحوسون خلال صفوف مقاتليهم لانتشال أجساد الجرحى ، وجيادهم المجفلة تروح وتغدو . وتبدو النخيل بأعناقه فوق الأرض

المنطقة بفعل الغبار ولهيب الشمس وكل ما يميز طابع البلاد الفريد . والى يمين اللوحة يمتد الطريق المؤدي الى السويس والى سيناء . ونرى قبو إبراهيم بك ومدينة القاهرة عند سفح جبل المقطم وقناطر المياه التي تصل إلى مصر القديمة وأمامها نهر النيل يضم جزيرة الروضة وبولاق وسفينة قائده مراد بك التي أشعل فيها النار خلال المعركة وعلى الضفة الأخرى من النيل نرى الجيزة وقصر مراد بك والهضبة التي تضم أهرام سقارة والجيزة . وهي الموقع الذي كانت تحتله منف القديمة . وفي مؤخرة الصورة تظهر سلسلة الجبال الليبية»

دينـــون

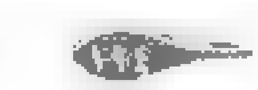

لوحة (٧٢) دنون: حمام عام بالقاهرة ويبدو بإحدى قاعاته الخاصة شخص مرموق وقد جلس فوق مقعد من الرخام إلى جوار حوض الماء ويد منه رجل مدس كفه في كيس من الصوف السميك الناعم الملمس وأخرى يدلك به جسده بعد أن لانت الأبخرة المعطرة بشرته وبعث إلى مسام جلده، على حين يصب غلام آخر الماء الساخن على جسده، ويعد ثالث المبخرة ويحمل صبيٌ القهوة

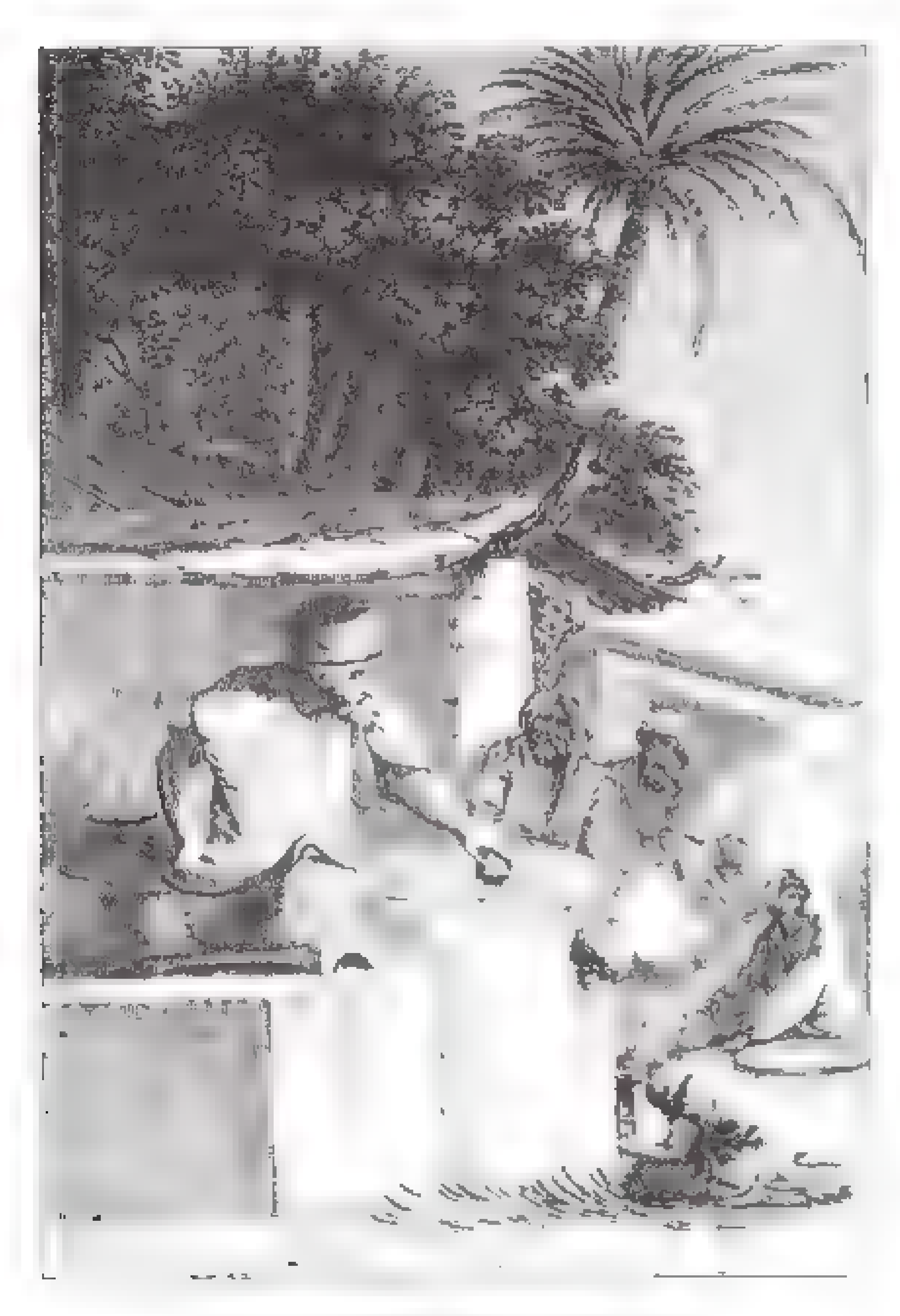

لوحة (٧٣) دنون، صانع الكنافة، الحكومة المصرية

لوحة (٧٦) دنون: راهب يوناني وقس قبطي وتاجر يهودي ومواطن رومي من رشيد

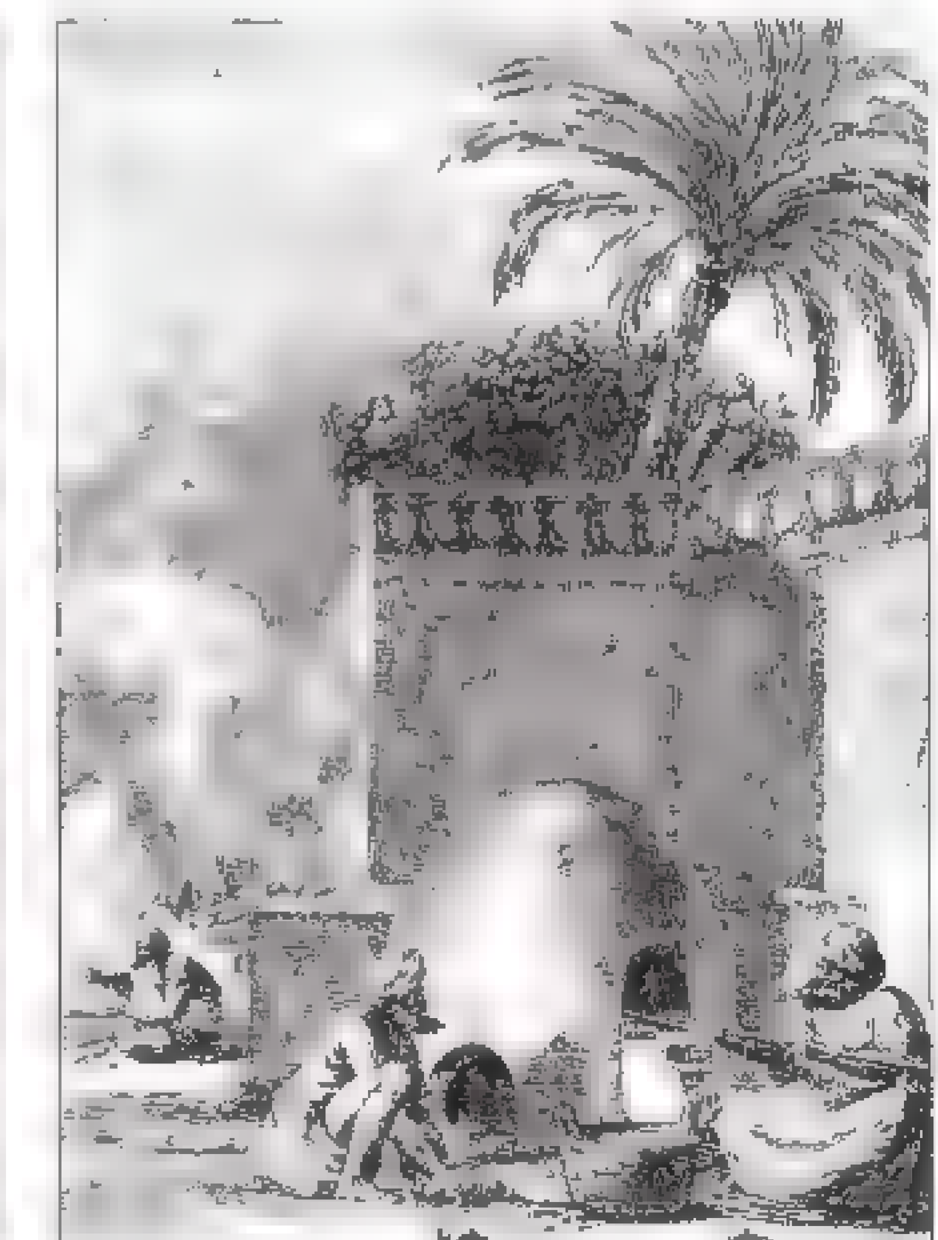

لوحة (٧٤) دنون: فرن مصري.

لوحة (٧٥) دنون: الحلاق في دكانه

لوحة (٧٧) دنون: كتاب الصبية

لوحة (٧٨) دنون: جنازة

لوحة (٧٩) دنون: موكب زفاف

لوحة (٨٠) دسون . سيده مصريه بالحرمله

لوحة (٨١) دسون . سيده محجبة اثناء سيرها في الطريق العام

لوحة (٨٢) دسون .احد أهالي دارفور من قادة قوافل العبيد الوافدين من السودان

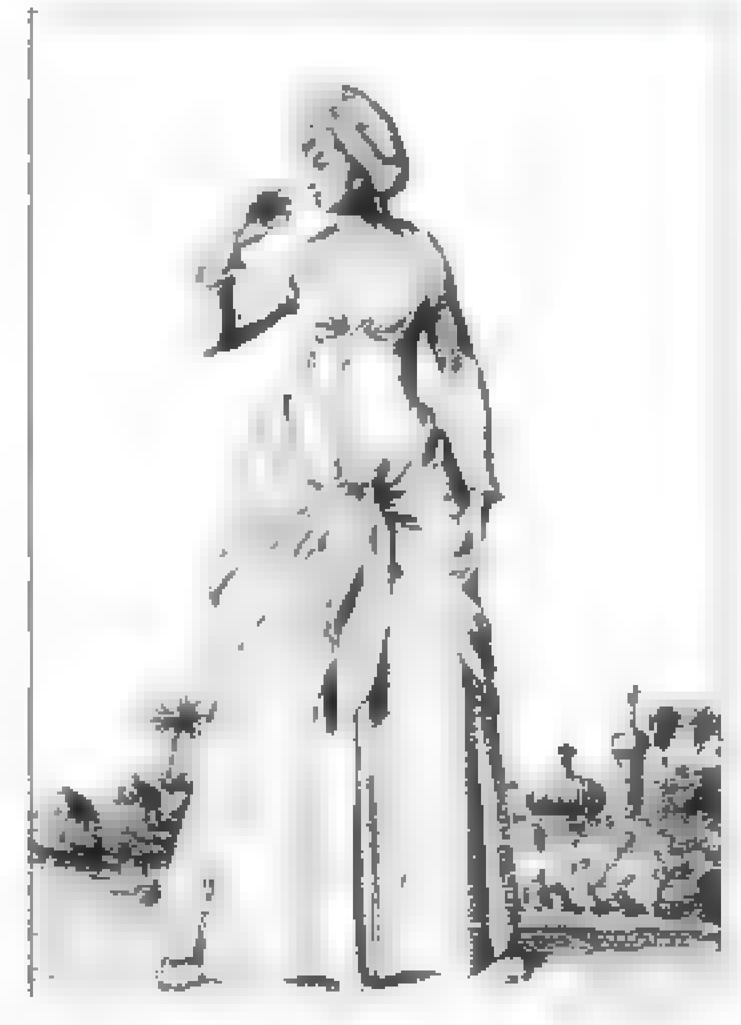

لوحة (٨٣) دسون .عالمة

لوحة (٨٤) دسون . سيدة كريمه المحتد تحمل مروحة

لوحة (٨٥) دسون . سيده مصرية بالحرملك

لوحة (٨٦) دسون . مملوك في بزّة رسمية تتسدل اكمامها محصة الكفي معبرا عن احترامه لرؤسائه

لوحة (٨٧) دسون .مجذوب القرية مسحر منه القوم إبان حياته ليقدسوه بعد مماته، يقعي خلفه كلب ويمر به كهل ضرير

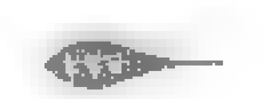

لوحة (٨٨) بيبون .فلاح من الصعيد يحمل باكورة محصول البرسيم

لوحة (٨٩) بيبون .تاجر

لوحة (٩٠) بيبون .مملوك يرى القتال

لوحة (٩٢) بيبون. شحاذ كفيف يقوده صبي

لوحة (٩١) بيبون. شيخ

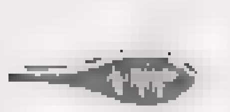

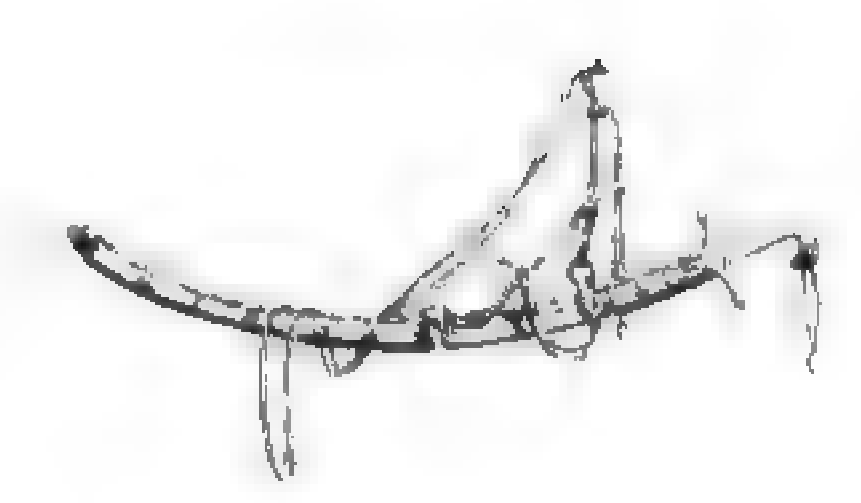

لم يكن بين أفراد الفيلق الثقافي الفرنسي الذي نزل أرض مصر من يعرف بالتحديد ما سوف يلقاه من مشاق خلال جولتهم بين ربوع تلك البلاد الجديدة عليهم غير أولئك الذين أتاح لهم الحظ أن يقرؤوا وصف فولني لمصر بصدقه الواقعي ، وهؤلاء لم يدهشوا أو يفاجؤوا أو يصابوا بخيبة أمل مثل أولئك الذين غررت بهم كتابات الأديب الشاعري المرح «ساقاري» الذي لم يجد مصر إلا قطعة من جنة تتهادى بين جنباتها فتيات أقرب إلى الحور العين. ولا شك أن هذه الجمهرة من جندهم حديث ساقاري قد تلبثوا لحظات يتطرون فيها سابقهم ساقاري بوابل من ألفاظ السباب وبمختارات من الشتائم قبل أن يبدؤوا رحلة تمتزج فيها المتعة بالعذاب وتتشابك فيها فرحة اكتشاف الجديد بجهد المسير في أرض وعرة يقسو فيها القحط ويشح فيها الماء.

والحق أن الأسابيع الأولى التي تلت وصول أعضاء لجنة العلوم والفنون إلى مصر كانت مشحونة بالمصاعب، ولم يكن لدى الجنود فسحة من الوقت يمنون خلالها بالعلماء الذين كانوا يتناولون طعاما لم يعتادوه متحمين أثناء نومهم بنجوم السماء . ولا شك أن نفوسهم كانت تذهب حسرات على حياتهم الباريسية الهانئة المنتظمة في المتاحف أو في مدرسة البوليتكنيك أو في معاملهم أو في المكتبات العامة. وكان بينهم بلا شك رجال أشداء من الأطباء والجراحين وعلماء الميكانيكا ومهندسي الكباري والمطابع إلا أنه كان من بينهم أيضا رجال رقاق الحاشية ممن يزاولون في مكاتبهم أو معاملهم العلوم البحتة من هندسة وفلك وعلوم الحيوان والنبات والمعادن ومن الفنانين والصحفيين وعلماء الآثار والاقتصاديين الذين ما لبثوا أن هزتهم ظروف القتال القاسية وبلبلت أفكارهم . هذا إلى الجو العدائي الذي وجدوه يحاصرهم، وإلى شدة حرارة الطقس وارتفاع درجة الرطوبة في الصيف والاغتراب في بلاد لا يعرفون لغتها أو دينها أو تقاليدها ، ومن هنا كان صب اللعنات على ساقاري متدفقا من ألسنتهم صباح مساء . على أن دخول بونابرت إلى القاهرة قد هيأ لهم بعض أسباب الراحة في مساكن لائقة بعد ما عانوه من حياة المعسكرات ووسط المعارك وإرهاق السير الحثيث.

وعلى غرار المجمع الوطني بباريس أنشأ نابليون «المجمع العلمي المصري» الذي لم يعين فيه بطبيعة الحال جميع أعضاء «لجنة العلوم والفنون» بل اقتصر في أقسامه الأربعة على الصفوة المختارة، وكان مونج رئيسا للمجمع على حين كان نابليون نائبا للرئيس . على أن إنشاء هذا المجمع العلمي قد أشعل حماسة سائر أعضاء لجنة العلوم والفنون وغدا مقرها مركز الباحثين والأدباء والفنانين الوافدين[17] . وقد اختير للمجمع مقر مناسب حين اكتشف مونج وبرتوليه وكافاريللي على مقربة من مسجد السيدة زينب عددا من القصور المحاطة بالحدائق التي خلفها أمراء المماليك الذين تراجعوا إلى الصعيد مع مراد بك بعد معركة الأهرام ، مثل بيت حسن بك الكاشف وقاسم بك وإبراهيم بك السناري الذي ما يزال قائما إلى اليوم والذي تحول وقتذاك إلى «متحف بونابرت» ، وبطبيعة الحال كانت هذه القصور أفضل من الأطلال التي عاشوا في ظلها بالإسكندرية ومن المخيمات المضروبة في الصحراء . وفي بيت حسن الكاشف أنشئت معامل الكيمياء والطبيعة والمكتبة وأول متحف للعاديات المصرية يحتوي على بعض التوابيت وحجر رشيد الذي اكتشفه الضابط بوشار[18] ، كما ضم قاعة الاجتماعات الكبرى التي كان نابليون يحضرها أحيانا إلى جانب القاعات الصغرى التي تجتمع فيها اللجان المختلفة . ومضى النشاط في المجمع مفعما بالهمة والحماسة والاستمرار باستثناء الفترة التي اعتزل فيها المجمع خلال ثورة القاهرة ، وبات جميع العلماء ناعمين بحياتهم منكبين في رضا على جهودهم العلمية الجادة حتى لقد أخذت سحابات سخطهم على ساقاري تنقشع شيئا فشيئا من سمائهم .

وكانت المهمة الأولى الملقاة على عاتق المستشرقين المرافقين للحملة الفرنسية أن يقيموا جسر بقاء ومودة بين الشعب المصري والسلطات الغازية من خلال تقديم ترجمات يسيرة الفهم على عامة الشعب لبلاغات القيادة العامة وتوجيهاتها . وكانوا قد صحبوا معهم من فرنسا أهم المؤلفات العربية المطبوعة ليجتذبوا بها المثقفين ، صفها عالم الآثار ريبو بعناية على أرفف مكتبة المجمع وبالفعل أخذ يتردد عليها بعض المصريين للتزود بما احتوته من معارف على نحو ما سبق أن ذكرناه مما سجله عبد الرحمن الجبرتي من وصف لزيارته للمعهد العلمي ومشاهدته مكتبتهم وصورهم وآلاتهم .

وكانت العلاقة بين الغرب والشرق قد ارتكزت منذ منتصف القرن الثامن عشر على عنصرين ، أولهما اتساع معارف أوروبا عن الشرق بفضل اهتمامها بكل ما هو ناء غريب غير مألوف ، وهو ما تمثل في حصيلة ضخمة من الأدب صنعها روائيون وشعراء ومترجمون ورحالة موهوبون ، وثانيهما هو تفوق أوروبا العسكري والاقتصادي على الشرق . وقد شكل الاستشراق مجموعة من العلماء الأفذاذ، وأثرى عدد اللغات الشرقية التي تدرس في الغرب ، وعكف على تحقيق عدد لا يحصى من المخطوطات الشرقية وترجمتها والتعقيب عليها ، كما زود دول الشرق بعدد من الدارسين المتعاطفين معه الشغوفين بلغاته . وأخذ المستشرقون يتلقون تدريبا جامعيا مكثفا بعد أن غدا لكل جامعة أوروبية هامة برنامج دراسي كامل في مادة أو أكثر من مواد الدراسات الشرقية، وبات الاستشراق يحظى بالدعم المالي من الحكومات والمؤسسات العلمية التي أتاحت له طبع دراساته ونشرها حتى لقد ظهر في الفترة ما بين عامي ١٨٠٠ و١٩٥٠ حوالي ستين ألف كتاب عن الشرق. على أن هذا لا يمكن أن يخفي الدور الكريه الذي لعبه بعض المستشرقين في التمهيد

(١٧) ضم قسم الرياضيات مونج وجيرار وفورييه وكوستاز، وضم قسم الطبيعيات بيرتوليه وكونتيه وديجنيت وجوفروا سانت إيلير، وضم قسم الآداب والفنون فيفان دينون والمصورين دوترتر وريدوتيه والشاعر بارسيفال والمستشرق فنتور، وضم قسم الاقتصاد السياسي الجنرال ضم الاجتماع كافاريللي والبروفيسور تاليان والدبلوماسي بوسيلج

Capitaine Bouchard (١٨)

للاستعمار ، إذ كانت عيونهم تجوس خلال المشرق لتكشف ما يحقق مصالح دولهم الكبرى فيه ، فعرض المستشرقون - كما يصفهم إدوارد سعيد في كتابه الرائد الشائق «الاستشراق» - الشرق في مسرحية جميع من شاركوا فيها من مؤلفين ومخرجين وممثلين ومشاهدين يمثلون لما يُشبع الأغراض الأوروبية ، إذ بدا فوق هذه المنصة المسرحية تتاح ثقافي ضخم تمتلئ عناصره بكل ما هو رائع مما يثير الخيال الأوروبي ويلهب حماسته . وهكذا تواكب الاستشراق مع التوسّع الاستعماري الأوروبي ، ففي الفترة من عام ١٨١٥ إلى ١٩١٤ ازدادت رقعة الاستعمار الأوروبي من ٣٥٪ من سطح الكرة الأرضية إلى ٨٥٪ ، وتشكّلت فوق الشواطئ الشرقية للبحر المتوسط حتى الهند الصينية والملايو أكبر إمبراطوريتين هما البريطانية والفرنسية اللتان كانتا شريكتين وحليفتين في بعض الأمور ومتنافستين متخاصمتين في أمور أخرى . ولعل تنافسهما لم يبلغ قمته مثل ما بلغه في منطقة الشرق الأدنى حيث تربّعت عقيدة الإسلام[19] . على أن التنافس بين إنجلترا وفرنسا قد بدأ في الهند وجرت الهند الشرقية إلى أن حُسم لمصلحة إنجلترا في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، مما دعا [illegible] إلى التفكير في ضرب مصالح إنجلترا بالهند عن طريق الشرق الأدنى ، الأمر الذي أسفر عن الحملة الفرنسية وعن البعثات السياسية المتوالية إلى إيران التي غدت محط التنافس السياسي بين القوتين .

وكانت كثرة المستشرقين المصاحبين للحملة قد اختيروا من بين الفاصل ذوي الخبرة الطويلة أو المترجمين العاملين بسفارات الشرق الأدنى أو من بين تلامذة مدرسة اللغات الشرقية بباريس التي حلّت محل هيئة المتخصّصين في لغات الشعوب المزمع استعمارها[20] والتي أسسها كولبير بأمر ريشيليو ، وحاصر فيها إلى جوار المستشرق اللامع سلفستر ده ساسي كل من لانجليه وفنتور الذي عُيّن بحكم سنّه مديرا للمجمع العلمي إلى أن قضى نحبه أثناء حصار عكا عام ١٧٩٩ فأخذ محله أميديه جوبير[21] (١٧٧٩ - ١٨٤٧) مترجم كتاب الجغرافيا للإدريسي فيما بعد ، والذي تتلمذ أيضا على ده ساسي وأعدّ لكتاب وصف مصر بحثا عن بدو الحدود الفلسطينية ، كما أدى خدمات جليلة للجنرال دسّيه حين رافقه بصحبة فيفان دينون لغزو الصعيد . وقد ظل يحتفظ لإقامته في مصر بذكرى غالية ، فهو الذي حثّ مكسيم دوكان فيما بعد على زيارتها . وكان معظم المستشرقين المصاحبين لنابليون من تلامذة سلفستر ده ساسي الذي غدا بلا منازع الأستاذ الأكبر لجمهرة أساطين الاستشراق الذين مكنوا زمام السيطرة على ساحة الاستشراق طول ثلاثة أرباع قرن .

ولم يصطحب نابليون في حملته نفرا من أفذاذ المصوّرين وإنما اصطحب عددا من المصورين ذوي المواهب المحدودة أمثال ريدوتيه ودوترتر وغيرهما ، شُغلوا بإعداد الصور الإيضاحية [الوصفيّة] المصاحبة لكتاب «وصف مصر» والتي التزمت بالدقة الفائقة التي يتطلبها مثل هذا السفر .

ومن بين المستشرقين المرافقين نذكر دلابورت (١٧٧٧ - ١٨٦١) الذي زوّد واضعي خريطة مصر الكبرى بمجموعة أسماء المدن والبلدان مدوّنة بالحروف اللاتينية ثم أعدّ لكتاب «وصف مصر» دراسة موجزة عن تاريخ المماليك . غير أن جزءا كبيرا من الفضل في نشر الحضارة العربية بفرنسا والعرب يعود بلا جدال إلى جان جوزيف مارسيل (١٧٧٦ - ١٨٥٤) الذي عهد إليه بونابرت بإدارة المطبعة القومية بمصر . وحين اندلعت ثورة القاهرة في أكتوبر ١٧٩٨ وبينما كانت المدافع الفرنسية تدكّ جامع الأزهر معقل الثورة اندفع وسط لهيب النيران ينتزع من بينها النصوص القرآنية الثمينة وقد عين بعد الحملة مديرا للمطبعة القومية بباريس ليعاون في نشر كتاب «وصف مصر» الذي

(19) E. Said, Orientalism.

(20) Le Corps de Jeunes de Langue
تأسست سنة ١٧٩٥ لتعليم [illegible]

(21) Amédée Jaubert

أسهم فيه بدراسات فذة عن مقياس جزيرة الروضة ، وجامع ابن طولون ، وطراز الخط الكوفي ، فضلا عن كتابين أخرين ضمّنهما جميع معارفه عن العالم الإسلامي وعن تجاربه بمصر .

ومع أن تاريخ مصر الفرعونية لم يكن ليأخذ مكانته العلمية الدقيقة قبل تدخل شمبليون الحاسم في حل رموز الهيروغليفيات عام ١٨٢٢ ، إلا أن مطلع القرن التاسع عشر يدين بعد فيفان دينون بمعارفه عن الفن الفرعوني إلى مهندسي «لجنة العلوم والفنون» الذين سجّلوا على لوحات كتاب «وصف مصر» معالم العمارة والنحت والفنون الدقيقة خلال الدولة المصرية الحديثة والعصر البطلمي . ولم يكن ذلك ليتم لولا الجهود المضنية التي بذلتها البعثات العلمية الموفدة إلى الصعيد في عام ١٧٩٩ .

وقد سبق القول بأن فيفان دينون كان قد التقى في قنا خلال شهر يونية ١٧٩٩ ببعثة العلماء الأولى التي يرأسها عالم الرياضيات بيير سيمون جيرار وتضم عددا من المهندسين عهد إليهم بدراسة أحوال مياه النيل ، غير أن اثنين من أعضاء البعثة - هما فيليبه دوتيراج وجولوا - كانا أشد اهتماما بالآثار من شؤون الري وطمي الفيضان فإذا بهما أول من يسجل بدقة نقش البروج السماوية بمعبد دندره الذي أثار إعجابهم وحماسهم ، كما اكتشف مقبرة أمنحتب الثالث . ومع أن هذا الانحراف عن مهمتهم الهندسية قد أثار حفيظة المهندس جيرار رئيس البعثة فلامهم على اهتماماتهم الأركيولوجية ، إلا أنهما على الرغم من ذلك ما كادا يبلغان معبد الكرنك حتى عكفا على رسم نقوشه وتسجيل أبعاده بعد أن أصيبا بالذهول أمام ضخامته وشموخه ، ثم واصلا المسيرة حتى معبد إسنا حيث أقرّا على الفور تفوّق العمارة الفرعونية على كل ما كان أعضاء البعثة يعدّونه نموذجا من العمائر القائمة على التقاليد الأكاديمية وعلى أسس المذهب الكلاسيكي المحدث ، بل والطراز اليوناني الروماني الذي كانوا يعدّونه حتى ذلك اليوم النموذج المثالي . وقد اتجه فيليبه وجولوا بعد بضعة أيام إلى أسوان برفقة المثّال كاستيه[22] الذي حفر على بوابة البهو الكبير لمعبد فيله النقش الذي يسجل انتصارات الجنرال دسّيه ، وهناك عكفا في عزلة على رسم تلال معبد جزيرة فيله وتسجيلها [illegible] ، على أن تسجيلهما لم يحمل معاناة فيفان دينون ، كما أنهما لم يعيرا العناصر الزخرفية والجمالية أي التفات ، فقد رفعا تصميم المعابد مستعينين بميزان البناء وبمقياس الأبعاد وبالبوصلة وطاولة الرسم ، ومزوّدين بالفرجار ومثلّث المسّاح ، وسجّلا كل النقوش بطريقة تكاد تكون آلية ، ناسخين النقوش الهيروغليفية دون إدراك لمغزاها ، ومع ذلك فإن فضل ابتكار أساليب الوصف الموضوعي التي كانت وقتذاك الوسيلة الوحيدة لنشر الآثار المصرية قبل اختراع التصوير الفوتوغرافي مردّه بلا شك إلى هذين المهندسين .

وبعد عدة شهور من رحلة البعثة الأولى إلى الصعيد توجّهت إليه بعثتان أخريان إحداهما برئاسة مهندس المساحة كوستار وتضم اثني عشر عضوا من بينهم عالم الآثار ريبو ، والثانية برئاسة عالم الرياضيات فورييه وتضمّ أحد عشر عضوا من بينهم جومار وسانت إيلير وجومار وشابرول والمصوّرين سيسيل وريدوتيه . وحين التقت البعثتان فيما بين إدفو وجبل السلسلة مع زميلاهما جولوا وفيليبه بادر الأخيران بعرض ما حققاه على زملائهم وحثّهم على اتباع نفس الأسلوب الذي سلكاه ، ومنذ ذلك الحين استقرت أركان منهجهم وبدأ العمل به بلا هوادة فعلى يدي جومار تم الكشف عن معبد إدفو الذي كان مدفونا تحت الرمال وكان الفلاحون قد أقاموا فوق

(22) Castex

لوحة (٩٣) وصف مصر، معبد إدفو

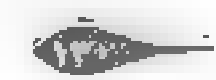

لوحة (٩٤) وصف مصر ، قصر [هو في الحقيقة أحد معابد طيبة]

« ليس ثمة حدث ما طرأ ليزعج وجه الأبدية الذي لا يتغير . ففي هذا العالم الذي يتبدل فيه كل شيء تبقى مصر متربعة على عرش السكون وحين تطوفي الظل بدوراته لا أحد ما يصاحبني من العشاق والأصدقاء سوى الفلاحين والموميوات المعاصرة لعهد رمسيس ، والمطلع بصري الآن عمود منتزع أو تمثال فقد ملامحه أو قارب صحيحة ذات أشرعة بيضاء تهبط مع النيل أو تصعد معه »

تيوفيل جوتييه

لوحة (٩٥) وصف مصر.

عند وفاء النيل أو فتح الخليج: جرت العادة بأن النيل متى بلغ ستة عشر ذراعاً احتُفل بوفائه ويسمى "يوم وفاء النيل" وكتب السجل تثبت أن النيل بلغ حداً يجوز معه للوالي أن يحصل الضرائب. وكان الموكل بالمقياس يطلق عليه اسم شيخ المقياس. وكان المصريون يسمون بلوغ النيل فيضانه والاحتفال به جبر الخليج [illegible] كان يعد

المدينة بالماء في هذا العيد. فيسير المنادون وأولادهم في شوارع القاهرة وبأيديهم الخرق عليها الرايات من القطع الملونة بالأخضر أو الأحمر والأصفر [illegible] عليهم [illegible] عوفا [illegible] و المقصود وفى الله النيل. وبعد تحرير المحضر بوفاء النيل تطلق الصواريخ وتعزف الموسيقى فيكون يوماً مشهوداً حتى [illegible]

لوحة (٩٦) وصف مصر: قناطر المياه بالقرب من مصر القديمة مصوره من جزيره الروضه

لوحة ٩٠، وصف مصر مرفأ بولاق ومسجد سنان باشا

الرمال التي تغطيه أكواخا يسكنونها، كما عرف كومستاز الطريق إلى مقابر الكاب على الضفة اليسرى للنيل ، فكانت دهشته هو وزملائه كدهشة فيفان دينون حين اكتشف مقابر القرنة ، فحتى هذه اللحظة لم يكن نظر العلماء قد وقع إلا على مشاهد دينية أو حربية محفورة بوفرة على أسطح جدران المعابد على حين تمتد الآن أمام أبصارهم فوق حوائط هذه الكهوف سائر مشاهد الحياة الزراعية لدى المصريين القدماء ومناظر القنص والصيد والطراد والبذر والحصاد . وعند وصولهم إلى الأقصر انبروا يفحصون معابد الأقصر والكرنك ومدامود على البر الشرقي ومعابد الرامسيوم والقرنة ومدينة هابو بالبر الغربي، ثم انتقلوا إلى اكتشاف مقابر وادي الملوك التي لم يسبق وأن قيض لدينون لأن يزور منها غير مقبرة رمسيس الثالث المعروفة باسم مقبرة عازف القيثارة . وهكذا استطاع العلماء الفرنسيون تحطيم العوائق التي ظلت ثمانية عشر قرنا تحول دون النفاذ إلى قلب اثنتي عشرة مقبرة من المقابر الملكية . وعند وصول العلماء إلى جرجا قام قائد الحامية العسكرية بإرشادهم إلى مجموعة من الأطلال غربي النيل في أبيدوس التي كتب عنها سترابو وبليسوس وبطليموس ، فعكفوا على دراسة المعبد العظيم لسيتي الأول الذي ظنوه في البداية قصرا مدفونا وسط الرمال . على أن الفضل الأكبر في معرفة حقيقة معبد أبيدوس ومحتوياته الفنية الجميلة يعود إلى حفائر ماريت وتقاريره عنها فيما بعد .

وقد فرغت بعثة فوربيه وكومستاز من مهمتيهما خلال شهري أكتوبر ونوفمبر من عام ١٧٩٩ وعاد العلماء إلى القاهرة محملين بحافظات أوراقهم المكتظة بالرسوم والبيانات بعد أن أمضوا الصيف القائظ في الوجه القبلي مرتدين زيا لا يلائمهم متحملين ... حرارة الجو تنفذ عبر سراويلهم اللاصقة وستراتهم الخضراء الطويلة وقبعاتهم الضخمة السوداء المصنوعة من الجوخ ، ولكنهم ما يلبثون أن ينسوا ما عانوه من متاعب وأوجاع ، فثمة شمس قاسية وناموس لاذع ينتشر كالدخان فوق القرى المغطاة بمياه الفيضان ، ومخاطر ... البدو ومصادمات على أيدي الجنود الفرنسيين ، حين يتشوقون إلى عودة مظفرة ... العلمية التي سيضمها كتاب «وصف مصر» الذي طالبوا بالعودة إلى فرنسا للبدء في إعداده ، غير أنهم لم يغادروا مصر إلا بعد سنتين على أثر استسلام الجنرال مينو عام ١٨٠١ . وقد استخدموا كل ما في حوزتهم من ... كي يعودوا إلى فرنسا مصطحبين ... الإنجليز ... ومعابدهم وحيواناتهم ... ورسومهم وبعض الآثار التي اكتشفوها وكان حجر رشيد وتابوت ... من هذه المكتشفات عبر أن الإنجليز صادروهما ليحتفظوا بهما في المتحف البريطاني . وما كاد العلماء يصلون إلى فرنسا حتى بدأ العمل الكبير الذي كان بونابرت يوازره ويستحث مواصلته حتى صدر قرار عام ١٨٠٢ بإعداد ونشر كتاب «وصف مصر» على نفقة خزينة الدولة ، ... في تحريره وإعداده ... وقد عكف العلماء على إعداد خريطة لمصر باعتمادهم على الوثائق التي جمعوها ... التي كان الإنجليز قد استولوا عليها حتى نجح الكولونيل جاكوتان في استردادها . وقد قام فولني بالإشراف على أعمالهم وتعريفهم بطريقته في كتابة الكلمات العربية بحروف لاتينية . كما عكف نابليون بنفسه على مطالعة مسودة المقدمة التاريخية التي كتبها جان باتيست فورييه والتي جاء فيها «تشكل مصر نقطة التقاء إفريقيا بآسيا وأوروبا بالشرق والذكريات بالوقائع ... هي موطن الشعوب المغطية على آثار لا تحصى ، ولا تزال معابدها الرئيسية وقصورها التي أقام بها الملوك الفراعنة

قائمة وإن تكن أحدث هذه الآثار العظمى قد شيدت خلال العصر المواكب لحرب طروادة . وقد قصد مصر كل من هوميروس وليكورجوس وصولون وبيثاجوراس وأفلاطون ليتلقوا عنها علومها وعقائدها وشرائعها ، كما أنشأ بها الإسكندر مدينة خالدة ظلت لوقت طويل تحتل مكان الصدارة بين الموانئ التجارية ، وقد حل بها كل من بومبي ويوليوس قيصر ومرقص أنطونيوس وقيصر أوغسطس وهم يقررون مصير روما ، ومن ثم مصير العالم . ولهذه الأسباب جميعا بات من الطبيعي أن تجتذب هذه البلاد انتباه أمراء العالم العظام الذين يشكلون أقدار الشعوب .. ويذكر الجميع الآن الدهشة التي عمت أوروبا من أقصاها إلى أدناها حين تناهت إلى مسمعها أنباء وجود الفرنسيين بالشرق ، ذلك أن التخطيط لهذا المشروع الكبير قد تم في صمت كما جرى الإعداد له بهمة وسرية صلبت أكثر خصومنا يقظة وترقبا ، فلم يعرف أحد بأمر الخطة إلا بعد تحقيقها . غير أن هذه البلاد [مصر] التي نقلت معارفها إلى العديد من شعوب العالم ترزح اليوم تحت وطأة الهمجية . . . إلى آخره» .

ولقد كان نابليون يدرك مدى الأثر الذي سوف تسفر عنه هذه الحملة على العلاقات بين أوروبا والشرق وإفريقيا ، وعلى الملاحة في البحر المتوسط ، وعلى مصير آسيا . وبذا فقد أعلن عن تطلعه إلى أن يطبع مصر بطابع أوروبي تحتذيه بقية دول الشرق ، وأن يجعل حياة المصريين أكثر استقرارا ، كما أخذ نفسه بأن يوفر لهم أساليب المدنية الحديثة وهو ما لم يكن من الممكن أن يتم دون تطبيق آخر ما بلغته العلوم والفنون في أوروبا . وهكذا غدا كتاب «وصف مصر» نموذجا لشتى المحاولات التي بذلت بعد ذلك من جانب الأوروبيين الذين أفادوا من جهود المستشرقين في استطلاع بلاد الشرق وفض غموضها وغرائبها تمهيدا لاحتلالها واستنزاف ثرواتها لصالحهم .

وظل جومار يشغل وظيفة سكرتير هيئة تحرير كتاب «وصف مصر» لمدة عشرين عاما محاطا بالعديد من المعاونين ، فيما يشرف مارسيل على الطباعة بالمطبعة القومية ، يعد لوبير وجولوا الفصل الخاص بمصر المعاصرة والإسكندرية ورشيد والقاهرة ، ويكتب دبوا إيميه فصلا عن الدلتا ، وشابرول فصلا عن عادات الأهالي بمصر . كما عقد جومار المقارنة بين سكان مصر القدامى والمعاصرين في أحد الفصول ، وقدم كومستاز دراسته عن زراعتهم وعاداتهم ، وسجل روييه شعائرهم الجنائزية وأساليب التحنيط إلى أن ظهر في عام ١٨٠٩ الجزء الأول من كتاب «وصف مصر» الذي «طبع بأمر صاحب الجلالة الإمبراطور نابليون الأعظم» .

والحق إن الكتاب يضم أعمالا تنتمي إلى عالم العلوم أكثر من انتمائها إلى عالم الأدب ، ذلك أن المؤلفين الذين شاركوا في وضعه من أمثال جومار وفييه وكومستاز كلهم من علماء الرياضيات الذين لم يذهب الخيال بأحدهم إلى حد الادعاء بأنه من الأدباء ، غير أن سعيهم المتكاتف الدؤوب الدقيق قد تمخض عن أعظم كتاب كرس لدراسة شعب من الشعوب . ويشغل الكتاب إثني عشر جزءا من الحجم الكبير ... بالعديد من الخرائط واللوحات والرسوم ، وأربعة وعشرين جزءا من

لوحة (٩٨) وصف مصر
سيدة موسرة ترتدي القفطان

لوحة (٩٩) وصف مصر، جامع الحاكم بأمر الله بالقرب من باب النصر

لوحة (١٠٠) وصف مصر، باب الفتوح

النصوص ، تتناول الأجزاء الثلاثة الأولى - التي تقع في خمسة مجلدات يستهلّها العلامة فورييه بمقدمة تاريخية - شؤون الآثار الفرعونية ومعابدها وتماثيلها وكل ما شيّد بعد الفتح الإسلامي . على حين تفرد الأجزاء الأربعة عشر التالية أبحاثًا ضافية عن مصر المعاصرة للغزو الفرنسي فضلا عن وصف مسهب للصعيد والدلتا والقاهرة وبرزخ السويس والإسكندرية ومقياس النيل ودراسة ممتعة لشتى الفنون والموسيقى الشرقية والموازين والمكاييل والمقاييس وأمور الزراعة والصناعة والتجارة وعادات المصريين المعاصرين . ويتناول بقية الكتاب الخواص الطبيعية بما في ذلك طبيعة أرض مصر وطبقاتها ونباتها وحيواناتها وطيرها وأسماكها وأسرار التحنيط إلى غير ذلك . ويزدان الكتاب بمجموعة فذة من الخرائط الجغرافية واللوحات [illegible] المرسومة لآثار مصر القديمة والإسلامية [illegible] ، وقد استغرق نشره خمسة وعشرين عاما من الجهود الجماعية ، وتطلّب تنفيذ الثلاثمائة لوحة التي اشتمل عليها الكتاب [وأكثرها غير ملوّن] إلى الاستعانة بنخبة ممتازة من الرسّامين والمصوّرين والصنّاعين وما يقرب من أربعمائة حفّار . فقد بدأ العمل في كتاب وصف مصر عام ١٨٠٣ ولم ينته إلا عام ١٨٢٨ بعد تذليل العقبات السياسية والمالية التي أوقفت عمليات طبعه خمس مرات . فعلى حين كان إهداء الجزء الأول من الطبعة الأصلية موجّها إلى الإمبراطور نابليون (١٨٠٨) تصدّرت الجزء الأول من الطبعة الثانية صورة الملك لويس الثامن عشر (١٨٢٠) ، بينما أهديت الأجزاء الأخيرة إلى الملك شارل العاشر (١٨٢٧) . وتتأكد القيمة الكبرى لهذا الإنجاز العلمي الفرنسي في أنه نزع أكفان القرون الغابرة التي كانت مصر تتدثّر بها قبل ظهوره ، وأنه أزاح عنها ظلمات ليل امتد عليها آلاف السنين حتى أضاء العلماء الفرنسيون أعماق التاريخ وأماطوا النقاب أمام العالم كله عن آثار ماض غامض عريق . ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، فقد بدأ يظهر لأول مرة علم جديد هو علم «المصريات» Egyptology على أثر كشف حجر رشيد الذي عقد عليه جومار أهمية خاصة وحاول فك رموزه قبل أن يأخذ شمبوليون في ذلك .

وعن «لجنة العلوم والفنون» التابعة لجيش الشرق انحدرت تلك السلالة المجيدة التي ضمّت شمبوليون وبريس دافن ومارييت وماسبيرو وغيرهم من أفذاذ الروّاد في كشف الستار عن خبايا الحضارة الفرعونية العريقة . وما من شك أن الفن الفرنسي يدين للحملة الفرنسية بمصر بمصدر خصب لإبداعاتها الرائعة ، وعلى الرغم من أن «الصيغ الزخرفية» المصرية قد غدت خلال عهد «الإمبراطورية» هي البدعة الشائعة إلا أن الفضل في ظهورها لا يرجع في حقيقة الأمر إلى الحملة ، إذ كانت قد ظهرت في القرن السابع عشر مؤلفات سجّلت مجموعات متنوعة من الآثار المصرية القديمة ، فضلا عن الصور المطبوعة بطريقة الحفر التي نشرها الفنان [illegible] وأقرانه ، هذا إلى حفائر تيفولي في ڤيلا هدريانوس قرب روما التي انتشلت من الماضي البعيد تماثيل مصرية قديمة ، وكذا تصاوير بومبي الجدارية الناطقة بحفلات تقديس الربة إيزيس المصرية . هذه العوامل كلها ساهمت في [illegible] مصر [illegible] الفرعوني الفريد . فمنذ عهد لويس الخامس عشر انبسطت تماثيل أبو الهول على أذرع المقاعد والسُّرر وارتكز عليها رخام «الكونسولات» ، مثلما عشّت رموز إيزيس المحفورة في البرونز ورخام المدافئ ، كما انتصبت المسلات في الحدائق العامة إلى جوار الحوانيت[٢٣] . غير أنه من الإنصاف أيضا الاعتراف بأن كتاب «وصف مصر» قد [illegible] [illegible] [illegible] وجيلا [illegible] وثائق أشدّ دقة سرعان ما استلهمتها العمارة

(٢٣) [illegible] [illegible] [illegible] الريناسانس والباروك والروكوكو [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

[illegible] ، فظهرت بباريس نافورة وقد وقف بها - تحت نسر باسط جناحيه على غرار حورس - تمثال للفتى أنتينوس صفيّ الإمبراطور هادريانوس وهو يصبّ الماء من جرّة بينما التصقت ذراعاه بجسده في وضعة ساكنة جامدة ، وما أكثر واجهات المنازل التي جمّلت واجهاتها بالصيغ الزخرفية المصرية وخاصة في شارع «القاهرة» الذي افتتح بباريس عام ١٧٩٩

كذلك صاحب اتجاه العودة نحو الكلاسيكية في مجال التصوير وقتذاك على يد المصوّر داڤيد ومدرسته نزعة أخرى تتجه صوب الموضوعات الإكزوتية غير المألوفة والمجلوبة من البيئات الأجنبية تعنى بالتفاصيل والألوان المحلية ، فاحتفلت في لوحات جرو عن معارك «أبي قير» (١٨٠٦) و«الأهرام» (١٨١٠) ولوحات جيروديه الكلاسيكية عن «ثورة القاهرة» ولوحة جيران «بونابرت يعفو عن ثوّار القاهرة» (١٨٠٨) (لوحة ٣٧ ملون) أزياء الوحدات العسكرية الفرنسية وسيوف المماليك المقوّسة والسروج العربية والجلابيب والعمائم ، وتجاورت وجوه الضباط والجنود الفرنسيين مع وجوه المماليك والفلاحين والنوبيين . وهكذا لم يعد مفكرو أوروبا ينظرون إلى الشرق المترع بالزخرف بوصفه مصدرا للمتعة والسلوى بل غدا في عيونهم عالما [illegible] يستهوي الدارسين والكتّاب والفنانين مثلما بات طلبة الرحّالة الرومانسيين[٢٤] .

(٢٤) J.M. Carré Voyageurs et écrivains Français en Egypte

على أن الأدب لم يتأثر بالحياة المصرية إلا بأخرة بعد أن تأثر بالفنون ، فلم يكن لمصر الفرعونية ولا لمصر الإسلامية دور إيحائي في هذا المجال في مبدأ الأمر . ولا جدال في أن الحملة الفرنسية على مصر قد استثمرت مجموعة من الدراسات الاستشراقية على جانب كبير من الأهمية ، غير أنه لم تكن لهذه الحركة ثمرات أدبية مباشرة ، وكان لا معدى لمصر من أن تلبث حتى مجيء جيرار دو نرڤال وجوستاف فلوبير وتيوفيل جوتييه[٢٤] وغيرهم (لوحات من ٩٣ إلى ١٢٧) .

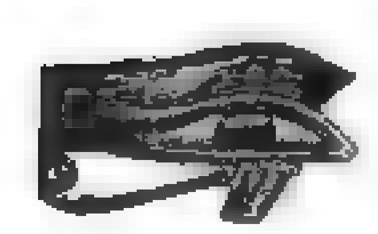

لوحة (١٠١) وصف مصر - بركة الأزبكية

«وكان الفرنسيون قد اغتصبوا أثناء احتلالهم للقاهرة الكثير من قصور القاهرة وأقاموا فيها في سنة ١٨٠٠ مسرحاً للكوميديا ومطاعم وملاهي خاصة. وكان مشرف على بركة الأزبكية حي الأقباط، وكانت دوره حافلة بالمشربيات وتشاهد الخرط المسنن في أبنية القاهرة

وكانت مدرسة الألسن تطل على البركة التي تحولت إلى فندق للإنجليز المارين بالقاهرة في طريقهم من الهند إلى إنجلترا عرف فيما بعد بفندق شبرد .. وفي منتصف القرن ١٩ أمر محمد علي بردم جزء كبير من البركة وإزالة الكيمان المجاورة لها لتقام المنتزهات»

علي مبارك - الخطط التوفيقية

لوحة (١٠٢) وصف مصر، ميدان بركة الفيل خلال موسم الفيضان: «كانت بركة الفيل تجاه باب زويلة بين القاهرة القديمة ومصر القديمة حين أنشأ جوهر الصقلي مدينة القاهرة، ولم تكن عميقة بل بها ماء راكد يغمرها ماء النيل سنويا وقت الفيضان من خلال الخليج المصري ثم ما تلبث أن تزرع بعد هبوط الماء. وسميت بركة الفيل لأن الأمير خمارويه بن أحمد بن طولون المعروف بحبه لاقتناء الحيوان قد أنشأ لكل نوع منها دارا، وكانت دار الفيلة على حافة البركة الجنوبية يقصدها الناس للفرجة ومشاهدة الفيلة فاشتهرت باسم بركة الفيل» الخطط المقريزية جزء ٢ ص ١٦١. ويقال أيضا إنه كانت ثمة سفينة تدعى الفيل قد غرقت أثناء العهد الفاطمي ولم تُنتشل حطامها فاحتجب هيكلها الطمي والرمال والأنقاض التي أخذت تتراكم عليها حتى شكلت جزيرة ضخمة هي شبرا الآن، ثم تلبث أن استصلحت للزراعة في عهد صلاح الدين الأيوبي ومنذ أواسط القرن ١٨ بدأ البكوات يتمركزون حول كل من بركة الفيل وبركة الأزبكية، وعند مطلع القرن ١٩ كان كل واحد من المياسير يمتلك دارا في ضواحي بركة الفيل وأخرى في الأزبكية

لوحة (١٠٣) وصف مصر ميدان الرميلة والقلعة

«وكما كان لأهل القاهرة أسواقهم كانت هناك أماكن لتجمع الشعوبيين كالحواة ومروضي القرود أهمها ميدان الرميلة حيث يحتشد سماسرة الخيل ومروضو الخيل والحشاشون والمصارعون. ومع مضي الزمن تحول ما كان يحفه من مبان فاخرة إلى أكواخ وعشش وأحواش وخصاص، وأحاطت بالمساجد المبنية قذرة شوهت ما كانت له من بهجة». علي مبارك الخطط التوفيقية

الصفحة التالية لوحة (١٠٤) وصف مصر
ميناء الإسكندرية الجديد تفصله الجبانة عن
الميناء القديم وتبدو قلعة قايتباي شامخة

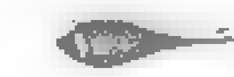

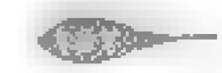

لوحة (١٠٥) وصف مصر حمام عمومي [البراني]

لوحة (١٠٧) وصف مصر . السقاء . المكاري (سائس الحمير) السقاء .

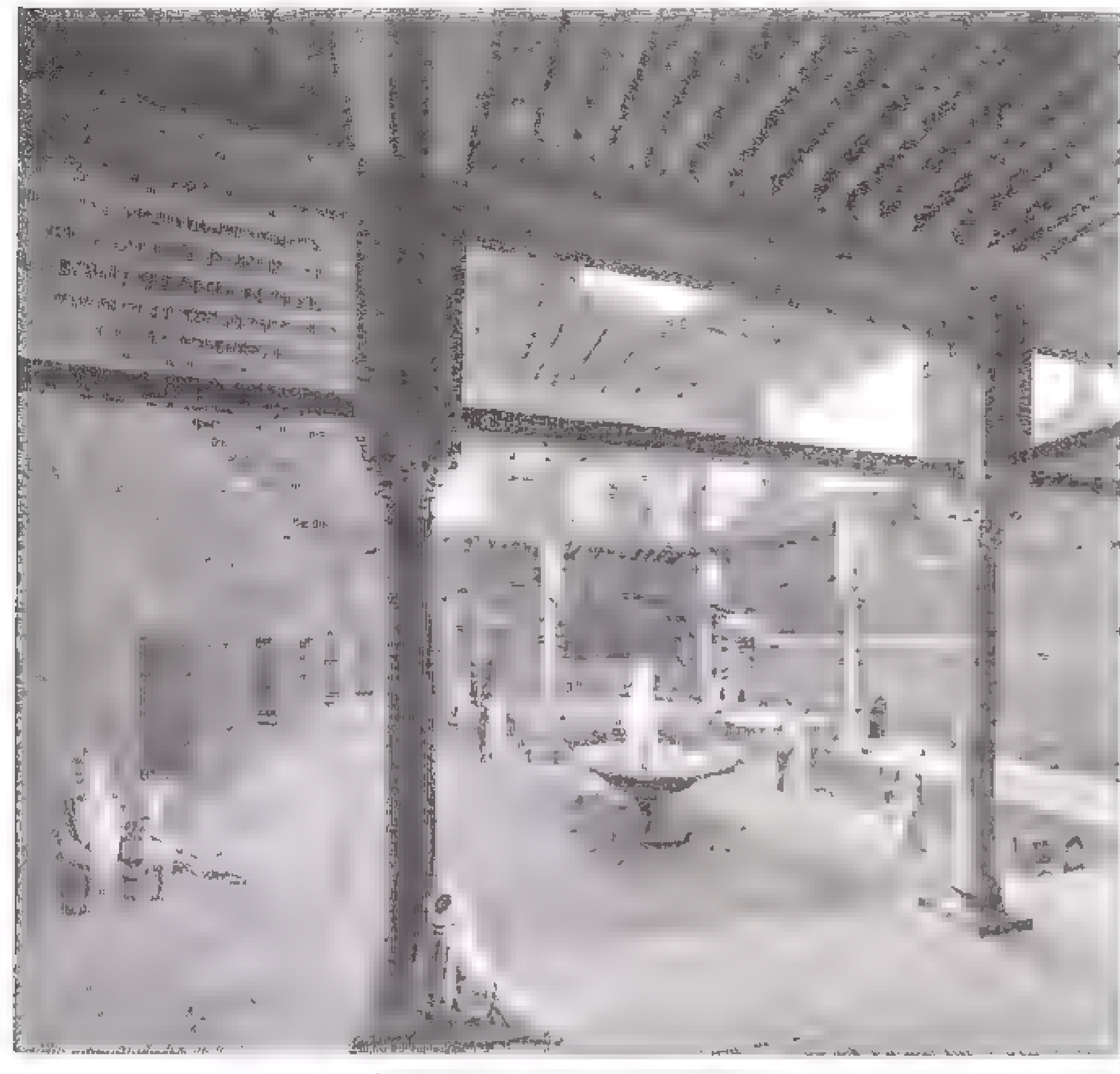

لوحة (١٠٦) وصف مصر حمام عمومي [الوسطاني]

لوحة (١٠٨) وصف مصر زي امرأة عامل مطافئ . زي امرأة

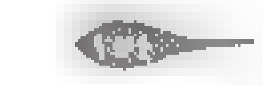

لوحة (١٠٩) وصف مصر. مصنع نسيج.

لوحة (١١٢) وصف مصر. احد المكوات

لوحة (١١٠) وصف مصر. الفخراني

لوحة (١١٤) وصف مصر. احد المكوات

لوحة (١١٣) وصف مصر الحلاق

لوحة (١١١) وصف مصر مماليك

لوحة (١١٥) وصف مصر مراد بك

لوحة (١٢٧) وصف مصر. [illegible]

لوحة ([illegible]) وصف مصر. الفكي

لوحه (١١٨) وصف مصر . عازف الربابه

لوحه (١١٩) وصف مصر . موسر من الاسكندرية

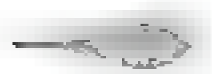

لوحة (٣٣) وصف مصر. الغوازي

لوحة (١٣٢) وصف مصر، مملوك

لوحة (١٢٤) وصف مصر: العروس تحت ردائها

لوحة (١٢٥) وصف مصر: عالمة ترقص وتقرع الدف

لوحة (١٢٦) وصف مصر: راقصات الطريق العام

لوحة ١٢٧: مسلة هليوبوليس

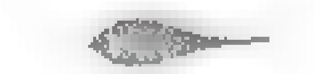

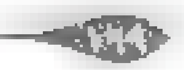

صليبي

في عباءة مُحدثة

شاتوبريان

لوحة (١٢٨) محفة نقل الجرحى فوق جمل

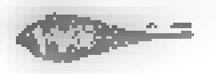

في أكتوبر عام ١٨٠٦ حلّ بمصر الكاتب الفرنسي الشهير فرانسوا رينيه ده شاتوبريان صاحب كتاب «العبقرية المسيحية» الذي أصبح به في أعين معاصريه بطلا من أبطال المسيحية ، فاعتزم الحج إلى البلاد المقدسة فترة تتخفّف فيها روحه من الضيق بنظام حكم نابليون بونابرت الاستبدادي وينعم فيها بحريته بعيدا عن فرنسا ، تدفعه رغبة ملحّة إلى الفوز بقلب معبودته ناتالي دي نواي ، وقد صوّرت له رومانسيته الجارفة أن هذه الرحلة إلى الشرق قد تأسر قلب معشوقته التي وعدته اللقاء في نهاية الرحلة بقصر الحمراء في غرناطة بوصفه فارس أحلامها الصليبي ، وتتجدّد بلقائه ذكري استرداد المسيحيين لأرض الأندلس من أيدي المسلمين. وكان شاتوبريان نابض الذهن بمحصول فكري يدفعه إلى الاغتراب الدائم الذي يحرره مما ينتابه من قلق ويعينه على إخراج كتاب جديد من إبداعاته بعد صمت قد طال ، فأقدم على رحلته التي ختمها بكتابه الذي أسماه «رحلة من باريس إلى القدس والعودة من القدس إلى باريس عبر اليونان ومصر وبلاد البربر وإسبانيا»[٢٥] (١٨١١) . وقد اختص بالحديث عن مصر أربعين صفحة من صفحاته الألف ولكنه لم يتحدث في تلك الصفحات الأربعين بشيء له قيمته عن الآثار المصرية متعلّلا بأن رسوم فيفان دينون ولوحات «المجمع العلمي المصري» تغنيه عن التعرض لآثار طيبة ومنف التي سبق أن ذكر عنها كل ما ينبغي قوله في كتاب «الشهداء أو انتصار الديانة المسيحية» (١٨٠٩) والتي جمع مادتها خلال رحلته إلى الشرق . وشاتوبريان لا شك كاتب شائق مبدع يعنى بالقالب أكثر مما يعنى بالمضمون حتى تعدّ كتاباته نموذجا لجمال الأسلوب الرومانسي الذي يحيل أي حديث موضوعي إلى حديث وجداني يعبّر عن صدى نفسه هو وكأنما لم تكن الأركيولوجية أو الإسلام تهمّانه بقدر تجديد أوتار قيثارته هو . ولعل هذا هو السر في أنه كان يجتزئ بإلقاء نظرة عابرة على الآثار والأطلال بينما كان ينعم النظر الفاحص على النصوص ، ثم يشكّل من هذه وتلك رؤيته الخاصة التي يعمد فيها تشكيل الصنعة وخلق عالم يرفّ بالحيوية . وإذا كان من الممكن القول بأنه أول من حاول تصوير المواقع الشهيرة بألوانها الأصلية التي جاءت ناعمة متعمة أو ما سمّاه «اللون المحلي» يثري به رؤيته ويصف به الطبيعة والأماكن التي جرت فوقها الأحداث أو التي شهدت شهداءه ، فقد كان مع ذلك كثير الحديث عن نفسه ، يجترّ ذاته في كل ما يكتب ، مدّعيا أنه لا يجول بهدف الكتابة بل بهدف جمع حصيلة من الصور الذهنية . على أن رحلة شاتوبريان إلى الشرق قد كشفت عن

(٢٥) F. R. De Chateaubriand: Itinéraire de Paris à Jerusalem et de Jerusalem à Paris par la Grèce,et revenant par L'Egypte, La Barbarie et L'Espagne.

غلوّه في الاهتمام بكل ما هو عبريّ ويوناني بما يفوق اهتمامه بالإسلام المعاصر ، الذي أظهر في مبدأ الأمر أنه لا يكترث به ثم ما لبث أن أفصح عن ازدرائه له وكأنه حجر عثرة يحاول جهده أن يتجنّبه خلال رحلته . و الراجح أن أهداف رحلته الثلاثة : الدينية والأدبية والغرامية ، أي زيارته لقبر المسيح وجمع المادة التي سيصوغ منها كتابه «الشهداء» وعزو قلب فاتنته قد تالي قد صرفته عن الاهتمام بالإسلام .

ومما يثير الأسى أن أول لقاء بين هذا المسيحي المتعصب وبين الإسلام قد أصابه بالنفور ، فقد شاء القدر أن يتوجّه إلى الشرق في الوقت الذي ألحق فيه الأتراك العثمانيون بالإسلام وصمة لا تُمحى ، فما كاد يطأ أرض اليونان حتى لمس وطأة الاحتلال العثماني وآثاره ووحشيته في قمع الشعب اليوناني ، وما لبث أن أنشب في هذه اللوحة الكابية أظفار رومانسيته . ولم يقنع بتسجيلها وتصحيحها بل أدانها وألقى على الإسلام تبعة تلك المآسي المروّعة واصفاً الإسلام بأنه جلاد اليونان . وهنا يحق التساؤل : لو أن شاتوبريان قد بدأ رحلته في الشرق من مصر في يولية عام ١٨٠٦ كما فعل جيرار دي نرفال من بعده ، أكان ذلك سيقلل من غلواء كراهيته للإسلام وحدّة هجومه عليه؟ . لا شك أن الخطأ الجسيم الذي تردّى فيه شاتوبريان هو تسرّعه في جعل أخطاء العثمانيين في مطلع القرن التاسع أخطاء المسلمين عامة في كل زمان ومكان [٢٦]

(٢٦) Moenis Taha-Hassen
Le Romantisme Francais et L'Islam.
Liban 1962

ولقد تجاوز شاتوبريان جميع من نحَوا على الشرق أو تحاملوا عليه في كتاباتهم فراد وسمّى القرآن الكريم «كتاب محمد» ، وكانت هذه هي التسمية الشائعة للقرآن في أوروبا والفكرة السائدة عنه إلى أن غيّرتها حصيلة المعارف الجديدة بعد جهود المستشرقين من أعضاء الجمعيات الأسيوية ومن أتيح لهم التعرف على البلاد الإسلامية عن قرب ، فضلاً عن أن إسهام المستنيرين من المستشرقين أمثال سير وليام جونز (١٧٤٦ - ١٧٩٤) كان له أثره الكبير في اطّراح هذا التعصّب . على أن شاتوبريان قد رمى القرآن دون قراءته بخلوّه من أي مبدأ حضاري أو أية قاعدة تسمو بالأخلاق أو تندّد بالاستبداد أو تدعو إلى الحرية ، كما ادّعى بأن الحروب الصليبية لم تكن عدواناً بل كانت رد فعل لوصول عمر [بن الخطاب] إلى أوروبا ! ووصف المسلمين بأنهم : «يجهلون الحرية ويفتقرون إلى آداب المجتمع ، ويؤمنون بإله القوة ، وأنهم إذا لم يكبحهم غاز يلقي بينهم بذور العدالة الإلهية يتقلبون جنوداً بلا قائد ومواطنين بلا مشرّع وعائلة دون أب» .

والثابت أن شاتوبريان لم يقرأ القرآن ، وإذا كان قد قرأه فلا شك أنها قراءة سطحية عابرة . ولقد كان متاحاً له قراءة ترجمة سافاري لمعاني القرآن والتي ظهرت منذ عام ١٧٨٣ فضلاً عن غيرها من التراجم الفرنسية والإنجليزية . وقد جانبه الصواب حين صوّر القرآن على أنه قصص لا سند له من الحقيقة ، كما لا نجد في كتاباته أية إشارة أمينة إلى النص القرآني ، والأغلب الظن أنه اكتفى بالاستماع إلى ما رُوي له عنه من تعليقات غير صحيحة ، أو إلى روايات الرحّالة الذين استعار من أحاديثهم الكثير في كتاباته . وعلى الرغم من ذلك كله نراه متأثراً كل التأثر بما نزل في القرآن الكريم عن عيسى ومريم من تبجيل وتوقير . وإذا كان شاتوبريان لم يبذل جهداً للنفاذ إلى عمق النص القرآني فقد توسّع في قراءة مراجع التاريخ الإسلامي حول الحروب الصليبية في

محاولة واضحة لكي يضفي عليها الشرعية كما قدمت . [٢٧] ولا يؤخذ على شاتوبريان جهله بعقيدة الإسلام بقدر ما يؤخذ عليه سوء نيّته تجاهه ، فقد لام الإسلام قبل أن يزور أكثر بلاده ، وشجبه قبل أن يخبره ، وتحامل عليه بأحكامه الساخرة وتعميماته الباطلة التي حركت عليه كثرة من أصحاب الأقلام ممن تصدّوا له في فرنسا عقب ظهور كتاب «الرحلة» يسفّهون أحكامه ويتهمونه بالافتقار إلى الموضوعية ويأسفون لما هوى إليه أسلوب شاتوبريان المعرض من إسفاف وكراهية وحقد توجّهه روح انتقامية[٢٨] .

(٢٧) المرجع السابق نفسه

(٢٨) المرجع السابق نفسه

على أننا نجد شاتوبريان يبدي مع ذلك اهتماماً بالمنشآت المشيدة بالحجر التي أخذت مكان الصدارة في كتابه قبل المناظر الطبيعية ، وهي منشآت ذات طابع ديني كانت أدعى أن تكون مدخله له لاستيعاب العقيدة الإسلامية وأن يقوده إعجابه بالفن الإسلامي إلى إنصاف الإسلام لكنه لم يفعل ، إذ كان اهتمامه بما شيّده المسلمون يفوق اهتمامه بمن شيّدوه . وعلى الرغم من أنه أمضى شهراً بمصر إلا أنه لم يتحدث إلا لماماً عن جوامعها الإسلامية ، فلم يذكر من عمائرها إلا جامع عمرو بن العاص متعجلاً وهو يستطرد في الحديث عن قبة الصخرة ، وإن كان قد سجّل انبهاره بجلال الآثار الفرعونية حين يقول : «أعترف أن أول نظرة ألقيتها على الأهرام قد حركت في نفسي الإعجاب بها ، ثم وقفت متردداً بين الحزن والبهجة وأن أشهد أن أعظم أثر أبدعته أيدي [illegible] لا أستطيع أن [illegible] من ذهني فكرة أن هرم خوفو ليس إلا كومة من الأحجار [illegible] أدركت أن الإنسان المصري لم يشيّد مثل هذا الضريح [illegible] والعدم بل مسوقاً بغريزة خلوده . وتذكرت حكمة ديودور الصقلي [illegible] أولئك القوم كانوا يدعون البيوت التي يحيون فيها مساكن [illegible] في نفس الوقت الذي يسمّون فيه مقابر الموتى بيوت الخلد التي لا يغادرونها إلى الأبد» .

وكانت المقارنة بين عظمة الماضي وضعة الحاضر من الموضوعات الأثيرة عند كتّاب الرحلات عن الشرق الأدنى عموماً ومصر بالذات ، فلم ير شاتوبريان في مصر إلا «ذكريات بلاده العظيمة التي خلّفتها فوق هذه السهول وحملتها إلى ضفاف النيل العبقرية الفرنسية» ثم يتساءل وهو يودّع أرض مصر : «كيف أمكن لهذه الطغمة المنحلّة من المسلمين أن يعيشوا على نفس الرقعة التي عاش فوقها من قبل قوم محتفظون تركوا في ذاكرة هيرودوت وديودور الصقلي أثراً لا يُمحى؟» . وفي ظني كما أسلفت أن مردّ هذه المهاترة وتلك الغطرسة في التعبير المتعالي عما شاهده في مصر [illegible] الإسلام [illegible] التي [illegible] الأصوب [illegible] فهو يدعي أنه أصدر هذا الحكم المجانب للصواب ، والذي لا يمكن أن يصدر إلا بدافع من تعصب أو تحامل .

مزيح الظلمة عن
غوامض الأسرار

شمپوليون

١٧٩٠ - ١٨٣٢

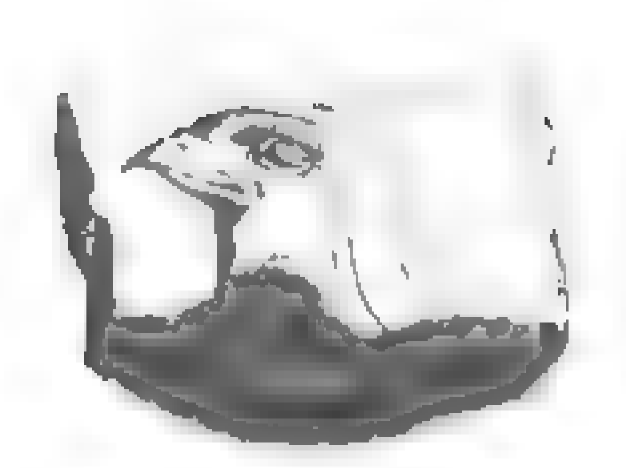

[illegible] في سبعة عشر عاماً [illegible]

[illegible] عام ١٩٠٧ [illegible]

فيها إلى أن اللغة القبطية هي لغة المصريين القدماء . وما كاد يبلغ الواحدة والعشرين حتى عيّن مدرساً بكلية الآداب في مصر المدينة، ونشر كتابه «مصر أيام الفراعنة» حين بلغ الثانية والثلاثين بعد أن توصّل إلى حل رموز حجر رشيد. ومن المصادف الغريبة أنه في الوقت الذي كان يقرأ فيه تحت قبة الأكاديمية الفرنسية في ١٧ سبتمبر ١٨٢٢ رسالته إلى الأستاذ داسييه سكرتير عام الأكاديمية الفرنسية عن الهيروغليفيات، كانت تتهادى على صفحة نهر السين [illegible] ضخمة [illegible] الأول التي اكتشفها عام ١٨١٧ واجتذب [illegible] شهرة [illegible] في فرنسا دعّمها بإقدامه الجسور على اقتحام معبد أبي سمبل وهرم خفرع، [illegible] الضخم قد أهّله لأن يستهلّ حياته لاعب سيرك وحامل أثقال مرموق، ثم اجتذبته الميكانيكا إلى أن تفرّغ للاشتغال بشؤون الآثار، فعمل لحساب رحّالة ومستكشفين من [illegible] الإنجليز عفا الزمن على أسمائهم وبقي اسمه هو. وقد أدّى طوله الفارع وقوته البدنية غير المألوفة إلى تسميته تارة شمشون الجبّار وتارة [illegible] بادوا . وكان قد عكف طيلة سبعة وعشرين شهراً على إعداد نموذج المقبرة [illegible] صفحاتها في حجمها الطبيعي من واقع مسحاته لصورها ورسومها المتميزة بدقة وروعة [illegible] عيون الآلاف الذين توافدوا على مشاهدتها في مدينة باريس بعد لندن

وكان شمبوليون [illegible] من بين من فتنتهم المقبرة كما فتنته الرموز الهيروغليفية التي ظل عاكفاً بإصرار على فض أسرارها حتى نجح في قراءتها فعلاً وجداول العلم كله بحضارة مصر القديمة على الرغم مما جرّه هذا الاكتشاف عليه من نقمة العلماء الذين نشؤوا على المعارف الكلاسيكية القديمة، والذين استنكروا ما عكس أن تناله سمعة شعب «همجي» قديم - على حدّ قولهم - من تقدير نتيجة هذا الاكتشاف الذي أثار عليه بالمثل حفيظة كثيرين أخذوا يزعمون أنهم قد سبقوا شمبوليون إلى هذا الاكتشاف، ومن بينهم عالم [illegible] الذي نشر في عام ١٨١٨ أربع صفحات مترجمة عن حجر رشيد في دقة شديدة تؤكدها مطابقة النصين الهيروغليفي والديموطيقي للنص اليوناني (٢٩). وهو لاشك جهد صادق لتمييز هذه الرموز القديمة يستحق [illegible] الإشادة والتسجيل، غير أن هذا الجهد كان محاولة تجريبية تعتمد على الملاحظة والمقارنة

(٢٩) جاء في ملحق دائرة [illegible] الطبعة الرابعة ١٨١٩). ونعلم أنه ليس من المحتمل أن تكون أية نسخة من نص [illegible] إليه يونس يونج قد أثرت على شمبوليون بأية حال، إلا أن إحجام شمبوليون عن ذكر ما [illegible] به العالم الإنجليزي قد [illegible] أسماه في نسخته Supplement to The Encyclopaedia Britannica [illegible]

وتسندها عبقرية فذة دون أن يكون وراءها ذلك المنهج العلمي الراسخ الذي انتهجه شمبوليون. كذلك ظل عدد من علماء فرنسا على رأسهم جومار يحاربون الشاب العبقري الذي أرّق نجاحه المبكّر لياليهم ، وزادت حدّة هجومهم شراسة فرفضت أكاديمية الفنون الجميلة استقباله في ساحتها على الرغم من نفوذ راعيه داسييه . وانتقلت الحرب إلى الصحافة التي مضت تنبش أسرار الماضي بحجة أن شمبوليون وشقيقه كانا من مشايعي نابليون بونابرت ، وأخذ خصومه الملكيون من لويس الثامن عشر وخاصة جومار يؤلّبونه عليه ، وذهبوا إلى حد التقليل من شأن صفة «المصري» التي كُنّي بها فكنّوا جومار «بالمصري الحقيقي» كما كنّوا توماس يونج «بالمصري بالجوار». غير أن ذلك كله لم يفتّ في عضد شمبوليون الذي ترك لشقيقه الأكبر مهمة الدفاع عنه وانبرى محاولا إثبات نظريته عن الرموز الهيروغليفية باكتشافات جديدة حتى نطقت أطلال الكرنك الخرساء وانطلقت تروي قصة عشرين قرنا من تاريخ مصر المجهول .

وكان شمبوليون على معرفة تامة بالإنجاز العظيم الذي قامت به لجنة العلوم والفنون بجيش بونابرت ويدرك قيمته الأركيولوجية كما يعي بوضوح أكثر من غيره ما يدين به لكوكبة علماء عام ١٧٩٩ ، إلا أنه كان يؤمن أيضا أن له دورا يؤدّيه ويقدّم به إضافة جديدة إلى عمل أولئك العلماء الأفذاذ . فكتب عام ١٨٢٧ مذكرة رفعها إلى الملك شارل العاشر يلتمس فيها أن تبعث به الحكومة الفرنسية إلى مصر ليحقق هذا العمل الذي كان يتوق إلى إنجازه توقه إلى رؤية مصر . وقد أشار في هذه المذكرة إلى : «أن أعضاء لجنة العلوم والفنون والرحّالة الذين مضوا في إثرهم كانوا يعتقدون باستحالة الوصول إلى فض أسرار الرموز الهيروغليفية وهو ما حفزهم على عدم التدقيق في نسخ النقوش المبهمة والكتابات المقدّسة المصاحبة للشخوص المحفورة في لوحات النقش البارز التاريخية ، بل إنهم أهملوا نسخ الكتابات مكتفين بتحديد المكان الذي تشغله إلى جانب المشاهد المصوّرة التي تعلوها في حين أن الاستنساخ الدقيق لهذه المناظر الرائعة بكل ما تحمله من نقوش للكتابة الهيروغليفية يحمل في طياته قيمة ثمينة بغير حدود . ذلك أن هذه المشاهد يكشف كل واحد منها سرّ الآخر ، وهو ما يحقّق الآمال العريضة التي تعقدها عليها علوم التاريخ» . وهكذا فصّل شمبوليون في مذكرته للملك خطته وأهداف رحلته وحرصه على ضرورة استكمال المعارف الهندسية والدينية والفنية والصناعية التي جُمعت عن مصر الفرعونية بسرعة وحسم، وأهمية تسجيل تلك النقوش الهامة، التي يتهدّدها لصوص المقابر الذين يجهلون قدرها كما تترصّدها القنصليات التي لا تكفّ عن التلاحق، ونقلها إلى أوروبا!

وكان شمبوليون قد وفّق إلى شراء مجموعة الآثار المصرية التي عرضها للبيع هنري صولت القنصل الإنجليزي بمصر ، وتم نقلها إلى باريس وعرضها بمتحف اللوفر في ديسمبر ١٨٢٧ على الرغم مما أثاره جومار من احتجاج وضجيج . وكان هذا النجاح وراء تعيين شمبوليون أمينا للمقتنيات المصرية بمتحف اللوفر ، وهو المنصب الذي أتاح له أن يتوجه بعد ذلك إلى مصر ليحقق حلم حياته ، فاختير رئيسا للبعثة المتجهة إلى مصر والتي انضمت إليها بعثة إيطالية يرأسها المستشرق روسيليني ، ووصلت البعثتان إلى الإسكندرية في ١٨ أغسطس عام ١٨٢٨ .

وقد حاول دروفيتي القنصل الفرنسي في مصر عرقلة أعمال هذه البعثة وخاصة بعد وفاة منافسه هنري صولت القنصل البريطاني ، إذ كان يأمل أن يبقى في مصر سيّد الموقف بلا منازع

يفعل كيف يشاء ويهرّب غنائمه بملء حريته ، غير أن محمد علي بسط حمايته على بعثة شمبوليون وأمر بمدّها بكل مساعدة تحتاجها في كل موقع تحلّ به ، كما طالب بترجمة نقوش مسلّة الإسكندرية

وإذا كانت حماسة شمبوليون لآثار مصر القديمة قد أمسكت تلابيبه فإن حياة المصريين المعاصرين قد اجتذبت بعض اهتمامه حتى إن رسائله الموجّهة إلى شقيقه والتي نُشرت بعد عودته لم تخل من وصف مشاهد الحياة المصرية ، فقد كتب على سبيل المثال يصف احتفالات مولد النبي بالقاهرة قائلا : «احتشد ميدان الأزبكية الذي تغطي مياه الفيضان منتصفه بالجماهير الملتفة حول المشعوذين والراقصات والمغنيات ، وانتصبت سرادقات بهيجة رائعة يمارس فيها الناس شعائر الحفل . فكان هناك فريق يتلو وهو جالس آيات القرآن بصورة منتظمة ، كما كان هنالك ما يقرب من ثلاثمائة شخص مصطفّين في صفوف متوازية يحرّكون بصفة مستمرة جذوعهم إلى الأمام وإلى الوراء مثل الدّمى المتحركة وهم يسبّحون قائلين : لا إله إلا الله . وعلى مبعدة منهم يقف قرابة خمسمائة فرد في حلقة متراصّة يتحركون وكأنما هم غائبون عن الكون المحيط بهم ، تعلو سواعدهم وتهبط مع إيقاع كلمة «الله» التي ينطقون بها من أعماق صدورهم بصوت مكدود تملّكه بحّة جعلتني أوقن أن هذه الأصوات التي لم أسمع مثلها من قبل تأتي من عالم سفلي عميق الأغوار . وإلى جوار هذه الطقوس الدينية يطوف الموسيقيون وبنات الهوى ، على حين تنشط في الساحة الأراجيح التي تدور بالشباب والأطفال . ويشكّل هذا الخليط من الألعاب الدنيوية والعبادات الدينية فضلا عن غرابة أشكال القوم والتنوع الشديد في الأزياء مشهداً بالغ الغرابة لن أنساه قط»

غير أن حياة المصريين المعاصرين لم تكن هدف مجيء البعثة إلى مصر التي بدأت رحلتها على مركبين لتصل أول ما تصل إلى بني حسن . ولم يكن في نية شمبوليون أن يطيل مكثه حين توقفت البعثة هناك ، إذ كان يعتقد أن جومار قد أوفى مقابرها حقها من الوصف فإذا هو يمكث بها أسبوعين بعد أن تبيّن له أن جومار لم يقدّم عنها غير فكرة واهية برسومه الموجزة البعيدة عن الدقة وبعباراته الغامضة . ومن ثم فقد عكف شمبوليون على دراسة الرسوم الجدارية الشهيرة التي تسجل مشاهد الحياة اليومية والمناظر الريفية ، خلال «الدولة الوسطى» ، فكان أول من أظهر أهمية مقابر بني حسن بالمنيا في تاريخ فن العمارة ، إذ نشأت في أعماقه وهو يتأمل الأعمدة التي تتصدّر أروقة المقابر فكرة إطلاق اسم طراز «ماقبل الدُّوري»[٣٠] عليها الذي اعتبره الأصل المصري للعمود الإغريقي الأول ، وهي النظرية التي كان عليه أن يدعّمها بنماذج أعمدة معبد حتشبسوت بالدير البحري في طيبة . والحق إن الكثير من ألفاظ علم المصريات التي يستخدمها الأثريون حتى اليوم هي من وضع شمبوليون الذي سُمّي عن جدارة مؤسس علم المصريات .

وقد بلغ من لهفته إلى رؤية معبد دندرة الذي كثيرا ما حدّثه عنه فيفان دينون أنه حين أدركه ليلا لم يتلبّث إلى أن يطالعه الصباح بل أخذ يعدو في ضوء القمر ليكتشف تلك التحفة الهندسية الرائعة التي تغطيها نقوش منحوتة من طراز يعود إلى عهد الحكم البطلمي أو ما يُدعى بعهد الانحلال السياسي . وعلى ضوء مصباح خافت إلى جانب ضوء القمر أخذ يتبين أسماء الأباطرة الرومان : تيبريوس وكلاوديوس ونيرون على جدران الهيكل إلى أن أعانته نقوش الخراطيش

(٣٠) Doric order ، يتكون العمود الدّوري من ظلال رخيمة سطوانية الشكل ، تتخللها حزوز ترتفع بين كل صفة وأخرى ، وتُحت في سطح العمود الخارجي عشرون أخدودا طوليا من أسفل العمود حتى قمته ، تؤدي غرضا مزدوجا ، فهي تلقي ظلالا على بدن العمود حسب اتجاهات الضوء المختلفة بما يوحي باستدارته ، كما تضفي هدفا جماليا بتوفير جملة من الخطوط الرشيقة المريحة للعين ، تقود نظر المشاهد إلى أعلى صوب منحوتات المعبد [م . م . م . ث]

سكنية لـ «الوجاب أبيدوس» و بكتابات المسجّلة على جدران قاعة الملوك بالكرنك على تحديد الترتيب الزمني لتتابع الملوك منذ عهد الملك مينا ، وكذا تلاحق الأحداث وتواريخ تشييد الآثار ، فاستطاع بذلك إزاحة الستار عن تاريخ ظل طويلاً مغموراً في دياجير الماضي

وكلما غاص صوب الجنوب تعاظمت سعادته بالفرصة الذهبية التي أتاحتها له هذه البعثة ، وحين بلغ وادي حلفا كتب إلى داسييه قائلاً : «كم أنا فخور بعد أن قطعت نهر النيل من مصبّه إلى الشلال الثاني بأن أنهي إليك أنه ليس هناك ما يبرر إجراء أي تعديل في بحثنا الذي أعددناه عن حروف الهجاء الهيروغليفية . لقد تأكد لي سلامة ما وصلنا إليه ، فقد طُبّقت أبجديتنا بنجاح في كل موقع من مواقع الآثار المصرية من عهد الرومان والبطالمة ثم على نقوش المعابد والمقابر الفرعونية وهو الأهم . وبهذا تكون كافة الجهود التي بذلناها لتشجيع أبحاث الهيروغليفية مشروعة وعادلة في وقت لم تكن فيه الظروف الدولية تسمح بمثل هذه الحماسة» .

وعلى الرغم من أنه أخذ يعاني وهو يهبط النيل من صداع لم يفارقه ومن آلام مرض النقرس التي كانت تستدعي نقله محمولاً ، ومن شظف العيش الذي كان يقسو عليه أحياناً فيتركه يقاسي ألم الجوع وحرارة الجو ، فإنه لم يتوقف عن الاستكشاف الأركيولوجي بدءاً بمعبد أبي سمبل الذي عاني طويلاً للنفاذ إلى قاعته الكبرى وسط مصاعب جمّة ، والذي مكث إلى جواره مع زملائه أسبوعين لنسخ النقوش العامرة على جدران القاعة بمقاييس كبيرة وبألوانها الحقيقية . والحق إن شمبوليون كان قديراً وبارعاً في تشكيل جماعات تعمل بأسلوب احتملت معه الجوع والعطش وأكبّت على عملها في بطولة تدعو إلى الإعجاب ، فأخذت الرسوم تزداد وتتكدس حتى كتب إلى داسييه [illegible] إنه ليسعدني أن أضع تحت نظرك مصر القديمة كلها : ديانتها وتاريخها وفنونها وحرفها وعاداتها وأعرافها . وقد أنجزتُ الجانب الأكبر من رسومي بالألوان [illegible] معبرتها التامة برسوم صاحبنا جومار لأنها تستسح الطراز الحقيقي للأصول [illegible]

وإذا كان المجال هنا لا يتسع لبسط إنجازات شمبوليون في جولته داخل معابد النوبة ومصر [illegible] بأنه كان دائماً يُلقي ضوءاً جديداً على كل أثر يزوره ويمعن النظر فيه ، كما كان يصوّب آراء من سبقوه ، ويحرص على التزام الدقة في تحديد التواريخ الزمنية . ويصحح [illegible] أحكام المعاصرين من شطط أوقعتهم فيه أذواقهم الخاصة . وهو الذي أوصى بنقل إحدى [illegible] إلى فرنسا ، ووضع الخطة التي تم بها نقلها فيما بعد بواسطة بعض المهندسين [illegible] صعودها فوق رمث يطفو على سطح النيل ويحمل مياه الفيضان تدفعه صوب البحر حتى السفينة التي تحمل المسلة إلى فرنسا . وكان شمبوليون يؤمن بأن وضع عيون مواطنيه على أثر بمثل هذه العظمة كفيل بأن يثير نفورهم من الزخارف التافهة والزينات الرخيصة التي يطلقون عليها جوازاً اسم الآثار العتيقة في حين أنها لا تزيد في نظره عن زخارف لتزيين مخادع النوم ، فالمسلة [illegible] جديرة بأن يقف أمامها في خشوع الفنانون والمهندسون العظماء الذين عاشوا يحاكون في دقة شديدة فنون الرومان المتدهورة في آخر عهدهم

وقد اتخذ شمبوليون خلال وجوده بالضفة الغربية كوخاً من اللبن كان يعيش فيه ببلدة القرنة أطلق عليه اسم «القصر» . كما كان يعيش أحياناً أخرى في مقبرة رمسيس الرابع [illegible] بمدخل جبانة وادي الملوك . وكان مع ذلك سعيداً أن وجد مأوى «القافلة حميره وعلمائه» كي يفرغ

لعمله على الرغم من دسائس القنصل دروفيتي الذي لم يتوقف عن تأليب مساعديه عليه تارة وتعطيل بريده في الإسكندرية تارة أخرى ، وحث جومار على تحريض الملك على إيقاف صرف العشرة الآلاف فرنك اللازمة للإنفاق على الحفائر . وكانت إقامته الطويلة في وادي الملوك من ٢٣ مارس إلى ٨ يونية قد أنهكت قواه ، ومع ذلك لم يكن يكفّ عن اللجوء إلى سر ديب المقابر لينشد السكون المطلق وللإصغاء إلى أصوات الأسلاف ، وما أكثر ما عاجله الإغماء حتى يعثر عليه أفراد بعثته فيخرجونه إلى النور ونسمات الهواء . وقد كان مسلكه هذا قدوة للعاملين من حوله ، يأتسون بشجاعته التي لا تبارى وبروحه المرحة التي لا تخبو أبداً ، فقد أحال مقبرة رمسيس الرابع الخالية التي كان يسكن فيها خلال إقامته هناك حديقة للحيوانات ، إذ أسكن معه قبراً غزالاً وقططاً من كردفان وبعض فهود صغيرة لم تكن تتردد في دغدغة أقدام النائمين بأسنانها الوليدة ، وإن كان يخصّص فترة من سهرته في رفقة غزاله الأثير يداعبه ثم ينكبّ على مذكراته ورسومه لاستكمال واجبه اليومي ، فلم يكن ثمة شيء يشدّ انتباهه غير عمله .

ولقد تردّى شمبوليون في بعض الأخطاء وهو ما كان أمراً متوقعاً في زمن كان علم التنقيب ما يزال في مهده ، كما كانت الوثائق المتوفّرة ناقصة وغير كافية . فهو لم يميّز على سبيل المثال هويّة [illegible] تحتمس الثالث قد أمر به ، كما لم يفطن كذلك إلى الطابع الديني والجنائزي لعمائر الضفة الغربية ، فاعتقد كما اعتقد من سبقوه أن الدير البحري ودير المدينة والرامسيوم والقرنة كانت قصوراً وبيوتاً سكنية لا معابد ، ولكنه صوّب اسم مقبرة أوزيماندياس الذي أطلقته لجنة «المجمع العلمي» وسمّاها باسمها الحقيقي وهو «الرامسيوم» وقدّم وصفاً تفصيلياً لنقوشه التاريخية العامرة . لقد [illegible] الغموض وأزاح الظلمات وأخرج من أعماق ظلمة النسيان الذي امتد آلاف الأعوام [illegible] يستقلون عجلاتهم الحربية ومواكب متنوعة وأسرى يهوداً وسوريين [illegible] طقوس مصر الفرعونية سلماً وحرباً ، وأضفى على النصوص نبض الحياة وجعلها تنطق من فوق جدران المعابد وحوائط السراديب الطويلة المحفورة في جوف الجبل فتروي لنا ملاحم شعرية تسجل ذكرى الانتصار المصري على الحيثيين في معركة قادش ، وأغاني درس الغلال والحصاد ، ونقوش الشعائر ، ونصوص كتاب الموتى .

وغادرت البعثة الكرنك في الرابع من سبتمبر لتصل القاهرة في الخامس عشر منه حيث التقى شمبوليون بأصدقائه وعلى رأسهم كلوت بك زميله في الدراسة بليسيه جرينوبل والذي كان في حالة فزع شديد بعد أن همّ الباشا في ذروة ثورته بإغلاق مدرسة الطب بأبي زعبل بعد إنشائها بسنتين وتحويلها إلى مصنع عصري لغزل الحرير . وتحت إلحاح الطبيب كلوت بك تدخل شمبوليون لدى إبراهيم باشا لإنقاذ مدرسة الطب من المصير الذي كان يتهددها به ذلك القرار [illegible] والمباني التي كانت لا تزال قائمة في عام ١٨٢٩ ـ ١٨٣٠ .

[illegible] جهود شمبوليون عن جهود واضعي كتاب «وصف مصر» بأنه أضاف إلى علم

المصريات إقليما جديدا هو النوبة ، إذ كان أول من قام بدراسة جادة للمعابد المشيدة على ضفتي النيل بين الشلالين الأول والثاني ، فكان في امتداد الساحة الأركيولوجية صوب الجنوب بعض العزاء عن التخريب الذي حق بالآثار المصرية في السنوات السابقة . وإن المرء ليمتلئ أسى وعجبا حين يطالع المذكرة التي قدمها شمبوليون لمحمد علي عن السرعة الخاطفة التي اختفت بها خلال عهده مجموعات معمارية ضخمة مثل أنتينوبوليس [الشيخ عبادة] وهرموبوليس [الأشمونين] وأنطاي بوليس [قاو الكبير قرب سوهاج] وكونترا لاطابوليس [قرب إسنا] . ولم يسجل شمبوليون التخريب الذي قام به الأهالي أنفسهم والمغامرون والمهندسون ومهربو التماثيل والمومياوات فحسب بل كذلك ما تم على أيدي المنقبين الجشعين غير الأكفاء ، كما طالب بوضع اللوائح لتقنين أعمال التنقيب وتنظيمها ، الأمر الذي تحقق على يد ماريت في عام ١٨٥٨ بعد إنشاء مصلحة الآثار المصرية

وفي أول يناير عام ١٨٣٠ كتب شمبوليون إلى داسييه من ميناء طولون يقول : «ها هو ذا آمون رع يأذن لي بوداع ثراه المقدس، وها هي ذي الإلهة حتحور تبارك رحلتي من الإسكندرية إلى شاطئ بروفانس» . ومع ذلك فقد كانت التفاتة إنسانية من شمبوليون إلى شعب مصر الذي شاهد عن قرب معاناته في ظل نظام حكم فرد مستبد ولم يمنع ذلك السيف الذهبي البديع الذي أهداه إياه محمد علي في زحزحته عن معتقده في وضع مصر الذي حرك فيه الهلع والرثاء حتى كتب يقول : «ما إن ترامى إلى محمد علي أن المصريين القدماء كانوا يرمزون لبلادهم بالبقرة حتى انكب عليها يحلبها ويرهقها ويستنزف قواها آناء الليل وأطراف النهار . ولعل هذا المسلك منه لم يكن إلا ثمرة النصائح الغبية التي كان يسديها لمحمد علي القنصل دروفتي وجومار العظيم وغيرهما ممن لبسوا مسوح رعاة هذا الشعب المكروب» .

وقد ظل شمبوليون بعد عودته إلى باريس مرتبطا ارتباطا وثيقا بمصر القديمة . فقد اختير على الرغم من دسائس خصومه أستاذا للتاريخ والأركيولوجيه المصرية بالكوليج دو فرانس عام ١٨٣١ ، وبدأ يعد مؤلفه الشامخ «آثار مصر والنوبة»[٣١] ، غير أن شعلة الفكر المتوهجة في أعماقه كانت أقل رفقا بجسده الهش الذي لم يحتمل السهاد المتصل والهموم المتواكبة والجدل المحموم . فبعد هجير الصيف اللافح الذي قضاه في طيبة اقترس رطوبة شتاء باريس القارس فلم يستمتع طويلا بانتصاره . وبعد مرض قصير غامض قضى نحبه إثر نزيف في المخ في ٤ مارس ١٨٣٢ وهو ما يزال في الثانية والأربعين من عمره . على أن فريقا بارا من تلامذته وأعوانه تكاتفوا لإخراج مؤلفه العظيم ، فعاد رسامه نستور لوت إلى مصر مرتين لاستكمال تسجيل بعض الآثار ، وعندما توفاه الله بدوره مبكرا حمل ماريت ابن أخيه الشعلة التي بقيت متقدة لم يخب لها أوار[٣٢] .

(٣١) J.F. Champollion: Les monuments de l'Egypte et de la Nubie d'après les Dessins inedits executé par l'auteur sur les lieux. Paris. Didot 1835-45.

(٣٢) J.M. Carré: Voyageurs et Ecrivains Français en Egypte.

أتبـاع

سان سيمون

[illegible] سان سيمون الذي ولد عام ١٧٦٠ خلال عهد لويس الخامس عشر [illegible] في الغرب لإنشاء علم الاجتماع الحديث دون أن يعدّه الكثيرون [illegible] الجمال وتستهويه الشهرة، وشهد بعضهم أنه مع تقشفه [illegible] [illegible] ومن ثم وجب إسناد شؤون الحكم إليهم. كما رأى الذين [illegible] الذي ينبغي أن تعتنقه البشرية عن بكرة أبيها في المستقبل، [illegible] المجتمع بأسره بالارتقاء بالمستوى الأخلاقي والصحي للطبقة المحرومة. ويستنكر سان سيمون قصر تسجيل التاريخ على حياة الملوك، فالتاريخ الحقيقي في نظره هو تاريخ العلوم الذي لا يزال طفلاً في المهد في حين أن المعرفة والعلم هما الوسيلة الوحيدة لتقارب بين القلوب وإقامة الوحدة البشرية التي تحول دون نشوب الحروب بين الشعوب وقتل الإنسان لأخيه الإنسان، ومن ثم فلا حاجة إلى جنود مرتزقة لضمان استتباب الأمن وانتشار السلام. ويسخر سان سيمون من المنددين بدعوته تلك خشية تعرض الوطن للغزو مدللاً على وجهة نظره بأن فرنسا قد تعرضت للغزو مرة واحدة دون أن تكون جيوش المرتزقة [illegible] الذين لم يحترفوا القتال هي التي ردّت العدو على أعقابه. وكذلك نادى بضرورة تغيير نظام الملكية الوراثية لإصلاح النظام الاجتماعي، وفرض سيطرة الدولة على وسائل الإنتاج وتحرير [illegible].

لوحة ٢٩ [illegible] أنفانتان زعيم السان سيمونيين

وفي اليوم التالي لوفاة سان سيمون في ١٩ مايو ١٨٢٥ تصدّى بارتملي بروسبير آنفانتان لقيادة الحركة الفكرية التي غرس بذرتها سان سيمون وظل يرعاها قرابة خمسة وعشرين سنة تعرّض خلالها للكثير من العنت والاضطهاد في سبيل تحقيق أهداف زعيمه الذي دعاه "رسول الإنسانية" (لوحة ١٢٩ملون). وقد شارك عام ١٨٢٩ مع لفيف من الشبان [illegible] مؤمنين بالحركة السان سيمونية بتعديل بعض مبادئ سان سيمون وتوضيحها ونسجوا منها مذهباً فكرياً عُرف باسم "السان سيمونية" نشروه في كتاب بعنوان "عقيدة سان سيمون"[33] ومن يومها جرى اختيار أنفانتان أباً [illegible] سان سيمونية ومرشداً لها، فقد كان يجمع إلى العلم بالاقتصاد العلم بالفلسفة والتصوف، وكان له أكبر الفضل في تحويل ما كان اتجاهاً فكرياً محضاً إلى ما يعرف من المذهب العقائدي الذي يقوم على جملة من الشعائر المتطرفة والثياب الغريبة والعادات غير المألوفة التي أثارت حوله وحول [illegible] من الشكوك والسخرية. وقد بث أنفانتان في أعضاء الحركة روحاً صوفية [illegible] على خدمة أنفسهم [illegible] وأخذوا [illegible]

(٣٣) انظر محمد طلعت عيسى: أتباع سان سيمون، فلسفتهم الاجتماعية وتطبيقها في مصر ١٩٦٣

للمحاكمة بتهمة إفساد الأخلاق وهدم القيم. وبالرغم من تعرض هذه الجماعة للانقسام الذي أدى إلى اختفائها فيما بعد إلا أن ما أرسته من اتجاهات الإصلاح الاجتماعي بقيت تمارس تأثيراً كبيرا وبخاصة على الفكر الاشتراكي لسنوات طويلة. وكان الاضطهاد الذي لقيه أتباع سان سيمون هو الذي أشعل فيهم فكرة الهجرة. وبينما كان الأب أنفانتان يقضي فترة العقوبة المحكوم عليه بها في سجن سانت بيلاجي، نبتت في ذهنه فكرة "الرحيل إلى "الشرق"، حيث يشرق الضوء من الصحراء. وكان الشرق في نظره هو مصر الساحرة، أرض فرعون وموسى التي يشقها النيل الخالد. ولم يكن الرحيل إلى الشرق يعني عند أنفانتان هروبا إلى معتزل بل كان تروحا إلى موطن تسمو فيه الأخلاق بأكثر مما تسمو في الغرب، بل كان يؤمن أن ربط الغرب بأخلاقيات الشرق هو سبيل البشرية إلى الوحدة والتماسك.

Ed. Driault (٣٤)
La Renaissance de L'Egypte, Napoleon 1925.

ولقد سحرت مصر السان سيمونيين من خلال ماضيها العريق ومستقبلها الواعد، فقد كانوا ينشدون التعاون الأخوي بين كافة الشعوب وبين سائر الطبقات الاجتماعية وذوبان الأجناس في بعضها البعض. وكانت لهم سياسة تجاه الشعوب الإسلامية اتخذت شكل فلسفة إسلامية، فقد استقرت في أعماقهم رؤية حربية غريبة تتمثل في "التقبيح" لحسن الأسمر الأشوري العصبي بالعنصر المذكر، تعميمة للجنس الأنثى! كما اتخذوا شعاراً لهم كلمة نابليون المأثورة "أنه عن طريق مصر وحدها يمكن أن تتغلغل شعوب وسط إفريقيا النور والرفاهية"(٣٤)

والحق أن هؤلاء السان سيمونيين المثاليين لم تكن لهم سياسة وفلسفة إسلامية فحسب بل وفلسفة حوض البحر المتوسط جميعه، إذ كانوا يعلقون شق قناة في برزخ السويس فرصة وحبت سعيد على أيديهم، كما كانوا يؤمنون بأن مشق خط أزرق نحيل من المياه الزرقاء في برزخ السويس هو الشرارة الكبرى للسلام والحب والوئام بين الحضارات والفصل بين البشر. وبهذا المعنى أكمل السان سيمونيون رسالة "المجمع العلمي المصري" دون أن يفتقروا إلى الأمية نابليون بشق القناة بوصفها هدفا حربيا وتحديا للإنجليز بل بوصفها شعلة في قمة منارة تتوهج نحو طريق الوحدة الإنسانية. وإذ كانوا سلالة فلاسفة القرن الثامن عشر وعلماء حملة بونابرت فإنهم قدموا من بعدهم وتحت راية فكرية مغايرة تماما لراية أجدادهم بأحد زمام الحملة الفرنسية الثانية التي حددت هذه المرة طابعا إنسانيا وحضاريا خالصا.

عقد الأب أنفانتان عزمه على التوجه إلى مصر مع أخلص مريديه لتحقيق هدف سان سيمون وهو شق قناة السويس أو على حد تعبير هنري فورييل "لم مهندسي المجموعة عندما انبرى لشرح برنامجهم: "لكي نعبر الصحراء التي تفصل البحرين، ولكي نستكمل الدراسات التي جرت خلال حملة مصر، ومن ثم إحاطة العالم بأفضل الوسائل لربط السويس بالبحر المتوسط وبذلك تصبح الهند على صلة بأوروبا". على أن الأب أنفانتان كان إلى جوار نظرته الإنسانية إلى الصناعة والاقتصاد ينظر إلى ملدان الشرق نظرة روحية، فمضى يعبر عن هذه الآراء بأسلوب رومانسي محددا رسالة أتباعه بأنها شق طريق عصري بين مصر العريقة ومملكة يهود صوب الهند والصين قائلا: "الصعن إحدى القدمين على النيل والأخرى على أورشليم ولنمدن يدنا اليمنى صوب مكة على حين تغطي ذراعنا اليسرى روما، ثم لنرتكز على باريس... السويس هي نقطة حياتنا وجهدنا، هناك سنتم العمل الذي ينتظره العالم والذي يشهد به عفوانه".

لوحة ١٣٠ ـ ماشيرو، زي فنان سان سيموني

وكان من بين السان سيمونيين الذين وفدوا إلى مصر في المرحلة الأولى ـ وعددهم خمسة وخمسون رجلا يمثلون كافة المهن والحرف والفنون ـ جمهرة من الأدباء والصحفيين بطبيعة الحال، فقد كان للنظرية السان سيمونية أثرها كذلك على تيار الشعر المعاصر لها والذي شد إليها سانت بيف ولامرتين ولوكونت دوليل ومكسيم دوكان، غير أن الخلصاء كانوا يحشدون من بين هؤلاء المهندسين وعلماء الرياضة الذين شكلوا الأعمدة الساحقة للفريق الأخرى. فقد غادروا مرسيليا يوم ٢٣ سبتمبر ١٨٣٣ وهم أشد ما يكونون حماسة وحيوية، وقد ارتدوا الزي الرسمي الذي صممه الأب أنفانتان: بنطلون أبيض بلون الحب، وصديري أحمر بلون العمل، ودثار ضيق يمنطق الخصر ذو أكمام فضفاضة، وقميص أزرق بنفسجي، وياقة شديدة الانفراج، وشعر مرسل مع الريح يعلو رأسا مرفوعة تتحرك بحرية دون عائق، وتجهوا نحو السفينة يتغنون بنشيد سان سيمون وسط الجمهور الذي هزأ بهم حتى كاد يقذف بهم إلى البحر (لوحات ١٣٠، ١٣١، ١ ملون، ٢ ملون، ٣ ملون). ومع ذلك رحلوا صوب الشرق يحملون حماسة صليبية مخالفة لروح أسلافهم القدامى وقد امتلأت قلوبهم آمالا بغير حدود. على أن الرحيل إلى مصر لم يجر في سلام، فحين تفرق أتباع سان سيمون في أنحاء فرنسا لضم الأنصار استهدفوا الحملات من السخرية والإيذاء حتى تهكم عليهم أحد رجال الشرطة في تقريره قائلا: "فلنتمن لهم رحلة طيبة إلى مصر، وليُحطهم سان سيمون بالرعاية من الفقهاء في تلك البلاد التي تستخدم عقوبة الخازوق".

رأى السان سيمونيون في مصر أطلال ماض عريق ومهد حضارة متجددة وموطن بذور مخصبة، فأولوا اهتمامهم للبذور المخصبة ولمهد الحضارة حتى يحيلوا مصر إلى حديقة يانعة وإلى مركز يصل بين عالمين قديمين، وقد وجدوا السبيل إلى ذلك في إقامة قناطر النيل وشق قناة السويس همزة وصل تربط بين الإسكندرية والسويس. وحين وصل الأب أنفانتان إلى الإسكندرية في ٢٣ أكتوبر ١٨٣٣ وجد في استقباله مرحبًا الأركيولوجي والقنصل الفرنسي بريس دافن، فلم يدع الوقت

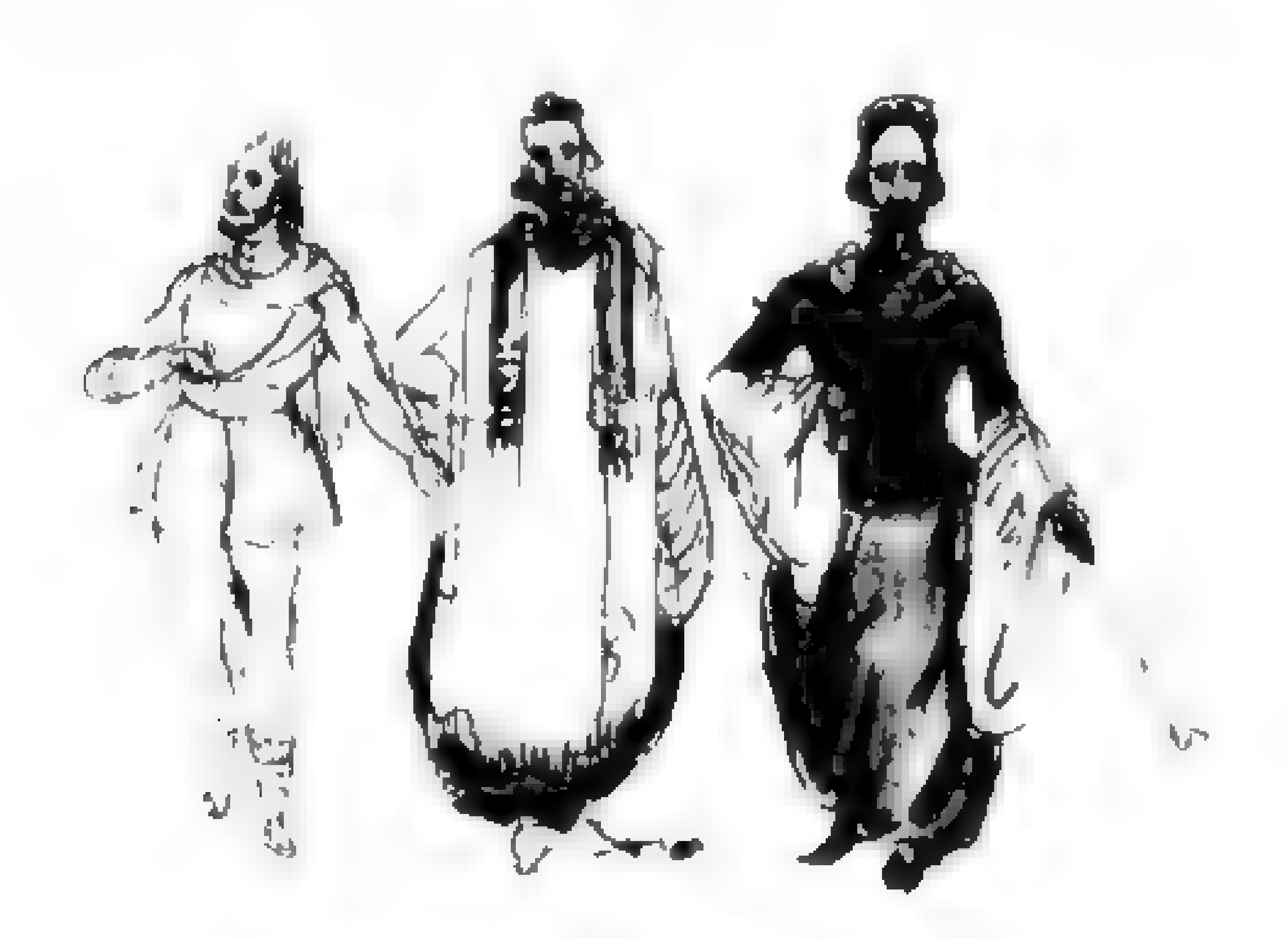
لوحة ١٣١ ـ نماذج من أزياء السان سيمونيين من تصميم الفنان ماشيرو

لوحة (١٣٢) لينان ده بلفون.

يصيح هيا وقصد القاهرة على الفور في صحبة أفضل مهندسيه : شارل لامبير وهنري فورنيل . وما كانت أشدّ فرحتهم حين اكتشفوا أنه بينما كانت السلطة الصاعدة في أوروبا تتصارع مع السلطة السياسية كان الأمر في مصر على خلاف ذلك، إذ كان حاكم مصر محمد علي يمسك في يده وحده التجارة والزراعة والمصانع والعلوم والفنون فضلا عن أن جيشه كان يحميه من الانتفاضات الثورية . كانت كلمة واحدة من الوالي تكفي كي يتوجّه مئات الألاف من الرجال لترويض التربة، حتى لقد تم شق قناة المحمودية في أقل من شهر كما يقرر أنفانتان الذي لم يكن يعرف أو لعله لم يشأ أن يعرف ما سوف يقتضيه هذا العمل من تضحية بأرواح الكثير من المصريين . كذلك كانت مصر هي البقعة المثلى لتحقيق أهداف السان سيمونية المنادية بإلغاء الملكية الوراثية لاسيما أن محمد علي بات يمتلك كافة الأراضي تاركاً ربع الأرضٍ فقط للمزارع طوال حياته . ولكن ما دامت الأمور تجري بمثل هذه السهولة في مصر فأية صعوبة يمكن أن تعترض شق قناة السويس؟ ومن ثم فقد بدأت المناقشات النظرية واستطلاع طبيعة الأرض وإعداد الخطط والرسوم، إلا أن الباشا آثر البدء بقناطر النيل وتأجيل مشروع شق قناة السويس مما أصاب المهندس فورنيل بخيبة أمل شديدة انعكست على علاقته بالأب أنفانتان فعاد إلى فرنسا مفعماً بالمرارة، كما عاد معه كذلك عدد من أفضل العقول في المجموعة السان سيمونية، غير أن شارل لامبير المهندس البارع والروح المتوثّبة بين السان سيمونيين ظل على وفائه لرفقته . وإذا لم يكن في الإمكان تحقيق حلم السان سيمونيين كله فلا بأس من تنفيذ الشطر الثاني من هذا الحلم وهو تشييد القناطر التي أمر الباشا بتنفيذها فورا . ومن ثم قدّم أنفانتان ولامبير خدماتهم إلى الباشا فأنشأ مدرسة للمهندسين بالقناطر كي يُنشئا مهندسي المستقبل موصولين بالواقع، وبمعاونة الكولونيل سيف أنشأ مدرسة للمشاة في دمياط ومدرسة للفرسان بالجيزة ومزرعة نموذجية بشبرا ومدرسة للبنات بالجيزة، وكان محمد علي مترددا في إنشائها إلى أن رضخ لإلحاح أنفانتان وسوزان فوالكان التي سجلت فيما بعد ذكرياتها في كتاب بعنوان «يوميات سان سيمونية بمصر»[٣٥] يعدّ مرجعا وافيا لنشاط أتباع سان سيمون خلال الفترة التي مكثتها المؤلفة بمصر .

(٣٥) Suzanne Voilquin. Journal d'une Saint - Simonienne en Egypte. 1866

واستدعى أنفانتان ولامبير من فرنسا فريقا آخر من المهندسين، وبدأ العمل في القناطر يوم ١٢ مايو ١٨٣٤ . وقد عسكر السان سيمونيون في الموقع داخل خيام مصرية بعد أن عدّلوا زيهم ليقترب من الطابع الشرقي . يقول أنفانتان في إحدى رسائله «إذا شئت أن تتعرف على صورتي فقد غدت لحيتي وشعري أقل طولا وأصبح رداي أحمر ذا أكمام مفتوحة وانفصل الجزء العلوي من معطفي عن تنورته وبت أتمنطق بحزامي الجلدي الأسود القديم . أضف إلى ذلك برنسا أبيض من الصوف وحذاء أحمر دون كعب وشريط أصفر وسترة ملتصقة بالجسم أزرارها من الخلف يعاون بعضنا البعض في شدّها وفكّها!» .

وأخذ أنفانتان في عمله تحدوه همّة متجددة ووزّع العمل على معاونيه وبدت فيه الأمال الأولى تتبدد شيئا فشيئا، ولم يكن المدير الفعلي للمشروع هو الأب أنفانتان بل لينان ده بلفون الضابط السابق بالبحرية الفرنسية (لوحة ١٣٢) . وبما أن الحلم السان سيموني قد بدأ يأخذ طريقه إلى التنفيذ، فقد احتفل السان سيمونيون احتفالا صاخبا بهذه المناسبة، ومضى أنفانتان يتباهى بأنه بعد عيد الفصح سيجد تحت إمرته أربعين ألف رجل . وسرعان ما وفد من فرنسا إلى جوار المهندسين رهط من الفنانين والشعراء أسهموا في إثارة الأب أنفانتان مثل المؤلف الموسيقي روجيه الذي

لوحة (١٣٣) الموسيقار فيليسيان دافيد . متحف البلدية بسان جرمان آن ليه

وضع النواة الأولى لفرقة موسيقية مكتملة بمدرسة المدفعية بطره تحمسا لفكرة السان سيمونيين التي تؤكد أهمية دور الموسيقى في زيادة الإنتاج، ومثل الموسيقار فيليسيان دافيد الذي نسج «الألحان الشرقية» من الأغاني الشعبية التي التقطها من حول ضفاف النيل (لوحة ١٣٣) . ومن بين الفنانين التشكيليين المنتمين إلى المدرسة الواقعية الشائعة وقتذاك جاء المثّال ألريك الذي نحت تمثالا لمحمد علي ونادى بضرورة أن يغدو الفن اجتماعيا لا فرديا، والمصور ماشيرو الذي بذل جهدا كبيرا لإنشاء المعهد الفنية بمصر . وما يلبث ألريك أن يموت بمصر وأن يعود فيليسيان دافيد إلى فرنسا إلا أن فيليب جوزيف ماشيرو يؤثر الاقامة بمصر، وكان شخصية فريدة تستحق منا وقفة . فقد وفد إلى الإسكندرية وله من العمر اثنان وثلاثون عاما بعث حيوية حسب الحيل بوهيمي الشخصية غزير الشعر أشعث أغبر مستهترا لا يعترف بقواعد اللياقة، ورسّاما مبدعا وموسيقيا بارعا وممثلا موهوبا وكاريكاتوريا لا يبارى، وكان قد استمع إلى الأب أنفانتان يبشّر بالسان سيمونية في فرنسا، وأثرت هذه الدعوة مثاليته الكامنة وحماسته لهذه المبادئ فانخرط في سلك السان سيمونية . وما لبث أن أصبح النديم المفكه والطفل المدلّل للجالية الفرنسية بالقاهرة، فكان يقوم بالتمثيل على خشبة تياترو القاهرة بالموسكي وتمثل أمامه مدام بونوم الفرنكوفونية الفاتنة التي ذكرها جيرار ده نرفال مرارا في كتابه «رحلة في الشرق» .

وقد أحبّه سليمان باشا حبا جما وألحقه بالعمل في معيّته، فكان ماشيرو يرسم لوحات الريف حول طية مستمدة من الرسوم المحفورة الواردة في كتاب «وصف مصر» في أي مكان فوق جدران قصر سليمان باشا أو في الأماكن ذات الطراز العربي (لوحة ١٣٤، ١٣٥) . والراجح أنه هو الشخصية التي قصدها شارل إدمون في روايته الشهيرة «زيفران كاطافان» حين رمز إليها بشخصية الرسّام المزخرف جندل كما سيتبين لنا بعد قليل . وكانت دار سليمان باشا المطلّة على النيل تصخب ليلا بالغناء والموسيقى، غير أن هذا الصخب لم يكن ليزعج الأب أنفانتان الذي جاء ليقيم في هذه الدار في الشتاء التالي، إذ لا شك أنها كانت تتيح له قدرا من الراحة أكثر مما يتوفر له في خيمته عند القناطر . وفي أواخر عام ١٨٣٤ وفدت إلى مصر إرسالية من السان سيمونيات بصحبة سوزان فوالكان لم يطل مقام بعضهن في مصر (لوحة ١٣٦) . على أن السان سيمونيين ما لبثوا أن أدركوا الفتور الذي بدأ يظهره الرسميون وعلى رأسهم الباشا الوالي نفسه وقنصل فرنسا بعد أن غشّت حياتهم التي كانوا يعيشونها بالقناطر بعض الفضائح، وبخاصة أنه كان من بين إرسالية «الأخوات السان سيمونيات» بغيّا من ليون كانت سريعة التنقل من خيمة إلى أخرى والتحوّل من ذراع إلى ذراع، وهو المسلك الخلقي الذي أصاب أعضاء الجالية الفرنسية الوقورين بصدمة عنيفة، فانبروا ينتقدون في ضراوة ما أطلقوا عليهن «صبايا القناطر»، فضلا عن أن استئثار سليمان باشا بإحداهن قد أوغر صدورهم ودفعهم إلى التنديد بسيرته (لوحات ١٣٦، ١٣٧، ١٣٨، ١٣٩، ١٤٠) .

وقد أدّى ذلك كله إلى وضع المشروع السان سيموني في مأزق لم يتح له الخروج منه . ومما زاد الطين بلّة توقف العمل بمشروع القناطر وظهور وباء الطاعون بالقاهرة في شهر يناير سنة ١٨٣٥ حيث لقي الكثيرون من عمال القناطر حتفهم مما اضطر الأب أنفانتان إلى تسريح مساعديه فعاد منهم مَن عاد إلى فرنسا وبقي نفرٌ من غلاة المؤمنين بالسان سيمونية الذين آثروا الحرمان المادي والمعنوي مهما عانوا منهما، ولم يجدوا أمامهم وسيلة للعيش سوى قبول وظائف متواضعة في الإدارة المصرية (لوحة ١٤١) .

على أن ماشيرو ـ الذي ظل على الدوام مرحاً رثّ الثياب بوهيمي السلوك حتى كان يُضرب المثل

في القاهرة بقذارته والمثال الريك. قبل أن يلقى ربّه بعد قُلا وظيفة مدرس رسم لقاء سبعمائة قرش شهريا. وفضلا عن توزّع نشاط السان سيمونيين فإن الطاعون هلك بعدد لا يستهان به منهم حتى غدا عام ١٨٣٥ هو عام الحداد، فكتب لامبير قائلا: «لقد تداعت الأسرة وتساقط الوحل فوق رأس الأب أنفانتان وتخلى عنه الكثير من الأتباع». وقد توجّه الأب أنفانتان بصحبة المهندس شارل لامبير فرارا من العدوى وسعيا وراء هدوء البال إلى الصعيد في نهاية شهر فبراير حيث مكث ما يربو عن ستة شهور. وفي الأقصر التقى بطبقة الحكام المصريين الذين خلّفوا القاهرة خوفا من الوباء، واستعاد علاقته الحسنة مع قنصل فرنسا العام وبدأ في تعلّم العربية منتظرا تحقيق الحلم الكبير الذي لم يتحقق، ونال شعبية جارفة بين الفلاحين حتى دعوه «أبو الدنيا». وكان يمكن أن يمدّ فترة رحلته لولا نضوب موارده المالية وبُعده عن القاهرة التي كان يجد بها دائما المأوى والطعام في دار سليمان باشا أو عند أحد الأصدقاء. ومن ثم رجع إلى القاهرة ليجد على الرغم من المجاملات الظاهرية فتورا من السلطة والمجتمع الذي كان يرتاده، كما أصبحت رعاية الباشا خاضعة لنزواته، فضلا عن عودة عدد من الفرنسيين المشتغلين بالحكومة إلى فرنسا وانشغال سليمان باشا بالحرب ضد تركيا في سوريا، فبدلا من أن يقيم بقصره الفاخر المطل على النيل كان عليه أن يقنع بالعيش في القاهرة القديمة في الدار الصغيرة التي يسكنها الموسيقي فيليسيان داڤيد. وهكذا بدأت شجاعته تخونه وآماله تتبدّد، ومن ثم ألقى على مصر مسؤولية فشله. ونجد في مذكراته عن هذه الفترة حكما قاسيا على محمد علي تناقض مع تقديره الكبير له عند مجيئه إلى مصر، هذا إلى ما حدث في صفوف بعض السان سيمونيين من تنكر للمسيحية واعتناق للإسلام، فأسلم ماشيرو وغيره آخذين بعادات الإسلام وتقاليده حتى سخر منهم محمد علي باشا قائلا: «إنه لأمر يثير الضحك حقا أن يأتي السان سيمونيون هنا لتبشير المسلمين فإذا بهم يعتنقون الإسلام». وأصبح ماشيرو يدعى محمد أفندي الذي لم يلبث بعد عدة مغامرات غرامية أن اتخذ زوجة مصرية أنجب منها أربع بنات هن هانم وزهرة وحميدة وأسماء. وما أكثر ما كان ماشيرو المعوز دائما والجوعان أحيانا يقبل دعوات الأب أنفانتان وشارل لامبير لتناول الطعام، ولكن ما إن يظهر لحم الخنزير والنبيذ أمامه على المائدة حتى يؤنبه ضمير من أسلم حديثا ويحول بينه وبين تناوله.

لقد أوشكت إقامة الرسول السان سيمونى أن تقارب النهاية، فإن مشروع شق قناة السويس قد تأجل دون أمل كما أن العمل بمشروع القناطر قد توقف. ولم يعثر «الأب» أنفانتان الذي كان للمرأة حظ كبير في أعماقه على «الأم»، أي تلك المرأة المثالية التي تلهمه وتعينه برؤاها، فقد كان السان سيمونيون يعتقدون أن الله إذا كان قد بشّر بابنه المسيح فلا شك أنه سيبشر الإنسانية أيضا بابنته أي «المرأة» المعدة الحقيقية للبشرية من خطاياها والموجّهة السديدة نحو الأخلاق السويّة، وأنه إذا كان الغرب قد أنجب «الأب» فلابد وأن يكون الشرق قد أنجب «الأم». غير أن التقارير السرية للشرطة الفرنسية كانت تزعم بأن تلك «المرأة» هي رمز سرّي «للجمهورية» اتفق على الدعوة لها تحت ستار كلمة المرأة. وبدلا من الانتصارات التي كان يترقّبها لم يجد حوله غير الحداد والمرض والبؤس وتشتت الأعوان وعودتهم إلى الوطن. لم يعد هناك أمل يرتجيه فتركه أتباعه واستولى عليه الحزن، فضلا عن تشكك معارفه في نواياه حتى صار يردّد أنهم لا يفهمونه على الإطلاق لأن آلامهم الذاتية قد أعمتهم عن رؤية آلام الإنسانية، ويهذي بأنهم لم يفطنوا إلى أن الله قد بعثه هاديا لإنقاذ البشرية على نحو ما فعل من قبل مع عيسى ومحمد وموسى وسائر الأنبياء. وعندما أدرك أن لا فائدة تُرجى من مزيد من الكفاح، هفا إلى تخلّي بعض أصدقائه عنه

لوحة (١٣٤) ماشيرو فندق أورينتال بالقاهرة

لوحة (١٣٥) ماشيرو فندق شبرد بالقاهرة

لوحة (١٣٦) سوزان فوالكان. صورة مطبوعة بطريقة الحفر على الحجر. مكتبة دار الصناعات المحرمة بباريس

لوحة (١٣٧) المرأة المعبد. رسم بالقلم. مكتبة دار الصناعات المحرية بباريس.

لوحة (١٣٨) السادة سميث كارولين كاربونيه وجوديث جرينجوار والصبي ألفرد ديلون الذي كان مقيماً بسوران
فوالكان - رسم بالقلم - مكتبة دار الصناعات البحرية بباريس

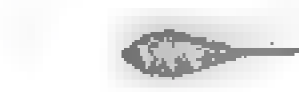

لوحة (١٣٩) ماشيرو ، مخطوطة تضم شخصيات ومشاهد متفرقة ، محمد علي باشا ، وإحدى النساء
سمونسات ولعبوا جوبيت أو كارولين ، ومنتشة ومخمل رسم بالقلم ، مكتبة دار الصنعات الحربية بباريس

ممن انتقدوا حياته مجونه وسلوكه مع النساء، قرر الأب العودة إلى فرنسا في أكتوبر ١٨٣٦ وبعد أن عاد اختفى ذكر السان سيمونية وإن كانت قد بقيت آثارها الفكرية تلقي بظلالها الوارفة على المجتمع الثقافي المصري.

ولم يلبث أنفانتان أن كشف في فرديناند دلسبس الوسيلة العملية لتحقيق أمنيته المنشودة بشق قناة السويس نظرا للصلة الصداقة الوحيدة التي تربطه بسعيد والي مصر، فسلّم إليه في صيف عام ١٨٤٥ جميع الدراسات والوثائق التي توصّل إليها السان سيمونيون منذ عام ١٨٣٣ حول هذا المشروع (لوحة ١٤٢). ولكن دلسبس قد تنكّر لأتباع سان سيمون وأنكر صلته بهم بعد أن تبنّى نظرياتهم دون المستندات والرسائل المتبادلة بينه وبينهم فضلا عن مذكرات أنفانتان الشخصية تؤكد هذه الصلة. وكانت من حديد صدمة لأنفانتان بعد أن سلب دلسبس جهود عشر سنوات للسان سيمونيين وحوّل دورهم إلى مجرد مشاهدين غير مشتركين في التنفيذ، الأمر الذي أسفر عن فقدان ركن أساسي من الأركان الاجتماعية لفلسفة السان سيمونية، وهو سيادة الأخلاق وحظر استغلال الإنسان للإنسان، فقد جاء تنفيذ مشروع دلسبس صورة بشعة في تاريخ الإنسانية عامة وتاريخ فرنسا خاصة، فلم تكن مآسي السخرة والتعذيب التي لازمت شق القناة وأهدر فيها عرق آلوف المصريين ودماؤهم يواكب فكرة الإنسانية العالمية التي نادى بها سان سيمون[٣٦].

وعلى الرغم من رحيل السان سيمونيين عن مصر فقد تزايد تأثير الثقافة الفرنسية بها، ذلك أنه كان قد تم بناء على طلب الكولونيل سيف الذي نال رتبة الباشوية في عام ١٨٣٤ وغدا مفتشا عاما للمدارس المصرية قيام الأب أنفانتان بمساعدة شارل لامبير بإنشاء «المجلس الأعلى للتعليم العام» وتشكيل «اللجنة الاستشارية للعلوم والفنون» التي كانت همزة الوصل بين «المجمع العلمي» الذي أنشئ عام ١٧٩٩ و«المجمع العلمي المصري» الذي بُعث من جديد فيما بعد، كما انتشرت اللغة الفرنسية في جميع المدارس المهنية، وذاعت الثقافة الفرنسية بين المصريين بفضل السان سيمونيين الذين كشفوا عن قدرات فذّة في تعليم اللغة الفرنسية حتى شاع بين كبار المسؤولين القول بأنه من العبث إرسال بعثات إلى فرنسا بينما تحتشد مصر بأساتذة من السان سيمونيين يفوقون الأساتذة في فرنسا خبرة وكفاية.

هكذا بقي عدد من السان سيمونيين بالقاهرة يواصلون تقديم خدماتهم [illegible] ، شارل لامبير رتبة البكوية وأصبح مديرا للمدرسة الهندسة ببولاق وظل بمصر حتى عام ١٨٥٠ وأكمل [illegible] مشروع قناطر الخيرية. ولم تكن مصر حين حملت جنود جيشها النظامي تحت تصرف [illegible] قناة إلا مطبّقة لمبدأ السان سيمونيين المنادي [illegible] الحروب بين البشر مطالبين باستخدام المجنّدين في المشروعات السلمية الكبرى.

وثمة سان سيموني آخر هو الدكتور بيرون الذي أصبح مديرا لمدرسة الطب [illegible] كلوت بك، وكان مستشرقا يجيد الفارسية ويلمّ بالشعر الإسلامي وبخاصة الحكايات التي تنال من الإسلام، وكان يمكن أن ينال حقه من التقدير لو أنه عثر على الناشر الذي يقبل أن يطبع له أعماله الكبرى. أما السان سيمونيون الذين عادوا إلى فرنسا فإنهم سرعان ما نسوا فشلهم وقسوة إحساسهم بهذا الفشل، وبالرغم من المشاق القاسية التي تعرضوا لها ظلوا أصدقاء [illegible] مصر، فوضع فيليسيان دافيد «الألحان الشرقية» كما قدمت وألّف قصيدته السيمفونية «الصحراء» (١٨٤٤) فكان صدى لذكريات حججه لبلاد الشمس وحنينه إلى [illegible]

(٣٦) محمد طلعت عيسى: أتباع سان سيمون. ص ١١٥ وما بعدها

لوحة (١٤٠) ماسيرو. سان سيمونية عملاقة الى جوار الأهرام. رسم بالقلم. مكتبة دار الصناعات البحرية بباريس

لوحة (١٤١) معسكر الأب انفانتان المطل على النيل بالقناطر الخيرية. مكتبة دار الصناعات البحرية بباريس.

الريشة العاشقة
للفن الإسلامي

پاسكال كوست وپريس دافن

١٧٨٠ - ١٧٥٠

ISTHME DE SUEZ ET BASSE EGYPTE.

ÉTUDES DE 1847

لوحة ١٤٢ - السان سيمونيون يمسحون طوبوغرافية منطقة برزخ السويس عام ١٨٤٩

بريس دافن

[illegible] في تشجيع محمد علي [illegible]
تتطلع بعين الإعجاب إلى الغرب بأزيائه وعاداته، وتنشد معونة خاصة معونة فرنسا في [illegible]
تنظيم أجهزتها الإدارية وزراعة تربتها وتدريب جنودها، وهو ما حدا بمحمد علي إلى إحاطة نفسه
بجمهرة من المهندسين الفرنسيين برز من بينهم مهندس على جانب [illegible] هو بسكال كوست
الذي أسهم إسهاما قيّما خلال الأعوام العشرة التي قضاها بمصر حين وصل إليها عام ١٨١٧ ليؤسس
بها مصنعا للبارود والمفرقعات وليشرف على تشييد العديد من المرافق العامة. ولقد سجّل أروع
اللوحات المصوّرة المطبوعة بطريقة الحفر وكذا العديد من الرسوم الملونة بأمانة شديدة ودقة متناهية في
كتابه الفذ الكبير الحجم «العمارة الإسلامية أو آثار القاهرة ١٨٣٧-١٨٣٩»[37] (لوحة ١٤٣) نعرض
منها هنا اثنتين وعشرين لوحة ملونة (من ٤ إلى ٢٥). وعندما كان كلوت بك ناظر مدرسة الطب يعدّ
كتابه «لمحة عامة عن مصر» الذي ظهر في عام ١٨٤٠ عهد إلى بسكال كوست بإعداد فصل عن الفن
الإسلامي فإذا هو يقدّم لنا أدق تسجيل وأكمله عن العمارة الإسلامية، [illegible]
بالاستشراق الفرنسي في كل من الأدب والتصوير. وقد أمدّ الله في عمر بسكال كوست إلى أن بلغ
التسعين عاما، قدم خلالها بالاشتراك مع أوجين فلاندان أربعة آلاف لوحة مرسومة من بينها كتابه
المصوّر الشهير عن آثار فارس القديمة والإسلامية «رحلة في فارس».

Pascale Coste (٣٧)
Architecture Arabe ou monument du Caire,
Didot 1837-39

ولعل إميل بريس دافن كان أكثر معاصريه الفرنسيين الذين درسوا مصر إسهاماً في التعريف بها،
فهو لم يقتصر على الكشف عن الآثار الفرعونية بل جاوزها بنفس القدر إلى الحضارة الإسلامية. ولا
شك أنه صاحب تجربة فريدة إذ أتاح له الحظ أن يمضي سبعة عشر عاما من حياته في مصر. ولا
يعدل جرأة كشافته وتهوّر مغامراته إلا نفاذ بصره وحدّة ملاحظته واتساع معرفته ورغبته العارمة في
بلوغ الحقيقة. وقد أثرى الآركيولوجيا بمؤلفات قيّمة كرّس لها سنوات عديدة من الجهد
المتواصل، مضحّيا في سبيله بما كان له من ثروة بل وبما شغل من مناصب حتى استطاع أن يقدم أربعة
[illegible] على رأسها كتابه «الآثار المصرية وتاريخ الفن المصري وفقا
لآثارها منذ الزمن السحيق حتى السيادة الرومانية»[38]، وكتابه الضخم «الفن العربي من واقع آثار
مصر من القرن السابع إلى نهاية القرن الثامن عشر» (١٨٦٧-١٨٧٩)[39]. الذي نعرض منه عشر
لوحات بالأبيض والأسود (من ١٤٤-١٥٣)، وثماني لوحات ملونة (من ٢٦-٣٣) والذي يضع
[illegible] على أي عالم أو فنان أن يستغني عنه. وتتضمن مآثره وإنجازاته
[illegible] يعيش معها اسمه متألقا إلى جانب أسماء شمبوليون وماريت
[illegible]

E. Prisse d'Avennes (٣٨)
Histoire de l'art Egyptien, d'après les Temps les plus reculés jusqu'à la domination Romaine
(160 planches) Paris, Bertrand 1868-79

E. Prisse d'Avennes (٣٩)
L'Art Arabe, d'après les monuments du Caire depuis le septième siècle jusqu'à la fin du dix-huitième siècle. (1867-79)
Paris, Morel, 1869

لوحة (١٤٣) باسكال كوست - بين القصرين

[illegible] بريس دافن عام ١٨٢٩ [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] وما إن لبس في نفسه اكتمال [illegible]

عام ١٨٣٧ [illegible] مكتسب و [illegible] الإسلام [illegible]

[illegible] لم يتصل على أحد عن عوار [illegible]

ارتدى زي الفلاحين وانطلق يؤدي رسالته في الصعيد.

وحتى ظهور بريس دافن كان الفن الفرعوني في نظر المهتمين [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] في انتظار فنان عظيم يضفي عليه لمسات الرهافة وحساسيته الحيّة.

[illegible] بريس الفذ [illegible]

[illegible]

[illegible] في الأوساط الفنية الباريسية بالنقد الشديد لسلوكه [illegible]

[illegible]

[illegible] نحو بريس دافن في مجال الأركيولوجيا الإسلامية فإنه يتجاوز [illegible]

[illegible] وصل بريس دافن إلى مصر في نفس الوقت [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] المعشق [illegible]

المحلاة بالمقرنصات المتشابكة [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

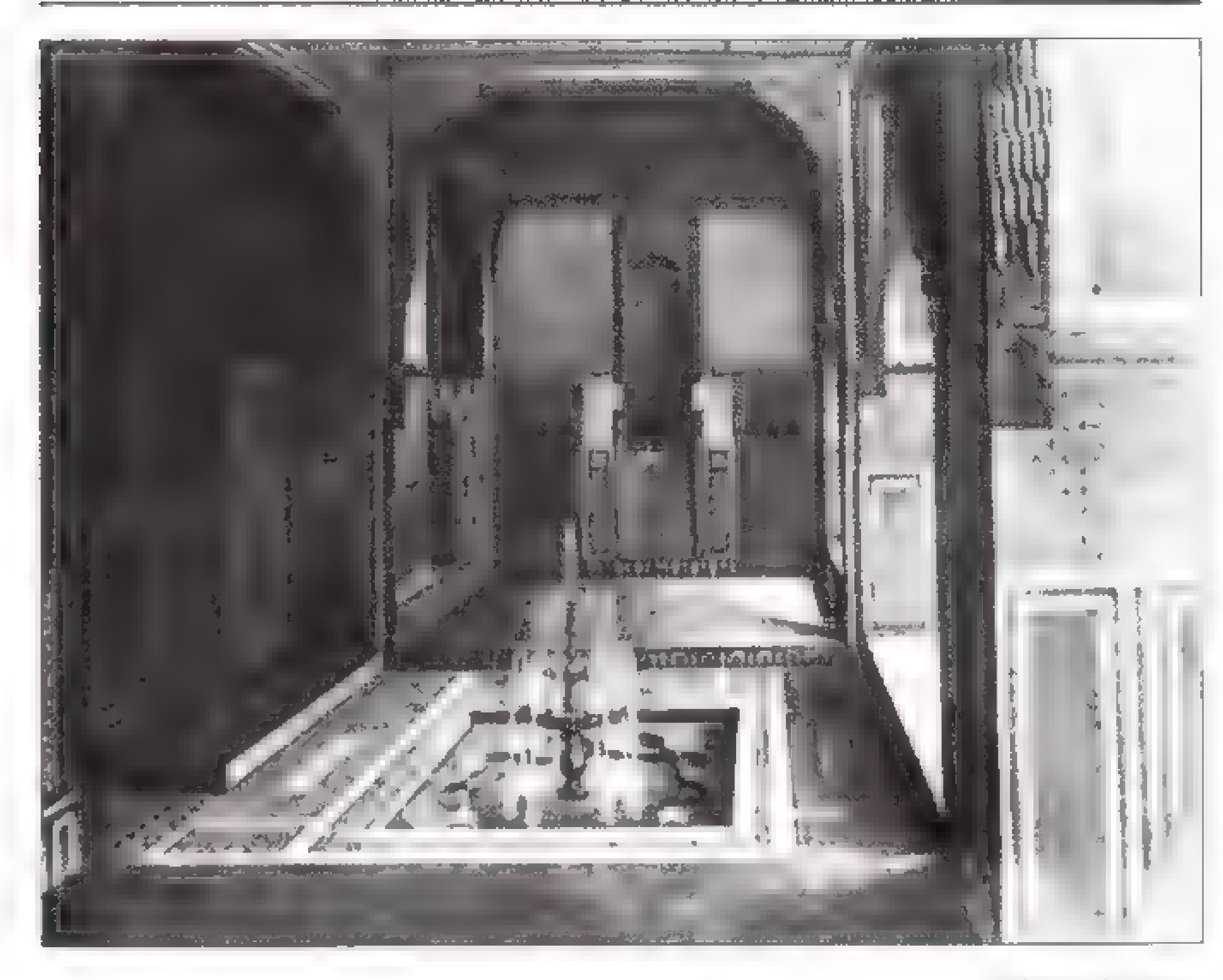

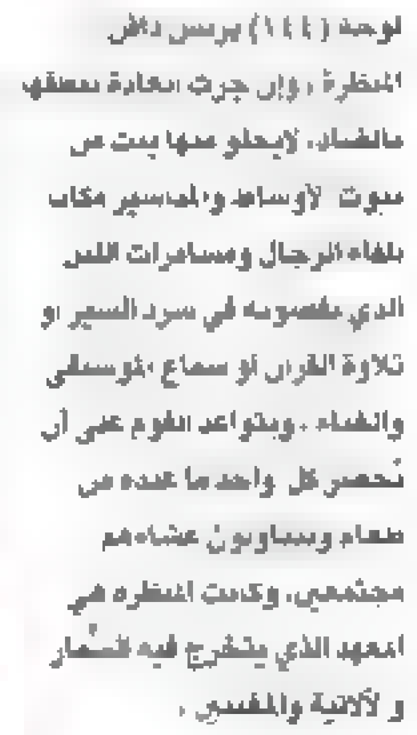

لوحة (١٤٤) بريس دافن

المنظرة، وإن جرت العادة بعطفها بالفسقية، لايخلو منها بيت من بيوت الأوساط والمياسير مكان للقاء الرجال ومسامرات الليل الذي يقضونه في سرد السير أو تلاوة القرآن أو سماع الموسيقى والغناء. ويتواعد القوم على أن يحضر كل واحد ما عنده من طعام ويساوون عشاءهم مجتمعين، وكانت المنظرة هي المعهد الذي يتخرج فيه الشعار والأدباء والمغنين.

(١٤٥) بريس دافن الباب الرئيسي للقلعة. باب العزب

لوحة ١ أ،ب ملون الأب القائد زعيم السان سيمونيين

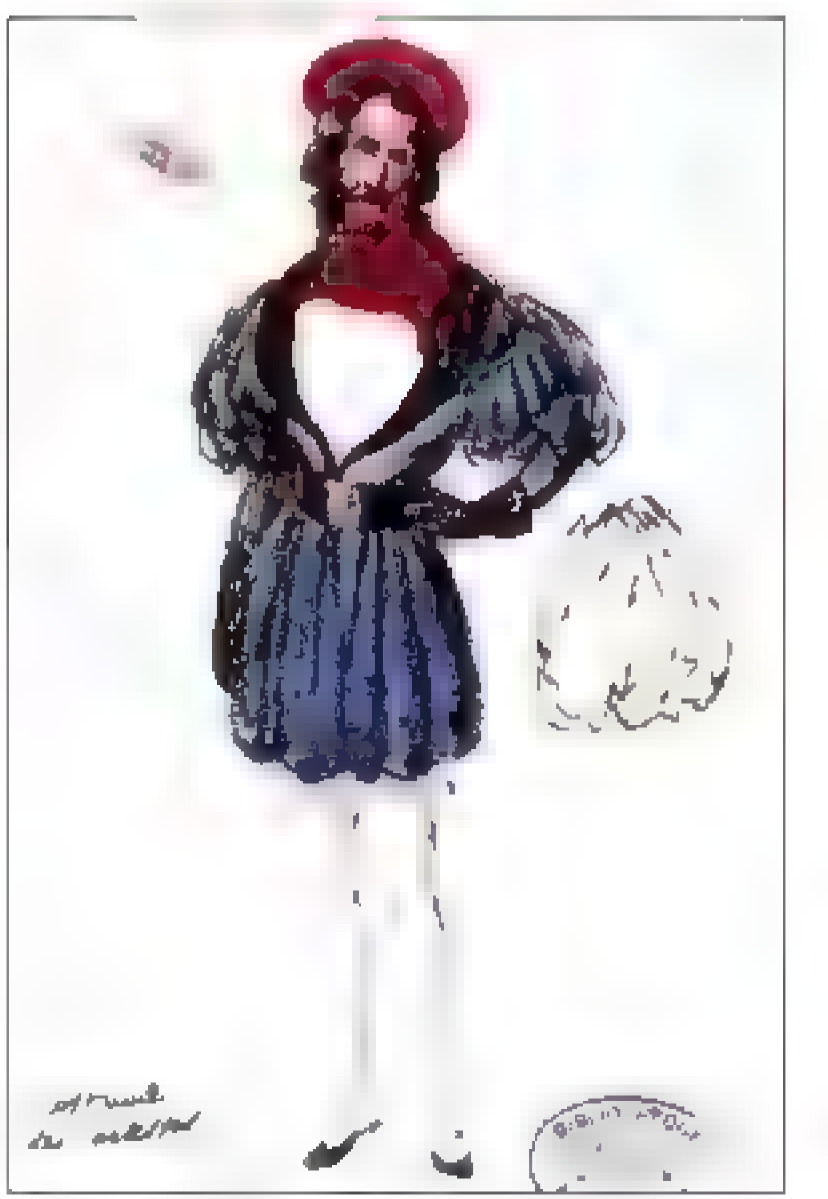

لوحة ٢ أ،ب ملون أزياء السان سيمونيين، مصمم ماشرو، مكتبة دار الصناعات الحربية بباريس. زي معتنقي الشرق زي القائد

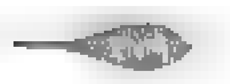

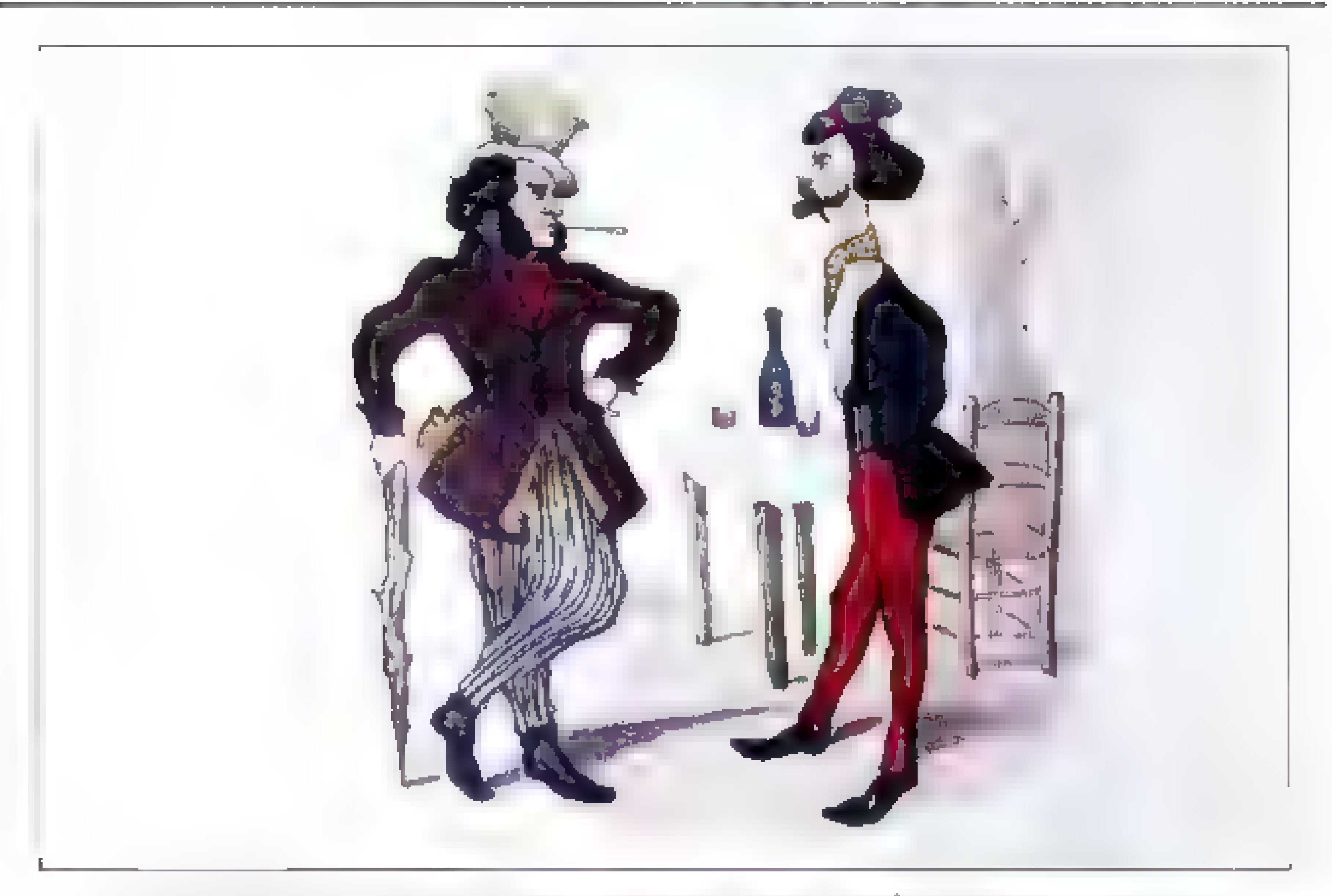

لوحة ٣ أ ملون، صديقي العزيز سرْ على دربي وبع ساعتك ومنديلك جانبا ولتعد عدو السان سيمونيين، فهذا أجدى وأربح
رسم كاريكاتوري يسخر من السان سيمونيين، صحيفة لوشاريفاري ١٨٧٢

لوحة ٣ ب ملون: المرأة المتحررة هي طَلَبي
رسم كاريكاتوري يسخر من السان سيمونيين، صحيفة لوشاريفاري ١٨٧٢

لوحة ٤ ملون، باسكال كوست، مسجد عمرو

لوحة ٥ ملون: باسكال كوست. صحن جامع بن طولون

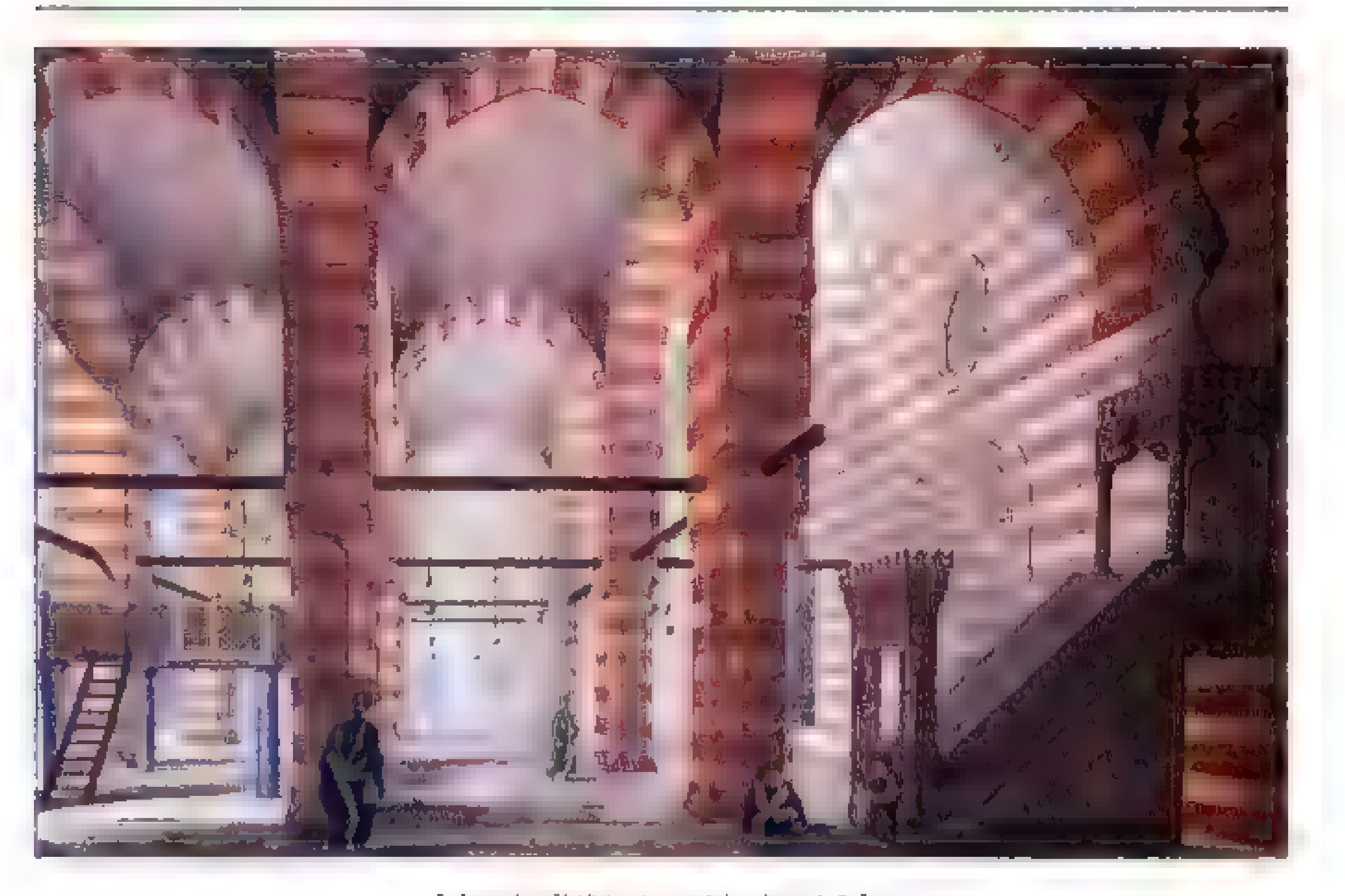

لوحة ٦ ملون، باسكال كوست، ايوان القبلة بجامع برقوق

لوحة ٩ ملون، باسكال كوست

منظر خارجي لواجهة مجموعة قلاوون

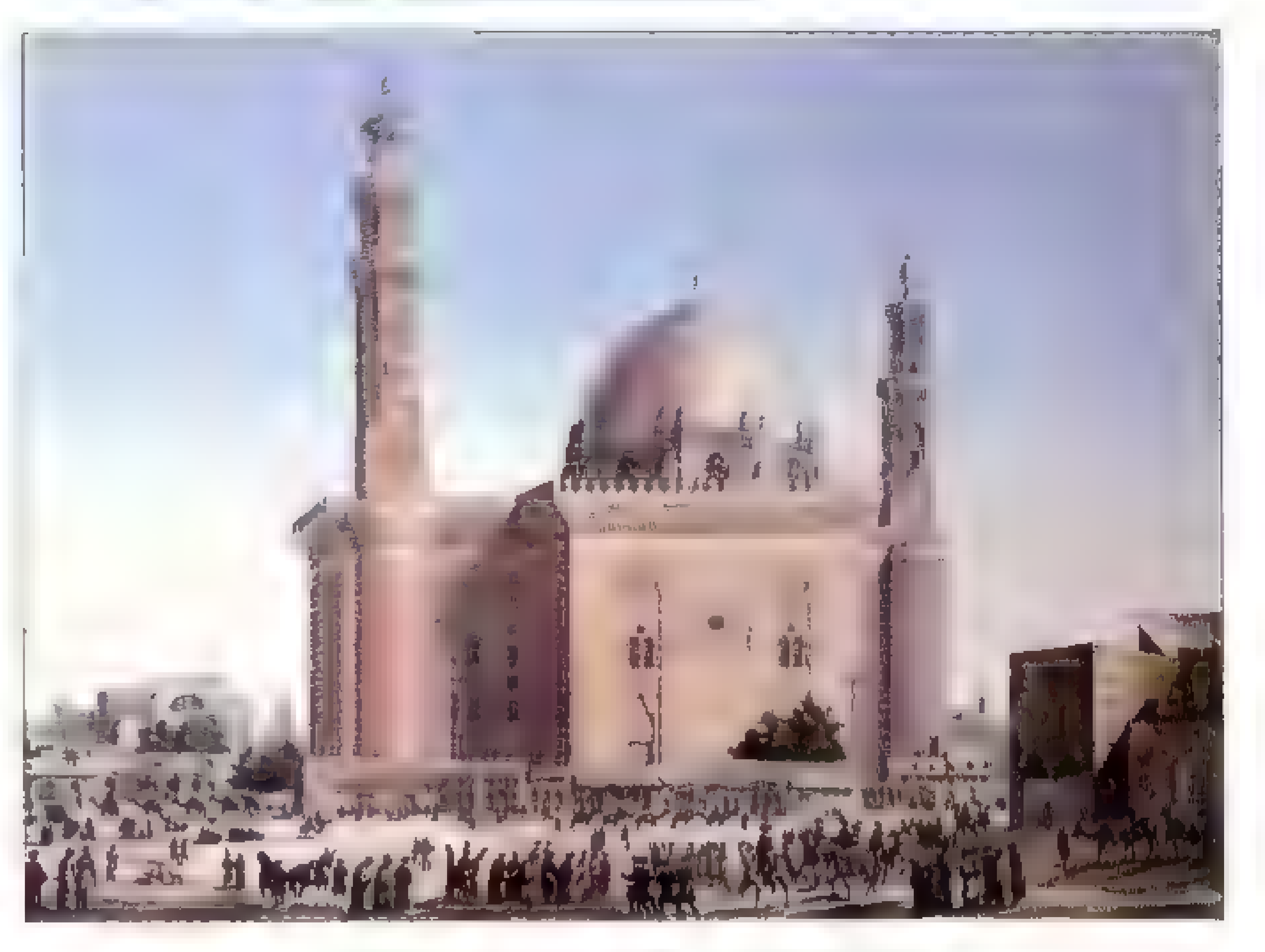

لوحة ٨ ملون: باسكال كوست. منظر خارجي لجامع ومدرسة السلطان حسن

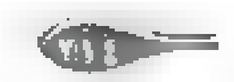

لوحة ٧ ملون: باسكال كوست. منظر داخلي لصحن جامع ومدرسة السلطان حسن

اللوحات التالية

لوحة ١٠ ملون: باسكال كوست
واجهة جامع المؤيد المطلة على سوق السكرية

لوحة ١١ ملون: باسكال كوست
رواق القبلة بجامع المؤيد.

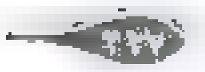

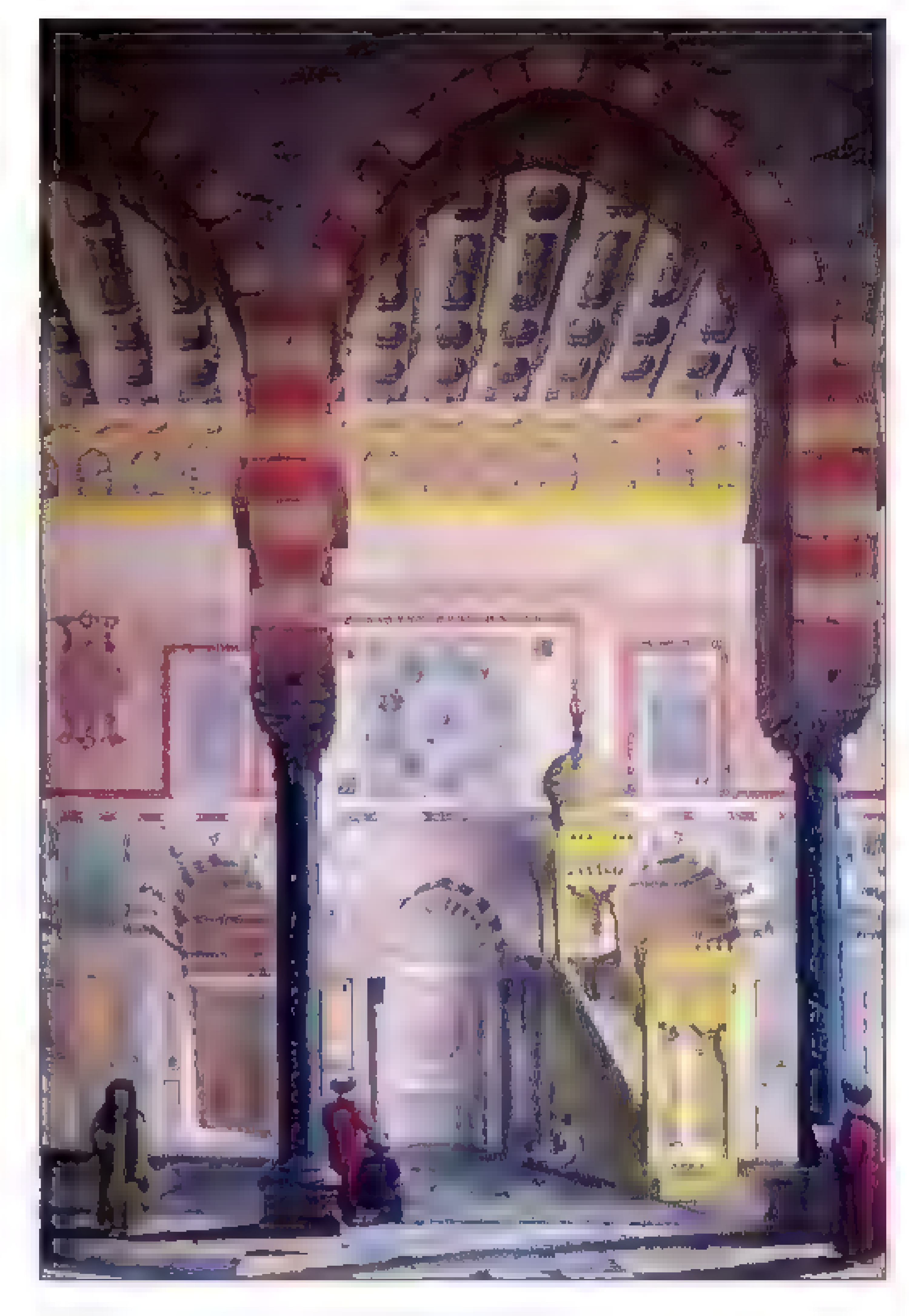

لوحة ١٢ ملون باسكال كوست
محراب ومنبر جامع المؤيد

لوحة ١٣ ملون: باسكال كوست
منظر خارجي لجامع قايتباي.

لوحة ١٥ ملون باسكال كوست، واجهة السبيل وتكية الدراويش المطلة على شارع الحبانية

لوحة ١٤ ملون باسكال كوست

منظر داخلي لمسجد قايتباي يظهر فيه الثريا النحاسية

لوحة ١٦ ملون. باسكال كوست، منظر داخلي لتكية الدراويش

لوحة ١٧ ملون. باسكال كوست. منظر لحد الأبنية لمطلة على الخليج المصري خارج باب الشعرية

لوحة ١٨ ملون: باسكال كوست، منظر الدور المطلة على ترعة الخليج المصري خارج باب الشعرية

لوحة ١٩ ملون: باسكال كوست، المقعد الصيفي المطل على صحن منزل يحي حشرْقدم (من المماليك الجراكسة)

لوحة ٢٢ ملون باسكال كوست، منظر لوكالة ذو الفقار

اللوحات التالية

لوحة ٢٠ ملون باسكال كوست

منظر لمسجدي الأمير جاكور وابراهيم أغا بشارع الخوملرمة

لوحة ٢١ ملون ص٢٢٨: باسكال كوست

حانوت حلاق بالحي الإفرنجي بالقرب من القنطرة الجديدة

لوحة ٢٣ ملون بريس دافن فتاة مصرية خارجة من باب الحمام العمومي بعد استحمامها

لوحة ٢٥ ملون. بريس دافن. بيت فلاح مبني من الطوب اللبن مغطى بالقش، يكشف عن حياة جد متواضعة، وتبدو أمامه فلاحة جالسة تغزل وفق الأسلوب البدائي، وإلى جوارها معزة قابعة على الأرض. وفوق سطح البيت طفل يداعب قطة، كما تتدلى أوراق شجرة موز و عذاق نخلة فوق سقف البيت تحميه ظلالها من حرارة الجو، وتحط عليه يمامة، وثمة غصن يجثم فوق سرب من العصافير

لوحة ٢٤ ملون. بريس دافن. فلاح مصرى وزوجته. وعلى حين يستند الرجل إلى فأسه مستمتعا بتدخين غليونه، تحمل امرأته «مشنة» ملئة ـ فوق رأسها. ويرتدي كلاهما رداء مناسبا للطقس. وبينما لا تتزين المرأة بالوشم، تتحلى بأسورة حول معصمها وبخاتم في أصبع إحدى يديها. ويبدو رداء الرجل وكأنه رداء أحد الدراويش الجائلين أكثر منه رداء فلاح عامل، إذ يتكون من رُقع من جلد الخراف ذى الفراء تكسو جسده من كتفه إلى رُكبته، وكلاهما حافي القدمَين.

اللوحات التالية

لوحة ٢٦ ملون. بريس دافن. مسجد البرديني
منظر لإيوان القبلة. القرن ١٧

لوحة ٢٧ ملون. بريس دافن
حسني أحمد البرديني في داره

لوحة ٢٨ ملون: بريس دافن: سيدة مصرية بجناح الحريم بلباس المرأة داخل المنزل

اللوحات التالية

لوحة ٢٩ ملون: بريس دافن

دار سيدي يوسف آدمي: حمام الاستقبال

لوحة ٣٠ ملون: بريس دافن

دار سيدي يوسف آدمي: حجرة المرضعة

لوحة ٣١ ملون، بريس دافن: فرس نجد المجلي، الجواد العتاق، الأبيض اللون، تكسو رأسه بقعة سوداء تغطيه حتى جبهته. مصدره إقليم نجد بالجزيرة العربية. ويبدو في كامل عدته بلجامه وسيوره وسرجه الذي يعتلي جلاً أزرق مزخرفاً مسدلاً على ظهر الفرس

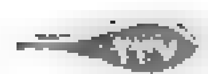

لوحة ٣٣ ملون. بريس دافن. نافذة من الجص مزينة بزخارف مفرغة
وزجاج معشق (شمسية او قمرية) بجامع الأشرف برسباي،
شارع المعز (بين القصرين). القرن ١٥

لوحة ٣٢ أ ملون. بريس دافن. مشكاة من الزجاج مزخرفة بالمينا
الملونة و تذهيب بجامع السلطان برقوق. القرن ١٤

لوحة ٣٢ ب ملون. بريس دافن. زهرية من الزجاج مزخرفة
بالمينا الملونة. القرن ١٦

لوحة ٣٤ ملون. بريس دافن. مسجد احمد بن طولون
ليتوجراف (طباعة بواسطة الحجر) ١٨٧٧
متحف داهش بنيويورك

لوحة ٣٥ ملون. بريس دافن. حشوات اطر
خشبية ارابسكية الطراز، مجمعة بطريقة التعشيق
ليتوجراف (طباعة بواسطة الحجر) ١٨٧٧
متحف داهش بنيويورك

لوحة (١٤٦) بريس دافن: الجامع الأزهر

لوحة (١٤٧) بريس دافن: مركب بالنيل

[illegible] ١٩٩ [illegible] الواجهة الداخلية المطلة على [illegible]

[illegible]

لوحة (١٥٠) بريس دافن [illegible]

لوحة (١٥١) بريس دافن: مدخل حمام الملات

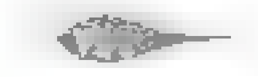

لوحة (١٥٢) بريس دافن محراب جامع السلطان . .

لوحة (١٥٣) بريس دافن ضريح السلطان قلاوون

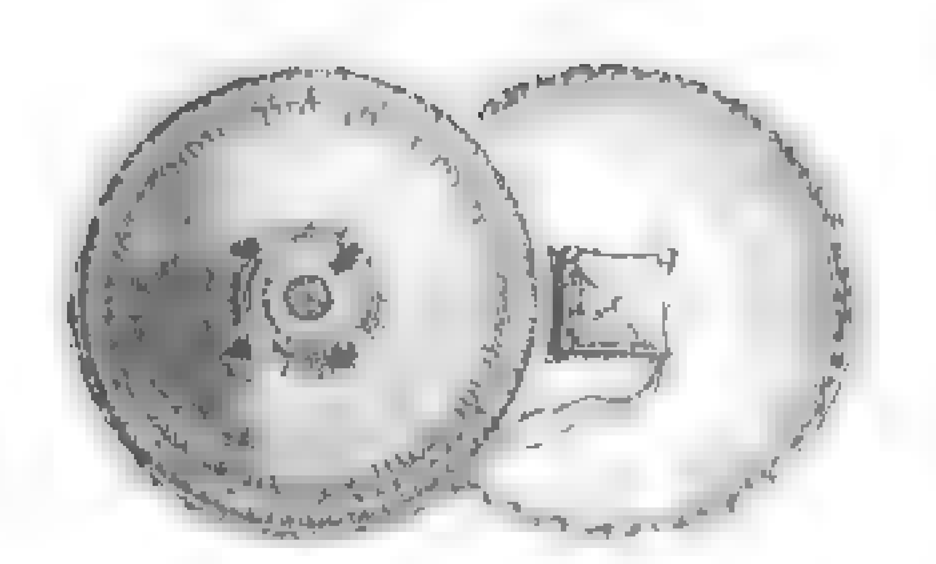

التوفيق بين الأديان
والانبهار بالإسلام

چيرارده نرڤال

١٨٠٨ - ١٨٥٥

كان الشرق يملأ على جيرار ده نرفال منذ صغره حواسّه، يشوقه سحر الخط العربي الذي عكف على محاكاته دون فهم، وتأسره رؤى القاهرة بين ثنايا كتاب «ألف ليلة وليلة»، [illegible] ارها في غير تلك الأحلام التي تملأ الكثير من لياليه. ويجتذبه حب الترحال إلى الشرق [illegible] تبدى بأجلى صوره عند أصحاب النزعة الرومانسية. على أن جيرار ده نرفال قد اعترف في مراسلاته أن الحافز الحقيقي لرحلته إلى مصر هو الرغبة لمعجبيه ولمحبيه على أنه قد تخلص من الاضطراب النفسي الذي كان يعانيه بإقدامه على القيام بمشروع أخذ يمحو من مخيلته ومخيلة قرائه ذكرى مرضه الأليم، وأن يدلل على شفائه بدليل حاسم، وقد تمخض هذا المشروع عن سفره في رحلة مرهقة إلى بلاد الشرق النائية يتخفف فيها من قيود حياته اليومية المملة. وأغلب الظن [illegible] حافزه الرئيسي للقيام بهذه الرحلة لم يكن لإقناع غيره بقدر ما هو لإقناع ذاته وتغيير مجرى حياته عما يحدد [illegible] نهاياته، تشحذه بطاقة جسدية ومعنوية بعد ما شاع عنه [illegible] كان يلم به من [illegible] في طرقات باريس شاردا شأن [illegible] في بلاد غريبة. وهكذا كانت رحلته من الضرورة بمكان ليختصر إلى الشفاء الروحي، [illegible] إلى ما هي تلك الرحلة من [illegible] القديمة في الاغتراب ليعود كاتبا مرموقا كما كان، مستمتعا بفترة مثلى من الاستجمام [illegible] سبع سنوات. وقد أسفرت هذه الرحلة عن كتاب من أنفس الكتب الأدبية التي ظهرت خلال القرن التاسع عشر، ذلك هو كتابه «رحلة في الشرق»[40].

وهذا الكتاب مزيج من الثقافة الرفيعة والمغامرات الممتعة ومن الوصف الخلاب والأساطير القومية ومن العادات الشعبية والتقاليد الدينية. كل هذا في إطار قصصي جذاب وأسلوب ساحر [illegible] علينا حينا كما يشوبه التصدي للدموع الحارة حينا آخر، فتشعت في [illegible] عاشت معها الحقائق أحيانا. وإذا كانت مادة الكتاب تخالف الواقع في شيء [illegible] ذلك عن قصد من المؤلف، وإنما هي الضرورة الأسلوبية التي حملته على هذا النهج كي [illegible] على الكتاب ويبث في ثنايا الأسلوب ما يبعث فيه روح الدعابة الرقيقة ويجلله بهاء الفن [illegible] فهو يسوق السحرية دون أن تحمل شرا ويمزح دون أن يقصد التجريح، ومع ذلك فلم [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

(40) Gérard de Nerval, Voyage en Égypte. Bibliothèque des éditions Richelieu, Paris, 1950.

(41) الرومانسية [illegible] حالة [illegible] أهم خصائصها زيادة الحساسية وعدم القناعة [illegible] العقل والحكمة والإفراط في الاهتمام بالذات وحدة الانفعالات والرغبة في الهروب من الواقع الحاضر. [illegible]

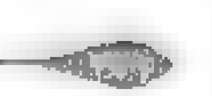

وكان جيرار من أشد الرومانسيين حماسة، ولكنه إلى جانب رومانسيته كان كلاسيكيا تقليديا[42] بل ويكاد يكون بارناسيا[43] يكبت عواطفه ولا يبديها كما يفعل الرومانسيون، ويُعنى بالأسلوب الرفيع المتحرر من الكلمات ... من العبارات ... ويصوغها في نسيج أدبي طريف يدفع القارئ دفعا إلى الشرود حينا كما يهزه ضاحكا حينا آخر. على أن المؤلف يفصح في ثنايا هذا النهج ... عن حس ... لا ... فقد كان ... وهو ... غرف بدقة الملاحظة ... من الواقعية ... إلى المجهول في البلاد الغريبة عليه، يلاحظ ويسجل ويصف هذا كله بأسلوب الكاتب الحالم وبريشة المصور الدقيق، وبعزف الموسيقي المرهف. لا يفوت عينيه شيء من عالمه الجديد. وما من شك في أن موضوعيته قد جعلت منه رحالة مثاليا، إذ جردته بالفعل من أية نزعات قومية أو دينية ومن أي تعصب اجتماعي أو عنصري، فقدم الأمور في نزاهة وأمانة دون أن يتخذ من أحداث مفردة أحكاما عامة.

وقد نحى جيرار من خط سيره اليونان وفلسطين حيث تتحلى المسيحية أكثر من أي مكان آخر في الشرق الأوسط، وحصر رحلته في مصر ولبنان وتركيا حيث تسود معالم الإسلام وآثاره. وهكذا لم يكن اجتذاب الشرق له متسما بسمة المسيحية التي تجلت في رحلة شاتوبريان، بل كان ذلك نابعا من حبه للاغتراب، فما كان جيرار رومانسيا فرنسيا فحسب بل كان رومانسيا تشبع بالأدب الألماني وبفلسفته وانبهر بأدب جوته وشليجل، وهو ما هيأه روحانيا للانتقال إلى شرق مسلم. وقد انعقدت نيته من مبدأ الأمر على أن يجعل كتابه واقعيا صادقا، وليس أدل على ذلك من أن العنوان الذي وضعه جيرار لكتابه قبل أن ينتهي إلى تسميته «رحلة في الشرق» كان «نساء القاهرة» و«نساء لبنان» وهو ما يكشف عن الطابع الإنساني لكتابته[44].

واستغرق جيرار في نشر ذكرياته عن رحلته ست سنوات، وساقها في أقسام ثلاثة: أولها عن رحلته إلى سويسرا وألمانيا، وآخرها عن رحلته إلى الشام وتركيا، وثانيها عن مصر التي رسم لها مشاهد أخاذة لنساء القاهرة وجواريها وأعراف أهلها ومعالم أحيائها وأهراماتها. على أن كتابا من هذا الطراز كان يتطلب براعة الربط الدقيق بين وقائعه المتناثرة، وهو ما أطلق جيرار لنفسه العنان في إعداده فأبدع. وقد ألحق بنهاية كتابه عدة ملاحق وصف فيها أخلاق المصريين المعاصرين وعاداتهم على غرار كتاب «المصريون المعاصرون: عاداتهم وتقاليدهم» لإدوارد لين، والمرجح أنه تأثر به تأثرا كبيرا في كتابته.

ويختلف كتاب جيرار دو نرفال «رحلة في الشرق» عن غيره من الكتب المعاصرة له في أمرين: أولهما أنه لم يصف غير القاهرة ولم يبرح إلا قليلا على الإسكندرية والدلتا. وثانيهما أنه كتاب معاصر لزمنه، فهو مثل صديقه جوستاف فلوبير لا ينجذب ذوقه إلى الموات أو إلى ما أمعن في الماضي السحيق، ولا ينسحب فضوله إلا إلى ما في المدن الحية من عادات وتقاليد. فما تكررت كثيرا بحورس وسيرابيس وأوزيريس على حين اجتذبته المساجد أكثر مما شدته المعابد والمقابر الفرعونية. ولم يقتصر اهتمام نرفال بالشرق على ما دونه في «رحلته في الشرق» بل سرى هذا الاهتمام في مؤلفاته الأخرى التي لم تكن عن الشرق من رسائل وروايات ومقالات. ولا يجوز لنا أن نركن كثيرا إلى خط سير رحلته الذي رسمه في كتابه، فهو لم يكن كتاب يوميات بقدر ما كان قصة ممتعة أعدت إعدادا بارعا في سياق منطقي شائق بعد عودته إلى فرنسا، وإن خلت من الترتيب الزمني المحدد، وأغفلت فيها التواريخ جميعا.

(٤٢) الكلاسيكية هي الأدب ... وتناسب الأجزاء والاعتدال والبساطة والوقار (د. مجدي وهبة: معجم مصطلحات الأدب)

(٤٣) البرناسية مدرسة شعرية ظهرت في فرنسا في نهاية القرن ١٩ كرد فعل ضد المبالغة في إظهار العواطف الرومانسية والتعبير بحرية عن المعصر الذاتي

(٤٤) M. T. Hussein le Romantisme Français et l'Islam p. 276

... لكن جيرار ممن يعنون كثيرا بالمال، وحين ضيع أبوه الذي كان طبيبا بجيش الإمبراطور ... ابنه وتبذيره أوصد بابه دونه. ولقد بدد جيرار ميراثا صغيرا وقع في يده إذ أنفقه في شراء الكتب والهدايا والزهور والعاديات واللوحات الفنية، بجانب دأبه على الاختلاف إلى المسرح ... كيف وقع على المال الذي أنفقه على رحلته؟ يقول البعض إن ثمة أسهما ... يقول البعض الآخر إنه كان قد كُلف من قبل إحدى الصحف بأن يوافيها بتحقيقاته، هذا إلى إبرامه عقدا مع إحدى دور النشر. على أن الثابت أنه لم يقم برحلته منفردا بل رافق أحد الشبان الموسرين المولعين بالشرق الذي أخذ على عاتقه تحمل جانب من نفقات صديقه وهو جوزيف دي فونفريد الذي قال عنه جيرار إنه أحد علماء الآثار المصرية وإن لم يرد اسمه في سجلات هذا العلم ولا نعرف له كتابا منشورا. والراجح أنه كان شابا ثريا يتطلع إلى الأماكن الأكزوتية بعد أن هزته اكتشافات شمبوليون وروائع الفنون الإسلامية أكثر منه عالما متخصصا في أحد فروع الدراسات الاستشراقية. غادر مرسيليا في أول يناير ١٨٤٣ يرافقه جيرار، وقد حمل ما خف من متاع بيته كما حمل معه أواني الطعام الفضية، على حين لم يأخذ جيرار معه غير سرير مخيم وآلة تصوير ... صور فوتوغرافية يزين بها كتابه ومعجما عربيا وكتابا في النحو ويضع كتيب تعبيرات في المحادثات اليومية ونظارة زرقاء لوقاية عينيه من الغبار. وانكب يدرس أصول اللغة وهو على ظهر السفينة التي أقلته إلى مصر، كما انبرى يحاول الحديث بالعربية مع نفر من رفقاء الرحلة من المصريين تصادف وجودهم على نفس السفينة.

ولم يكن جيرار رحالة متسكعا يقضي رحلته حسبما تقوده قدماه أو هواه بل كان مخبرا صحفيا من الطراز الأول. وحين وصل إلى ميناء الإسكندرية في ١٥ يناير أبحر إلى القاهرة في النيل حتى بلغ مرسى بولاق. ومنذ تلك اللحظة لم يعد في الإمكان تحديد تواريخ تنقلاته بسهولة، فقد قضى بالقاهرة ثلاثة شهور مجترئا بزيارتها عن زيارة غيرها من مدن مصر الأخرى، إذ كان يرى أن المدن الحية حافلة بما هو جدير بالمشاهدة مثير للخيال بما تحوي من عادات وتقاليد غير مألوفة لا تجتمع لمدينة أخرى من المدن الأثرية القديمة التي باتت ركاما من الأطلال، فزار الفسطاط و... وشبرا والأهرام وهليوبوليس. على أن أمسيته الأولى بالقاهرة ... ومثلما ... وتنطق ... كانت يتساءل معه: «أهذه قاهرة ألف ليلة وليلة عاصمة الخلفاء الفاطميين وسلاطين المماليك؟»[45]، فقد أحس بالضياع وسط الطرقات الملتوية وبين ... وصدق بزحام الكلاب والنوق والحمير، وبتصاعد طبقات الغبار الكثيفة التي تحجب عنه السماء، ويزحف ... عليه وسط المئات من القصور والمساجد والأحجار المتآكلة والأخشاب ... حتى ... يخطو خطاه في مدينة من المدن البائدة تعمرها أشباح لا حياة فيها، غير أنه لم يلبث أن تحرر من هذه الانطباعات بالخذلان والوحشة والحصار، وبدأ حسه الذهبي يتجلى في وضح النهار ... أمامه الآفاق حين وقع بصره على الطرقات المرقشة بمختلف الألوان تمور بحركة ويعج ... الناس ... العربية والتركية والعربية وكأنه يحث الخطى وسط حفل تنكري. وإذا بمشهد زفاف يبعث حياة في كل ما يحيط به من جدران وأسوار وتصم الآذان موسيقاه والجلبة المصاحبة له، ويدهشه موكب العرس المحفوف بالمشاعل يضم العروس المحجبة والمتوجة بإكليل عال من الكشمير الأحمر المرصع بالفصوص تخطو كالشبح تحت ظلة وتساندها جاريتان. أي غموض يكمن خلف حجاب المرأة التي لا يرى منها غير قرطين يتدليان من الأذنين وعينين دعجاوين ونظرة خاطفة؟ وما ... الظلام حتى تنشر العتمة أستارها ولا يبقى غير الضوء المتسرب من المقاهي المتناثرة على ضفة الخليج

(٤٥) J. M. Carré Voyageurs et écrivains Français en Egypte

التي تعبره على مسافات متباعدة قطع متوسطة، أو الأضواء الخافتة [illegible] لا [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] يدور في [illegible]
لا سرابا، وبات الوهم واقعا ملموسا، فمضى يستأنف في نهم [illegible] هذا الجو الساحر الذي يعبّر عن مكنون ذاته. ولا يلبث أن يندمج في هذا الديكور الجديد فردا هو بصورة [illegible] لا يتجزأ فاتخذ الزيّ الشرقي وارتدى سروالا فضفاضا من القطن [illegible] لقميص [illegible] بعمامة من وبر الجمل واعتمر بلاطته [صاية] بيضاء تحت الطربوش بعد أن [illegible] حلاق [illegible] لحيته وأزال شعره المرخيّ ولم يترك له غير خصلة وحيدة في قمة رأسه قال له البعض إنها لتيسّر على ملك الموت إمساكه بها. على حين قال له بعض آخر إن المسلم الذي يعيش في ظل الحكم التركي يضع دوما في حسبانه أن رأسه سوف يُقطع يوما ما. وإذ جرت العادة وقتذاك على عرض الرؤوس المبتورة على الجماهير، فإنه يؤثر حفاظا على كرامته أن يُرفع رأسه حينذاك من تلك الخصلة لا من [illegible] أو فمه. وهنا يضيف نرفال مداعبا أن الخبثاء من الحلاقين [illegible] يقصّون للمسيحيين شعرهم كله ولا يدعون لهم شرف الاحتفاظ [illegible].

وكانت الأسر القاهرية لا تبيح أن يعيش أعزب بينها لاسيما إذا كان أوروبيا فمقرّ الأعزب هو الوكالة، ولهذا ألزمه شيخ الحارة التي كان يسكن فيها أن يضم إليه امرأة وأعطاه لذلك أسبوعا مهلة. ولجأ جيرار إلى أحد معارفه فقدّمه إلى أسرة قبطية ليخطب ابنتهم البالغة من العمر ستة عشر عاما. وقد تحمّس جيرار للزواج حماسا شديدا حين علم أن المهر يصل إلى خمسة آلاف فرنك [حوالي عشرون ألف قرش] غير أنه ما لبث أن ارتدّ على عقبه حين عرف أن العريس في الشرق هو الذي عليه دفع المهر، الأمر الذي أصبح به الزواج في نظره يكلّفه ما لا طاقة له به. وإذا مترجمه عبد الله يُسرّ إليه أنه يستطيع أن يشتري بمثل هذا المبلغ حشدا من الجواري يملأ قصرا، فتوجّه إلى سوق العبيد حيث الحور وي الحبشيات والنوبيات تعرض للبيع، فلقاه تاجر الرقيق الذي جمع بين بشر الأمراء وسماحتهم وعنف القراصنة الغلاظ القلوب، والذي يجرّد الجواري أمامه من ثيابهن ويأمرهن بالسير لاستعراض قوامهن وكثافة شعورهن التي كنّ يلبّدنها بالزبد الذي كان سرعان ما تذيبه أشعة الشمس فيسيل على أكتافهن وصدورهن المكشوفة بأكثر مما تسيل دموعهن على خدودهن، ويفتح أفواههن لتفحّص سلامة أسنانهن. غير أن جيرار لم يلبث [illegible] سمع إحداهن تطلق صرخة الفزع إذ أذهلها أن يكون الواقف أمامها أبيض الوجه أسود الكفين، فدفعته سذاجتها إلى المزيد من إثارتها بخلع القفاز من إحدى يديه، فتوالت صيحاتها الفزعة [illegible] خلده، متسائلة إن كان إنسا هو أم جنّ! وقد حرص جيرار في كتابه على نقل تعبيرها بالعربية: «بسم الله [illegible] إنت عفريت ولا شيطان؟»

وفي نهاية المطاف وقع اختياره على فتاة من جاوة [illegible]
جامدة التدبير، رخصة الكفين، منتظمة الأسنان الناصعة البياض، طويلة الشعر البني القاتم، تبرق عيناها اللوزيتان العسجاويتان ببريق مثير وقد اعتمرت طربوشا أحمر، فاشتراها على الفور وتعلّق بها تعلّقا شديدا. وكانت عنيدة متقلّبة الأطوار متسلّطة كسلى، تأبى عليه أن ينصرف عنها إلى الكتابة فاعتاد أن يمضي نهاره شبه خادم لها يستجيب لما تطلب وكأن الأمة قد غدت هي

السيدة. ولقد كان شديد الغيرة عليها لا يأمن أن يتركها وحدها بعد أن أحسّ بأنها كثيرة الاطلال من خلال المشربية على الضباط الأتراك الشبان الذين يجلسون في تراح أمام البيت يدخنون نراجيلهم[46]. وكان بأنه قد هدأ وعاوده حب القاهرة والقاهريين تروقه منهم كلمة «طيّب» [illegible]

[illegible] السامع لها في نظره بالتفاؤل،

[illegible] وحين لاحظ أن القوم يردّدون كلمة «لا»

[illegible] حين لا يعجبهم أمر ما دفع زينب إلى الأريكة [illegible] عن
[illegible] من الشباك قائلا تلك الكلمة المتداولة «لا». ومنذ ذلك الحين عزم على أن يتكفل بدراسة العربية على أن يعلّمها في الوقت نفسه الفرنسية. وبهذا أصبحت زينب بطلة قصة «رحلة في الشرق». تلك الرحلة التي تعد فيها زينب في الفينة بعد الفينة المحور الرومانسي الذي تدور حوله الأحداث، والتي من حولها تُحاك الدعابات الشائقة، الأمر الذي يدل على الطابع المميز لأسلوب جيرار الذي ما يكاد يلتهب حتى ينطفئ فجأة ثم يعود ملتهبا مرة أخرى فردا به قد التوى ودقّ في مهارة لا نظير لها تُكسب القارئ متعة فريدة.

ويحيّرنا جيرار في قصته إلى الاعتقاد بأن زينب كانت التجربة الحسّية الأخيرة له، وأنها زوّدت [illegible] زوّدت به جان دوفال السمراء عاشقة الشاعر بودلير، وأنه حاول أن ينسى وهو بين أحضانها ذكرى عشيقته الأوروبية الشقراء التي ضحّى من أجلها بهدوء باله وبكل ما يملك. على أن [illegible] إلى غير هذه الحقيقة حين نطلع في رسالة من رسائله إلى تيوفيل جوتييه قصة زينب، [illegible] في تلك الرسالة إنها كانت جارية عند ده فوجريد رفيق رحلته النفي بها في بيته فراعه حسنها وأخذ بها فجعل منها بطلة خيالية لقصته. ومن المرجح أن ده فوجريد قد تزوّج بها قبل [illegible] الرحلة ويغادرا القاهرة إلى الشام. وسرعان ما انتهى الأمر بجيرار إلى أن يملّها ويبرم بها فتخلص منها وأسلمها إلى صاحبة نُزُل في بيروت.

وكان أهم ما اجتذب جيرار ده نرفال هو مشاهد الطريق ومناظر المقاهي والحمامات العامة [illegible] الخيال، الرقاق [illegible] ألعاب الحواة والمشعوذين وملاعبي [illegible] الرجال من شو [illegible]
[illegible] وصفه رائعا في قوله: «هن العوالم اللاتي يبدين وسط غلالة من العبر [illegible] أول ما يشدّني منهن هذا البريق المنبعث من قلنسواتهن المذهّبة التي تتوّج صدورهن. وكان لضربات أعقابهن على الأرض ما يزيد في صلصلة الخلاخيل ورنين الأقراط تلألؤا، وتحكي أذرعهن المرفوعة حركات هزّاتهن المترنّحة كما كان لأردافهن في رجفاتها ما يثير ويمتع. وبدت خصورهن عارية تحت الغشاء الرقيق بين الصديرية وذلك الحزام النفيس المتهدّل في تراخ وكأنه وشاح فينوس. ونكاد وسط هذا اللف والتحويم السريع نميّز ملامح تلك الشخصيات الفاتنة المغرية التي تحرك بأصابعها صنجات نحاسية صغيرة وتهتز على إيقاع ناي عنيف من الناي والصلة. ومن بين العوالم الثلاث استرعى انتباهي اثنتان ملامحهما عليهما سيماء الشموخ، لهما عيون [illegible] حصانهما، غير أن وجه ثالثتهن بدا [illegible] بعد انتهاء الرقص في [illegible]

[illegible]

Gérard de Nerval, (46) Voyage en Egypte

حرية تامة يبعثن الحياة في الأعياد والمناسبات العامة وينشرن المرح في المقاهي والملاهي، أما اليوم فليس لهن أن يظهرن إلا في الدور أو في الحفلات الخاصة»[47].

وكان الاحتفال بعودة المحمل النبوي الشريف من مكة هو أكثر المشاهد إثارة لجيرار دي نرفال يوم أن خرج من باب الفتوح الذي غصّ بجماهير الناس ليشهد الموكب العظيم فأحسّ وكأن أمما زاحفة تدوب في حشد شعب عريق تموج بهم بينا أنداء المقطم وتصحب بهم شمالا جبانة الموتى المقفرة عدده، كما حفلت بنضارة قمم الأسوار المسننة وأبراج صلاح الدين المخطّطة بشرائط صفراء وحمراء فيقول: «خيّل إلي أن الزمن يعود إلى الوراء وأني أرى مشهدا من المشاهد المعاصرة لحروب الصليبية، وانطلقت طلائع فرسان الوالي بين الجماهير وعليهم دروعهم البرّاقة وخوذاتهم الوضاءة لتجعل من هذا الوهم حقيقة. وبعيدا فوق السهل حين يتحوّل الموكب تشهد صفوف خيام المؤونة حيث توقّف الحجّاج للراحة من وعثاء الطريق. ولم يخل المشهد من الراقصين والمنشدين في هذا العيد حيث يباري موسيقيو القاهرة نافخي الأبواق وقارعي طبول الموكب بضجيجهم، فما كان أروع هذا الأوركسترا اللّجب المترنّح فوق أسنمة الهجين. وما أظننا نرى قوما طالت لحاهم وانتفشت شعور رؤوسهم وبدوا أشدّ عنفا من المغاربة الذين شاعت بينهم كثرة من الأولياء والدراويش، ينشدون بصوت عال وحماس شديد أوراد الذكر والمديح الفيّاضة باسم الجلالة. ويحتشد الموكب بالبيرق ذات الألف لون والسّواري المقرونة بالرنوك والتروس. وهنا وهناك نرى الأمراء والشيوخ في ثيابهم الباذخة فوق صهوات جيادهم وعليها الجلول[48] المزركشة المرصّعة بالقصب والأحجار الكريمة مما يضفي على هذا الموكب المائج كل ما نستطيع تخيّله من رونق وبهجة. وحين يقرب النهار من ثلثه تنطلق المدافع من القلعة وبدوّي الهتاف ويهلّل المهللون وتصوّت الأبواق معلنة أن المحمل وعليه الكسوة الشريفة قد بلغ مشارف القاهرة. وسرعان ما يتقدّم الأولياء المجذوبون طائفة ذوي العمائم الخضراء من بالاديوم الإسلام [يحاول جيرار دي نرفال تقريب فكرة المحمل العربية على أذهان الأوروبيين ذوي الثقافة الكلاسيكية فيشبهها بتمثال أثينا بالاس ربة الحكمة الذي كان يُطاف به في مواكب الإغريق قديما]. ولم يلبث أن جاء في إثر الموكب جمال سمان أو سبعة زيّنت رؤوسها أجمل زينة وأكثر سرفا ووشّحت بالريش، وقد كست أجسادها بُسُط الصرة فحجبت معالمها حتى ليخيّل إليك أنها حيوانات السمندل الخرافية أو تنّينات تمضي في لين وهوادة تمتطيها حبات نمر ... وكانت الجمال الأولى لقارعي الطبول من الشباب يرفع أذرعته العارية ليهوي بعصيّه المدهّنة وقد اقتعدوا سرجا تنبثق منها أعلاه خفّاقة. ثم إذا شيخ قد علت به السنّ ذو لحية بيضاء على رأسه إكليل من أوراق الشجر لعله يرمز إلى ... يجلس فوق هودج مذهب تحمله ناقة، ثم إذا المحمل يطلّ في هودج على شكل الخيمة المربّعة قد كُسي نقوشا مطرّزة وتتدلّى من قمّته ومن زواياه الأربع كرات فضية ضخمة. وبين الفينة والفينة يتلبّث المحمل فيخرّ الناس ساجدين فوق التراب مستدين جباههم إلى أكفّهم. وفي رفقة المحمل حرس من القوّاسين الذين يلقون عنتا شديدا في زحزحة الحجّاج السود خاصة، الذين تجاوزوا في ورعهم حماس سائر المسلمين، يؤثرون أن تطأهم أقدام الجمال تبركا، غير أن لسعات الخيزرانات المتلاحقة ما تلبث أن تهوي على أجسادهم لتعوّضهم استشهادا من نوع آخر. وكان ثمة طائفة من الدراويش يجرّون وجناتهم بالأسياخ المدبّبة وهم يسيرون والدماء تسيل منهم، على حين كان ثمة آخرون يلتهمون الأفاعي حيّة، وغيرهم يحشون أشداقهم بالفحم الملتهب. ولم نر للنساء في هذا الحشد إلا القليل من الإسهام، فكنا نميّز من بين الحجيج جوقات القيان المصاحبات للقافلة يغنين

(47) نفى محمد علي بالا قادمن الغوازي والعوالم إلا في أقصى الصعيد بقنا وإسنا ... وآثر المتزمتون ... لحسن ذوي شعور ... الذين يحاكون بأذرعتهم وخصورهم وأجيادهم ما تأتيه العوالم والغوازي.

(48) الجُلّ هو ما يوضع على ظهر الدابة ويسدل على جنبيها تحت السرج لتصان به.

جميعا من حلوقهن على وتيرة واحدة أناشيدهن الدينية دون أن يخشين الظهور سافرات الوجوه، تلك الوجوه ذات الوشم الأزرق والأنوف المدلاة منها أقراط ثقيلة..».

ويمضي الوصف دقيقا رقيقا يتموّج في إيقاع مسهب منتظم مثل الموكب الذي لا يلبث أفراده أن يتوزعوا ما بين باب الفتوح وباب زويلة على المساجد المكتنفة للطريق من جانبيه ليمضي في النهاية خلال الطريق الضيق الطويل الصاعد إلى القلعة التي لم يبق بها وقتذاك للأسف الشديد من أثر لقصر صلاح الدين غير ساحة مليئة بالأنقاض، ذلك القصر القديم الذي وصفه رحالة القرنين السابع عشر والثامن عشر بهوه المربّع ذي الاثنين والثلاثين عمودا من الجرانيت الوردي انتزعت من معابد منف وهليوبوليس، فقد هُدم عام ١٨٣٠ لكي يُشيّد مكانه مسجد محمد علي. وإذ لم تكن مآذن هذا المسجد الصاروخية النحيلة قد شُيدت بعد، بدا مبنى المسجد القصير المفلطح في عيني جيرار دي نرفال أقرب ما يكون إلى قوقعة سلحفاة تركية الملامح رابضة فوق أفق المدينة المطرزة بآلاف القباب والمآذن.

ومن المرجّح ألا تكون فصول كتابه التي عقدها عن حياة «الحريم» نتيجة تجربته الشخصية بل هي خلاصة مطالعاته، ومن المرجح أيضا أن يكون قد اهتدى عن طريق وليام لين إلى الكتيب الذي ألفته شقيقته السيدة صوفيا پول تحت عنوان «إنجليزية في مصر»[49]. والذي حاولت أن ترسم فيه صورة لحياة النساء المصريات.

An English Woman (49) in Egypt.

وعلى نحو ما كان من جرأته من تعاطف مع الإسلام كان موقف نرفال أيضا، فقد حرص على أن يدحض في كثير من صفحات كتابه الافتراءات التي افتعلها كتّاب القرن الثامن عشر عن الشرق ورموه فيها «بأنه منحلّ الأخلاق غارق في الملذات»، وعن حريمه الذي وصموه بأنه بؤرة فسق وفجور حيث تسود نزوات الرجل واستبداده لتحقيق شهواته. كما أفاض في الحديث عن تصاعد الاتجاه نحو الإقلاع عن تعدد الزوجات في مصر، وانبرى مدافعا عن كرامة المرأة المسلمة، موضحا أن نظام الجواري لم يكن في مصر إلا لونا من تبنّي الإماء وحمايتهن، وأنه عادة ما ينتهي بإحساس ربّ الدار بأبوته لهؤلاء الجواري. ثم هو يردّ في النهاية أسباب العتمة التي غشّت الشرق منذ قرون ثلاثة إلى عسف الحكم التركي، بل إنه يرى أن سيادة العثمانيين على العالم الإسلامي قد خنقت العبقرية العربية التي ملأت العالم بالإنجازات الباهرة، كما أنها أدّت في ظنّه إلى «فقدان ملائكة الإسلام لأجنحتها، وإلى تبدّد سحر أساطير ألف ليلة وليلة».

وقد أفاض كثيرون في موضوع تعدّد الزوجات في الشرق حتى كان من الشائع مقارنة علاقة الشرقي بنسائه بما يمارسه الغربي من علاقات حسبه غير شرعية. ومن الكُتّاب مَن كشف في وضوح - مثل الرحّالة كلوتس - عن أن عدد المسلمين المتزوجين بأكثر من امرأة يقل كثيرا عن عدد الفرنسيين المتخذين لهم عشيقات. ومنهم مَن وجد في إسدال الشرقيين ستارا من السرّية على بيوتهم ميزة حقيقية، حتى قال بيير لوتي: إن الشرقي وحده هو الذي يعرف ميزة أن يقرّ في داره، لأنه اعتاد أن يُحكم عليه أبوابه فلا يدع فُرجة لعين تتسلل من خلالها، ولا يفتح لصديق أبواب حريمه، الأمر الذي لم يُتح معه لأوروبي أن يكشف سرّ غموضه، بل إن الشرقي نفسه يترك عند باب داره كل ما قد يدنّسها من أدران الطريق.

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] كما سبق أن أشرت إلى الجنة في الحريم لا تختلف في جوهرها وطقوسها عن الجنة في الأبدية، وذلك في قصيدته التي تحكي أسر بعض القراصنة لراهبة غدت محظية لسلطان في تركيا فإذ هي تسري عن نفسها وهي في عزلة الحريم بأنها انتهت إلى أنه لا يختلف شيئا عن حياة الدير. ومن علمي أن هؤلاء الرحالة والأدباء جميعا لم يجشموا أنفسهم عناء الاختلاف إلى المجتمعات الإسلامية الحقة، بل راحوا قنعوا بما تصيدوه من أطراف هذا المجتمع فظنوا المرأة [illegible] وما لقوا إلا نقمة أو غجرية أو محظية أو محترفة. ولقد كان لهم في هذا عذرهم، إذ كان العرف يحول بينهم وبين الدخول إلى البيوت أو لقاء النساء اللاتي كن يعددن حرمات.

وكان نرفال يعتقد أن الحجاب هو العلامة المميزة للمرأة المسلمة، لكنه إذ يقصد مسرح القاهرة لا يقع نظره على امرأة واحدة محجبة أو سيدة محافظة بين رواد الحفل، فيعتريه ذهول لا يلبث أن يتحطم حظه الخروج من المسرح حين يشاهد كل أولئك السيدات المرتديات بأذرع الشباب والمرتديات بالحبرة وقد تلففن بحبرات من «التفتاه» السوداء وغطين وجوههن ببراقع بيضاء واعتلين ظهور الحمير كأنهن المسلمات ومضين إلى دورهن على ضوء المشاعل المرتفعة في أيدي السواس وهنا يتحطم روحه فكرة مغايرة بأن ما شاهده ليس إلا نوعا من الرياء.

وعقد نرفال فصلا شديد الإمتاع عن نساء القاهرة، فلم يتحدث فقط عن سلوكهن مثل اهتمامه بجمع هذا القدر الهائل من المعلومات التي جمعت عرضا متماسكا لما حظيت به المرأة المسلمة من تقدير في جميع مجالات [illegible] والدينية. ولم يفته أن يشير إلى أن المرأة لم تنل في الإنجيل أو في [illegible] ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة﴾ [سورة الروم ٢١]، كما سمح لها القرآن الكريم بارتياد المساجد، وقدم نماذج لفضليات النساء كآسية زوجة فرعون ومريم أم عيسى ثم فاطمة بنت الرسول صلى الله عليه وسلم التي رفعها المتصوفة من عشاق أهل البيت إلى «سيدة نساء أهل الجنة»، ومنهم من جعل ذلك خديجة رضي الله عنها.

ويتابع جيرار إطراء المرأة المسلمة بقوله: «آن الأوان كي نتخلى عن الفكرة الظالمة الشائعة من [illegible] بأن الإسلام لا يؤمن بأن للمرأة روحا شأن الرجل، وبأن المسلمين يتوقون إلى [illegible] [illegible] المخلدات العذرية. بل لقد غالى فتصور أن الحور العين [illegible] [illegible] محمد صلى الله [illegible] [illegible] عجوز» فبدأت امرأة تضطرب باكية، فبين لها الرسول [illegible] أن كل الناس يردون إلى شبابهم عند دخولهم الجنة. وكان من [illegible] مونتسكيو التي أوردها في كتابه «رسائل فارسية»، فهي في [illegible] الشائعة في أوروبا عن حريم الشرق. ومع ذلك روى نرفال أن أحد شيوخ [illegible]

عليه على عكس ما كنت معتقدا أن للأزواج المسلمين جناحا في دورهم مخصصا لإقامتهم يستقبلون فيه من يشاءون دون أن تقع عليهن أعين الزوجات، ويستطرد قائلا: والحمد لله على ذلك، إذ يستطيع الزوج أن يدعو بين الفينة والفينة القيان اللاتي يغنين له ويرقصن بين يديه في جناحه. وهكذا يستشف في حينه نسمات من جنة الفردوس الزاخرة بالحور العين اللاتي لم يطمثهن إنس قبله ولا جان، واللاتي يتحولن إلى زوجات مخلدات للمؤمنين الصادقين.

وفي الفصل الخاص بأسرار الحريم ينبري جيرار للدفاع عن التقاليد الاجتماعية الإسلامية، فيشرح موقف الإسلام من المرأة وشروط الزواج ونظمه حتى ينتهي إلى إطراء عدالة الإسلام وحكمة القرآن. ويناشد جيرار قراءه الأوروبيين أن يطرحوا عنهم متع أحلام الحريم التي تقدمها لهم بعض الكتب في صورة سحرية ويذكرهم بأن بعض الأوروبيين الذين اعتنقوا الإسلام [illegible] [illegible] التي لا تبيح تعدد الزوجات. ويشيد نرفال بحق الزوجة المسلمة المقدس في أن تعيش مكرمة ببيت [illegible] داخل جناح خاص بها وبزائراتها.

ويتعاطف المؤلف مع الرق في الإسلام ويعترف بأنه - أي المؤلف - أتى إلى الشرق وهو يبغض هذا النظام ويستنكره، ولكنه ما إن عاش في بيئة إسلامية بالقاهرة حتى أدرك أن الرقيق يحظون بحياة أكثر رغدا من حياة الفلاح، وأن الرق في الإسلام هو لون من التبني الذي يلد أكثر منه استعبادا قاسيا. وما أبعد الفارق بين ما يلقاه الرقيق في بلاد الإسلام وما يلقاه العبيد السود في ولايات الجنوب الأمريكية على أيدي المسيحيين البيض الذين يسومونهم الذل والهوان، بل إن الأرقاء في الإسلام ليعمون بالطمأنينة والاستقرار حيث يشكلون جزءا من الأسرة يأكلون مما تأكل ويلبسون مما تلبس. ويروي جيرار أنه حين أراد أن يعتق جارية عرض عليها أن يمنحها الحرية على أن يعهد بها إلى سيدة من ذويها، وما كانت أشد دهشته حين انفجرت فيه غاضبة مستنكرة أن تعمل خادمة! واقترحت عليه أن يبيعها لشيخ مسلم أو لأحد الباشوات مما دفعه إلى التعليق قائلا: ما هو ذا حدث فريد، أن توجد دولة يرفض الأرقاء فيها الحرية!! ويذهب نرفال إلى أنه إذا تحولت الجارية إلى محظية لسيدها فإنها تكون أسعد حالا من الزوجة الشرعية التي يمكن للزوج أن يطلقها في لحظة غضب على حين أنه من النادر أن يطرد السيد إحدى جواريه دون تدبير أمر معيشتها، فإذا تخلى عنها أعتقها ومنحها ما تستعين به على حياتها أو زوجها من شخص [illegible] أو قدمها لأحد أصدقائه. [illegible] [illegible] وإذ اهتم نرفال بموضوع الرق الذي كان يؤرق ضميره اهتماما كبيرا فقد عاب على [illegible] تجاهله لموضوع الرق على حين أن أمراء قد عاملوه معاملة شجاعة وإنسانية، وقد شهد بنفسه [illegible] أنظمة الحكم في الدول الإسلامية على إلغاء الرق بمباركة من علماء الدين.

[illegible] بأن الأديان كلها متشابهة متكاملة وأنها جميعها ضرورية للبشرية. وقد هيأ [illegible] حود[illegible] للتعاطف مع الإسلام، حتى إنه ذات يوم [illegible] بأنه لا دين له، فرد عليه قائلا: «وكيف ذلك [illegible] أحسست نفسي وثنيا في اليونان ومسلما في مصر ومؤمنا بوحدة الوجود بين الدروز ومتعبدا [illegible] الكلدانيين المؤلهة وأنا وسط البحر».

(٥١) Eclecticism نزعة مؤدها انتقاء الأفضل من بين المذاهب والأساليب والآراء [illegible] والفنية وكذا إعمال بعض أفكار الأساتذة وضمها بعضها إلى بعض بعد تشكيلها تشكيلا جديدا في إطار موحد والخروج منها بمذهب جديد. [م. م. م. س.]

(٥٢) Pantheism مذهب وحدة الوجود (الله هو الكل) عند البراهمة هي رد كل شيء إلى الله [illegible] [illegible] [illegible] وردها إلى موجد واحد، فالموجودات ليست إلا أعراضا للجوهر الفرد كما يقول الفيلسوف سبينوزا، وعند الرواقيين والأفلاطونية الحديثة [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] فهو ذاتي حتى ذاتي على وجود الله، فالموجودات ليست إلا تجليات لله أو أعراض. [م. م. م. ث.]

وليست «التوفيقية» عند جيرار مزيجا من الأنظمة الفكرية المعروفة بقدر ما هي محاولة جادة لجمع كل المعتقدات تحت لواء معتقد واحد أو لردّ هذه المعتقدات المختلفة إلى مبدأ واحد أزلي [illegible] فهو لا يعترف بالحواجز بين ديانات البشر المتعددة ويراها مترابطة يرتشف كل منها من ينبوع الآخر منذ أقدم أزمنة التاريخ، فلكل دين نصيبه من أسرار الله السرمدية، حتى بات لا يفرّق بين المعتقدات الوثنية والمشركة وبين الأديان الكبرى الموحّدة، فقد مهّدت إحداها للأخرى فحلّت ديانات جديدة محل القديمة، وهو ما يمكن أن نعدّه من نرفال تصورا شعريا للأديان أكثر منه دينيا أو علميا، إذ هو يعطي للإنسان دورا ذا أهمية كبرى قد يباري في رأيه دور الآلهة أو الإله الأوحد. وعندما وصل نرفال إلى مصر انبثقت في نفسه فكرة أن طقوس التلقين المصرية القديمة هي التي تولّدت عنها اليهودية والمسيحية، وأن مصر هي أم كل المعارف والحضارات. ومن هنا أخذ نرفال يتوق إلى التقريب والتوفيق بين الحضارات والأديان، لا سيما أن مصر كانت مهد حضارة عريقة تراكمت عليها حضارات عدّة والإسلام في نظر جيرار دين يتميّز بالبساطة المطلقة والتجرد من [illegible] وهو دين إيجابي وواقعي في آن معا لا تشغل فكرة الأسرار الخفيّة مكانا أساسيا فيه شأن غيره من الديانات [illegible] وربما حلقة الاتصال بالوثنية القديمة وبعنصر القلق واللاعقلانية الذي ترعرع في ظلّها، وكأنه كان يستشعر الحنين في وجدانه إلى تلك العقائد اللاعقلانية وإلى حالات الجذب والتجلّي الروحانية التي بقيت بعد زوال تلك العقائد وظهر لها ممارسون في شتّى الأديان السماوية. وهو الأمر الذي جرفه إلى الدراسة المتعاطفة لموضوع المجذوبين إلى الله في الطرق الصوفية الإسلامية دون أن يصل إلى معارف عميقة في هذا الصدد [illegible] التي لا يتوانى عن تبريرها، فهو يحتقر فكرة التواكل أو القدرية التي استنكرها شاتوبريان ويذهب إلى حد تسليمه بها بوصفه مسلما مثل بقية المسلمين. وهو يرى القدرية أكثر شيوعا في غير مصر من بلاد الإسلام، كما يرى أن مصر أكثر تسامحا من كل الدول الإسلامية الأخرى، لأن تسامحها نابع من عمق [illegible] العريقة الكثيرة الديانات والتي توارثت تراثا الكثير من الأنبياء واحتفظت في تراثها الفكري بالعديد من الآلهة والأديان». ومن المؤكد أن جيرار قد قرأ القرآن وإن لم يتعمّقه، فما أكثر ما استشهد في نص كتابه ببعض آيات القرآن الكريم، وما أشار إلى بعض سوره التي أضمر لها إعجابا شديدا.

ويمكن الزعم بأن جيرار كان على معرفة باللغة العربية، وأنه على الأقل قد حاول تعلّمها، ولكنه لم يكن على دراية واسعة بها بدليل بعض أخطاء الهجاء التي نلمسها في عصون نصّه أو في بعض الترجمات الخاطئة لمعاني الكلمات. وفي الحق إن جيرار كان يتكلم العربية الدارجة غير الفصيحة ولكنه لم يرق قط إلى فهم اللغة الأدبية، وهو ما ميّزه عن شاتوبريان الذي لم يعرف من اللغة العربية إلا أقل الكلمات التي يردّدها السائحون. ومع أن معرفته باللغة كانت سماعية في أغلبها إلا أنه يكفيه أنه حاول عبور حاجز اللغة كي يسبر غور الشعب الذي استضافه[٥٣]. ويعجب جيرار بإنسانية المصريين وميلهم إلى الرحمة والرأفة حتى مع الطير والحيوان فيروي قصة ما أمر به عمرو بن العاص من ترك مخازن الغلال بلا أسقف حتى يحظى الطير بنصيبه من الطعام. كذلك أسرت نرفال رعاية المصريين لمرضى العقول، ويسوق مثلا قصة ست الملك شقيقة الحاكم بأمر الله حين وعدت إمام المسجد المجاور للمورستان بتخصيص مبلغ كبير للعناية بالجناح المخصّص لمرضى العقول وزيادة مساحته حتى يليق مأواهم بقدر الخليفة الفاطمي.

(٥٣) J.M. Carré
Voyageurs et écrivains Français en Egypte.

ويشيد نرفال بالوفاق بين المسلمين والأقباط في مصر، ويحكي أنه ذات ليلة كان يجول شوارع القاهرة حتى بلغ حي الأزبكية. [illegible] والمساجد مضاءة والمآذن مرصّعة بالأنوار والسرادقات منصوبة ودويّ أناشيد الذكر وأنغام [illegible] ودقات الدفوف تشقّ عنان السماء. غير أنه يلحظ أن عددا غفيرا من الأقباط يشهدون هذا الحفل الإسلامي، ويعرف أن من عادة المسلمين الترحيب بمشاركة الأقباط في الاحتفالات بموالد الدراويش والأولياء المدفونين بالمساجد حيث تختلط العمائم السوداء التي يعتمر بها الأقباط مع غيرها من عمائم المسلمين البيضاء، كما يعرف أيضا أن أثرياء الأقباط يتبرّعون بالإنفاق على حفل المولد الذي يصفه نرفال لأن ضريح الولي يقع في حيّهم.

وعلى الأساطير الشعبية والدينية التي استمع إليها نرفال، وعلى التفصيلات الواردة بكتب المؤرخين أضفى نرفال من خياله البارع ليطالعنا بقصة الحاكم بأمر الله في حبكة فنية تشيع في ثناياها شطحات الأوروبيين نحو الإسلام وهوس الحشّاشين الذين أشرك نرفال معهم الخليفة المتألّه في تخطيه على أنه «الكوثر طعام الخالدين». يسرد علينا القصة في سلاسة منذ تطلّع الحاكم بأمر الله إلى الألوهية حتى مقتله على يد شقيقته ست الملك التي كان قد عقد عزمه على الزواج منها حفاظا على نقاء الدماء الفاطمية الزكية، وحتى يسلّم بأمانة إلى الأجيال القادمة السر الذي أودعه إياه أسلافه الطاهرون. وينتهي المؤلف إلى أن الحاكم لم يمت مقتولا وهو فوق حماره كما يقال بل تلقفه شيخ مجهول الاسم فانتهى به إلى الصحراء حيث حاك نظريته الإلهية، ومن ثم هاجر هو [illegible] به إلى لبنان حيث أنشؤوا النحلة الدرزية.

[illegible] تتشكّل أسلوب جيرار دي نرفال وتتكشّف مواهبه وفقا للموضوع الذي يطرقه، [illegible] تأثير الضوء حين يتذكر حدائق جزيرة الروضة حيث: «تتناثر المخروطات الساطعة البياض فوق الممرّات المرصوفة بالفسيفساء أو تتجمّع الخمائل المخضرّة حيث تتبدى أطراف أشجار الصنوبر وكأنما هي قباب متعانقة أو سبح يتصل بالسماء تحط عليه اليمامات وكأنها أرواح تئن وسط الوحشة».

[illegible]

[illegible]

[illegible] إذ الخصبة [illegible] من ظل غروب الضحى إلى ظلال النيل الضارب إلى الزرقة، ويصاحب نغم الناي والرباب [illegible] عينيه، ولا يلبث المستمعون أن يشتركوا بترديد المذهب ابتهاجا بليالي الأنس، مترنّمين بالهوى والشوق ورفقة الأحباب متشبثين بالومضات النورانية المنبثقة من صفاء السماء، منخرطين في ذكر رسول المسلمين أحمد المصطفى بينما تردّد جوقة من الغلمان الأناشيد القطيفة التي تفيض بالتسبيح بنعم الخالق المتعددة التي يسبغها على المؤمنين في الأرض أثناء مباهجهم الليلية. لم يعد أسلوب جيرار هنا متقطّعا متعثرا وإنما يتدفّق تدفّق سيل من ومضات النجوم واختلاجات النسيم حارقا معه الأمسيات الندية ليغلب شغفه الوجد وسَمْتٌ به الصوفية. على أن نرفال يلحظ في كل حفلات المصريين وشعائرهم مزيجا من البهجة المقترنة بالشجن، وهو السمة التي صبغت حياة المصريين - في رأيه - منذ الزمن العابر.

على أننا نستطيع تبيّن واقعية أسلوب نرفال أيضا في وصفه لمشاهداته في الطريق الذي يشدّ انتباهه بكل ما يصطخب به: «مياه المسقيات الخضراء تنعكس في وهاء حان الأزرية المتباينة الألوان التي

يتدثّر بها المدخّنون ، ثريّات الزجاجية بمشكاواتها الزيتية المتنوعة الألوان التي يتألق جمالها حين يمسها شعاع ضوء النهار ، والنرجيلات البلورية التي تتدفّق منها ومضات النور ، والشراب العسري المتأرجح في الصاجين الدقيقة التي يقوم عبيد سود بتوزيعها في أوعية دقيقة الزخارف على مقاهي خان الخليلي . . . والمرأة إذا لم تكن على حظ من جمال كانت أشدّ حرصا على تثبيت خمارها، وهو ما يحق معه للعارفين بأمرها أن يحمدوا لها هذا الصنيع ، على حين أن المرأة التي تملك حظا من جمال لا تعدم وسيلة في الكشف عن محاسنها حتى تلتمس انجذاب العيون إليها . والحبرة السوداء التي هي أقل سحرا من حجاب الملاءات تجعل من المرأة لفافة لا شكل لها ، فإذا ما تخللها الهواء غدت وكأنها [بالونة] . . . وما أشبه المشربية في المنازل بالخمار الذي تسدله المرأة على وجهها . . وما أقرب المدينة نفسها شبها بسكانها ، فمن العسير أن تهتدي إلى أماكنها الطيبة وتنفذ إلى جنباتها الداخلية الساحرة إلا بعد جهد جهيد . . . ! .

وفي زيارة لهليوبوليس يتوقف وسط مساحات فسيحة شبيهة بالغابات المتحجّرة ذات صخور غريبة وكتل من الأسماك والقواقع المتحلقة بعد انحسار مياه الطوفان الذي خلّف وراءه هذه الآثار ، وكم يبهرّه منظر جذوع النخيل المتجمّدة كالثلوج متناثرة على سطح الأرض في اتجاه واحد ، يأسره مشهد جذوع الأشجار الخشبة الملمس العتيقة وكأنها السلاسل العمرية [illegible] الماضي البداية

وكم أسف جيرار حين رأى ملامح الحضارة الأوروبية تطغى على قاهرة الماضي العريق ، وهاله القصور الجديدة لمحمد علي المشيّدة على غرار الثكنات العسكرية ، تحوي أسمى تطلّعات البورجوازية الريفية الفرنسية ، كما ساءه تحوّل جزيرة الروضة على يد إبراهيم باشا إلى حديقة إنجليزية ذات مساحة من العشب فسيح وجداول اصطناعية وجسور [illegible] ويسخر من مسجد محمد علي فيقول : «ما أشبه ما زعموا من أن هذا المبنى سيكون مسجدا بما زعمنا نحن من قبل من أن مبنى المادلين[54] كان كنيسة . وما أقرب ما يشيّده المهندسون المصريون الذين خلوا شيئا من الإيمان من مبان يدّعون أنها للعبادة وهي في الحق لشيء آخر» .

كذلك راع جيرار انتهاك الأركيولوجيين لحرمة الموميوات المصرية القديمة واعتبر من الكفر الكشف عن مومياوات أولئك المصريين القدامى وتشريحها وتساءل كيف يقف إيمان المصريين العريق العصيّ على القهر مكتوف الأيدي أمام فضول الأوروبيين الأحمق ؟ لأننا إذا كنا نحترم موتى الأمس القريب أفلا ينبغي احترام موتى الزمن الغابر ؟ وإذ يجيبه أحد الشيوخ على ذلك بأنهم كانوا كفرة يعبدون الأوثان يردّ عليه مرفال بأن لا ذنب لهم في ذلك ولا جريرة فلم يكن نبي من عيسى أو محمد قد بُعث بعد

وأخيرا فما من شك في أن دقة الصورة التي رسمها جيرار لمصر هي التي جعلت ڤيكتور هيجو يقول : «لو أن جيرار دي نرڤال لم يقصد مصر ولم يصوّر العادات المصرية بأسلوبه العلمي الساحر لتاقت نفسي إلى أن أقصدها . وإن أقصى ما أستطيع أن أثني به على كتابه هو أنه أغناني عن أن أرحل إلى هناك» ، وهو قول حق إذ قد ألهمه ديوانه الشهير «المشرقيات» .

(٥٤) كنيسة مادلين بباريس [illegible]

أستاذ جامعي يواصل
مهمة شمبوليون

چان چاك أمبير

ولد جان جاك أمبير بليون في مطلع القرن التاسع عشر من عالم فيزياء فرنسي جليل هو أندريه ماري أمبير مكتشف ناموس قياس التيار الكهربائي والذي اتخذ اسمه «أمبير» اسماً لوحدة التيار الكهربائي. وقد عرف في شبابه القلق، ولم ينعم بالاستقرار النفسي فلم يقدر على الدراسة المنتظمة، وكان بطبعه متوتر الأعصاب شديد الحساسية والطموح يتشوّف إلى تحقيق إنجازات كبرى كأبيه المرموق، غير أنه لم يملك تحديد أهدافه بوضوح فعشّى شبابه الإحباط والأسى إلى أن اهتدى بعد ذلك إلى طريقه كما سيتبين لنا. وكانت «آلام فرتر» لجوته قد اجتذبته هي و«مانفرد» لبايرون وحركتا في نفسه الولع بالكتابة، فوُفّق إلى تأليف عدة تراجيديات، ووقع وهو في سن العشرين في هوى مدام ركامييه الفاتنة التي كانت وقتذاك في الأربعين من عمرها عاشقة لشاتوبريان، إلا أنه ما لبث أنْ تمالك مشاعره وأحال حبّه العاصف شيئاً فشيئاً إلى صداقة قانعاً بأن يكون أحد زوّار قصرها المقرّبين، وما لبث أن استأثرت به الدراسة الجادة وشغلته آلاف الأسئلة الفلسفية واللغوية والأدبية التي داهمت فضوله ونهمه إلى المعرفة. وكان في دخيلة نفسه شاعراً، وكان هذا الشاعر يطفو بين الحين والحين إلى السطح دون إنذار، فإذا به يقرض الشعر وسط محاولاته تجويد معلوماته في قواعد اللغات اللاتينية الأصل. وتعلم أمبير السنسكريتية ودفعه ذوقه الأدبي في بادئ الأمر صوب بلاد الشمال عام ١٨٢٧ حيث التقى بجوته في ألمانيا ثم قصد الدانمارك والسويد والنرويج كي يجمع الأساطير والأشعار الشعبية من منبعها. وعين عام ١٨٣٠ أستاذاً بأكاديمية «الأتينيه» في مرسيليا في الوقت الذي كان مشغولاً فيه بالملاحم السكندنافية وقصيدة النيبلونج (٥٥) الشعبية، ومضى يطرق كل السُّبل للوقوف على أوجه الشبه بين ملاحم الشمال وأشعار هوميروس. وفي عام ١٨٣٣ عين أستاذاً بالكوليج دو فرانس، فإذا هو يقدم في محاضراته لوناً جديداً من الدرس الجامعي هو الأدب المقارن، حتى عدّه الكثيرون الأب الحقيقي لهذا اللون الأدبي من ومبتكر اسمه. و انتخب عام ١٨٤٢ عضواً بأكاديمية اللوفر حيث طرق أذنه ما يتردد به زملاؤه من اتهامات تشكّك في صحة ما تدَّعي به شمبوليون من تعريفات، فحفزه ذلك إلى تحرّي الحقيقة، وهكذا قرر أن يتوجه إلى الأماكن التي زارها شمبوليون ليستوثق بنفسه منها ويتابع ما بدأه سلفه العظيم. وقد عشق أمبير مصر عشقاً يخالطه الحدْ والدأب اللذان لا يتصف بهما سوى العالم المحنّك، وقد بدأ ذلك العشق ذات صباح يوم كان يطالع كتاب قواعد اللغة المصرية لشمبوليون الذي أثار فيه شعوراً جارفاً ملحاحاً بأن

(٥٥) قصيدة النيبلونج هي أهم المعجزات التي خلفتها العصور الوسطى وأجمل أثر من آثار الشعر الألماني القديم، ويطلق عليها البعض «الإلياذة الألمانية». وقد استمد منها الموسيقار ريتشارد فاجنر مسرحياته الموسيقية الأربع المعروفة باسم «خاتم النيبلونج» [م. م. ث]

رسائله في الحياة بتطرة في مصر، وما لبث أن غدا قريناً لعالم الفذ شمبوليون وتلميذاً لليبسيوس، واستغرقته هذه الدراسة الجديدة فقرر الرحيل إلى مصر مشدوداً بحماسة تدفعه إلى التغلب على كل العراقيل التي تعترض سبيله. واستطاع أن يظفر من وزير التربية والتعليم الفرنسي ببعثة إلى مصر اصطحب فيها الرسام المذكور دوران مساعداً له، وقضيا ثلاثة [illegible] الأثرية حتى مضى الشهور الثلاثة الأولى وهو يحس وكأنه أشبه ما يكون بشبل، لما غمره من مشاعر فياضة وتجلى له من معارف غزيرة، فإذا هذه وتلك تدفعانه إلى ثورة متصلة وحماسة دافقة.

كان جان جاك أمبير لسوء الحظ لا يشترك مع جيرار دي نرفال في موهبته المشرقة، والواقع أنه من الصعوبة بمكان تصنيفهما بين الأدباء فلا هما شاعران ولا هما روائيان ولا هما ناقدان ولا هما صحفيان، ولكنهما كتبا الكثير في شتى الموضوعات، وهي السمة المميزة لذلك الجيل من الأدباء على أنه كان كما قدمت مثل جيرار يسعى وراء السحر والإلهامات الألمانية، فعلى حين ترجم جيرار «فاوست» توجه أمبير إلى فايمار لمقابلة جوته. وكلاهما عمل على نشر الأدب الجرماني وبث الأفكار الأدبية الرومانسية في فرنسا. غير أن عالم الشمال لم يستأثر بهما طويلاً إذ ما لبث الشرق الساحر أن اجتذبهما، وشاءت الظروف أن يصلاه في وقت واحد تقريباً. فعلى حين جاء نرفال إلى مصر في عام ١٨٤٣ جاء أمبير في عام ١٨٤٤. وبمجرد عودتهما إلى فرنسا نشرا انطباعاتهما في مجلة «العالمين» التي رحبت بهما فنشرت «نساء القاهرة» و«مشاهد من الحياة المصرية» لنرفال و«رحلة إلى مصر والنوبة» لأمبير.

وقد أمبير على مصر وفي جعبته حب جم للاطلاع وذكاؤه الخارق [illegible] وثقافته الواسعة، فإذا به لا توقظ ذكريات الماضي للحديث فحسب بل وتحرك [illegible] والمستقبل أيضاً. لقد وجد فيها بلداً فريداً يختلف عن جميع بلاد العالم [illegible] هذا البلد يحتشد جنباً إلى جنب الكتاب المقدس وهوميروس والفلسفة والعلوم والبطالمة وروما والمسيحية والرهبنة والإسلام والحروب الصليبية والثورة الفرنسية، ويلتقي فيه زائره بكل ما هو سام جليل في [illegible]. ثم إذا هو يؤكد أن مصر بلاد لا تنسى، ويتساءل: «أين يمكن أن يجد المرء مدينة مثل الإسكندرية أسسها الإسكندر ودافع عنها يوليوس قيصر واستولى عليها نابليون؟»

ونحن نستشف في كتابته بين الحين والحين أسلوب الشاعر الذي كان يتمنى بالنيل وطبيعة ومنظر وهو مستغرق في قراءة الرموز الهيروغليفية، ولكنه يظل في المقام الأول مؤرخاً وعالم مصريات، فيسرد علينا انطباعاته الشخصية بتلقائية، ويروي لنا مشاهداته وإحساساته، ولكنه يضيف إليها ما تعلمه وما يعلمه، فقد كان على حد ما وصفه به سانت بيف أعظم الأدباء بين العلماء وأعظم العلماء بين الأدباء.

وكان أول ما صدع به عن مصر المعاصرة أن: «متعة الواقف بها تنحصر في التجول على ظهور الحمير والإبحار على المراكب والخوض خلال الأطلال» [illegible] يتردد في الإفصاح عن إعجابه بمنظر [illegible] والحركة والألوان وضوضاء الطريق وصخب الباعة وصياح المكارية سائقي الحمير. ويدهش لرخص الحياة في القاهرة [illegible] إن الحارات بونابرت المعتمة تحد، فلا صعوبة من [illegible] شوارع القاهرة بعربة تجرها ستة جياد. وكم شدته هذه الصورة التي رأى عليها القاهرة حتى خيل إليه أنه يعيد قراءة ألف ليلة وليلة

وقد حظي شأنه شأن الزوار المرموقين باستقبال محمد علي باشا له في القلعة حتى إذا طلب [illegible] يجري تفتيشاً على مدرسة الهندسة التي كان يشرف عليها المهندس لامبير اعتذر عن تلبية ذلك الطلب بأن دراسته لا تؤهله للحكم على المسائل ذات الطبيعة الهندسية. وكان حكمه على محمد علي موضوعياً وقاسياً على نقيض ما وصفه به كلوت بك، فعلى حين رأى فيه [illegible] [illegible] نفسه، أخذ عليه تماديه في الاستبداد وفي قهر شعبه وإفقار الدولة [illegible] صالحه. ومع أنه يصفه إلا أنه ينوه بعض القدر، فهو يعترف بقيمة مشروعاته وبالتطور الذي [illegible] عن مقدار النفع الذاتي الذي كان يعود عليه منها، فيذهب إلى أن [illegible] كانت [illegible] في تقليل خسائره من الجنود، كما أن جهوده لتحسين الزراعة التي تعود على مصر بالفائدة كانت تخدم تطلعاته الشخصية، وأن محاولاته المتواضعة لنشر التعليم لم تكن تتجاوز نطاق التعليم الفني الأولي لتخريج مجرد «صبيان» ومن هنا كان [illegible] العملي الحرفي، هذا إلى انحسار تعليم الآداب واللغات الحية حتى غدت مقصورة على دراسة القواعد اللغوية الجافة وأساليب البلاغة التي لا طائل وراءها. وقد كشف عن سخريته من هذا النهج التعليمي عبر قصة روى فيها أنه زار ذات يوم مدرسة الألسن التي كان الشيخ رفاعة الطهطاوي ناظراً لها، وأنه طلب إلى تلميذ فيه ذكاء أهلي الألسن أن يطالع صفحة من جان جاك روسو يتناول «فهم الإنسان الشره الذي يغوص في أعماق الأرض ليستخرج منها كل ما يقوده نحو الشر والهلاك، على حين أن الكنوز الحقة موجودة على سطح الأرض». وكان [illegible] المعنى تحت. إذ كان محمد علي قد أوفد وقتذاك عدداً كبيراً من [illegible] مناجم الذهب والزمرد حتى إذا أنهى التلميذ قراءة [illegible] يدلي برأيه فيما ذهب إليه روسو، فإذا بالتلميذ يكتفي بالدهشة [illegible] وحين أمير طمأنه التلميذ فطرح سؤاله في صياغة أخرى قائلاً: أليس من الخرم أن نثقل على الأرض كي نعطينا ما تدخره من كنوز؟». وإذا بالصمت يربض على المكان برهة يتقلص خلالها وجه الأستاذ ثم لا تنفرج شفتاه بعد جهد جهيد إلا عن مصطلح موجز العبارة هو لفظة «هيبوتيبوز» Hypotypose [التي تعني الوصف الحي المؤثر] صائحاً أن أمير كان يختبر معلوماته في علم البلاغة لا في المغزى الفلسفي لعبارة روسو. ولا ندري لم عاب أمير على المدارس المصرية هذا المنهج، وهو المنهج الذي كان وما يزال مطبقاً بالفعل في كثير من المدارس الأوروبية وخاصة الدينية منها حيث ينصب الاهتمام على القواعد الجامدة وخاصة في الأدب غير الديني فضلاً عن المران على المهارات البلاغية.

كان الهدف الأساسي من رحلة أمبير كما قدمت هو دراسة الآثار المصرية ليتعرف على عالمها المحجوب، فراح يجوس بين المعابد والأطلال والمباني الحجرية واكتشف فيها على حد تعبيره «موسوعة عظيمة من الحجر لكأنها يوميات عملاقة أوسع تنطوي على حياة المصريين القدماء مصورة أحسن تصوير». وكان أمبير قد أعد نفسه لرحلته بعناية شديدة فطالع كل ما كتبه المؤلفون اليونان والرومان، ومن ثم فإنه لا يفتأ يردد أقوال هوميروس وديودور الصقلي وهيرودوت وسترابو وعلامة الإسكندرية، كما قرأ كل ما كتبه من سبقه من الرحالة أمثال ده ماييه وفولني وساڤاري وڤيڤان دينون فضلاً عما سجله المؤرخون العرب أمثال الجبرتي وعبد اللطيف البغدادي. ولكنه عكف في المقام الأول على دراسة أبحاث علماء المصريات المحدثين وعلى رأسهم شمبوليون ثم

ملزوتي وبريس دافن ولبسيوس وولكنسون الذي التقى به في أحد المواقع فاتهمه عليه بوابل من الأسئلة. وقد شعفه بمصر القديمة يحيل وجهه بعيداً عن الإسكندرية التي لم يجد فيها ما يمثّل مصر التي كان يهفو إليها، وإنما رآها «موسوعة مصغرة والأدب والأفكار والعلوم والعادات» بل إنه ما كاد يغادر الإسكندرية في طريقه إلى القاهرة حتى قال: «هنا كنت ما أزال في اليونان، أما الآن فسأدخل مصر، وغداً سأرى الأهرام». ومنذ تلك اللحظة أخذت مناظر الطبيعة تتزاحم في مخيّلته إلى جانب الأفكار العلمية فنجد الشاعر الغنائي في أمبير ينهض من سباته، وعند إبحاره في النيل يلهمه صفحات ساحرة كان يمكن نسبتها إلى أعظم الأدباء مثل قوله: «ما إن انحدر الكوكب الكبير صوب الغروب حتى تحوّل لون السماء زعفرانيا موحيا برداء إلهة الفجر عند هوميروس. وخيل إلينا وقتئذ أن النهر يكاد يشرق من الشمال أو الجنوب، إذ كان لون القبة السماوية يضرب إلى الاخضرار، على حين كانت تكتسي في الشرق بألوان الزنبق لا يتسلل إلى أي بقعة منها لون الليل الحالك. واقتربت من النهر فإذا خريره يذكّرنا بصخب البحر أو ضجيج شلال بعيد تخالطه ذبذبات تنبعث من بين سعفات النخيل حين تمسّها الريح. وإذا أسراب الطيور المائية تتقاطر على النيل محلّقة فوق سطحه في دفقات تنحرف حينا وتتوزّع حينا آخر ذهابا وإيابا وكأنها أمواج في كفّ إعصار يكسوها زغب أبيض. ويخيّل للمرء وهو يشاهدها عن بُعد أنه يشهد جلاميد صخر متحركة. ربعته .. يرخي الليل سدوله ويُشيع الظلمة»

ومن أكثر ما كان أمبير يستطيب الاضطجاع على غرار الشرقيين فوق الحشيّات الوثيرة مدخنا الأرجيلة متجرّعا القهوة حتى إذا استثارته فتنة النيل تحرك شيطان شعره إلى القريض ليقول: «في قارب سابح على وجه النيل أستلقي متطلعا إلى النجوم، مُطلقا أشعاري تنساب مع نسمات الليل التي تتأرجح في رقّة كلما رفرفت ظلالها الأشرعة، بل أطلقها إلى الضفاف التي أتركها على الجانبين ونحو الموجات المتخلفة عن قاربي. وفوق الرمال الوهدة تستلقي قطعان الجاموس السوداء الشعر أو تمضي متجاورة بخُطى الفيلة المتثاقلة بينا تقترب من الشاطئ جموع نساء، أطفالهن على المناكب وجرارهن فوق الهامات».

وإذ كان أمبير يكتب إلى القارئ الفرنسي فقد حرص على أن يخفّف عنه مشقّة السير في تيه أطلال طيبة فأخذ يصفها ويشبّهها بمواقع معالم مدينة باريس. فجعل نهر النيل مكان نهر السين، ووضع على الضفة اليمنى مجموعتين من المعابد، فأحلّ الأقصر محل ميدان الكونكورد Concorde، والكرنك مكان ميدان «الإتوال» Etoile، وربط بينهما بطريق الكباش الذي أخذ مكان طريق الشانزليزيه Champs- Elysées. وثمة مجموعات ثلاث على الضفة اليسرى فالقرنة تحتل المدرسة الحربية Ecole Militaire بباريس، والرامسيوم يبسط على مساحة حديقة لوكسمبورج، كما تقوم مدينة هابو على أرض حديقة النبات و الحيوان.

وكان أمبير أول كاتب محترف يسجّل بقلمه ما في نقوش أخناتن بتل العمارنة من تجديد وابتكار في تصوير قرص الشمس «المعبود» بأسلوب غير مألوف حيث تأخذ أطراف الأشعة شكل الأيدي. وقد سجّل وقتها أن هذه الآثار تنفرد بمرونة لا تتحلى بها الآثار المصرية الأخرى، وأنها متحرّرة من القيود الصارمة للأساليب التقليدية للفن المصري حيث تتحقّق التعبير بوضوح حتى ينبع أحيانا حدّ الرسم الساخر «الكاريكاتير».

وقد التزم أمبير نفسه بزيارة جميع الآثار، وبينما عكف هو على نسخ الكتابات التي لا حصر لها عكف رفيقه دوران على رسم النقوش العاثرة، والنرى في كل موقع يحقق ويتمّم ما بدأه شمبوليون وبريس دافن ولبسيوس وسطور لوب موضّحا ما التبس من النتائج التي توصّل إليها من سبقه من المتخصصين، لا يوقفه حتى مرض الدوسنتاريا الذي هدّ قواه. وعلى الرغم من ذلك استمر يمتطي كل صباح أتانه مصطحبا زجاجة الدواء وحفنة من الأرز متنقلا من معبد إلى آخر ومن مقبرة إلى أخرى في حماسة وصمود لكي يتمّ الرسالة التي وهب نفسه لها، ولكن وطأة المرض ما لبثت أن اشتدت عليه فاضطر بعد معاودة طبيبه أن يلزم فراشه بالمركب. وقد بذل رفيقه الدكتور دوران سمح القلب. والذي شُغف بقسمات وجه زوجة الملك منتوسرت. قصارى جهده في علاجه دون جدوى، إذ لم يكن جان جاك أمبير مريضا مطيعا، بل إنه لم يعبأ بنصيحة طبيبه بالتزام الراحة التامة فتمرّد عليه وغادر المركب في أثناء رحلة العودة لزيارة كهوف تل العمارنة الغريبة الشكل بمقربة من بني حسن، وطلب إلى معاونيه أن يرفعوه فوق ظهر حمار برغم أن جسده كان مكسوا بالضمادات مختنقة للآلام. كي يجتاز الوادي المترب الذي يفصل الكهوف عن النهر، وإذا هو يدفع ثمنا غاليا لهذا التهوّر الذي انطوى في الوقت نفسه على حماقة كبرى. إذ تفاقمت حالته الصحية وتضاعف عدد الأزمات التي باتت تنتابه وافترسته الحمّى وأحس بقواه تخور يوما بعد يوم، ومما زاد الطين بلة أن الرياح الشمالية هبّت بعنف استحال معه على المركب التقدم صوب الشمال، وغرق المريض في بحر من اليأس والسأم والقلق على مصيره، ولم يبلغ مرسيليا إلا بعد أن أصاب الشلل ساقيه، فقُدّر له ـ كما يقول مؤرخوه ـ أن يصل إلى شاطئ وطنه ولكن دون أن تحمله قدماه.

وقد استغرق شفاؤه من أوجاع رحلته المصرية عدة شهور قبل أن يسترد قدرته على العمل في عام ١٨٤٦ حين انكبّ على نصوصه بالتنقيح النهائي كي يدفع بها إلى مجلة «العالمين»، ومع ذلك فهي لم تخرج إلى النور في كتاب قائم بذاته إلا بعد وفاته. وقد ظهر كتابه «رحلة إلى مصر والنوبة»[٥٦] زاخراً بالمعارف العلمية الجذابة في أسلوب بديع شديد التنوّع تتخلله النوادر اللاذعة والأوصاف الشاعرية التي تخفّف من وطأة الصرامة التاريخية والأركيولوجية. غير أن لفيفا من النقاد استخفّوا بأمره، واعتبروه تارة مجرد هاو وتارة أخرى ذوّاقة أو عالما أكاديميا أو كاتب صالونات، ونعتوه بتشتّت الجهود في موضوعات متنوّعة ومتباعدة. ويذهب جان ماري كاريه إلى أن أمبير لو شاء لاحتل مكانته عالما فذا للمصريات يلي في أهميته شمبوليون مباشرة وتتقدم ماريت، غير أن صحته المنهكة وتنوّع نشاطه حالا بينه وبين الاضطلاع بهذا الدور، فقد قنع بأن يترك لمن خلفوه فرصة الغوص بملء أيديهم من نفائس الكنوز التي لم يكشف هو إلا عن بعض حقائقها وتراثها الباهر.

(٥٦) J.J.Ampère. Voyage en Egypte et en Nubie. Paris. Calman - Levy 188

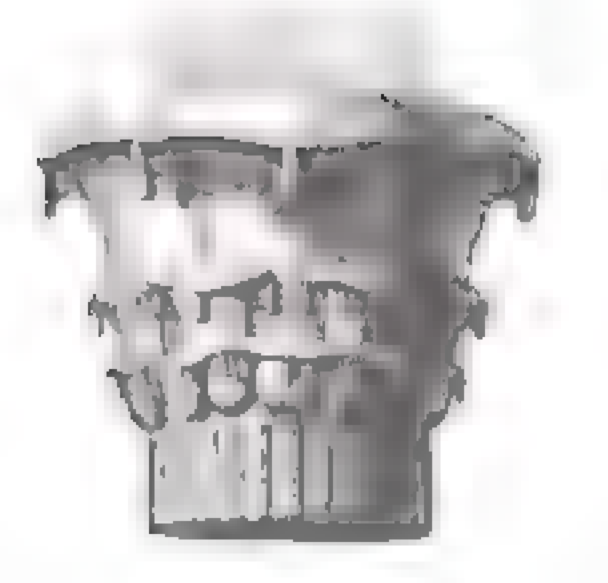

أديب مطبوع و أديب دارس

جوستاف فلوبير

مكسيم دوكان

ـد جوستاف فلوبير في خريف عام ١٨٤٩ رحلة طويلة إلى الشرق الأدنى وكان يومها شابا في الثامنة والعشرين من عمره لا يعرفه غير زمرة قليلة من المحيطين به . هذا إلى أنه كان يجتذب إليه العيون بقامته الفارعة وعضلاته المفتولة وقسمات وجهه المتّسقة وعينيه النجلاوين وفمه الدقيق الشفتين الذي كم عابت النساء على حجبه إياه بشاربه الكثيف . وقد استجاب فلوبير لإرادة أبيه الطبيب فترك مدينة روان بمقاطعة نورماندي التي وُلد فيها ونشأ إلى باريس ليدرس القانون ، غير أنه أصيب أثناء دراسته بنوبات متلاحقة من الصّرع لم يجد لنفسه مندوحة معها من هجران دراساته القانونية والإخلاد في منزله الهادئ إلى كتابة الرسائل التي أولع بها مبكرا حتى باتت أدراج مكتبه زاخرة بالعديد من أوراقها، هذا إلى بضع مخطوطات لقصص قصيرة وروايتين، وانطباعات رحلة قام بها سيرا على الأقدام في مقاطعة بريتاني ، وقصة «تجْربة القديس أنطوان» المطعمة بخيال إبداعي شارد والتي انتهى منها قبيل مغادرته فرنسا إلى مصر ، وهي قصة قديس معتزل في غار بالصحراء المصرية استهدف فيها لا لغواية رذائل الحياة والجسد فحسب بل للآراء الفكرية والروحية والعملية المحرّمة وللمدارس الفلسفة الوثنية ولمبادئ الديانات غير المسيحية . وقد كان على فلوبير حتى يتعرّض بعمق لهذه المدارس والنظريات المختلفة أن يلجأ إلى دراساته القديمة للكلاسيكيات وللعقائد الهندية فعكف على القراءة المستفيضة فيها ، وإذ هو يغزل ذلك كله في خيط درامي تعبّر فيه كل عقيدة عن نفسها على لسان داعيتها حيث تزاحمت على أخيلة القديس حشود من الرؤى لزنادقة وخطاة وعصاة وفلاسفة وآلهة ، ولم ينشر فلوبير من هذه الرؤى كلها غير قصتين قصيرتين . وتكشف أعمال فلوبير المبكرة عن مزامنته الوجدانية لكتّاب في الرومانسية لهم فيها قدم راسخة ، فاقتدى بهم في الشوق إلى كل ما هو غريب ناء لا سيما بعد أن قرأ أشعار بيرون والمشرقيات لفيكتور هيجو وحكايات ألف ليلة وليلة ، فاتّسمت أعمال شبابه بالشوق إلى الشرق حتى قال : «كم أرجو أن أهجر نساء العالم جميعا في لقاء أن أضمّ إلى صدري مومياء كليوباترة» ، وليس قوله هذا إلا نموذجا لمدى إسرافه في الإعراب عن عواصفه الاستشراقية إبان شبابه . ولعل نشأة فلوبير في شمال فرنسا بمدينة روان حيث السماء قاتمة لا شمس فيها كانت وراء تطلّعه دوما إلى الشمس وإلى العالم القديم الذي أتاحت له معرفته باللاتينية واليونانية أن يكتشفه خلال مطالعته لهيرودوت وغيره ممن كتبوا عن الأديان الشرقية . وقد ذهب مؤرخه المشهور جان برونو إلى : «أن حبه للشمس كان مفتاح إيمانه بوحدة الوجود ، وأن ذوقه المولع

بالقديم قد قاده إلى رؤية خاصة للشرق القديم، وأن اهتمامه بالأديان ونشأتها أفضى به إلى أن ينظر إلى الشرق نظرة بالغة العمق أتاحت له أن يذكره في تأملاته وكتاباته ذكرًا جليًا يكشف عن أن الشرق الذي لفته لم يكن أحلاما وأوهاما وزخارف فحسب، وكذلك لم يكن مقصورا على التعرّف على الخصائص المحلية وتبيّنها، بل غدا هذا كله شيئًا لا ينفصل عن وطنه فرنسا».

وقد فلوبير على باريس ممتلئة نفسه بفكر الرومانسيين متعلّقًا بعاداتهم، وتعرّف في بيت صديقه مكسيم دوكان على شخصيات رومانسية لم يلبث أن بات وثيق الصلة بها وبخاصة الشاعر بودلير وغوتييه إلى جانب نخبة من الشبان الأثرياء المزهوين بأزيائهم الرومنسية والمولّهين بحياتهم الصاخبة. كما أنه التقى ببعض المفكرين المعاصرين وبالشاعر لوي ماري ده كورمنان وأبيه الذي دفع بهذه الثُلّة دفعًا نحو المسرح والأوبرا والموسيقى وأوحى لهم من خلال مطالعاته بحرية بسحر الشرق الغامض.

ولم يكن الجسد الإنساني يحمل أسرارا بالنسبة لفلوبير فهو ابن جرّاح شهير، يخالط الكثير من الأطباء ويتردد على غرفة التشريح في مستشفى أبيه. وكان قبل رحيله إلى مصر عاشقا لسيدة رائعة الحسن تهتم اهتماما شديدا بالأدب هي لويز كوليه التي تكبره بإحدى عشر سنة، وكتب لها رسائل تفيض بالبلاغة الأدبية والصراحة الجنسية لم تُتح قراءتها إلا بعد أن باعتها ابنتها لأحد الناشرين. وقد شَقِي فلوبير بمآسٍ عديدة كانت أولاها الصَّرَع، ثم وفاة والده الذي تبعته بعد قليل شقيقته الحبيبة كارولين ولم تكن قد نعمت بسعادتها الزوجية إلا فترة وجيزة وخلّفت وراءها طفلة تدعى هي الأخرى كارولين تولّى فلوبير وأمه رعايتها في بيتهما الريفي العتيق المطلّ على نهر السين في كرواسيه بالقرب من روان، فأجّجت المآسي تشاؤمه حتى بات مقتنعا بأن الحياة كريهة، وأن الفن وحده هو نبع المواساة الدافق.

أما مكسيم دوكان فقد كان على ثراء يتيح له أن يفعل ما يحلو له، حتى إنه قام في العشرينيات من عمره برحلة إلى آسيا الصغرى وإيطاليا والجزائر، واستطاع في عام ١٨٤٨ وهو في سن السادسة والعشرين أن ينشر ذكرياته عن هذه الرحلة في كتابه «ذكريات أدبية»[٥٧] وأهداه إلى جوستاف فلوبير الذي كتب إليه معترفا أن يديه كانتا ترتجفان بهجة وهو يقلّب صفحاته. وإلى مكسيم دوكان لاسمر النحيل الطموح المتلئ حيوية يرجع الفضل في قيام فلوبير بمرافقته في رحلته الثانية نحو الشرق بعد ما كان فلوبير قد اعتاد العزلة للتأمل والكتابة مما أضعف إلى حد ما شوقه الجارف إلى الشرق. غير أن مكسيم نجح بلباقته وكياسته في إقناع والدة فلوبير الشديدة التعلق بابنها بالموافقة على رحلته وتزويده بما ينفعه في رحلته إلى أرض مصر النائية أملا في أن تشفيه الطقس الدافئ من أسقامه، وحلف لها مكسيم بخريطة بيّن عليها خط سيرهما حتى تستطيع متابعة أنباء الرحلة.

(٥٧) Souvenirs Littéraires.

وعلى العكس من صديقيه مكسيم وجيرار لم ينشر فلوبير شيئًا مما كتبه عن مصر. وكان لابد لنا كي نتعرّف على انطباعاته عن مصر أن نرجع إلى رسائله التي ظلت لفترة طويلة لا تعرف طريقها إلى المطبعة، والتي لم يكن هدفه من تحريرها أن تكون في متناول الجماهير، فهي لا تشكّل عملا أدبيا مكتملا مثل كتاب «رحلة في الشرق» لجيرار ده نرفال، ولا موسوعة بارعة مثل كتاب «النيل»[٥٨] لمكسيم دوكان الذي أهداه إلى صديقه تيوفيل جوتييه، بل هي سلسلة من الخواطر

(٥٨) M. Du Camps: le Nil. Egypte et Nubie, Paris 1854, Michel Lévy.

بـ بمفكّرته ورسائل بعث بها إلى أمه وإلى صديقه الحميم الشاعر لوي بوييه تتّسم جميعا بالبساطة والتحرّر والعفوية والاقتضاب في التعبير عن انطباعاته التلقائية وتكشف عن أديب موهوب في ريعان شبابه يحظى بنصيب وافر من هبة الشاعرية الفنائية[٥٩]. ومن غريب المصادفات أن يفد هذا الكاتب المريض بالصرَع إلى مصر في أعقاب كاتب مريض آخر سبقه بستة أعوام هو جيرار ده نرفال سعيا وراء التسرية عن النفس واسترداد العافية. ثم إننا نجد مصدرا آخر من مصادر التأريخ لرحلة فلوبير إلى مصر ليس دون أهمية رسائله ومذكراته، وذلك في الفصول التي عقدها مكسيم دوكان في كتابه «ذكريات أدبية». على أن الموازنة بين انطباع كل منهما عن الرحلة إلى مصر ليس بالأمر اليسير، فقد كان لكل منهما نهجه الخاص به الذي يباين نهج الآخر كما سيتبين لنا، وفي هذا المقام يقول جان برونو «إذا كان مكسيم قد دلّس الحقائق إلا أن ذلك لم يكن في الحق عن عمد».

(٥٩) الكلام الذي يحاكي شعر الغنائي من حيث التعبير عن العواطف وعن الانفعالات يؤثر في النفس من أحداث وكثيرا ما ينطوي هذه المحاكاة على التكلف والابتذال.

وكان مكسيم إنسانا عمليا واقعيا واسع الحيلة فسعى إلى أن يكون هو وصديقه جوستاف فلوبير مبعوثين رسميين للحكومة الفرنسية إلى مصر مزوّدين بتوصيات إلى ممثليها الدبلوماسيين ييسّر لهما الطواف بأمن في أنحاء البلاد، فقصد مكسيم مصر موفدا من وزارة التربية والتعليم لتصوير الآثار فوتوغرافيا، بينما ذهب إليها فلوبير موفدا من وزارة الزراعة والتجارة لجمع معلومات تفيد منها الغرفة التجارية الفرنسية، فوصلا الإسكندرية مع ارتقاء عباس باشا ولاية مصر. وفي رشيد شرع مكسيم في التقاط الصور الفوتوغرافية للأوابد المصرية، وكان التصوير الفوتوغرافي ما يزال بدعة جديدة استهوت شغف مكسيم واستأثرت بكل اهتمامه خلال الرحلة، وقد استُقبل الأديبان أحسن استقبال في جميع الأوساط المصرية، وأضفى عليهما الكولونيل سيف «سليمان باشا الفرنساوي» الكثير من الحدب والرعاية كما زوّدهما بالتوصيات إلى الولاة والمحافظين.

وسرعان ما حلق فلوبير شعر رأسه أسوة بالمصريين وتزيّا بعباءة قطنية بيضاء ووضع على رأسه طربوشا أحمر فوق لاطئة بيضاء، على حين مضى مكسيم يدخّن النرجيلة ويحرك بين أصابعه حبات مسبحته. وإذ كان المصريون يجدون مشقة في نطق الأسماء الأوربية كنّوا فلوبير بـ«أبي شنب»، فكتب إلى أمه يقول: «لك أن تخالي ما تخالين عن مدى سعادتي حين انتهى إلى أنهم عرفوا بتلك الشعيرات من وجهي إلى حد استغلالها في نحت اسم جديد يطلقونه عليّ. بينما كنّوا مكسيم بـ«أبي كتاف» لنحوله وضموره وبروز كتفيه». ومضيا في تجوالهما يجوسان كل مكان، فإذا لم يكن ثمة وقت للعودة ظهرًا إلى الفندق تناولا غداءهما في مطعم وطني مستخدمين أيديهما ونجشّا كما يفعل المصريون. وأرسل فلوبير إلى أمه يستحثها على قراءة كتاب «المصريون المعاصرون: عاداتهم وتقاليدهم» لإدوارد لين كي يساعدها على استيعاب كنه البيئة التي يكتب لها عنها في رسائله من مصر.

وفي البداية كانت الطبيعة هي التي تجتذب فلوبير بأكثر مما تجتذبه الدور والطرقات والأزياء والطباع، إذ كان يجنح برومانسيته إلى الخيالات والأحلام حتى وقف مبهورا أمام النيل الذي «ينساب من كل قارب على سطحه شراعان يضاوان كأنهما وشاح رقيق يلتف حول عنق حسناء يجعلان القارب يبدو مثل طائر الخُطّاف الطويل الجناحين المشقوق الذيل». ونحن نلمس

هذا الاتجاه للتباعد عن الآثار القديمة والعاكف على رؤية الإنسان المعاصر والطبيعة المحيطة عند عدد متزايد من الكتاب والرحّالة أحسّوا أنهم عرفوا ما فيه الكفاية عن العالم القديم، حتى أن مؤرخا كبيرا هو جوزيف ميشو قد كتب ساخرا في كتابه «رسائل من الشرق» نقدا لكتابات الرحّالة التي توحي بأن مصر قد خلت من السكان حتى باتوا لا يتحدثون عن البشر إلا حين يأتي ذكرهم منقوشا أو مصوّرا فوق حجر من الأحجار، وأنه لكي يثير إنسان التفاتهم فلابد أن يكون قد مرّ على وفاته ثلاثة آلاف سنة، وألا يكون قد بقيت منه إلا مومياء! وقد أفصح ميشو في صراحة عن أن ألف جيل مضت بتراثها لا تصرفه عن التطلع إلى الجيل الحاضر الذي يسعى هو أيضا أن يحتل مكانه من التاريخ. وأنه لو كان يملك المزيد من الوقت لما قصد طيبة ولا غيرها من الأماكن الحافلة بالآثار والأطلال بل كان يؤثر أن يقضي شهورا في قرية من قرى الدلتا. وكذلك فعل فلوبير، فلم تشغله الآثار كثيرا بل أخذ يهتم بالإنسان المصري، وإن كان أكثر ما شدّه لدى المصريين ما لاحظه من مشاهد عجيبة أو قبيحة «جروتسكية»(٦٠) في حياتهم اليومية تبعث على الضحك أو تثير الاستنكار، فراح يسجّل انفعالاته أمام هذه المواقف بينما تتكالب على ذاكرته صور المشاهد الهزلية التي دأب المسرحيون الأوروبيون على أن يثيروا بها ضحكات النظارة، على حين يراها هو تحدث في الواقع المصري حقيقة لافتة للنظر لا خيالا من وضع كتّاب المسرح: مثل مشهد جلد العبيد، والوقار المصطنع لتاجر الرقيق وهو يمارس مهنته المرذولة، وجسارة الباعة وهم يطففون الكيل والميزان دون خشية لائم أو استنكار مستنكر. ومثل مشهد مهرّج محمد علي الذي أعجبته امرأة في السوق فجذبها إلى أحد الحوانيت وأضجعها على طاولته ثم أتاها أمام الجمهور، وهنا يزعم فلوبير أن صاحب الحانوت ظل على هدوئه يتابع تدخين أرجيلته دون أن يلقي بالا لما يحدث أمامه. كما يذكر حدثا غريبا يصعب تصوّره وهو سير أحد المجاذيب عاريا في شوارع القاهرة إلا من غطاء لرأسه وآخر لعورته لا يكاد يأخذه البول حتى ينزع غطاء عورته، وهنا تهرع النساء لعمست نحوه يتبركن باندفاق بوله أملا في الإنجاب. وإني أشك كثيرا في صدق هذه الرواية، فأحداث التاريخ تؤكد ما عرفه الشعب المصري من حياء وغيرة، فما يراه مصر الرجل وهو يقبّل امرأة في الطريق مما يثير استياء العامة فإذا دماؤهم تغلي في عروقهم. وما أعتقد أنه حدث في تاريخ مصر أن تهلب امرأة مسلمة أمام رجل عار في الطريق مهما قيل إنه من أولياء الله فما ذلك إلا من ... من جانب فلوبير، إلى غير ذلك من الروايات ... التي ... ولم أجد في قدرا على تصديقها.

(٦٠) Grotesque في زخرفي فيه غلو في التشويه أو مجاوزة الحد فيما هو طبيعي أو فيما يخالف الواقع مما يخرج به إلى العبث المازح أو القبح المثير للسخرية والازدراء أو البشاعة المثيرة للهول والفزع أو الكاريكاتير الذي يحرك في النفس الفكاهة والتندر لغرابته وغرابته، وهو مع هذا على جانب كبير من الفكاهة ... ويطلق هذا المصطلح على كل ما هو شاذ غير طبيعي أو غير مألوف [م.م م ش]

ومن هنا ذهب جان ماري كاريه إلى أن زيارة فلوبير لمصر وهي جزء من الشرق الذي ... أذهان الرومانسيين هي التي خلعت عنه ثوب الرومانسية وأيقظت فيه روح الأديب الواقعي، فإذا أكثر ما يشدّ انتباهه هو حياة الجماهير الكادحة بصخبها وضجيجها وانطلاقها إلى العمل وضربات العصا تهوي متلاحقة فوق ظهورهم: «ولا أنت تستطيع أن تدرك مدى سطوة السوط في هذه البقعة من العالم. فكل من يملك ... الثياب ... من ثيابه أهدام وسخة أو من يكاد أن يكون عاريا ... وحتى أقول أهدام وسخة أعني ... لا تصير مهلهلا، فالضربات تنهال على الجميع في ... لا حدود على ... الضربات والصيحات التي تضفي على ... لحنا مطردا ... مشاهد ... في ... تكون ... مرة ... مرة ... فيشة ... الحمير ... ذلك ... يشبه ...

الرشيق باختيال البجعة بعنقها. ويعترف فلوبير بأنه يلتقط بلذاته الساخرة من المشاهد الشعبية اللاذعة ومن النكات النابية والنوادر الفاحشة والمشاهد المقززة، كل هذا في التصاق شديد بالواقع لا يخالطه انعطافه نحو الخيال الرومانسي أو محاولة لتجميل صورة الواقع أو تخفيف حدّة ضراوته أو تلطيف قسوة عباراته المستهجنة. لقد أخذ يجول في الطرقات ويرنو إلى الجالسين في المقاهي برؤوسهم الصلع متكئين على الأرائك يتذوقون أنفاس ... الشيشة ويرشفون القهوة، وهو أمام هذه المشاهد أشبه ما يكون ... الذي انتزع من عقوته وزج به وسط ... سيمفونية ... تكاد الآلات النحاسية تخرق طبلة أذنه على حين تُرعد الوتريات من حوله، وترفرف ... زغرفات ملتهبة فإذا هو أسير لهذه الجزئيات جميعا التي تملك عليه حواسه وتأخذ بناصيته، وما تلبث هذه الجزئيات أن تندمج اندماجا شاملا يسوده الانسجام والتناغم والتوحّد»

لقد انقضت أيامه الأولى بمصر وكأنه في قبضة شيطان، تحاصره الألوان اللافتة وتبهره الألعاب النارية، وتشدّ عينيه إلى أعلى المآذن الحائم عليها طير اللقلق الأبيض وشرفات البيوت التي استلقت وراءها الجواري المتهتكات وأطلال الجدران وقد اخترقتها فروع أشجار الجميز، وتدوّي في أذنيه صلصلة الأجراس المدلاة من أعناق الإبل، ويعار [صوت] العنز السود وهي تهرول في الطريق، كما تزحمه جماعات الباعة وجموع الخيل والحمير. وتعجبه حين يسحو بليل القناديل الزيتية في أيدي بعض المارة والمشاعل الضخمة المضيئة يمضي بها سوّاس الدواب، والناس يصارع بعضهم بعضا في جدل وعراك، ويعلو في الجو صخبهم فيحسّ بألفاظهم العربية ... ويدهشه ... الشرق حيث ... مرسلة ... والفارسي بمعطفه من الفراء، والبدويّ بوجهه البنيّ السّمرة يخبّ في عباءته البيضاء المسدلة إلى أخمص قدميه، وكأنما يكتسي القوم بالألوان لا بالثياب! لقد أتى فلوبير وفي ذهنه صورة عن الشعب المصري بأنه جاد غاية الجد فإذا هو يراه هنا مرحا كل المرح نائيا بالفطرة، حتى ليظن أن حفلات الزفاف والختان هي ذرائع يلتمسها الناس لإمتاع نفوسهم بالمرح والموسيقى حيث الزغاريد الحادة تنطلق بها حناجر النسوة المبرقعات وهن على ظهور الحمير منفرجة أذرعتهن عن أجسادهن وكأنهن السور في اكتمالها متشحات بالسواد يتحركن على أربعة أرجل، وهو ما يحار امره في فهم كنهه عندما يلمحه لأول وهلة. ويكتشف بحسّه المرهف أن السلطة في واد والشعب في واد حيث يرى الناس ينعمون بحرية لا حدود لها، وإن لم يغب عنه أن هذه الحرية تجري بها الألسنة في حياة الناس العامة ولا تستطيع الصحف أن تخطها، فترى المهرّجين والمشعوذين والحواة في الطرقات والميادين العامة يهزأون بالسلطة على هواهم واصفينها بألفاظ بذيئة جملته يجري بخياله إلى الشاعر «بوالو» الذي كان يظن أنه لا توجد لغة تملك ألفاظ تتخطى حدود آداب اللياقة من اللغة اللاتينية، فيتصور أن بوالو لو سمع الألفاظ الفاحشة التي يتبادلها المارة في طرقات القاهرة لأيقن بتفوق العربية على اللاتينية في هذا المضمار. كما يلفت انتباهه أن المرء في غير حاجة إلى ترجمان كي يفهم المصريين، فهم يكشفون عما يريدون من خلال إيماءات جليّة للتعبير على أن الدهشة والإعجاب تمسك بجميع جوارحه ساعة يقف مجريا فوق قمة الهرم ... التي أتحدّى أي إنسان يمكنه أن يصوّر ما أراه ولو في عبارة موجزة، فكل ما يستطيعه امرء في مثل موقفي هذا هو أن يضمّ معطفه حول جسده ويُطبق فمه صامتا أمام هذه الروعة المذهلة ... ذلك

هو كل ما يمكن قربه». ويدفعه هذا الانبهار إلى أن يكتب لأمه قائلا: «حقا إن الشرق يبدأ من القاهرة».

غير أن قراءته لرواية هيرودوت بأن الهرم الأصغر، هرم منكاورع، قد شُيِّد من أمر غانية يونانية تدعى رودوبيس أنفقت عليه من الأموال التي كان يغدق بها عليها عشاقها جعلته يؤثر أن يطلق اسم رودوبيس على هذا الهرم. ولا شك أن تصديق فلوبير لهذه الرواية الملفقة يرجع إلى شهواته المعروفة وولعه المأثور بالعاهرات القدامى منهن والعصريات، حتى إنه لم يحس الخجل من الاعتراف بهيامه هذا وهو يقول: «قد أكون شاذ الذوق، ولكنني على أية حال أحبُّ الدعارة بذاتها بغض النظر عما وراءها من متعة جسدية، فما يكاد بصري يقع على عاهرة تخطر بردائها القصير تحت ضوء المصباح و... حتى يحمق قلبي خفوقه لرؤية راهب في عباءته وقد شدَّ وسطه بزناره، إذ أن ذلك يثير كوامن نفسي الدفينة. وهل هناك أغرب من المزيج الذي تتشكل منه عناصر الدعارة وهي الشهوة والأسى وخيبة العواطف الإنسانية والسُّعار الجسماني ورنين الذهب، والتي ما يكاد المرء يتعمق في كنهها حتى يُصاب بدوار».

وعلى نقيض وصف جيرار المتحمس لعودة المحمل الشريف يتبع فلوبير أسلوبا يتسم بالواقعية الساخرة مبرزا ما اعتمده المحمل من هيبته الأولى بعد أن أخذ موكبه يتحلى ببعض المراسم الأوروبية: «ياللهول! إن الموسيقى تصدح «بالبولكا»[(٦١)] وقائد الفرقة الموسيقية فوق جواده يختال بكرشه في سترة الردنجوت الفرنسية وحذاء الفرسان الطويل العنق، بينما يتكشَّف الموكب فجأة عن نوبريك الأرمني وقد أخذ سمت رواد الحي اللاتيني [بباريس]. ثم يبدو العساكر الأتراك الذين يتجلى افتقارهم للذوق السليم من ارتدائهم الأزياء العسكرية الأوروبية... وينتهي الموكب بانضباط المغلوبين على أمرهم وقد دُسَّت سيقانهم في سراويل ضيِّقة شُدَّت إليها... عسعسه!».

وكتب فلوبير يصف موكب عرس مرّ أمام فندق «أوريان» الذي يعيش فيه بالقاهرة قائلا «الطبّالون فوق ظهور الحمير، والصبيّة فوق صهوات الجياد مرتدين ثيابا مدججة، والنساء متحجّبات بخُمُر سوداء يطلقن الزغاريد وإن تجلّت وجوههن من وراء الخمار الأسود الشبيه بقُرص الورق الرقيق الذي يتقدمه لاعبو السيرك. وثمة جمل غُطّي كله بالدنانير المذهّبة، ومصارعان عربيان احتذيا يرتديان سراويل قصيرين من الجلد دُهنا جسديهما بالزيت يؤديان حركات غريبة، ولاعبون ... بالعصي، وراقص يدعى حسن البلبيسي ارتدى ثيابا نسائية مطرزة وأسدل شعره المضفور على منكبيه وزجّج حاجبيه بالكُحل وألصق في ظهر سترته دنانير مذهّبة، وشدّ حول وسطه حزاما من ... مرصّعة، وراح يدقّ الصاجات بيما يتحوّى تحوّي الموج بطنه وجسده، ثم يحني ... وهو في سرواله المنتفش، وتبدو العروس تحت ظلّة حريرية حمراء تحف بها امرأتان جلاوي العيون، وهي محجّبة الوجه بخمار أحمر محتمرة بغطاء رأس مخروطي فتبدو كتمثال لُفَّ بلفائف قد أثمتها فلا تستطيع السير»[(٦٢)].

(٦١) Polka رقصة اشتق اسمها من تشيكية Pulka بمعنى نصف خطوة، ظهرت في بوهيميا في ثلاثينات القرن ١٨ ثم انتشرت في باريس ولندن في عام ١٨٤٠ [م. م. ش].

(٦٢) Gustave Flaubert in Egypt. A sensibility on Tour. Translated and edited by Francis Steegmuller Boston Little Brown Co. ١٩٧٣

وفي زيارات فلوبير ومكسيم إلى أفراد الجالية الأجنبية بالقاهرة التقيا بالعديد من الشخصيات البارزة وعلى الأخص أتباع سان سيمون من المهندسين الذين تدين لهم مصر كما قدمت بالكثير في تخطيط مشروعاتها العمرانية الكبرى وتأسيس معاهدها الفنية العسكرية المتخصّصة. وكان بين الذين التقيا بهم أيضا شارل لامبير بك ذو النظرة الوادعة والمظهر الشرقي، تتحرك أصابعه حبّات السبحة وهو يدعو إلى نظرية الفن المقصود بمتعته ... ، فيحار مكسيم إلى مذهب لامبير بينما يظل فلوبير على إيمانه برسالة الفن للفن[(٦٣)] غير مرتبط بوظيفة اجتماعية أو ... وقد أشار عليهما لامبير الذي لمس جدّيتهما بالتلمذ على شاب مثقف هو خليل أفندي الذي درس الهندسة والقانون بباريس وصناعة نسج الحرير بليون، لكنه عُيّن بعد عودته من فرنسا رئيسا لمجلّدي مكتبة الأزهر، فرفض المنصب البعيد كل البعد عن مؤهلاته وهو ما أوغر صدر الباشا عليه وشرّده، فمضى يطوف على طرقات القاهرة بحثا عن عمل. وقد أخذ فلوبير ومكسيم يتلقيان على يديه دروسا يومية لمدة أربع ساعات لقاء ثلاث فرنكات في الساعة. وخرج مكسيم من هذه الدروس بمخطوطة كتاب من ثلاث وستين صفحة بعث بالمراد عام ١٩٣١ عن العادات الإسلامية وشؤون الولادة والختان والزواج والحج وشعائر الموت، على حين اتجهت نية فلوبير إلى استخدام محتوى هذه الدروس مادة لقصة شرقية لم يُكتب لها الظهور.

وقد شدّ فلوبير نغم موال من المواويل المصرية لما بعده الإيقاع ودقة الأداء، فاندفع ينظم قصيدة على نغمه وهو كان قد نظم الشعر عمره، سخر فيها من شغف صديقه مكسيم بتصوير الفوتوغرافي واختلق فيها قصة لفتاة قاهرية تُربّة فتنها مكسيم بآلة تصويره ... تكفر بأمره، وما كانت الفتاة تعرف شيئا عنه محاولتك أن تحدس من يكون متمتمة:

«ما أقساه من خوف يُمسك بي خلف أسوار الحريم

عن بُعد، المحْك من فرجات المشربية.

فتبدو لي حينا وكأن رأسك تغلّه هالة سوداء

... عن ...

... بدعر

... روحي،

حتى ... وقد ...

... السحنة.

نحس أصابعك في سائل لا أدري كنهه

وما أكثر رؤيتي إياك تصرّ على أسنانك

وأنت تعدو برفقة تابعك إلى الخيمة.

... من ... ؟

من أي ... ؟

وفي ... حيمة ... ؟

أنت يا من تجد صوغ يديك خدعة يقرأ ويكتب.

(٦٣) الفن للفن هو مذهب النزعة الجمالية التي سادت الأدب الفرنسي في أواسط القرن ١٩ والأدب الإنجليزي في أواخره، وتذهب إلى أن الاعتبارات الجمالية تسمو الاعتبارات الأخلاقية

تتحرك وكأنت الرصاصة المنطلقة من البندقية،
أو السهم المقذوف من القوس،
أو الحدأة المنقضة،
أو العضة الحاطفة في أعقاب الإهانة.
متأبطا جرنا مربعا يغشيه غطاء أسود (٦٤).

والحق إنهما كانا مختلفي المشارب، إذ كان مكسيم مجداً مثابرا أتي إلى مصر معتزما إنجاز عمل ضخم عساه يخلد به اسمه. وكان قد أحسن إعداد رحلته عن دراسة جادة وعن دراية واسعة بمكتشفات بلزوني ولبسيوس وشمبوليون وونكسون وبريس دافن، ويرجع هذا كله ولعه بالتاريخ والآثار والحفائر والمعابد والأساطير العربية. اسمع إليه يحدث عن نفسه:

«ولدت نشطا ضامراً هائما بالترحال
قدمي كقدم البدوي صلبة عنيدة
وشعري كشعر الزنجي جعد قصير
لا تملك أشعة الشمس أن تنهك عيني مهما توهجت
أعشق الشرق والنور
والسور الكواسر المحلقة في السموات
أسعي إلى الأوطان العريقة
التي عشت فيها بروحي قبل أن يولد جسدي!».

وعلي حين كان مكسيم على هذا النمط كان فلوبير حبيب حسنا معامرا ذا نزوات، مريضا ينشد الاستشفاء والسلوان. وعلي الرغم من ذلك لم تخل رسائله من بعض التأملات الحادة في المجال السياسي، حتى لقد تنبأ في إحدي رسائله باحتلال إنجلترا لمصر حيث يقول: «يبدو لي أنه قد بات من المستحيل ألا تقدم إنجلترا على احتلال مصر بعد أن حشدت العديد من جنودها في عدن، ولو أنها حركت عددا منهم إلى السويس لاندفعوا في ستراتهم الحمراء زحفاً على القاهرة في يسر وسهولة. وأعتقد أننا سنصحو ذات صباح خلال أسبوعين بنبأ احتلالهم لمصر. تذكر نبوءتي فإني أتوقع مع أول بادرة اضطراب في أوروبا أن تحتل إنجلترا مصر كما تحتل روسيا القسطنطينية بينما يتهددنا نحن الاعتقال بين جبال سوريا. وليس في مصر قوة يمكن أن تصد جيشا غربيا، حتى إن عشرة آلاف جندي أوروبي تكفي لاحتلال هذا البلد الذي سرعان ما سينقلب موظفوه الأوروبيون على الحكومة التي يكنون لها الاحتقار، في حين أن المصريين الذين اعتادوا الصمت لن يحركوا ساكنا مهما اختلفت أسماء من يحكمونهم لأنهم يقولون إنهم لا يجنون شيئا كما أنه ليس لديهم ما يخسرونه. ولم يكن عباس باشا فيما أرى وكما أحب أن أهمس لك به في أذنك إلا عبيطا وكان به مسا، فهو أعجز ما يكون عن فهم أي شيء أو عمل أي شيء، ثم هو لا يكف عن هدم كل ما شيده محمد علي. وقد استشرى الفساد هنا وبات الجميع واجبين يدعون إلى العبث. بل إن كثرة من الأوروبيين هنا قد باتت أشد شرقية من الشرقيين. وقد استرعى نظري أن أضرحة أسرة محمد

Soad Abdel Meguid: (٦٤) Aperçu Sur la vie et l'oeuvre de Maxime du Camp 1822- 1894, Rennes 95.

على كلها على ذوق سقيم هو خليط بين الذوق الشرقي والذوق الأوروبي، فنجد فيها ملامح من طراز الروكوكو (٦٥) ومن أسلوب الفنان كانوفا (٦٦)، وجاء طلاؤها وزخارفها على نحو يشعر المرء بأنها ملاهٍ ليلية تضاء كما تضاء قاعات الرقص» (٦٧).

وفي شهر فبراير استقل مكسيم وفلوبير المركب الشراعية التي انطلقت بهما على أنغام الناي والدربكة إلى الصعيد. ويذكر مكسيم أن الرحلة كانت تفيض بهجة ومرحا على عكس ما كان يشعر به فلوبير. وبعد أن اتخذا مرقديهما في القارب استسلما لنعاس أقصى سراعيث معه مصحبيهما، كما يقول فلوبير. وبعد يومين من مسيرتهما هبت رياح الخماسين فأخذت حبات الرمال تندس بين أسنانهما وتعشش في عيونهما وتعبر وجهيهما إلى الحد الذي تعذر معه تمييز ملامح أحدهما عن الآخر، وأخذت القوارب من حولهما تدور حول نفسها كما غدت الشمس قرصاً ملتهبا. على أن مكسيم قد رسم صورة أشد دقة حين قال «إن الغبار قد حجب أشعة الشمس فغدت كالقرص المعتم». وهكذا نلمس الفارق لا بين تلقائية التعبير لحظة المشاهدة وبين وصف المشهد بعد فترة من وقوعه فحسب، بل وكذلك بين عاطفتين مختلفتي الحساسية والطبع، فعلي حين كان فلوبير أديبا مطبوعا كان مكسيم أديبا دارسا، وبينما حساسية فلوبير هي حساسية الروائي الذي يفيد من الرحلة كي يبعث في أسلوبه الحياة مستغلا الأحداث التي تقع أثناء حسه في روايته دون أن يسوقها في صورة سردية بحتة. كانت حساسية مكسيم حساسية المحرر الصحفي البارع. فما يكاد يصل إلى قرية الشيخ عبادة [أنتينوبوليس] التي شيدها هدريانوس بعد أن أغرق صفيه أنتينوس نفسه في النيل فنصبه الإمبراطور إلها على المدينة وحشدها بمعابد التي حرق المحور في ذكره، حتى يروي لنا مكسيم أن هذه المدينة كانت ما تزال قائمة حتى عشرين سنة قبل وصوله عندما رأى إبراهيم باشا أن يقيم مصنعا لتكرير السكر إلى جوار جزيرة روضة فهدم مباني الرومانية الجميلة وشيد من أحجارها مصنعه الجديد. وهبط أسيوط فمضى يحدثنا عن قوافل دارفور التي تصل منهكة إثر الرحلة الشاقة يسوقون العبيد الذين جفت حلوقهم عطشا، ويتوقفون أياما في الحجر الصحي حيث يقوم النحاسون «الجلابة» بخصي الغلمان الزنوج لإعدادهم للخدمة في مخادع الحريم.

وكان محمد علي قد أصدر فرمانا عام ١٨٣٤ بطرد الغوازي من العاصمة وتهجيرهن إلى إسنا وقنا وأسوان. وحين وصلا إلى إسنا خطر لهما زيارة كوتشوك هانم [الأميرة الصغيرة]، وهي التي اشتهرت في دنيا الأدب بعد أن روى فلوبير قصتها في يومياته وفي رسالة له إلى صديقه لوي بوييه، كما رواها مكسيم في كتابه «النيل». وكانت كوتشوك هانم من السيدات المرموقات التي يتوق لرؤيتها الرحالة والسائحون الذين كانوا يسعون إليها لهفين. وهي سورية الأصل وافدة من دمشق، وكانت في مبدأ الأمر عشيقة عباس باشا حين كان محافظا للقاهرة، حتى إذا اكتشف خياناتها له هجرها بعد أن أشبعها ضربا بالسياط، وقيل إن سليمان باشا الفرنساوي قد آواها طرفة حينا إذا صدقنا ما جاء في قصة «زفيران كاظمان في مصر» لشارل ديدون، غير أن الشيء المؤكد أنها قد نفيت إلى إسنا بعد أن تولى عباس باشا حكم مصر. وكانت لياليها في دارها عامرة بالرقص والموسيقى مفتوحة الأبواب لمن يفد إليها من الزوار الأوروبيين الذين لم يبخلوا عليها بالمال الوفير. ويروي فلوبير لحظة وصولهما إلى دراها بعد أن قادتهما إليه وصيفتها «بمبة» فوجداها في انتظارهما: «وبين يديها كبش قد طلي بالحناء الصفراء وعلي فمه كمامة من المخمل الأسود يتبعها

(٦٥) Rococo الطراز الفني الذي ساد في أوروبا خلال الفترة من حوالي ١٧٣٠ إلى حوالي ١٧٨٠ يتميز بالزخارف ذات الخطوط المنحنية المتموجة والمحاكية لأشكال المواقع أو المنحوتة بأشكال الكهوف والمحارات لاسيما في إنجاز الأثاث والزخرفة المعمارية الداخلية. وهو فن أرستقراطي فيه إفراط في الشغف بالأناقة أسلوبا وموضوعا [م.م.ع.ث].

(٦٦) Canova انطونيو كانوفا (١٧٥٧ - ١٨٢٢) مثال إيطالي استدعاه نابليون بونابرت إلى باريس هو وغيره لعمل عدد من المنحوتات والتماثيل، ليثبت أن الإمبراطورية الفرنسية تستمع بفنانين جميعهم من كل الأقطار كما كانت الحال في روما القديمة. ويعد كانوفا هو من عبر عن الحركة النيوكلاسيكية Neo-classicism [م.م.م.س].

(٦٧) M. Carré: Voyageurs et écrivains Français en Egypte.

أنّي سارت كالكلب الأمين. وكانت خارجة لتوها من الحمام بنهدين بارزين، وعلى رأسها طربوش قمّته دعمة مسنّمة تتوسطها زمرّدة خضراء. وتدلّت خيوط زرّ طربوشها فوق منكبيها العريضين فبدا هي تبدو وكأنها مروحة. وانسدلت على جبينها خصائل من شعرها الأسود المفروق وسط رأسها بينما تدلّت بعض ضفائره على عنقها والبعض الآخر وراء ظهرها، وقد ارتدت سروالاً وردياً نصفاً يغطي ساقيها إلى قدميها. ويكاد المرء يستشف لون جذعها وراء هذا النسيج الشفاف البنفسجي الذي [illegible]. وكانت تحمل في إحدى يديها باقة من الزهور الصناعية البيضاء، ويزيّن أحد معصميها صفّان متداخلان من الأسوار الذهبية. كما تدلّى من عنقها عقد من صفوف ثلاثة من الخرزات الذهبية الكبيرة، وتحلّت أذنها بقرط على شكل قرص ذهبي تحيط بحافاته حُبيبات من الذهب، وقد وشمت ذراعها الأيمن بوشم أزرق. استقبلتنا واقفة على أعلى الدرج في كبرياء الملكات لولا ما تفيض به من حنان دافق، وبدت وسط زرقة السماء الصافية المحيطة بالشمس وقد مالت إلى الغروب مكتنزة ناهدة الثديين المكوّرين [illegible]، بعينين سوداوين نجلاوين وحاجبين داكنين. وحين بلغنا الطابق الأول عطّرت أكفّنا بماء الورد بينما كان فمها يفوح برائحة زكية. واستدرنا إلى اليسار عند نهاية الدرج لنلج حجرة مربّعة مطلية بطلاء أبيض حيث وجدنا أريكتين ونافذتين تطلّ إحداهما على الجبل والأخرى على المدينة. وكانت كوتشوك هانم امرأة فارعة الطول لطيفة القسمات، أقل من المصريات سمرة، كلما مالت يمنة أو يسرة [illegible] وحين سألتنا إن كنا نبغي الترويح عن أنفسنا [illegible] الترويح عن نفسه بالانفراد بها، فهبطا إلى الطابق الأرضي [illegible] ثم أحدثت ذورتي [illegible] رقص [illegible] على ركبتيه ولربابة نوع من الكمان [illegible] على ركبته، وهي ذات وتريين من شعر الخيل غير أن عنقها طويل إذا قيس إلى سائرها، وليس ثمة ما هو أشد نشازاً من نغمات هذه الآلة. وكان الموسيقيان لا يكفّان عن العزف إلا إذا نهرتهما كوتشوك هانم التي ما تلبث أن تشرع هي ورفيقتها في رقص بدائي وقد دسّت ثدييها العاريين بين طيّات صدريتها وشدّت وسطها بحزام بنّي مفضّض تتدلّى منه الشرّابات. وكانت وهي ترقص تنهض واقفة على قدم واحدة ثم تبدل بها الأخرى في حركة بارعة ورشيقة، ما تكاد تثبت قدم على الأرض حتى ترتفع الأخرى أمام الساق الأولى، ولقد سبق لي أن شاهدت مثل هذه الرقصة مصوّرة على الأواني الإغريقية القديمة. وعلى أية حال فإن رقصهما كان دون رقص حسن البلبيسي الراقص المعروف في القاهرة، وليس هذا بغريب فمثل الدارج يقول إن رقص الجميلات كثيراً ما تنقصه الإجادة. أما ما أدهشني حقا فهو أنه ما كادت كوتشوك هانم تخلع ثيابها لأداء رقصتها حتى انبرى بعض الحاضرين [illegible] كي لا تقع أنظارهم على عاريه استمساك بذيل الحياء الهارب من عالم لا مكان له فيه. وأخذت كوتشوك هانم الدربكة وأودعتها في حجرها تضرب عليها بيديها، وأقبل الجميع على العرق المقدّم إليهم مما يحتسونه. وسرعان ما هبّت كوتشوك هانم ناهضة وخطفت طربوشي ووضعته فوق رأسها بعد أن أثار منظر رأسينا الحليقين ضحكاتها، ثم انخرطت في رقصة «النحلة» المثيرة التي لم تبلغ منا موضع الإعجاب. ولقد قبت كوتشوك هانم على مضض مبيتنا عندها إذ كانت تحسب حساب اللصوص الطامعين دائماً فيما تمتلكه الأجانب. وكان ثمة حراس أو إن شئت فسمّهم قوّادين، كانوا قد أسلموا أنفسهم

إلى النعاس على الرغم من عصا كوتشوك هانم التي كانت تناوشهم بها ضرباً. وقد أمضيت الليل معها صاحياً كثيراً متعطشاً بلا أيدي حين كانت تتعذر بيننا لغة الكلام. وكم حنوت عليها مدثّرتها بمعطفي ساعة ينتابها السعال.. وبعد أن أنهكتنا المتعة استلقت نائمة بين أحضاني وقد سندت رأسها على ذراعي واشتبكت أصابعها بأصابعي، غير أني لم أستسلم مثلها للنوم إلا بعد مرة طويلة شعدت فيها بالتطلع إلى هذا الوجه الصبوح وهو يغط في نومه والشخير يخرج مع [illegible] في [illegible] وكم راودني ما وقع لهولوفرنس وهو بين أحضان جوديث في ليلته الأخيرة حين انتهزت فرصة نومه فحزّت عنقه لتقدّمها إلى قومها من بني إسرائيل. كان ليلتي حلم يقظة عميقاً طويلاً شاقاً بلا نهاية، كنت خلاله أنعم النظر في جسدها الأنثوي وأستعيد صور رقصها وصوت غنائها الذي لم ألتقط منه لفظاً ولا طربت له بمعنى حتى أخرجتني إلى طريق حاجة لا تقاوم إلى التبوّل فقضيتها تحت زرقة سماء متألقة بالنجوم. وحين أشرق علينا الصباح ودّعتها وداعاً تشوبه اللوعة. إن غرور الرجل لا يبلغ مداه حقاً إلا إذا أحسّ أن الفراق قد خلّف وراءه أطيب الذكريات وأن شريكته لن تزال عالقة بالذهن به تفكر فيه أكثر مما تفكر في غيره وأنه سيظل في وجدانها حياً»[67]

ولا ريب أن كوتشوك هانم كانت «النموذج الأصلي» الذي شكّل فلوبير على غراره الشخوص النسائية الشرقية في رواياته مثل سالامبو وسالومي بشبقها العارم ورقّتها الآسرة. فلقد أثارت المرأة الشرقية بأملاك فلوبير بشغفها الوادعة ووجدانها القديم، وبما أتاحته له من أن يغرق في أحلامه وأوهامه وهو إلى جوارها مضطجع، فهي في كهنها أنثى لا ينقطع عطاؤها وإن لم تفصح [illegible] عنا في نفسها. ويجعل إدوارد سعيد في كتابه «الاستشراق» من علاقة فلوبير بكوتشوك هانم نموذجاً للعلاقة بين الغرب والشرق فيقول: «هي دائماً علاقة القوي المسيطر بالضعيف المغلوب على أمره وفقاً للمفهوم السائد بين الأوروبيين خلال القرن التاسع عشر، وهي علاقة سيّد بمسُود ليست ثمة مساواة بينهما. فقد أشاع فلوبير في أوروبا بعد لقائه بالعاهرة المصرية نموذجاً صارخاً لامرأة شرقية لم يتح لها التعبير عن مشاعرها أو الإفصاح عن شخصيتها أو التحدث عن ماضيها وحاضرها، بل إن فلوبير هو الذي تحدث عنها من موقع السيطرة والهيمنة بوصفه رجلاً أوروبياً ميسور الحال، ولم يكن مركز القوة الذي استمتع به فلوبير إزاء كوتشوك هانم مجرد لحظات عابرة بل كان تعبيراً عن المفهوم الشائع في علاقة القوة النسبية بين الغرب والشرق، وعن الأسلوب الذي يتناول به كلّ غربي كل ما هو شرقي»[68]

E. Said: Orientalism (68)

أقلع فلوبير ومكسيم برفقة ريح طيبة مواتية حتى بلغا وادي حلفا، ومن هناك استهلا زيارة معابد النوبة بالتوقف عند معبد أبو سمبل الذي غطّت الرمال مدخله، فتمكنا بمعاونة الملاحين من إزاحتها حتى كشفا وجه تمثال رمسيس إلى أسفل ذقنه كي يستطيع مكسيم التقاط بعض الصور الفوتوغرافية، ولم يتركا معبداً إلا زاراه حتى بلغا أسوان ومنها واصلا رحلتيهما إلى إدفو التي سجل فلوبير في يومياته [illegible] «أن معبدها كان مبولة عامة لسكان القرية جميعاً»[67]

وفي إسنا التقى فلوبير من جديد بكوتشوك هانم، وروى أنه وجدها منهكة إثر مرض ألمّ بها، وبالرغم من ذلك أدّت رقصتها أمامه. غير أن هذه الزيارة قد خلّفت في نفس فلوبير «حزناً بلا حدود» وقد أدرك «أنه لن يراها مرة أخرى، وشيئاً فشيئاً ستتلاشى قسماتها من ذاكرته».

وكتب مكسيم في «ذكريات أدبية» معلّقاً على زيارة طيبة أن فلوبير قد وقف مسحوراً أمام روعة

معابد الأقصر والكرنك والمقابر ذات التصاوير الجدارية ومعابد مدينة هابو والرامسيوم. غير أنه يعود فيسجّل بمذكراته أن فلوبير لم يكن يتذوق حماسه مثله، بل كان ساكنا منكفئا على نفسه تبدو له المعابد دائما متماثلة والمناظر متراصفة والمساجد متشابهة، وأنهما ما كادا يصلان إلى معبد فيله حتى أوى فلوبير إلى ركن ظليل بأحد أبهاء المعبد لمطالعة إحدى الروايات. ثم لا يلبث مكسيم بعد ظهور رواية «سالامبو» لفلوبير أن يبدي دهشته من قدرة الأخير على تسجيل تفاصيل انطباعات الرحلة التي كان يبدو عليه أنه يضيق بها، ويعدّ ذلك ظاهرة فريدة. فيصف فلوبير بأنه «على غرار بلزاك، لا يرى شيئا ولكنه يتذكّر كل شيء».

وفي هذا الاعتراف دليل على أن نوبات الاكتئاب التي كانت تصيب فلوبير بين آونة وأخرى، وحنينه الجارف إلى الوطن، وضيقه بقياس المعبد بشريط القياس، وبَرَمه بمحاولات التصوير الفوتوغرافي قد ضلّلت مكسيم. وفي الحق إن رسائل فلوبير ويومياته لا تخلو من وصف لهذه الآثار والطبيعة المصرية من حولها التي كان لا يعنيه منها إلا أن يثبت ما قرّ في خلده عنها فيقول على سبيل المثال: «ينبسط السهل الفسيح خلف الأقصر في اتجاه الكرنك وكأنه المحيط، على حين يسطع «بيت فرنسا» [الذي أهداه محمد علي لعلماء الآثار المصرية] ببياضه تحت ضوء القمر مثل قمصاننا النوبية . . . هذا الضوء المنساب الذي ينفذ إلى أعماق الخليقة حيث نواة الكون. الطقس دافئ [illegible] النجوم التي تبدو الليلة وكأنها أهلّة أو حبّات عقود من الماس تناثرت هنا وهناك [illegible] التي تشبه النجوم بالماس!».

وحين يصف معبد الأقصر يقول: «ما أشبه فضلات الطير التي تلطّخ المباني في مصر بالطحالب التي تغشّي مباني أوروبا. فهذه وتلك مظهر لاحتجاج الطبيعة على ما يشيّده الإنسان من مبان». وحين يعرض فلوبير للمسلّة التي تقوم الآن في باريس وحيدة بينما كانت من قبل قائمة أمام البوابة اليمنى للمعبد يقول: «ما أشدّ أسى ذلك الذي تمانيه المسلة وهي فريدة هنا في ميدان الكونكورد [illegible] ترى ماذا يجول في خلدها وهي تنظر إلى العربات تروح وتغدو بين يديها بدلا من تلك العجلات الفرعونية التي كانت تمضي تحت قدميها في الأزمان الغابرة بعد أن ظلت ثلاث آلاف من السنين تقوم إلى جوار زميلتها؟». ويعبّر مكسيم عن نفس المعنى في كتابه «النيل» بقوله: «وتبقى مسلة الأقصر وحيدة تحت الشمس الحارقة تتوق إلى أختها الغائبة».

وأغلب الظن أن مثل هذه التعقيبات هي التي أوحت لتيوفيل جوتييه أن ينظم قصيدة «الحنين بين مسلّتين» التي سنعرض لها بعد قليل.

وخلال رحلة العودة التقط مكسيم معظم صور المعابد، فكان أول تسجيل فوتوغرافي للآثار المصرية قبل أن تُزاح عنها الرمال فيما بعد خلال القرن التاسع عشر. ويعترف فلوبير «بأن تلك اللقطات تنتظم مجموعة من الصور المتميزة»، [illegible] ومن يدري، فلعلّه كان يقضي في هذا السبيل على مهج أقربائه إذ كان خاله زوجا لابنة شمبوليون».

وعن الأقصر يروي مكسيم في كتابه «النيل» كيف تُعلّق التجار الذين يطفّفون الكيل والميزان من آذانهم فيحاولون بينا يتوقّون الوقوف على أطراف أصابع أقدامهم تخفيف الآلام [illegible] ويؤمن مكسيم بجدوى هذه العقوبة [illegible] أحيانا أشدّ حكمة من أساليب أهل أوروبا. ويسجّل مكسيم تفاصيل هذه الواقعة حين يحكم

القاضي على تاجر بأن يُعرض على باب دكانه عبرة للجماهير، فيقوده شرطيان إلى مكانه من السوق، ويوقفانه فوق قالبي طوب وبعد أن يربطا إحدى [illegible] في الجدار يسحبان القالبين من تحت قدميه ثم يجلسان إلى جواره يدخنان النرجيلة حتى يحولا بينه وبين أن يهبّ أحد لمساعدته.

ويسوق مكسيم الحوار الذي كان كثيرا ما يدور بين الشرطي والمعذب حيث يفيض الشرطي في سبّ التاجر الذي يشكو للشرطي عذابه ويقسم له على براءته، ويستنجد بمروءته كي يخفف عنه ما يثقل عليه من ألم لم يعد يقوى على تحمله، ويتوسّل إليه أن يضع ولو قالبا تحت قدميه. غير أن الشرطي يفصح عن شماتته به ويتمنى لو تطول أذنه حتى تبلغ الأرض فتشهد يوم الحساب على غشّه. وأخيرا يلجأ التاجر المعذّب إلى رشوة يغري بها الحارس، لكن الحارس لا يلين قلبه بالقليل من القروش حتى إذا ما علا التاجر بما يوازي ما يطلب نهض الشرطي ليتسلّم ما عُرض عليه ويضع تحت قدمي التاجر القالبين ليخفف بذلك عنه بعض ما يكابد. ولكن ما إن يلمح الشرطي أحد البكوات أو الباشوات قادما حتى يسرع بسحب القالبين، ويظل المسكين معلقا حتى تختفي الشخصية ذات الشأن من أمامهما.

ويعتقد مكسيم أنه على الرغم من وحشية الجزاء إلا أنه عقاب جدير بالتطبيق على قرائي فرنسا مأثره أوقع من القوانين الفرنسية المتّبعة. ثم يستطرد ليقول إنه لو قُدّر له أن يرأس شرطة باريس، لأمر بين آن وآخر بتطبيق هذه العقوبة دون مبالاة بصياح المحتجّين. والغريب أن قرائي باريس لم يكتووا أبدا بنار هذا العقاب على يدي مكسيم دوكان حين أصبحت شرطة باريس تأتمر بأوامره.

وكان مما رآه فلوبير غريبا في الفن المصري تلك الصور الجدارية بمقابر الأشراف التي تسجّل مشاهد الحياة اليومية في مجالات الزراعة والتجارة والموسيقى والرقص، على أنه نحا نحوا شاذا في تفسيرها بما أضفاه من الغزل المكشوف على تصاوير المجتمع المثالي التي تصوّر في الحقيقة ما بين الرجال والنساء من ودّ وألفة وهم متحلقون حول موائد الطعام، فأسبغ على حركة الألسنة بالكلام وعلى المداعبات البريئة إيحاءات جنسية بذيئة نابعة من عشقه المهووم بالإباحية على العكس مما قصده الفنان المصري، ورمى عازفات القيثار البريئات بثيابهن الشفافة الجميلة بالفسق والخلاعة إشباعا لنهمه الشخصي بالجنس، مؤمنا أن الصور الماجنة كانت سابقة في الظهور على العصر الذي عاش فيه [illegible]. حتى لقد ذكّرته على حد قوله بتصاوير الفنان الفرنسي أشيل ديفريا عن بيوت الدعارة المنتشرة في باريس عام ١٨٢٩، وإذا هو يكتب إلى صديقه بوييه معلّقا: «تحمّلني هذه التصاوير إلى الاعتقاد بأنها تكاد تكون معاصرة لنا، وبأن [الغزل المطاط] كان شائع الاستعمال حتى في عهد سيزوستريس [سنوسرت]»، على حين لم تكن هؤلاء الفتيات اللاتي وصفهن بأنهن «بغايا» إلا مجموعات من الجواري والراقصات وحاملات القرابين. وقد وقع فلوبير في هذا الخطأ [illegible] لأنه لم يتعمق [illegible] هؤلاء [illegible]. كما أنه قد غاب عنه أن [illegible] كن يصوّرن بصورهن في ثياب [illegible] تفاصيل أجسادهن اللاتي [illegible] إليها تحمل معنى التقديس والتنزيه. ولا شك في أنه قد شاهد الإلهة حتحور برداء شفاف يكشف عن أجزاء جسمها في المجموعة النحتية المعروفة باسم ثالوث منكاورع من الأسرة الرابعة، كما لا شك في أنه شاهد أيضا عري عورة الإله «من» إله الإخصاب والإكثار مع مدى ما يحظى به من التبجيل والتقديس. وأغلب الظن أن فلوبير لم يقع في هذا الخطأ عن نية حسنة بل كان يتبع سنّته في رؤية الانحلال حيث لا يوجد وتجميع المشاهد الإباحية التي تثير الاستنكار، فإذا لم يجدها في الواقع اختلقها وأبدعها بخياله الرهيب. والأمر الشديد الغرابة هو أن البحث الدقيق لم يكشف حتى

اليوم عن وجود تلك الصورة التي وصفها فلوبير تفصيلاً لصديقه، ونستطيع الجزم بأنه لا أثر لها في أية مقبرة فرعونية، وأن كل ما كتبه فلوبير عنها ليست إلا أوهام فنان متيّم بالعهر والعاهرات على حد اعترافه الشخصي كما قدمت، تخيّلها بعينيه الزائغتين ثم خطّها وهو في غيبوبة إثر سقوطه في دنّ من النبيذ الرديء، أو تعرّضه لنوبة محمومة بعد أن أفرط في شدّ أنفاس قاصمة من الدخان الأزرق.

وكم دهش فلوبير حين رأى في سراديب تلك المقابر أسراً معها أطفالها العراة ودواجنهم، وقد اتخذ بعضهم من أخشاب التوابيت المنقوشة أبواباً لمأواهم. ومع أن فلوبير قد خال أن معبد الكرنك ليس إلا مجموعة من الأعمدة والتماثيل لا نظام لها، إلا أنه على هذا كان يعدّه أجمل المباني وأعظمها. ولقد حزن الحزن كله وهو يغادره، وكم سأل نفسه عن مصدر هذا الحزن الذي أحسّه. وحين نظر إلى السماء خيّل إليه أن نجومها تزيد على نجوم فرنسا حجماً، وكتب لصديقه لوي بوييه مثلاً: «قضيت الليل عند أقدام تمثالي ممنون. ألا ما أجمل وجه ذلك المارد المحزوز الذي تكاثرت النقوش على جسده، فهذه النقوش وعليها فضلات الطير هي الدليل الوحيد على نبض هذه الأطلال بالحياة. فلا تثبت على أشدّ تلك الأحجار تآكلاً أية عشبة خضراء إذ أنها مهترئة لا تكاد تُمس حتى تتفتت متساقطة كما يحدث عند مس [illegible] فلا يبقى لها أثر . . . وما أكثر ما تصادفت مسلّة شاهقة مستقيمة تكسوها طبقة بيضاء من روث الصقور والحدأت يزداد سمكها كلما هبطت صوب القاعدة. وهي في تصوري أثر من لافت للنظر، بل إنني أكتشف له رمزية غريبة تشير إلى أن ربة الطبيعة قد غضبت على آثار مصر التي ترفض أحجارها مدّ الطحالب بالغذاء فسلّطت عليها الحدأت لتلطخ بزبلها بعض مجدها القديم».

ولقد أمضى فلوبير ومكسيم في رحلتهما من قنا إلى القصير والعودة أياماً تسعة صادفا خلالها حراً لافحاً وعطشاً جعل سيرهما منهكاً، ونضب منهما الماء مما أثار برم فلوبير فإذا هو يتأفف [illegible] رحلته. على أن فلوبير ما كاد يدرك ميناء القُصير حتى رمى بنفسه إلى البحر من شدة الغيظ وهو يقول: «ما أمتع ما أحسست به حين أصبحت في أحضان الماء فاسترخيت وكأني أرقد فوق آلاف النهود الرجراجة التي تدغدغ جسدي». واستغرقت رحلتهما إلى الصعيد ثلاثة أشهر كانت لمكسيم وليمة حافلة التقط لها العديد من الصور الفوتوغرافية، كما كتب فلوبير إلى صديقه بوييه فيما بعد من استنبول يقول: «كم أتحرّق شوقاً إلى العودة إلى مصر فأبحر في النيل إلى إسنا حتى ألتقي بكوتشوك هانم، فلا زلت أذكر الليلة التي قضيتها بين أحضانها، فهي من الليالي التي لا تُنسى، [illegible] بها حتى الثمالة».

غير أن الصديقين ما لبثا بعد رحلة الصعيد أن انفصمت عرى الرابطة بينهما، فكتب فلوبير إلى لويز كوليه بعد عودتهما إلى فرنسا معلقاً على كتاب «النيل» الذي كان مكسيم قد بدأ نشره تباعاً في مجلته التي يصدرها «ريفو دو باري»: «بدأ صاحبنا ماكسيم نشر كتاب رحلته «النيل» على غرار «الراين» لفكتور هيجو. وما أشد عجبي لما ينطوي عليه من تفاهة صيغت بأسلوب فيه من السطحية ما يجعله أسوأ من روايته الأخيرة، فلقد اختفى المضمون في ثنايا سرده لتلك التفاصيل التي رآها والتي تصف الطبيعة التي شهدها. وأنت يا مَن قرأت مذكراتي ستروعك هذه الخيبة. تُرى إلى أية هاوية انحدر مكسيم؟».

وكانت لويز كوليه قد قرأت بالفعل مذكرات فلوبير كما قرأت قصيدة نظمها لوي بوييه عن كوتشوك هانم استوحاها من رسالة فلوبير إليه مصوّرها عند رحيل فلوبير «حزينة حزن أرملة»، فكتبت بدورها غاضبة إلى فلوبير معربة عن غيرتها من العالمة المصرية. وأجابها فلوبير قائلاً: «لقد ألهمتني ربّة الفن بما خلّفته مذكرات رحلتي في نفسك من تأملات عجيبة تفصح عما يجيش في قلب الرجل والمرأة، وفي يقيني أنهما ليسا متشابهين مهما قيل في ذلك. أما عن كوتشوك هانم فلا يشغلنّ بالك ولتصوّبي آراءك عن الشرق، فإني واثق أن العاطفة لم تجد سبيلها إلى قلبها، بل إني أشك في أنها كانت صادقة الحس بالمتعة الجسية، فلقد كانت تنظر إلينا نظرتها إلى الأجانب المبجّلين يجودون بسخاء. هذا كل ما أراه. أما ما سجّله بوييه في قصيدته عنها فهو ليس إلا شعراً فيه حظ من الإبداع ولا مكان فيه للحقيقة، فالمرأة الشرقية خالية القلب لا فرق عندها بين رجل وآخر، ولا همّ لها إلا رجيلة تدخنها وحمام تختلف إليه وكحل تكحل به عينيها وقهوة تحتسيها. أما عن إحساسها بالمتعة الجسدية فهذا أمر تافه بالنسبة إليها، وأكاد أعزو هذا إلى ختانها في سن مبكرة. أما ما تقولينه من أن [illegible] البق في فراشها يهوّن من قدرها في نظرك، فعندي أنه أشدّ ما يجذبني إليها، [illegible] ممتزجة [illegible] بعطر الصندل. [illegible] دوماً إلى أن أحس بعضاً من مرارة في كل شيء، فكم أحب أن أرى مَنْ يسخر مني مع انتصاري، وكم أحب أيضاً أن أستشعر اليأس في غمرة حماستي. وإذا عدنا للحديث إلى كوتشوك هانم فإني [illegible] وإياك أكثر ما نكون تفكيراً فيها على حين أني وإياك لا نخطر لها على بال. وما أكثر ما يسبح خيالنا حول جسدها على حين أن خيالها لا يذكر شيئاً عن ذلك السائح المعتوه الذي كان له شرف أن يعتلي أريكتها. إن من طبيعة الرحلات أن تضفي على الإنسان شيئاً من الدعة والتواضع، ولهذا كم يحس الرحّالة بضآلته في خضم هذا الكون الفسيح».

ونحن تتناسا الحيرة حين نطالع هذه الآراء ونضاهيها بانطباعاته عندما خلّف كوتشوك هانم [illegible] لا يسعه [illegible] إلا إذا أحس أن الفراق قد خلّف وراءه أطيب [illegible]، وأن شريكته لا [illegible] به أكثر مما تفكر في غيره، وأنه سيظل في وجدانها حياً». ترى هل كتب فلوبير هذه الكلمات للتو وهو في مركبه في النيل عقب ليلته التي قضاها في إسنا أم كتبها بعد عام أو أكثر من وصوله إلى فرنسا حين أعاد تدوين مذكراته؟ فليس بين يومياته التي سجلها خلال رحلته السالفة ما يفضي على هذا الانطباع بل نراه يقول: «ما أشرق علينا الصباح حتى ودّعتها وداعاً تشوبه اللوعة». وهكذا يبين لنا أن ما أضافه فلوبير إلى مذكراته بعد عودته إلى فرنسا استجابة لأسئلة لويز كوليه المكلومة في كبريائها هو من الواقعية المحضة، ولا غرو فقد كان فلوبير وقتذاك قد قطع شوطاً كبيراً في قصته الواقعية «مدام بوفاري»، بعد أن خلّصته الرحلة إلى مصر من رومانسيته المبكرة ودفعت به نحو هذا الاتجاه، وإن لم تخلّصه الخلاص كله بدليل أن الصدى الرومانسي لرحلته إلى مصر ظل يتردد في سائر كتاباته اللاحقة. فمن المعروف أن فقرات من مذكرات فلوبير في مصر لها وشائج قربى من مثيلاتها في الطبعة الأخيرة من روايته «تجربة القديس أنطوان» (١٨٧٤)، حيث يستمع إلى ملكة سبأ وهي تغري القديس قائلة «لأرقصنّ لك رقصة النحلة». وفي روايته الفلسطينية «هيروديا» يصف سالومي بأنها «ترقص رقص نوبيات الشلال، ساقاها منطبقتان وجذعها يتأرجح وبطنها تموج ونهداها يهتزان على حين يبقى وجهها جامداً لا انفعالات به وما توقفت قدماها عن الحركة». وفي روايته القرطاجية «سالامبو» (١٨٦٢) نشهد الكثير من وصفه لعالمة [illegible].

على أن إدوارد سعيد يذهب مذهباً آخر في تحليل كتابات فلوبير عن الشرق فيعدها:
«محاولات لتشكيل عالم خيالي بديل عن عالم الواقع الغربي، إذ يلجأ فلوبير إلى الألوان الزاهية المفعمة بالجمال وإلى المناظر المثيرة في مقابل اللون الرمادي السائد في مشاهد الريف الفرنسي والصور البرجوازية المملة، ويتحدث عن كل ما هو غامض ساحر بدلاً مما هو مألوف. ومن ثم كانت رواياته عن الشرق ثمرات مبتكرة لقراءاته المستفيضة في المصادر الغربية عن الديانات والحروب والشعائر والمجتمعات الشرقية أكثر مما هي مستقاة من الواقع الفعلي. كما تكشف كل رواياته حول الشرق عن رغبته في الهروب إلى أحلام منقطة خصبة حيث تتوق شخصياته إلى ما تفتقده في حياتها من حيوية لتجدها في عناصر شرقية كالحريم والأميرات والجواري والراقصات والمعابد يحاول من خلالها الجمع بين فكرة الشرق وفكرة حرية الجنس والعربدة. فالشرق عنده وعند غيره مكان يستطيع المرء فيه إشباع شهواته حيث يعجز عن مثلها في أوروبا. ولا شك أنه كان ميالاً إلى الوقوع على كل ما هو شاذ، وهذا ما تجلى في جمعه بين المبالغة في البهيمية التي تصل إلى حد يثير الاشمئزاز وبين الزهادة الفكرية المسرفة بالمثل، أي الجمع بين الأضداد، وهو الطابع الذي أخذ مع الزمن يمثل عنصراً جوهرياً في قصص فلوبير المحتشدة بالمتناقضات ونماذج اللبس وازدواج المعاني»[٦٨]

وإذا تأملنا النتيجة التي انتهى إليها كل من مكسيم دوكان وفلوبير من رحلتيهما يمكن القول بأن مكسيم قد عاد إلى باريس ممتلئ الوفاض بالملاحظات والصور الفوتوغرافية التي سرعان ما أفاد منها، فنشر موسوعته الحافلة «مصر والنوبة وفلسطين وسوريا»[٦٩] «رسوم فوتوغرافية التقطت سنوات ١٨٤٩، ١٨٥٠، ١٨٥١ مصحوبة بنص شارح ومسبوقة بمقدمة، وتضم مائة وخمسين لوحة فوتوغرافية»، وتعدّ أولى النماذج المبكرة للكتب التي تجمع بين الصورة الفوتوغرافية والكلمة المطبوعة. ونال دوكان بفضلها وسام جوقة الشرف. وقد لاقت هذه الصور الملتقطة في مصر نجاحاً منقطع النظير، غير أن فلوبير ما لبث أن تناول مقدمة دوكان بالنقد ذاهباً إلى: «أنه لا يكاد يحصي فيها ثلاث صفحات يمكن عدّها لمكسيم دوكان، فكلها منقولة عن شمبليون ونيبيوس، كما أن الكتاب نفسه قد أعدّ في عجلة وأُنفق على إخراجه في بذخ.»

Maxime du Camp. (٦٩)
Egypte, Nubie et Syrie.
Gide et Baudry 1852

وحين يظفر مكسيم بوسام جوقة الشرف يجدها فلوبير فرصة للسخرية منه والتهكم على مواهب مكسيم في مداعبة نفسه فيقول: «أخيراً ظفر ابني دوكان بوسام جوقة الشرف. لعمري إن هذا الحدث سيثلج صدره. ما أعجب الزمن الذي نعيش فيه الآن! نضع الأوسمة على صدور المصورين الفوتوغرافيين في حين نحرم الشعراء منها (أي الأوسمة) [أقصد بهم فيكتور هوجو أيام نابليون الثالث]. إن كل ما يعنيه مكسيم هو بلوغ الشهرة بأي ثمن حتى دفعه طموحه إلى التعلق بأي شيء يستعين به للوصول إلى مراده، سواء كان هذا الشيء وساماً أو امرأة أو لقباً أو حذاء»

هذا ما كان من أمر مكسيم، أما ما كان من أمر فلوبير فقد انتهى به المطاف إلى أن يعكف على محراب الفن جاعلاً هدفه الفن للفن، بعد أن اتخذ الرفيقان طريقين مختلفين. وكانت مصر إلهما مفترق الطرق، فهي شيء يتعذر أن ينفصل أحدهما عن الآخر. ولقد سمعت عن فلوبير أنه في أخريات أيامه لم يكن يداوم تخيله شيء غير ذكرياته عن مصر، فكتب إلى كارولين ابنة شقيقته قبل موته ببضعة أشهر في عام ١٨٨٠ قائلاً: «لقد تملكني وأنا في أيامي الأخيرة شوق عارم إلى أن أشاهد نخلة تطل فوق ذؤابة نخلة تتأرجح تحت سماء صافية زرقاء، وشجيرة عليها طير يضرب بمنقاره على قمة مئذنة تستطيل في شموخ وكبرياء»[٦٧]

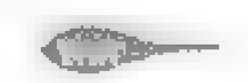

العالم
المفتون بمصر

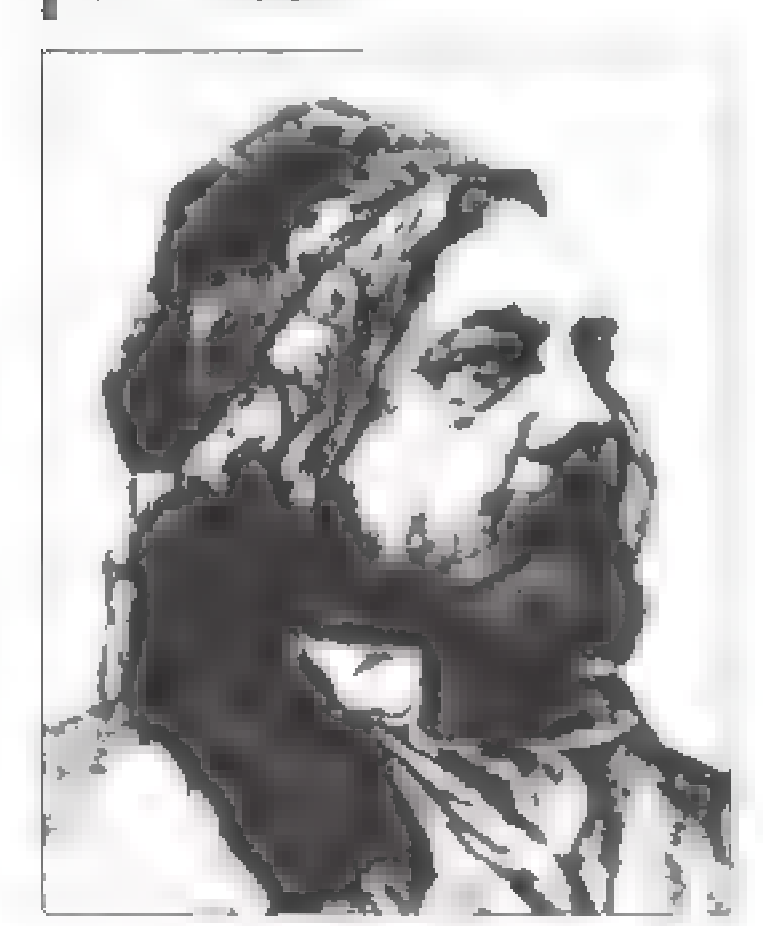

تيوفيل جوتييه

كان تيوفيل جوتييه صديقا لجيرارده نرفال وجوستاف فلوبير ومكسيم دوكان كما كان مثلهم عاشقا لمصر. وقد بدأ حياته مصورا ثم ما لبث أن جذبه إليه الأدب صحفيا وناقدا [illegible] الرومانتيكية ويناصر مذهب الفن للفن مبشرا بالبارناسية، وكان سحر الشرق يشدّه إليه بسطوع شمسه وبريق أزيائه واختلاف أجناسه، إذ كان شديد الولع بكل ما هو غريب بصفة ثابتة، وكان حلمه أن يحيا على ضفاف البوسفور أو على شاطئ النيل، أما ما كان يربطه بباريس فهو انصرافه إلى النقد الفني والمسرحي. ولم يُتح له أن يرى مصر إلا قبل وفاته بثلاث سنوات عام ١٨٦٩ حين دُعي ضمن مَن دُعوا لزيارتها مع الإمبراطورة أوجيني، إذ كان مراسلا للجريدة الرسمية، إليه وصف أحداث احتفالات افتتاح قناة السويس في البلد الذي طالما عاش فيه بفكره وخياله من خلال قراءاته لكتابات أصدقائه من الأدباء والأثريين والفنانين. وكان جوتييه قد زار الشرق قبل ذلك مرتين حين أوفده الملك لوي فيليب إلى الجزائر مرة ثم إلى تركيا مرة أخرى، بل إنه رحل بعد ذلك إلى إسبانيا حيث شدّته الأندلس إلى العالم الإسلامي.

كتب تيوفيل رسالة إلى جيرارده نرفال عام ١٨٤٣ يقول فيها: «ليس من الضروري أن ينتمي المرء إلى الوطن الذي به وُلد، ومن ثم فعلينا أن نسعى دائما نحو وطننا الحقيقي الذي ننتمي إليه بأرواحنا عبر كل المعوّقات. فلامارتين وألفرد ده فيني ينتميان إلى الإنجليز المعاصرين، وفكتور هيجو هو أحد فرسان شارلمان أيام أمجاد إسبانيا العظمى إبان احتلالها للأراضي الواطئة، ودكان [المصوّر] تشدّه أجواء تركيا الآسيوية، وماريلا [المصوّر] عربي صميم، ودلاكروا [المصوّر] مراكشي وأنت ألماني، وأنا تركي من أتراك مصر لا أتراك القسطنطينية». ولقد ظهر كتابه «الشرق»[٧٠] بعد وفاته حين جمع ناشره انطباعات رحلته المتأخرة إلى مصر وبعض مقالاته عن كتاب «النيل» لمكسيم دوكان. وفي هذا الكتاب نستجلي الصورة الأثيرة لمصر، تلك الصورة التي استدعتها جوانحه وتعهّدها بمطالعاته ورؤاه وأحلامه التي لازمته طويلا قبل أن يزور مصر فغاص في [illegible] العربي حتى [illegible] «لقد خيّل إليّ أني عشت ردحا من الزمن في الشرق، لأني عندما كنت أرتدي قفطانا وطربوشا خلال الحفلات التنكرية إنما كنت أعود إلى ثيابي الحقيقية. وما أكثر ما كنت أتعجب من نفسي حين لا أحسن فهم العربية فكنت أناجي ذاتي أني لابد قد أنسيتها. وفي إسبانيا كان كل ما يتصل بالأندلسيين يشدّني، وكأنما أنا مسلم من المسلمين أنحاز إلى صفهم ضد المسيحيين».

L'Orient (٧٠)

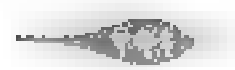

وكانت مصر مصدر فيض غزير لإنتاج جوتييه الروائي سواء مصر الفرعونية أو الإسلامية ، تصورّ لنا ذلك رواياته مثل «أمسية كليوباترة » (١٨٣٨) التي آثر فيها اختيار الصبغة الرومنسية للقائد الروماني الذي انتهى به الأمر أن وقع في غرام كليوباترة فغدا بذلك أسيرا لمصر لا آسرا لها. وعلى الرغم من أن جوتييه قد قرأ رسائل شمبوليون التي كتبها عن مصر والنوبة ، كما تصفح لوحات كتاب «وصف مصر » إلا أن توثيقه الإيجيبتولوجي كان واهيا لا دقة فيه ويشيع فيه الخيال ، فضلا عن تردّيه في أخطاء تاريخية وهفوات سيكولوجية . فقد زعم أن كليوباترة لا تعرف العلامات الهيروغليفية على حين أنها كانت دون شك تتكلم لغة المصريين الدارجة ، هذا إلى أن بلوتارخوس قد ذكر أنها تجيد اللغات اليونانية والسورية والعبرية ، وقد صوّرها جوتييه كذلك مبغضة لمصر الفرعونية برمةً بحياتها فيها ، وهذا لا يمتّ إلى الحقيقة بسبب . على أن أسلوبه جاء رومنسيا خالصا ثريًا بألوانه في وصفه للطبيعة وسحر الإبحار في النيل وروعة غروب الشمس على ضفته . لم يكن جوتييه قد بلغ بعدُ الرّصانة والدقة فيما ذهب إليه من تأويلات فنية حين ألف هذه الرواية ، وكان عليه أن يحثّ الخطى طويلا قبل أن يصل إلى محراب الفن للفن وعقيدة البرناسيين الموضوعية .

وتنتمي قصته «قدم المومياء » (١٨٣٨ ـ ١٨٤٠) إلى الحقبة نفسها التي كتب فيها «أمسية كليوباترة» . وقد التقط فكرتها من رحلة فيفان دينون في مصر العليا والسفلى التي عثر فيها كما قدّمتُ على «قدم مومياء رقيقة لفتاة في مقتبل العمر لا شك أنها لأميرة صغيرة لم تحف قدماها من عناء السير ولم تحزّ فيها خيوط نعل خشن . . . وقد ظفرت من نظرتي إلى هذه القدم بما يتوق إليه رجل حين يظفر بامرأة ، ولقد خُيّل إليّ أني قد بادلت الغرام خلسة فتاة فرعونية» . وما هو بالعسير علينا أن نكتشف أن جوتييه قد نهل الكثير مما كتبه دينون مع شيء من التعديل والإضافة وجزالة الأسلوب ورقة التصوير مثل قوله في وصف تلك القدم : « لم تطأ قدمها أرضا قط ، ولم تلمس إلا أرقّ الحصير من أعواد النيل وأملس السجاد من جلد السمور»

وفي عام ١٨٥١ نشر جوتييه قصيدته «حنين بين مسلّتين » . ولا جدال أيضا أنه استوحى ما سبق أن سجّله صديقاه فلوبير في مذكراته ومكسيم دوكان في كتابه « النيل » عن مسلّتي الأقصر وباريس ، والقصيدة مترعة بالشوق الرومانسي والرغبة العارمة في الاغتراب . وبحساسيته المرهفة ونزعته الرومانسية الشفّافة نسج أنشودتين حزينتين على لساني نُصبين ثمينين من أشمخ الآثار المصرية ، أحدهما المسلة المصرية المقامة وسط ميدان الكونكورد بباريس والأخرى شقيقتها التي لا تزال قائمة في العراء أمام مدخل معبد الأقصر . فتمضي المسلة الأولى تئن في مهجرها وهي تتوزّع بين أمواج القارص لسماء باريس وبين الدفء المشع المحرك للعواطف في أحضان وادي النيل . وتندب حظها السيئ الذي كان سببا في نقلها إلى هذا المناخ البارد الذي يفتقر إلى روحانية ذلك الفنان الذي سوّاها منذ خمسة آلاف سنة . فقد كانت تعيش مُحتفًى بها في بيئة محاطة بأهلها وذويها وممن يقدّسونها فإذا هي تنزح إلى طقس قارص بين قوم لا يأبهون بها ، وينظر إليها المرء نظرة عابرة . ويتطلعون إليها وكأنها من غرائب البلدان النائية وما تطلعوا إلى قدرها حق قدرها إلا بعد سنين وسنين يتزوّدون فيها بالثقافة والمعرفة . وعرفانا من الشاعرية ينتهز جوتييه فرصة أسية ليربط بين إقامة المسلة المنفيّة في هذا الموضع وبين إقامة المقصلة التي أطاحت بعنق لويس السادس عشر في هذا الموضع نفسه من قبل ، ويتخيلّها تُفصح عن الظلم الذي لحقها بعد ماض حافل بالأمجاد وقد أصبحت تحطّ عليها الآن في غربتها بغاث الطير وهي التي تعوّدت من قبل على ملمس أجنحة طيور إيبيس الوردية والصقور الذهبية المخالب . وتمضي المسلة في حديثها إلى موطنها تتغنّى نادبة منفاها شاكية ما تلقى من سوء المعاملة . وقد حاولت أن أنظم هاتين الأنشودتين نظما عربيا فيما يلي :

«كم يقسو عليّ الملل في هذا الميدان الموحش

أنا المسلّة المنتزعة من جذورها

يرتعد جبيني الذي لوّحه الصدأ

وأخذ يتعاوره الجليد والصقيع والرذاذ والمطر .

● ● ●

وفي هذا الجو الذي لا تُشرق فيه بارقة قط

تشحب رأسي الضامرة المدبّبة

التي صبغتها بالحمرة مواقد السماء الذهبية

ويُثقلها الحنين الجارف للوطن

● ● ●

ليتني أعود ثانية لبلادي

وأنتصب من جديد بين صاحب شقيقتي الوردية اللون

على مقربة من تمثاليْ ممنون العملاقين

الصارميْ الوجه أمام بوابات الأقصر

● ● ●

فأخترق قبة السماء الزرقاء

بقمّتي الهرمية القرمزية

بينما ألقي ظلّي على الرمال

مسجّلة عليها خُطى الشمس

● ● ●

أي رمسيس

لقد اقتلعوا الكتلة الشامخة

التي انحنت الأبدية أمامها ذات يوم

وكأنها ليست غير نبتة تُجتث

وأقاموا نُصبا يزدان به ميدان في باريس

وحارسا عملاقا من الجرانيت

يشمخ بين كنيسة المادلين ، ذلك المعبد الكلاسيكي الزائف

وفي الحمعة الوطنية التشريعية

لنعل ساهرة عير ناسية مرتكبي هده احد به ـ هسه في حسه

* * *

لقد صحوا سرتي العريق بعصلة لويس السادس عشر

وبقيت هنا أثر ا فقد الدلالة

مجتثة من أرض حفظت أسراري

أخفتها خلف ستار النسيان نحوا من خمسة آلاف من الأعوام

* * *

وصحتي التي لم يكن يحط عليها فيما سلف غير طير ... ـ ـ بي

والصقور ذات الريش الأبيض والمخالب الذهبية

تلطخها الآن بعث الطير في غير اكتراث .

* * *

ونهر السين القذر المجرى

والذي تصب فيه فضلات الدور يدنس بقاذورات المدينة قدمي

وكنت من قبل في موسم الفيضانات تقبلان نهر النيل إله جميع الأنهر .

* * *

ذلك النيل العملاق ذو اللحية البيضاء

المتوج بزهور اللوتس وقصبات الغاب

يقذف من جرته المائلة

تماسيح وكأنها صغار السمك .

* * *

أواه . ما أقبح الهياكل العظمية بعد مئة عام

ستحيل إليها يوما هذا الشعب المحزون الذي لا يقدر الأسلاف

والذي يرقد بعد موته دون أكفان

في توابيت يحكم غلقها بالمسامير .

* * *

... ...

... ...

... ...

على قواعد التماثيل العملاقة .

* * *

أيها الثرى المقدس

حيث تسمع رنين القوارب الحالي تحت قدميك

وحيث يحتضن النار عشه

إني أبكيك يا مصري الطاعنة في السن

أبكيك بدموع من حبات الجرانيت !

* * *

ثم يتحول جوتييه إلى مسلة الأقصر فيجري على لسانها صورا مما تلفقه ذاكرته من رسائل مرقال ومن مناقشاته مع مكسيم دوكان وشاتوبريان ، لكنه لا تعثر كرميلتها ما تحن إلى الوطن ودفء صاحبه ونور ألوانه بل تناجي نفسها قائلة .

«على باب هذا القصر الكبير المهجور

أسهر حارسا وحيدا

في العزلة الأبدية

أمام الهول الأكبر .

* * *

وفي الأفق الذي لا تحده حدود

تنبسط الصحراء تحت الشمس المنصبة

عقيمة خرساء أبدا

وكأنها تنزع عنها كفنها الذي غلته صفرة الزمن

* * *

وثمة فوق الأرض الجرداء سماء

هي الأخرى صحراء تتشح بالزرقة

لا تطفو فوقها غمامة واحدة

بل تتداخ صافية صماء لا هدأة فيه .

* * *

ومياه النيل تكسوه سكون الموت

تكتسي بغشاء من رصاص يلمع

وأحيانا يتموج سطحها بحركة فرس النهر الشارب

تحت ضوء نهار كامد يسقط كدمعة من رصاص .

* * *

... يرقد التماسيح الضارية

فوق رمال الجزر الناتئة

وقد التهمت حدودها أو كادت
وانطفأت في محيط محموم.

* * *

وطائر إيبيس قائم على سقف المخيلة
ساكنا بلا حراك غارسا منقاره تحت إبطه
كأنه ملك طلاسم الخاتم المقدس للإله تحوت
المنقوش فوق أحد النُّصُب

* * *

والضبع يقهقه وابن آوى يعوي
والباز الجائع يصيء
محلقًا في الجو وكأنه يرسم دوائر
فيبدو كالشوْلة السوداء وسط السماء الصافية.

* * *

وعلى هذه الأصوات الصادرة من العزلة
تطغى تثاؤبات آباء الهول
التي أنهكتها الوضعة الساكنة
التي اتخذتها منذ آلاف السنين

* * *

أنت أيها النيل
النابع من انعكاسات الرمال البيضاء
ومن الشمس التي لا تكفّ عن البريق
لا يشبهك ملك آخر لأنك أنت السأم الذي يغشى الشرق كله.

* * *

فأنت الذي كنت تدفع الملوك في عليائهم
حين يقعون مهزومين في قلاعهم
فيصيحون قائلين « الرحمة [illegible] »
وأنت الذي تطغى عليّ بثقلك كله.

* * *

وهنا لا تهبّ الريح أبدا
كي تجفف عبرة تسقط من السموات الخاوية
ويتكئ الزمن المنهك مصطجعا
على قصور شامخة صماء

* * *

ليس ثمة حدث ما يطرأ
ليزعج وجه الأبدية الذي لا يتغير
ففي هذا العالم الذي يتبدل فيه كل شيء
تبقى مصر متربّعة على عرش السكون.

* * *

وحين يطوقني الملل بنوباته
لا أجد من يصاحبني من العشّاق والأصدقاء
سوى الفلاحين والمومياوات
المعاصرين لعهد رمسيس

* * *

ولا يتطلّع بصري إلا إلى عمود متداع
أو تمثال فقد ملامحه
أو قوارب ضخمة ذات أشرعة بيضاء
تهبط مع النيل أو تصعد معه.

* * *

ليتني كنت إلى جوار شقيقتي
المنتصبة في أحد ميادين باريس
إذن لكان في قُربها مني
إيناسٌ لروحي.

* * *

ولالتقيت هناك بذلك الشعب الناهض بحيوية
العاكف على تأمل نقوشها
متطلعا إلى ما سُجّل عليها من كتابات سريّة
لا يفسّرها الفكر إلا من خلال الأحلام

* * *

ولرأيت النافورات المتجاورة
وهي تقذف على رخامها الجرانيتي
رذاذها المتغيّر الألوان
فتغدو المسلة قرمزية وكأنها تستردّ صباها.

* * *

لقد انحدرتُ من عروق أسوان الصخرية الوردية
مثلما انحدرتَ [illegible]

إلا أنني ما زلت أنتصب في موقعي العتيق
وبينما هي هناك تندبُ فيها أحداه بالنعات المحببين حولها ،
إذ أن هنا لا حياة لي

* * *

وإذ كان ذكر مصر الفرعونية وقتذاك يجري على كل لسان ، فلا تكفّ الصحف والمجلات عن الحديث عن الدراسات والأبحاث التي أسفرت عنها اكتشافات شمبوليون ، فضلا عن ظهور كتاب بريس دافن عن الآثار المصرية عام ١٨٤٧ وكذلك مؤلفات ولكنسون وروسيليني [illegible] . [illegible] أحداثها في مصر القديمة [illegible] في نوفمبر عام ١٨٥٢ [illegible] عودته من رحلة إلى إسطنبول كتابة رواية فرعونية توراتية في آن معا يربط فيها بين مغامرة سفر الخروج وبين قصة تقع أحداثها في بلاط طيبة . وقد شجّعه على كتابتها صديقه الروائي الشهير إرنست فيدو الذي كان قد فرغ من نشر مجلد ضخم من كتابه الغزير بالمعارف المأخوذة عن العديد من المراجع والذي لم يتم منه سوى الجزء الخاص بالمصريين والآشوريين والهنود عن «تاريخ ممارسة الأعراف الجنائزية»(٧١) . وقام بريس دافن برسم لوحاته ، فكان مرجعا أساسيا من مراجع علم المصريات لجوتييه . ولكي يؤلف فيدو هذا الكتاب استكمل مجموعته من الرسوم المطبوعة بطريقة الحفر ومكتبته الأركيولوجية الزاخرة التي تضم إلى جوار هيرودوت وديودور كتاب وصف مصر ومؤلفات فيفان دينون وشمبوليون وولكنسون وبيزوني وروسيليني ولبسيوس وبريس دافن وباساكوا ومكسيم دوكان ، ووضع فيدو مكتبته العامرة لأمر جوتييه الذي أهدى هو الآخر قصة «المومياء» إلى صديقه اعترافا بفضله قائلا : «على إثر خطاك تجولتُ في المعابد والقصور والمقابر في مدينة الأحياء ومدينة الموتى . لقد أزحت من أمام عيني حجاب إيزيس الغامض وبعثت الحياة في حضارة عظيمة ولّت . التاريخ من لدنك والقصة من عندي ، ولم يكن عليّ إلا أن أجمع الجواهر الثمينة التي وضعتها بين يدي بأسلوبي الذي كان أشبه بملاط لقطع الفسيفساء» .

وقد لقيت هذه القصة هجوما لاذعا من بعض النقاد فاتهموا جوتييه بقصوره عن الخيال وأنه لم يخلق جديدا من عنده إذ كان قصير النفس محدود الخيال . غير أن جوتييه لم يكن له أن يبتدع تاريخا جديدا ويزيّف الربط بين الأحداث ، فقصته المومياء لم تكن رواية بالمعنى الحق أو محاولة لسرد سلسلة من المغامرات . ولقد تجلّت حنكة جوتييه وجماله في مقدرته الفذّة على بعث الحياة فيما بين يديه من وثائق وبثّ الحركة في الرسوم المطبوعة وإسباغ نهج عام على هذا كله بأسلوبه الفريد ، فرسم لمصر صورة ممتعة دون أن يهمل الدقّة الواجبة للوقائع التاريخية والأركيولوجية والطوبوغرافية ، وهو ما فعله أيضا جوستاف فلوبير في روايته القرطاجية «سلامبو» . وحتى إن جوتييه قد أمدّنا بأوصاف رائعة للحياة المصرية تعدّ [illegible] من الطراز الأول قصد أن يبعد فيها كل [illegible] عن [illegible] والاستطرادات الأدبية التي [illegible] أسلوبه في [illegible] الأدبية [illegible] .

وليست الفصول الثمانية الأولى في جوهرها إلا تتابعا للوحات مرسومة وأوصاف دقيقة غزيرة تستعرض أمام عيوننا المظاهر الأساسية للحياة في مدينة طيبة يحافيها دار تاأوزيريس(٧٢) [illegible]

(٧١) Ernst Feydeau, Histoire des usages funèbres et des sépultures chez les peuples anciens

(٧٢) Théo... [illegible] وكاد شمبوليون في كتابه [illegible]

[illegible] ، وعبور نهر النيل ، والصورة الجامعة لمدينة طيبة ، وقصر فرعون ، ودار بويري(٧٣) ، ومدل [illegible] حمس ، وموسم الحصاد . ويتوالى الوصف حتى منتصف الكتاب دون أن يتخلل ذلك حدث بل حتى دون أن تتبين الخطوط الأولى للرواية . ويقع فرعون في غرام تا أوزيريس التي تعشق هي الأخرى بويري اليهودي . ثم ما يلبث المؤلف أن يمضي في الفصول الستة التالية ويربط بين ما سبق وبين قصة خروج اليهود من مصر راجعًا في ذلك إلى سفر الخروج في العهد القديم من الكتاب المقدس . وبذلك يضم التوراة إلى الصور الإيقونوغرافية التي استمد منها القسم الأول من القصة . [illegible] أن النص الديني لا يُغني عناء اللوحات الفرعونية المرسومة وأنه أقل ثراء في التفصيلات [illegible] القصة مَحْلاً وتكره معالمها كما تمحى معالم فرعون حين ابتلعه اليم . والحق إن مشاهد الحياة الطيبية التي قدّمها جوتييه ليست إلا خطرات أدبية للأوصاف الأركيولوجية التي أخذها عن فيدو وباساكوا(٧٤) وولكنسون ، أو هي في تعبير جوتييه نفسه «لوحات مرسومة بالقلم» تكشف عن النقوش العتيقة والصور الجدارية المستنسخة التي وقع عليها بصره في مؤلفات [illegible] ، وأخذ كليهما [illegible] حين يكشف [illegible] يركن إلى الرسم وحده . والرواية في عمومها قصة تثير الخيال وتشكّل صورا حيّة تصويرا دقيقا ، ولا تتركنا لحظة ننسى أن جوتييه قبل أن يكون كاتبا كان مصوّرا يمتطي أجنحة الخيال ليمضي إلى ما هو أبعد مدًى من النص أو النقش المرسوم . ومع التزامه الدقة المتناهية في رسم تفاصيل لوحاته إلا أنه برع في إشاعة الأضواء بين جنباتها وإحاطتها بهالة من خيال لشاعر خلّاق . فليس ثمة حتى الآن من أمدّنا برؤية خلّابة تفوق رؤية تيوفيل جوتييه لوادي الملوك الذي لم تطأه قدماه . أما ما يعيبونه عليه من تقيّده بما شاهده في صور المقابر والقصور ومناظر الحياة [illegible] . هذا الذي يعيبونه عليه إن هو إلا اعتراف بما كان يتصف به من أمانة تاريخية ، وهو ما يزيد من القيمة الأركيولوجية لروايته .

ولكي يصل المغامرة الغرامية بسفر الخروج اختار أن يكون بطل روايته «بويري» عبرانيا من عصر موسى مما جعل بناء القصة واهيا فبدا ما فيها من افتعال . . ففي الفصول الأخيرة يكون جوتييه قد انتهى من الاعتماد على وثائقه المصرية فيتجه إلى سفر الخروج ليعيد كتابته ويبنيه [illegible] دراميا ليس فيه ظل من الصور الأدبية المترعة بالخيال الخلاب . وعلى أية حال ليس هذا مجال الحديث عن هذا القسم المعزو إلى التوراة ، وهو القسم الذي جاء واهي الربط بالأحداث الفرعونية إذ يفيض بعرض الصور أكثر مما يسوق من أحداث درامية ، كما يعوز المشاهد المتلاحقة [illegible] . ومع ذلك فقد بقي أثر قصة المومياء دون أن يذهب هباء منثورا .

[illegible] قصة سفر الخروج التي أراد المؤلف أن يجعل منها عنصرا أساسيا [illegible] . [illegible] من صفحة إلى أخرى . [illegible] فرعون حين [illegible] تاأوزيريس هُرع إلى ترك قصره وهجر جواريه و[illegible] من الغرب إلى الشرق ليعيش في قصر الكرنك في عزلة عن الناس . وقد نهج جوتييه هذا النهج ظانا أن معابد الكرنك والأقصر والقرنة ومدينة هابو كانت قصورا لسكنى الأسرة المالكة . ولعل الذي جرّه إلى ذلك هي الفكرة الخاطئة التي ساقها شمبوليون في كتبه «رسالة من مصر والنوبة» .

(٧٣) Poeri

(٧٤) Passalacqua

وعلى أية حال فالقارئ لقصة المومياء يلمس جهدا خارقا للمؤلف بذله بالتزامه الموضوعية والدقة التاريخية والكشف عن الوثائق الأركيولوجية المعاصرة له ، كما يلمس رصانة الأسلوب وتألقه . ومع ذلك فإن خيال المؤلف الذي برع في بعث الحياة في وثيقة من الوثائق أو بث الحركة في إفريز من النقش الغائر أو إضفاء الألوان على السماء والحقل ونهر النيل لم يبدع لأعماق من نفوسنا . فعلى الرغم من جهده الجدير بالتقدير فإن جزءا من التاريخ ظل مبهما دونه . على أنه سرعان ما تتوارى هذه الهنات كلها عندما يلج جوتييه عالم الأساطير العربية ، فقد تدرجت رومانسيته الكامنة في يسر وسلاسة بالخيال الذي تفيض به الحكايات العربية وأحداث مصر الإسلامية كما سنرى . وكانت أولى أعماله المستوحاة من التاريخ العربي تتفق زمنا وروايته « قدم المومياء » ، وهي قصة **«ألف ليلة وليلتان»** التي ظهرت عام ١٨٥٧ على الرغم من أنه ألفها عام ١٨٤٢ .

وقد أطلق جان ماري كاريه العنان لخياله ليصف كيف مهد تيوفيل بخياله الوثاب الفرصة المواتية لتأليف هذه القصة قائلا : « يخيل إلي أن تيوفيل قد مضى ليلة من ليالي ... ألف ليلة وليلتان » في غيبوبة كغيبوبة ... أو مدخن حشيش ، وأنه ... على الجو غشاوة أخرى تمس له في الاسترسال في تخيلاته العبثية وهو يعبث بأطراف أصابع قدميه المدسة في مركوبه المراكشي ... ، وقد استقر بصره مشدوها على اللوحة ... التي أبدعها جمهرة من مشاهير المصورين المعاصرين يحكون فيها الصورة بمشاهدها الأسرة التي ... تيوفيل ... وهو على ... غارق في تأملاته وهواجسه . يحس كأن طارقا يطرق بابه ، ويتخيل ... بوم على خدمته ، وتختلط عليه تسميته إياه فتحتشد له أوهامه أسماء شتى أوروبية مرة وعربية أخرى ... هو يجمع بين هذه الأسماء كلها ويدعوه « أدولفو فرانشسكو برجيلا عبد الله بن محمود » ، كما يجمع له بين دينين فيجعله مسلما وهو يفتح الباب ، ويجعله نصرانيا حينا آخر . ويسترسل تيوفيل في خياله فيتوهم أنه أمر خادمه بفتح الباب وأن خادمه قد وقف بين يديه يستأذن لفتاتين شرقيتين فارعتين جميلتين قد أرسلتا ضفائر شعرهما على أكتافهما وغرقتا في أثواب مزركشة ... التي يزين بعضها العنق ، والتي يتدلى بعضها على الصدر ، والتي تملأ المعصمين إلى المرفقين ... حتى حسبهما عالمتين من عوالم القاهرة المغنيات الراقصات ، ولكن سرعان ما انعكس الخيال في رأس تيوفيل وأبى عليه إلا أن يعرفنا بهما على صورة أخرى ... في قصص ألف ليلة وليلة ، فإذا هو يحيي ... شهرزاد نفسه ... وأبى خيال تيوفيل إلا أن ... شهرزاد وأختها إليه فيجري على لسان شهرزاد قولها : « جئت أنعي ما تورط فيه جالان [مترجم كتاب ألف ليلة وليلة إلى الفرنسية] مخدوعا إذ جعل السلطان شهريار يعفو عني بعد ما انتهت الليالي الألف بين يديه يستمع ويشبع نهمه . وفي الحق أن السلطان لم تنته بانتهاء الألف ليلة ملذاته وشهواته بل هو لا يزال شبقا إلى مزيد ، فهل لك يا تيو أن تسعفني بقصة أمتع بها السلطان بعد أن جف نبع خيالي لأمد في حياتي وأجد فرصة أطول استسمحه فيها فيعفو عني ولا يأمر بشطر عنقي؟ »

في إثر مثل هذا الخيال استطاع تيوفيل أن يؤلف قصة « ألف ليلة وليلتان » كي تمحو شهرزاد ... من بطش شهريار . فيحكي أن فتى يقال له محمد بن أحمد كان كل همه أن تقع عيناه في ... ويقع في حبها ... لا أن ... ، فإذا هو في ... مسجد السلطان حسن يقع بصره على هودج فاخر قد أسدلت عليه الستائر وقد أخذ النسيم يفتحها يمنة ويسرة حتى ... عن مكانها ... له فرجة يلمح من خلالها فتاة رائعة الحسن قد استندت إلى وسائد من حرير ... أحلامه المرجوة فغشيه من الهوى ما غشيه . وهذه الفرصة الأولى تتبعها فرصة ثانية فإذا هو وإياها يلتقيان في حانوت لعطار اسمه بدر الدين . وهنا يعلم أنها الأميرة عائشة ابنة الخليفة ... على أي لون يكون هذا البعد يؤجج ونهمهما بغير حدود .

وفي ليلة من الليالي وبينما هو غارق في نظم شعره يلهمه إياه حبه وهواه إذ ليلى جارية الأميرة تدخل عليه فزعة هلعة ، ويسألها عن سر مجيئها أولا ثم عن سر فزعها ثانيا ، فتحكي له أن السلطان قد أمر بموتها جزاء لها على ما مهدت به لنور محل عشيقة السلطان لتحويه ، وها هم أولاء حرس السلطان يطاردونها ليمضوا فيها ما أمر السلطان به ، ويحدث محمد بن أحمد فرصة فيرحب بها ويأويها إلى كنفه عارضا عليها حمايته وعونه .

ثم لا يلبث الحظ أن يبتسم له فيهيئ له لقاء آخر بالأميرة عائشة في حانوت العطار بدر الدين ، وهنا يجرؤ على أن يحدثها ويتوسل إليها أن تلقاه ليلا بين المقابر . وتستجيب الأميرة لتوسلاته تلقاه حيث أراد ، يقودها إلى ذلك المكان عبد زنجي أخرس . ويلقاها الفتى ... تكشف عن نضرة وجهها وتألق جبينها وإشراق عينيها ونهود ثدييها وجاذبية تفوق بها حوريات السماء الرابعة .

ويتشجع محمد بن أحمد فيشير إلى قصيدته التي صاغها في هواها ، ثم يتلوها بين يديها دون أن يلقي بالا للجناحين اللذين بدت فيهما المحبوبة فجأة وكأنها فراشة جميلة . وكان هذا مما أغضب الأميرة عليه وظنته مما يسيء إلى عزتها ، فانعطفت عنه تخاله شاعرا كالشعراء لا يعنيه غير شعره ، وانصرفت عنه في مهابة وجلال يشوبهما إحساس بخيبة أملها ، ولم يعد محمد بن أحمد يسمع بعد ذلك عنها شيئا . وبينا هو على هذا الحال يتحسر ألما ويشكو همه كانت ليلى إلى جانبه تحاول الترفيه عنه مواسية إياه بأغانيها وموسيقاها . ويأسر الصنيع الفتى فإذا هو يطبع قبلة على جبينها عرفانا بجميلها . وذات ليلة بينا هو يمعن النظر في ليلى يكتشف شبها كبيرا بينها وبين عائشة ، وفيما هو في دهشته إذ يرى إشراقة تضيء وجه ليلى كما يرى جناحين نابتين على جانبيها وإذا هو بين يدي عائشة معشوقته التي طال ينشدها ، وإذا هي تقول له : « إني لست الأميرة عائشة ولا الجارية ليلى وإنما أنا بدر البدور أردت أن أختبر ما عندك ، وها أنذا أراك تؤثر الجارية على الأميرة بعد ما بدا لك منها من وفاء وعطف ، وهذا ما كنت أتوقعه منك ، وهكذا سأكون ليلى وفاء للجميع ، والجنة المنشودة لك وحدك » .

وفي هذه القصة يقتحم جوتييه مجال الخيال المبدع ويثبت قدرته على ... كل ... الشعر وأحلام الشرق ، ... مع ... والتوريق المتشابك المعروف عن الزخرف العربية ، ويروح يسخر من نفسه التي يتهمها بالكسل فيقول : « لقد اتخذت منذ الصبح الباكر القرار الحاسم بألا أفعل شيئا . ولا أريد أن يصرفني أحد عن تنفيذ هذه المهمة

واحدا يحكي [illegible] شهريار [illegible] سمعت شهريار بجمهور [illegible] حتى [illegible] ويسامه . ثم تزيد خشيته فيقول : «لا إخال شهريار لو أنه ضاق بهذه القصة إلا وقد أمر بجزّ رقبة السلطانة المنكودة واستراح منها إلى الأبد» .

وكم أبدع نيرفال في وصف القاهرة [illegible] بها مسكنه المتواضع . والحق أنه كان يتقن رسم الصور الخلابة التي يسمعه بها إبداعه و[illegible] فيها تآلفه مع الطابع الشرقي للقصة وهو يتحدث عن : « . . . نسمة الليل الرطبة ، وتوهّج السماء بألق يعرق لألاء رداء الجنّية ، والقمر الفضي يطلّ كسلطان عاشق في وجه شحوب المحبّين يتطلع عبر سياج مقصورته» .

ولم تلبث قصة «ألف ليلة وليلة» أن تحولت في العام التالي لظهورها إلى باليه «الجنّية» (١٨٤٣) [illegible] تمت حبكته الكوريوجرافية[75] إلى إضافة الكثير من التفاصيل الرائعة في [illegible] حان تعني الجنة الأرض [illegible] وكأنما تضيق المادة بثقل قيودها وشوهد أشكالها متطلعة إلى المثالي ، إلى اللامحدود ، إلى الخلود ، على حين تتوق الروح على النقيض في حزنها المجرد تتشوّف إلى الأحاسيس والعواطف بل تتوق إلى معاناة العذاب والألم وتشتد حاجتها إلى [illegible] بعد أن برمت بعباءة الجسد :

«وسط جدران الجنة يعشش الملل على الدوام ،
حيث الألم فادح واللذة محدودة ،
فلم يتخيل ذاتي التيجسري شيئا داخل الجنة
سوى ملائكة شامخة بيضاء متلفعة بهالات صفراء ،
بينما أحال المسلمون السماء قصرا مبهجا ،
[illegible] الروح حتى تهجر هذا العمل اللذ[illegible] .
[illegible] في علياء سمائها تتأوه من الملل رغم جمال الفردوس
فما أتعس من قيل فيهم إن سعادتهم بلا نهاية
كم تمنت هذه الجنّية لو [illegible] ،
فتغدو امرأة وتعاني عذاب البشر الفاني .
الا ما أطول عمر الخلود
[illegible] كيف تقضي [illegible] ؟
وهكذا أحست [illegible]
[illegible]»

(75) Choreography [illegible]

إن جوهر هذه القصيدة هو أن أحمد والجنّية اللذين يرمزان إلى المادة والروح وإلى الرغبة والحب يلتقيان في نشوة الحلم ، ذلك أن الأرض هي حلم السماء كما أن السماء هي حلم الأرض .

وما يلبث الموسيقار إرنست رير أن يلجأ عام ١٨٥٠ إلى تيوفيل كي يسعفه بحبكة على نمط شخوص شرقية الطابع تتواءم مع مناخ «سيمفونيته الوصفية» . فيستعير لها تيوفيل من مشاهد بوليه «الجنية» ويطلق عليها اسم «سلام» .

وجوتييه هو أحد الأدباء [illegible] في وقته ، يتلهف إلى كل [illegible] الشرق [illegible] ولا شك [illegible]

على أن قدر جوتييه قد حرمه الحركة حين زار القاهرة إثر حادث أحمق شدّ ذراعه إلى جبيرة لفترة طويلة بدت معها رحلته وكأنها آلت إلى الإخفاق . أية خيبة أمل أن يصل مصر التي عكف طويلا على دراستها في الكتب والصور واللوحات المطبوعة والرسوم الفنية والتي تاقت نفسه إلى اكتشافها بكل جوارحه حتى يفيض بقلمه الطامح إلى وصفها ، فإذا به لا يستطيع بعد وصوله إليها إلا أن يستعيد بخياله صور القاهرة التي طالما طالعها في شبابه وهو بعيد عنها ، ذلك أنه لا يرى من القاهرة التي يقيم فيها إلا ركنا صغيرة تتيحه له شرفة فندق شبرد المطلّة على ميدان حديقة الأزبكية التي قام بتخطيطها مهندس حدائق فرنسي على غرار حدائق مونصو بباريس .

ويمعن القدر في سخريته فإذا هو يضطر إلى التخلف عن رحلة الصعيد ويكتب إلى ابنته إستير قائلا : «الليلة استقرّ زملائي الفنانون جيروم وتورنين وبرشير وغيرهم الباخرة النيلية إلى الصعيد . ولكم تمنّيت اصطحابهم غير أنه كان عليّ أن أحرم نفسي متعة التنقل على ظهور الخيل والحمير والجمال لزيارة الآثار التي تبعد أحيانا عن ضفاف النيل ، إذ رأيت من الحكمة أن أركن [illegible] حتى يبرأ ذراعي . ولقد زرت بالأمس بولاق مرفأ القاهرة على النيل وشاهدت القصر الذي أعدّ لسكنى الإمبراطورة أوجيني [سراي لطف الله] التي ستصل اليوم والذي لم يجتذبني دونه برغم ما أنفق عليه من بذخ جنوني» .

ومن شرفة فندق شبرد تطلّع تيوفيل إلى مسيرة الحمير التي كانت تمثل له أكثر الدوابّ جاذبية [illegible] فيقول : «يشاع أن بالقاهرة ما لا يقل عن ثمانين ألف حمار . وأقصد أنهم ثمانين ألف حمار لا ثمانين ألف نسمة . [يستغل الكاتب هنا التقارب الهجائي بين لفظي Ames Anes] [illegible] وأعتقد أن حمير مصر [illegible] الأسطورة التي يسحر فيها هوميروس [illegible] أحد [illegible] مريم العذراء أم عيسى تحت شجرة الجميز بالمطرية» . وكم أطال النظر من الشرفة إلى : «الفلاحات [illegible] الوحيد الذي يتأرجح حول أجسادهن [illegible] من أزمان عابرة» .

ولم [illegible] أدق الملاحظات ، ففي الفصل الأخير من كتابه الذي أسماه «مشاهد من شرفة فندق شبرد» لم تقتصر انطباعاته على ما يشاهده من شرفته بل تعدتها إلى سائر مظاهر

وأجسامهم العارية وستراتهم المحملية المطرزة بالقصب، تتطاير أكمامها وهم يعدون أمام مركبات الخيل الإنجليزية والنمسوية الفاخرة التي يتربع في مقاصيرها الباشوات الأتراك جامعين بين الطربوش الأحمر والردنجوت الأسود » . كما وصف جماعات البدو المتوثبين في عباءاتهم الصوفية الرمادية متداخلة بين جرود الأرياف وأوساط سراويلهم القصيرة وشراريبهم الكثة وستراتهم الحمراء التي تتدلى من أحزمتها الخناجر مثلما نرى في لوحات المصوّر جيروم . وهناك أيضا النوبيون مفتولو العضلات يتبعهم الأحباش الجعدو الشعر المعتمرين بعمامات زرقاء . على أن صورة مصر الخالدة بسكونها الوادع المسالم هي التي تطغى على هذه الشرائح المائجة المتعدّدة الأصول العرقية ».

ولم يستطع تيوفيل جوتييه بعد عودته إلى بلاده أن يكفّ عن التفكير في ألوان الجمال الأنثوي الذي يغمر به الشرق والذي لا يتصور أن عينا بشرية قد ارتوت منه ، ويأسف على النساء الشرقيات اللاتي لا تملك تماثيل المرمر ولا اللوحات الزيتية أن تحاكي سحرهن ، ومع ذلك مضى دون أن يجدن الفنان الذي يخلدهن في لوحات أو تماثيل تبقى لتثير إعجاب العصور القادمة

ومما يدعو إلى الأسف أن تيوفيل جوتييه الذي خصّ الجزء الأكبر من جهوده الأدبية والفنية للتعريف بالشرق قد وافته المنية قبل أن يظهر كتابه الذي سجّل فيه انطباعاته عن مصر ، فلم يتح لكتابه أن يرى النور إلا بعد وفاته . على أن جنوح جوتييه إلى الخيال في حديثه عن الشرق هو الذي جعل كتاباته تتميز بذلك المذاق الفريد جاذبية ورومانسية ، هذا إلى أن لمساته التي استقاها من واقع الحياة المصرية قد أثرت لوحاته بأكثر الألوان حنانا ورقة . ولقد كان هو نفسه أول من يسعد بإبداعاته المتشحة بغلالات من الضبابية ، إذ كانت تلك وسيلته المثلى في الفرار من أعباء مهنته الصحفية المرهقة التي كانت مورد رزقه الوحيد ، فلقد ضاقت موارده عن أن تفي بنفقات القطار والباخرة ليقوم برحلته المنشودة إلى الشرق على حسابه الخاص فقنع بالطواف حول العالم بخياله الخصب داخل جدران حجرته المحدودة . وإذا لم ير البعض أن ما كتبه من مقالات وقصص وروايات ويابيهت أعمالا شامخة فإنها والحق يقال رؤى ضجّة تنبض بالومضات الحانية ثم هي استحثات شجيّ لكل من تحدثه نفسه بالرحلة إلى الشرق.

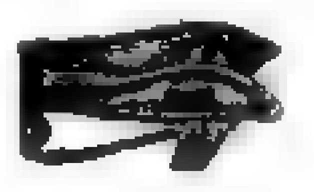

مصنف الشعوب

الكونت جوبينو

وحين [illegible] جوبينو إلى [illegible] عام ١٨٥٥ وهو في طريقه إلى [illegible] مقر بعثته الدبلوماسي في طهران، وأفرد الفصلين الأولين من كتابه «ثلاث سنوات في آسيا»(٧٦) لانطباعاته خلال زيارته القصيرة لمصر. ولم يكن لهذا الرحّالة العالم الفيلسوف الغزير المعارف اللغوية والشرقية منها على وجه الخصوص أن يتوقف عند المظاهر السطحية للأشياء، هو الذي [illegible] «لا عجب إذن أن يكون [illegible] فوق مشاهد النيل حيث: «الجو صحو ونَدٍ، وباقات النخيل تتأرجح تحت ضوء شمس الأصيل الغاربة.. والكآبة الخانقة، والجلال المهيب، وخفقات المشاعر أمام تدفق النيل وهي أحضان مصر [illegible] وبين ثناياها ما ينطوي عليه من تاريخ شامخ مذهل لا نعرف منه إلا النذر اليسير».

Trois Ans en Asie. (٧٦)
Ed. Grasset

ولا يكاد يخفى علينا منحاه في الاختيار، فهو يؤثر العرب والفرس والآسيويين على الإفريقيين الذين يضعهم في مرتبة أدنى، وإن قال بسبب لا ندريه عن أقباط مصر. وتتوهج حماسة جوبينو في تقريظ جمال المساجد، وذلك في فترة كانت مصر الفرعونية فيها بعد اكتشافات [illegible] وماريت تكاد تحجب مصر الإسلامية عن نظر الرحّالة الأجانب، بيد أنه [illegible] لا نغالي في تأملها أو التمعن في فحص تفاصيلها، كما يحسن أن نشاهد عن بعد إذا شئنا أن نستشف جوانب الجمال والكمال في إبداعات الفن الإسلامي»!

وحين يطل جوبينو على مدينة القاهرة من فوق قلعتها الشامخة ليلقي عليها نظرة فاحصة يقول:

«ينفسح تحت أقدامنا ميدان عريض تتصدره مدرسة السلطان حسن، تمتد من ورائها عن يمين وعن يسار المدينة نفسها، تذرعها آلاف الشوارع التي تتوسطها بقع الميادين، وتتجاور فيها المساجد والمباني العالية الضخمة، وتتوزع فيها مئات الحدائق ذات الأشجار الكثيفة العملاقة، وقد لا تكون القاهرة مدينة تعج بأماكن اللهو والمرح أو تبهر المرء بتماثل تخطيط عمائرها، ومع ذلك فهي مدينة كبيرة فسيحة، عميقة الأثر بطابعها المتفرّد، نابضة بالدفء والحياة، مفعمة بموطن الجمال. وقد تكون هناك مدائن أخرى أقرب إلى مفهوم الجمال المعماري من القاهرة، فلسنا نجد هنا تصميما يمضي في خط مستقيم، ولكن لعل هذا التخطيط نفسه المتميّز بالتحرّر من قيود التماثل هو سرّ جمال المدينة الهادئ في غير سرف، النبيل في غير ادعاء. على أن القاهرة التي

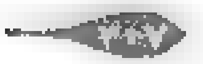

تراها اليوم ليست تلك القاهرة ابنة العصور العتيقة ، ذلك أن عصورا متعاقبة أضافت إليها الكثير من الأبنية والآثار وتكدست عبر فترات متباعدة . لكنها على امتداد تاريخها لم تخل قط من معالم الإيمان والفكر والحضارة والثراء والطاقة المبدعة الخلاّقة .».

وكانت ذكرى المماليك في ذهنه تطغى على ما عداها : «لقد حققوا الكثير وشيّدوا آثارا راسخة بديعة لا حصر لها . فعالم التوريق المتشابك [الأرابيسك] الذي يغشّي في جلال مباني آسيا كلها لم يساهم فيه غير الهنود ، فكلاهما عرف كيف ينحت الرخام والحجر على حين اكتفى مسلمو [illegible] والفرس والأشوريون بالجص المشغول . لقد استطاع عبيد الأمس مع بساطة نشأتهم أن يصبحوا قادة بعد أن امتشقوا السيوف وباتوا لا تراود عقولهم إلا فكرة واحدة هي أن تتضاءل جميع المنجزات الإسلامية في أنحاء العالم أمام ما يشيّدونه هم من منجزات باستثناء الهند [بطبيعة الحال] . وبالرغم من تنافسهم الدامي لم يغفلوا في غمرة تطاحنهم عن مواصلة إقامة منشآتهم الخاصة . هكذا قام البناء الشامخ لمسجد السلطان حسن الذي شيّده خلال فترة سلطنته [illegible] متحدّيا عرينه القديم مبنى قلعة الجبل [صلاح الدين] فلم يجد مشقة في أن ينشئ تحفته المعمارية حصنا على هيئة مسجد لا يقل مناعة عن القلعة المواجهة له».

ولا يمل أن يطوف بطرقات القاهرة الضيّقة جاهدا في «التصنيف» أنماط البشر التي يصادفها وفي التمييز بين الملامح الأساسية للأجناس التي تتدافع وتتلاقى أمامه : «الفلاحون الذين تجري في شرايينهم دماء الزنج والعرب ، والبدو الرُّحل قطّاع الطرق ، والجنود الأتراك المغامرون الوافدون من البوسنة وألبانيا الذين لم يتعاطف معهم المصريون لتطاولهم وفظاظتهم في السلوك والمعاملة». كان شغله الشاغل وهو يجوب الطرقات التطلع إلى مختلف السُّحن المتزاحمة من مختلف الجنسيات الوافدة والمقيمة كي يسجّل الفروق الدقيقة في الملامح والألوان ، وكانت أمنيته لو توافر له الوقت أن يختلط بالمواطنين الأصليين لينفذ إلى أعماق الحقائق .

وقبل أن يبحر من ميناء السويس إلى الخليج الفارسي متجها إلى الهضبة الإيرانية مهد الجنس الآري الذي هو في رأيه قد أخصب الأجناس الأدنى مرتبة فخلق الحضارة التي ننعم بها ، نراه بالرغم من عدم إحساسه ندما على أنه لم يتعرّف الحضارة المصرية الفرعونية يقصد أبا الهول وأهرام الجيزة ليحيّيهما تحيته الأخيرة . وما كان لنا أن نطلب إليه فوق هذا ، وهو الذي لم تقع عيناه على ما كتبه ماريت عن عظمة الآثار الفرعونية .

الفيلسوف
المتشبث بهيلينيته

إرنست رينان

جاء إرنست رينان مصر مرتين : الأولى في عام ١٨٦١ وكان في طريقه إلى بلاد الشام إلا أنه لم يمكث بها إلا أياما قلائل في مدينة الإسكندرية ، وفي الثانية عام ١٨٦٤ جاس أنحاء البلاد من شماليها إلى جنوبيها ودوّن انطباعاته في مقال مشهور نشر بمجلة «العالمين» باريس يوم أول أبريل عام ١٨٦٥[٧٧]

وعلى أية حال فلقد كانت رحلته الثانية أكثر أهمية إذ شاهد فيها الكثير من المناظر الطبيعية ، وخاصة أثناء رحلته إلى أسوان على الباخرة النيلية ضيفا على ماريت باشا عالم الآثار الفرنسي [illegible] (١٥٤) [illegible] عن تاريخ «أصول المسيحية» [illegible] لأحد أصدقائه بأنها : لم تزل [illegible] المثقف بنور [illegible] من الحفاوة التي قدّمها له [illegible] الفرنسي المكفهري الذي ترافقه ، وهو الذي جعل منه الفونس دوديه نموذجا لشخصية رئيسة في روايته «الثري المحدث»[٧٨] عن واحد من حديثي [illegible]

[illegible]

(٧٧) E. Renan. L'Ancienne Egypte. Revue de deux mondes. 1865

(٧٨) Alfonse Daudet. le Nabab. Paris 1877

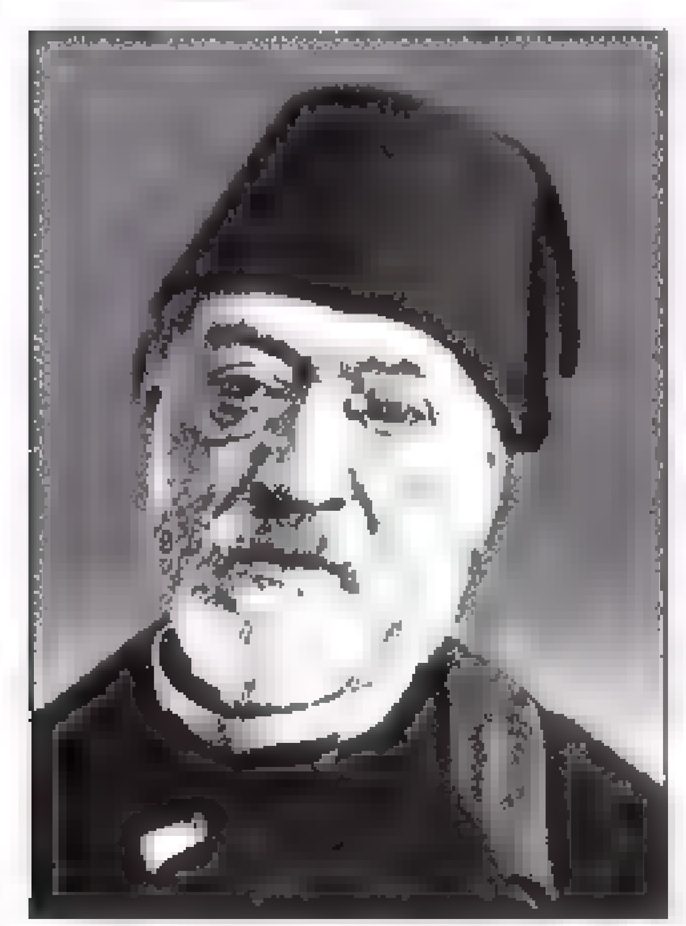

لوحة (١٥٤) ماريت باشا

مفكر تشغله
قضية الفلاح

إدموند أبو

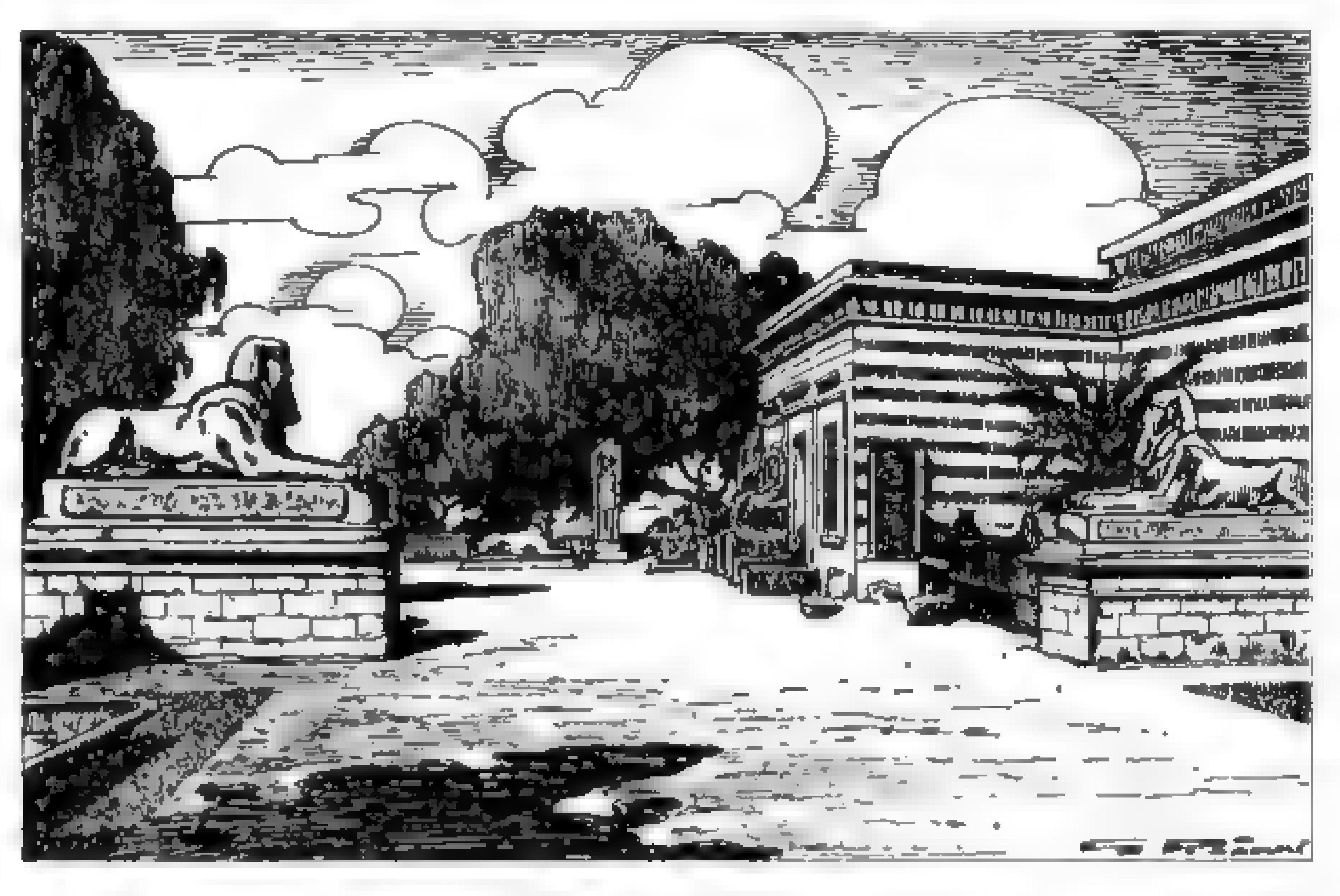

لوحة (١٥٥)
متحف آثار بولاق

والأدق لمراميه. وكان أشد معابد المصرية تأثيراً في نفسه هو معبد فيله. ويتضح من مقاله الشهير أن زيارته لآثار مصر القديمة بالأقصر وأسوان قد أثرت في نفسه، فأثارته آثار النوبة، بل إن شغفه بالحضارة النوبية وبالفن النوبي قديماً وهو يتأمل الآثار المصرية. فقد عدّ الفن المصري بمثابة انطلاق صوب معجزة الإغريقية، مع اعترافه بأنه جدير بالتحليل والدراسة لأنه يمثل ما قدّم من عناصر جمالية ومعمارية مهّدت للفن الإغريقي. وخلاصة ما رأى في مصر القديمة أنها حضارة قامت على الاستبداد الديني والسياسي. غير أنه يبدو أنه في حكمه هذا كان متأثراً بما كشفت عنه الحفائر والتنقيبات التي لم تكن قد تجاوزت في ذلك الوقت عصر الدولة القديمة، فلم يتح له الاطلاع على ما كشفت عنه الحفائر التي جرت بعد في المرحلة المصرية اللاحقة من اكتشافات ميدانية ورغبات تصويرية. ومن جمال رسومها بعض الإعجاب بالتصاوير الجدارية في مقابرها، إلا أن أكثر ما شاهده تأثيراً في نفسه يوم من الأيام هو ذا أسلوب النحت المصري في الدولة القديمة وخاصة تمثال شيخ البلد الذي وصفه وصفاً مسهباً في مقدمة كتابه «الفلاح». ولم يتعرض وليس فقط على عصر أخناتون والأسرة ... من صديقه ما يبين كان تحري حضارة هناك. ومع ذلك فإنه يعتبر أنه متأملة في أبي الهول والأهرام قد أخذ رؤية في نفس الفنان دعوة الوحدانية المهووسة في أصول مصرية. ويختم ما كتبه عن مصر أن أشنع من أساؤوا إلى آثار الحضارة المصرية ليسوا هم اللصوص أو الرحالة الجشعون أو المغرمون باقتناء العاديات بل كانوا الحكام الأتراك غير المباليين الذين حاولوا منذ عهد محمد علي أن يصبغوا مصر بطابع الحضارة الحديثة ناسين ماضي مصر ... الآثار شامخة محافظين سوالفها العريقة في سبيل الحاضر المحدث والمستقبل المرتقب.

ترك لنا إدموند أبو عضو الأكاديمية الفرنسية بعد رحلته إلى مصر رواية «الفلاّح» التي نُشرت في مجلة «العالمين» باسم «الفلاح أحمد» (فبراير - أبريل ١٨٦٩)[٧٩]. وهذه الرواية ليست أفضل أعمال أبو وليست كذلك رواية متميزة كما لم تكن ذائعة الشهرة ، ولكن ما فيها من أهمية يرجع إلى أنها تزوّدنا بدراسة وافية عن عادات المصريين وبيئاتهم ، وتعرض صورة شاملة لمصر تحت حكم إسماعيل أضفى عليها المؤلف من براعته ومرونته وبهلوانيته ما جعلها شيقة حديثة ، تكشف تحديثه لمحات من ذكائه وعمقه وتوسع وقدرته النقدية على بث ظلال والأضواء في لوحاته الجامعة . وكان إدموند أبو قصّاصا ذا خبرة واسعة بالزراعة وحنكة بشؤون الاقتصاد ، وكذا كان عدلا وصحفيا ورحّالة وفنانا يحيط علمه بكل شيء ، وينفذ بصره إلى كل شيء ، وينتهي إلى سمعه كل شيء . وكان هذا الكاتب المتخصص بالعلوم الإنسانية والحضارة اليونانية يشعر في أعماق نفسه أنه رجل مال ومزارع كفء ، مقتنعا كل الاقتناع بأنه تارك الأدب يوما إلى التجارة ، فلقد كتب في التجارة كما كتب في الأدب . ولذلك كان على كفاية لأن يصوغ رواية «الفلاّح» التي هي في آن واحد رواية ثقافية ورواية اجتماعية ورواية خاصة بعالم المال ورواية ذات قضية يدافع فيها مؤلفها عن وجهة نظر خاصة ، وهي كلها عناصر تكشف عن حرصه على أن تكتسب أوربة النجاح

وقد اختارت الحكومة الفرنسية إدموند أبو مبعوثا لها إلى مصر كي ينهي إليها ليس فقط ما وصل إليه مشروع دلسبس في قناة السويس ، والنظر في شؤون الزراعة بمصر تنميةً وثراءً ، بل كذلك ما يتصل بالإصلاح القضائي ، إذ كان سعيد باشا قد طلب إلى الدول العظمى من قبل إلغاء نظام المحاكم القنصلية وإنشاء محاكم مختلطة بدلا عنها . ولما كانت الحكومة الفرنسية تخشى ضياع مصالحها وامتيازاتها الرأسمالية إذا وافقت على المشروع المقدّم من الخديو رأت أن توفد إلى مصر مبعوثا موثوقا به يرجع إليها بتقرير وافٍ عن مجريات الأمور . وقد حرصت مصر على أن تضم هذا المبعوث إلى جانبها ، وكان إسماعيل باشا قد تلقى رسالة من وزير خارجيته نوبار باشا الذي كان يفاوض الفرنسيين في باريس تحمل نبأ مقدم المبعوث الفرنسي ، ويوصي فيها نوبار بضرورة استقباله استقبالا خاصا والاحتفاء به احتفاء شديدا ، فأحاطه إسماعيل منذ أن وطئت قدماه أرض مصر بكل مظاهر الرعاية والعناية وخصّه بمركب حربي ينقله إلى حيث يشاء كما جعل له حرسا خاصا به .

(٧٩) Edmond About: Ahmed Le Fellah. Revue des deux mondes 1869
Le Fellah (Souvenirs d'Egypte). Hachette 1905

[illegible] عقب هذه [illegible] خمسة وعشرين [illegible]

اشترى به منه كتابه «الفلاح» الذي لم يكن قد أعده بعد. وقد مكّنت هذه المجاملات إسماعيل أن يستميل إليه هذا المبعوث الذي يسّر له الأمور في مفاوضاته مع الحكومة الفرنسية، وهذه لا شك كان لها أثرها الخاص في كتاب «الفلاّح»، حتى إن أبو قد كتب إلى صديقه الصدر جيروم نابليون بأنه عرف مصر حق المعرفة وأصبح قادرا على وصفها من أقصاها إلى أدناها في دقة متناهية غير أن سخاء إسماعيل نحوه قد ألجمه عن أن يذكر ما يسوءه!.

وقد أمضى إدموند أبو بمصر سبعين يوما، فلقد نزل الإسكندرية في ٤ يناير عام ١٨٦٨ وقضى بها يومين قبل أن يغادرها إلى القاهرة التي قضى بها هي الأخرى يومين ثم أخذ في زيارة أنحاء الدلتا. وفي يوم ١١ يناير صعد المركب الحربي الذي خصّه به إسماعيل ليبحر إلى مصر العليا. واستغرقت هذه الرحلة التي كان فيها بصحبة أركل بك ابن أخت نوبار وعالم الآثار ماريييت باشا أسابيع أربعة عاد بعدها إلى القاهرة ليمكث بها ثمانية أيام قصد بعدها الإسماعيلية وظل بها إلى نهاية الشهر.

وتضم قصة أحمد الفلاّح مدخلا في أربعين صفحة تقع جميع أحداثه في فرنسا، يليه وصف لرحلة المؤلف في مصر. ويذكر لنا أبو أنه في يوم من أيام الشتاء كان يمارس الصيد في غابة قرب قصر من قصور أصدقائه فلقي الفتى بطل القصة وهو يهشم الجليد ليمشي سركه من سرك كي يتوضأ بذوبه. وإذا ذلك الفتى يتقدم منه ويقدّم بطاقته التي تحمل اسمه «أحمد الراهب الفلاّح المعثة المصرية» ويروي أحمد وهم يتناولون الغداء في القصر ما كان من أمره وشجاعة نشأته في وادي النيل ومبلغ حب ه النعمة التي كان يعيشها في قريته. ويبغض شمل جميع المدعوين، وإذا بالمؤلف بعدُ يقرأ في صحيفة من الصحف أن رفيقه المصري في الصيد قد جُرح جرحا خطيرا في مرسيليا وهو يبارز خصما له كان قد سبّ سعيد باشا. وتمرّ أعوام سبعة وإذا بإدموند أبو في أرض الفراعنة بعد أن شهد الجناح المصري بمعرض باريس الدولي عام ١٨٦٧ فشدّه إلى تلك الزيارة، هذا إلى أن الحكومة الفرنسية قد وكلت إليه أن يعدّ لها بحثا عن الشؤون الزراعية بمصر. وفي الباخرة التي أقلته إلى مصر يلتقي بفتاة إنجليزية جميلة هي الآنسة جريس في رفقة أسرتها. وحين وصل إلى الإسكندرية ونزل بأحد فنادقها وجد نفسه بين نفر من المغامرين الأوروبيين المقيمين بها الذين أخذوا يتجادلون أمامه جدلا حادا. وفجأة يرى بين يديه صديقه أحمد الفلاح وقد غدا من الأثرياء يملك الكثير. وحين جلس الفلاح إليه أخذ يقصّ عليه ما لقيه بعد أن جُرح في المبارزة بمرسيليا وغادرها إلى مصر، وما كان من سعيد باشا من تقدير له جزاء ما سلف منه في حقه فأعطاه ما يملكه الآن من مزارع كما منحه خمسين ألف فرنك، ولكنه للأسف لم يجد حين نزل قريته غير منزل خاو تركه له أبوه بعد أن لقي حتفه أثناء غيبته في سخرة شق قناة السويس التي أفنت الفلاحين وزهقت معها أرواحهم. ويصل أبو ما بين الفتى الشاب وبين رفقة رحلته من الأوروبيين، وإذا بأحمد يقع في غرام تلك الإنجليزية الحسناء التي كانت تصحب أبو في رحلته، ويوجّه أحمد إلى جميع رفقة أبو ومن بينهم تلك الفتاة دعوة ليشهدوا معه عاصرة قصبه وحفل الختان والقمعة ورقص العوالم ومباهج شهر رمضان. ولقد حاول خلال الدعوة جاهدا أن يتقرّب إلى نفسه غير أن محاولاته ذهبت هباء. فلم يثنِ عن عزمه ودعاهم مرة أخرى إلى قضاء أسبوع في مزرعته بالمنصورة، وكانت تلك فرصة للمؤلف أن يشاهد

فيها أساليب الزراعة في الدلتا على الطبيعة مما أتاح له أن يعرض آراءه في تطويرها بإسهاب وقدرة فائقة. على أن الفتاة البريطانية لم تأبه بمحاولات أحمد للمحبة وانفضّ شمل المدعوين في المنصورة على أن يلتقوا مرة أخرى في قنا حيث كان لأحمد هناك مزرعة ثانية. ويبحر إدموند أبو في الباخرة التي هيّأها له الخديو لتنقلاته على حين أبحرت الفتاة وأسرتها على ذهبية كانت ملكا لأحمد الفلاح. ويزور أبو الأقصر وإسنا وأسوان ومعه بعض أمراء البيت المالك في صحبة مرشد خبير هو ماريييت باشا. ثم عاد أبو إلى القاهرة مارا بسقارة وقضى بها ما قضى بعد هذا وإذا هو يُرى في حفل راقص ببيت من بيوت الفرنسيين في الإسماعيلية. وكان أحمد في رفقة تلك الفتاة الإنجليزية وقد لانت آخر الأمر وأخذت تبادله غراما بغرام، غير أن ما كانت تحسّه من خلاف بينها وبين أحمد جنسا ودينا لم يلبث أن بلبل خواطرها وأقضّ مضجعها وباتت فريسة صراع حاد بين العاطفة والعقل، وإذا عقلها يغلب في النهاية عاطفتها ولا تجد خلاصها من هذا الغرام العذري غير أن تفلت وتهجر مصر إلى وطنها. وما إن علم أحمد الفلاح ذلك حتى أقسم بقبر أبيه ليعودنّ بها أو ليموتنّ دون ذلك. وإذ هي واليخت على وشك الإقلاع من بورسعيد ترى أحمد قد قذف بنفسه إلى البحر سابحا حتى وصل إليها، وما إن تلاقيا حتى أقنعها بالعودة.

هذه هي رواية الفلاح التي تُعوِزُها الأحداث ولا تشيع فيها الحركة، وما ذُكر بها من أحداث نحس فيها الملل لما تعرّض له من أمور سياسية واقتصادية وزراعية مسهبة. وما تبدأ القصة أن تكون مثيرة إلا حين يمضي المؤلف بنا من العاشقين ويأخذ في سرد أحداث رحلته إلى مصر العليا. ونستطيع أن نقول في إجمال إن القصة جاءت غير متوازنة، فصفحاتها تبلغ العشرين بعد الثلاثمائة قدّم لها بأربعين صفحة، وخصّ مائة صفحة بالحديث عن الرحلة، وحمل ما يربو على مائة وخمسين صفحة للحديث عن شؤون الزراعة مما يجعل القارئ يحس بركود القصة في شقيها الأولين. وثمة إلى جانب فقر القصة الرومانسي هنات سيكولوجية كثيرة. فإذا كانت رواية الفلاح تُعوِزُها الأحداث فهي إلى ذلك تُعوِزُها الشخوص، فشخصية أحمد الفلاح الفتى الشاب ثم هي فوق ذلك مسوقة في بساطة مفرطة، وفي مثالية تتفق وأهداف المؤلف أكثر مما تتفق مع الحياة والواقع. هي شخصية لطالب نابه في البعثة التعليمية في باريس يعود إلى بلاده مزوّدا بكل الفضائل والقدرات والرغبة في التجديد. وهي شخصية مزارع من الطراز الأول ونموذج للفروسية النبيلة والوفاء والرقة والولاء، ثم هي كذلك نموذج للتفوق الفكري والمعنوي، كما أنها برهان على تحرّر والي مصر الذي أتاح للصفوة من المصريين الاتصال بأسباب الحضارة الغربية. غير أننا نحس أن هذه الشخصية لا تمتّ إلى صفات الفلاح بسبب غير ما فيها من تقوى وتوقير للشعائر الإسلامية واستقامة خلقية والحفاظ على تقاليد البيئة من كرم وحب للعمل، وأنها لا تمثل الشخصية المصرية في قليل ولا كثير، وإنما هي لفلاح مصري أسبغ عليه المؤلف ما يهوّن ما طُبع عليه الإنسان من نقائص بشرية. أما الفتاة الإنجليزية فقلّ أن نجد مثلها إلا فيما تقصّه علينا الروايات العاطفية فليس لها من أثر في الحياة الواقعية، فهي شديدة الوقار وفتاة قلب نبيل ترفض مبادئها المسمومة.

تُرى ما وراء هذه القصة من شأن؟

ما من شك في أن شأنها يكمن وراء تلك العادات والمظاهر في البيئة المصرية التي استدعاها المؤلف لتثير الخيال من ناحية، ووراء الأهداف السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي حشى بها

لقصة من ناحية أخرى تستقيم وتغدو قصة اجتماعية وقصة ذات قضية لها قيمة تاريخية ، ولا شك أن تجارب الصوت [illegible] استخدمها بها ، فقد أمضى إدموند أبو شهرين في مصر ثم يضيع عبثًا إذ [illegible] . وما من شك في أنه لم يلق بالًا إلى قواعد الفن الأدبي ، فرمن الحركة مترنح في قصته وشخصياتها مفتعلة ، ولكنه على أية حال كشف فيها عن استيعابه الشامل للعلاقات بين مصر وأوروبا لا سيما فيما يتصل بإصلاح المحاكم القنصلية والمشكلة الزراعية وشق قناة السويس [illegible] المصرية في منتصف القرن التاسع عشر [illegible] العلاقات بين مصر وأوروبا محل مناقشة بين المؤلف وأحمد الفلاح الذي قام فيها محاميًا عن مصر على حين كان إدموند أبو محاميًا عن أوروبا ، وينتهي الاثنان إلى اتفاق على التعاون بينهما ، وقد استوعبت المناقشة ما يربو على نصف القصة

وينطلق إدموند أبو مبرزًا السخرة التي يستخدمها الخديوي لحفر الترع والقنوات بما ساقه على لسان أحمد الفلاح ، الذي يذهب إلى أن ريع الغرب هي التي تسقط الأمطار على حقول أوروبا فلا يعاني أهلها من ضرورة العمل اليدوي الذي يدفع إليه الناس دفعًا في مصر حيث لا يهطل المطر من السماء إلا مرتين أو ثلاث خلال السنة ، وهو ما يدعو الخديوي إلى احتلال مكان الريح في توزيع مياه النيل عن طريق تنظيم عمل الرجال الذين يجدون أن مصلحتهم في أن تكون أيديهم رهن إشارته !

ونرى أبو فيما يتصل بالمحاكم القنصلية يسوق على لسان مغامر من المغامرين الفرنسيين المقيمين في الإسكندرية الحديث التالي : «لست أدري لمَ يهاجر اليهود من مصر إلى أقصى المعمورة سعيًا وراء أرض أخرى للميعاد فإن الإسكندرية هي أرض النعيم ، وإني لأكاد أحس وأنا هنا أني في موطني ، فإن ما حققته من كسب خلال أزمة القطن يفوق أي خيال ، فحسبك أن تكون فرنسيًا كي تربح المئات والألوف دون أن تدفع درهمًا واحدًا ضريبة ، فالعارمون بأداء الضرائب هم الفلاحون وحدهم . أما القناصل فهم طغاة صغار تجاوز سيطرتهم على رعاياهم الحد ، يحابون من يشاؤون من أصحاب النفوذ ولا يأبهون بالبسطاء . فإذا فات أحد القناصل القطار ، فعلى القطار أن يعود القهقرى مرغمًا ساعيًا إليه» .

وحين تسأل الأنسة جريس المؤلف عما إذا كان القناصل [illegible] مواعيد محددة [illegible] تكون لهم مواعيد ولكن ليس ثمة قانون ضابط ، فأقدار القناصل لا تُمس ولا يُنال منهم ، فهم آلهة ينظمون حركة الشمس» . وهنا يبرى أحمد ليقول : «على الرغم من المعاهدات [illegible] لا يعمل بها بل ليتخذها ذريعة في خرق قوانينها ، فهو لا يعترف بأحكام [illegible] المصري ، ولا ولاية لأحد عليه غير قنصله . فإذا وقع نزاع بينه وبين أحد مواطنيه أو بينه وبين مواطن مصري فإن قنصله مرد الحكم في تلك الخصومة لا إلى القضاء المصري» .

ويتعجب أبو فيسأل الفلاح : «كيف ترجو من أوروبا وهي التي تقرعها المظالم أن تكون في عونكم ، وكيف لمصر وهي ذات التاريخ المجيد الذي يضرب في الماضي لعشرة آلاف سنة أن تطلب العون من أوروبا ؟ وكيف يرجو المصريون ما نحن العصبة المقيمة بينهم العون ؟» .

ويجيبه الفلاح : «على حين يلحق بأرضنا من أوروبا رجل واحد نزيه يجيء في إثره عشرون [illegible] ، [illegible] في هذا العصر العلمي الصناعي الاقتصادي لا نقوى على أن نعيش في عزلة عن الحضارة الأوروبية فلا غنى لنا عنكم . ولقد وهبتنا السماء أميرًا فطنًا يقبل راضيًا أن ينزل عما بيده من سلطة إلى القضاء المحايد»

وهنا يجد المؤلف نفسه يؤيد اقتراح الخديوي بإنشاء المحاكم المختلطة وكأن المبعوث الفرنسي يلبي رغبة الخديو ويخدم مصر وفرنسا في آن معًا .

على أن موضوع التطوير الزراعي ينال حظًا أكبر من اهتمام المؤلف فنراه وكأنه هو في بيته وهو [illegible] كيف ينهض بالزراعة في البلاد ، بل نراه يخوض كذلك في شؤون الثروة السمكية فيقترح [illegible] الأسماك في بحيرة مريوط وتجفيف بحيرة [illegible] الزراعة [illegible] ومن قبل إدموند أبو كان جوستاف فلوبير قد أنيط به أن ينظر في شؤون الزراعة بمصر أيضًا كما أسلفنا ، غير أن أبو كان أكثر جدية من فلوبير إذ كان هذا التكليف من صميم اهتماماته

وكان لابد له من أن يكون متفائلًا عند النظر في مسألة قناة السويس إذ كان فرديناند دلسبس وقتها قد تغلب على العقبات الفنية والمالية والسياسية التي اعترضته منذ أن نال امتياز شق قناة السويس عام ١٨٥٤ . وعندما توقف العمل بنظام السخرة في عام ١٨٦٤ جند خمسة عشر ألف عامل أجنبي من فرنسا وبيدمونت وكالابريا والنمسا ودالماسيا والجزر اليونانية والجزائر وسوريا ، ولجأ إلى استخدام الآلات فأحضر الكسحات والجرافات والرافعات وأنشأ ورش الإصلاح ، وانتقل فجأة كما يقول أناتول فرانس من عصر الفراعنة إلى العصر الحديث .

ولم يضم الكتاب إلا أقل القليل من أوصاف المناظر التي ألهمت الرحالة السابقين عليه صفحات شاعرية ، فهو في وصفه يسوق ملاحظات جامدة مقتضبة ، ولم تجد الشاعرية بالعبور في آفاق روايته حتى إننا لا نلتقي فيها بتلك التناغمات الجميلة أو ذلك الجرس العذب الذي ألفناه في كتابات جيرار دي نرفال أو لوتي ، فأسلوبه وإن كان رشيقًا جليًا إلا أنه سريع موجز شأن كتّاب القرن الثامن عشر . ولا يفلح المؤلف في بعث الحياة فيما يصفه من مشاهد ، فإذا وصف بيتًا مصريًا وصفه على نحو منهجي دقيق ولكنه لا يلتفت إلى ما فيه من سحر ولا يكشف لنا عما يحيطه من غموض . ويغلب على ظن من يقرأ وصفه لوادي الملوك أن عظمة منشآته لم تهج مشاعره ولم تُلهب خياله .

وعلى العكس من فلوبير الذي تختفي شخصيته الاختفاء كله في رواياته نرى أبو يجد متعة كبرى في إقحام شخصيته في ثنايا ما يقص ، إذ كان يرى أن بروز شخصية المؤلف تجعله حرًا كل الحرية [illegible] . ولا يصح أن ننسى أن نشأته الكلاسيكية طالب بالمدرسة الفرنسية في أثينا جعلته [illegible] [illegible] [illegible] منذ عهد [illegible] إلى العصر البطلمي [illegible] [illegible] [illegible] وهو في إسارها مجالًا للابتكار . ونحن إذا تصفحنا جميع [illegible] من جديد إلى مسجرات أخرى لم نجد بين أيدينا ما يعادل

إخرا إعرف واحد مثل معبد تسبوس أو تمثال قسوس من ممنوس» ولكنه مع ذلك يحطّ بصنيع
سطور عن قبله وإدفو ولا يحطّ كلمة واحدة عن الكرنك الذي زاره برفقة مريت باشا ، ولا
يستثني من ذلك كله إلا مقابر بني حسن التي تعبر عن رقة خدة الريفية بعفويه وحيويه ومرح
وبهجة تمس بهاية بشرة بني سلطان الملوك أو استبداد الكهنة الطاغي في وادي الملوك حيث يبلغ
سلطان الفراعنة القمة فلا نعجب فيما يراه هناك من شطط في استخدام الأيدي العاملة للشعب
يعيش في أكواخ من الطين وما أشدّ ثورتنا بين أيدي تلك الحشود الغفيرة من البشر التي ضحّت
بحياة لديه وهي الحياة الحقّة انتهاء حلم بعالم آخر وخلود وهمي» ويبين لـ من عباره أنو
الأخيرة مدى إلحاده وما يضمر من عداوة للمسيحية ، ثم هو لا يتردد لحظة واحدة وهو يناقش
الأديان المقارنة في أن ينحاز لأحمد المسلم ضد الكاثوليك الفرنسيين ، فيقول على لسان أحمد
الفلاح : «ما أشبه الصلاة عندنا بما تقوم به النسوة من نسج وتطريز ، ثم ما أشبه البرّ عندنا بضرب
من ضروب سعادة أو لتحدي ثورة الفقراء على الأغنياء ، كما أن التبشير لون من ألوان المخادعة
وإن تحريك مسلم لأصبعه مرة واحدة وهو يسبّح يفصح عن أن ما في قلبه من إيمان يربي على ما
تكنّه قلوب حشد كبير من الكاثوليك».

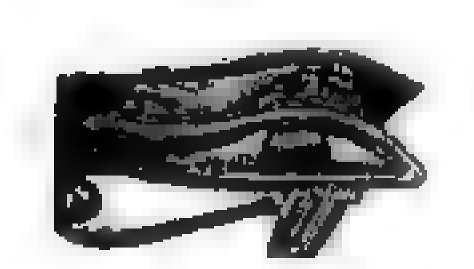

ناقد يجتذب الملايين
إلى تذوق الفن الإسلامي

شارل بلان

ظهر الفن الإسلامي على ضفاف النيل من خلال شارل بلان باهتمام حركة النقد الفني الفرنسية، فمؤلفات باسكال كوست وبريس دافن الكبيرة الحجم الباهظة الثمن لم تكن معروفة لغير المتخصّصين، ويعود إلى شارل بلان الفضل في تعريف غير المتخصّصين بهذه الأعمال في كتاب ذائع يوازن فيه في حذق ولباقة بين أوابد المصريين القدماء وأوابد الإسلام، «فعلى حين يؤثر الأوائل تكرار نفس الصيغة يفضّل العرب التنوّع». ثم يفسر أصول الزخارف الإسلامية وتطورها قائلا: «. . . . لما كان حظر تناول الكائنات الحية في الفنون الإسلامية يُخمد همّة الفنان ويحدّد وسائل تزيين أسطحه فقد وجد نفسه مسوقا إلى الاتجاه نحو التجميع الذي هو السمة الغالبة في فنه . . . .». كذلك يعود الفضل أيضا إلى شارل بلان في التعريف بقيمة المؤرخ بورجوان حين تناول كتابه «الفنون العربية» بالنقد والتقريظ قائلا: «أثبت لنا السيد بورجوان في كتابه أن الغموض الذي يتراءى لمن يشاهد التوريق المتشابك [الأرابيسك] من خلال المربّعات المنحرفة المتناثرة والمثلثات المتقاطعة والمضلّعات المتراكبة والأسطوانات المشدوبة ليس إلا غموضا ظاهريا، إذ ثبت على وجه اليقين أن ثمة نهجا غاية في البساطة يسري خلال هذه المتاهة المحيّرة في تلك الأشكال المحدّدة، وأننا نستطيع العثور على خيط الهدي وسطها». ويعد مثل كتابه «رحلة إلى مصر العليا. ملاحظات حول الفنون المصرية والعربية»(٨٠) الذي ألّفه بعد زيارته لمصر عام ١٨٦٩ نبعا لا ينضب للانطباعات المباشرة ومنجما للدارسين والباحثين حتى يومنا هذا.

(٨٠) Charles Blanc: Voyages de la Haute Egypte. Observations sur les Arts Egyptien et Arabe

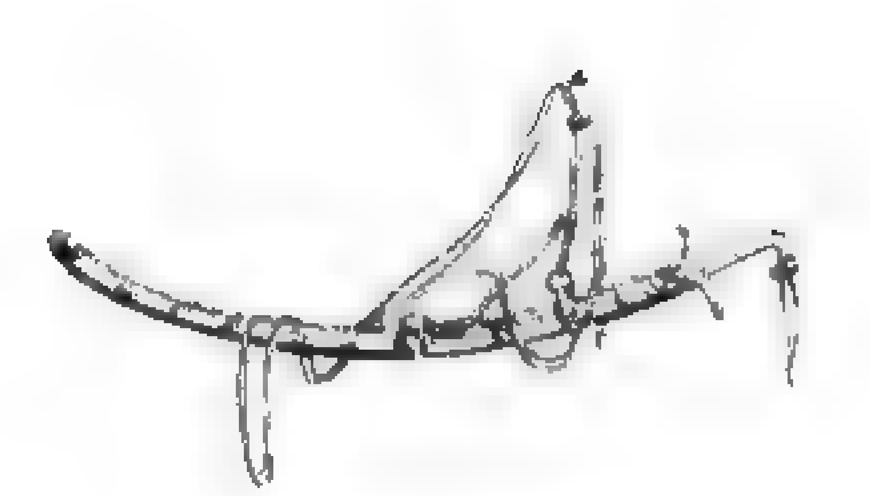

أديب آفاق

شـــارل إدمون

ومن بين شرذمة المغامرين الذين زحفوا على مصر ينفرد الانتهازي الجاحد شارل إدمون بتأليف كتاب يتناول فيه قصة حياة شخصية جليلة كان لها فضل حقيقي في تعليم وتدريب الجيش المصري وإحراز انتصارات حاسمة أعلت من شأن مصر في التاريخ المعاصر في ميادين القتال بسوريا وشبه جزيرة المورة ، وأعني به الكولونيل سيف ، وإن تناوله بقدر كبير من التشويه الظالم له . وتكمن المفارقة في أن هذا الضابط الشجاع الكريم كان قد أشفق على شارل إدمون واستضافه بحفاوة وثقة لم يكن للأسف أهلاً لهما . وكان شارل إدمون مهاجرا بولنديا قد غيّر اسمه الأصلي « تشاوكيه » بعد هروبه من تهمة سياسية طاردته في بلاده ملتجأ إلى باريس حيث عمل بالصحافة الثورية حتى اضطر إلى مغادرة فرنسا مطاردًا من رجال المال والسياسة ومن الشرطة وفرّ إلى مصر أملا في أن يعيش حياة المغامرة التي شدّته إليها قراءته لرحلة جيرارده نرفال ، وأن يجمع الأموال الطائلة مثل غيره من الوسطاء الأجانب . وعند وصوله إلى الإسكندرية طرق أبوابا عدّة ، غير أن أحدا لم يُعره اهتماما تشككا في شخصيته المريبة وتعجّله الإثراء ، فانتقل إلى القاهرة وساقه حظه إلى التعرف إلى الكولونيل سيف أو سليمان باشا الفرنساوي . وكانت مصر وقتذاك تحت حكم عباس باشا العبوس ابن طوسون وقد آلى على نفسه أن يهدم كل ما بناه جدّه محمدعلي ، ففصل الموظفين الأوروبيين وسرّح الجيش وألغى المدارس وأغلق المستشفيات وفرض لبس الطربوش حتى غدا ارتداء الزي الغربي أمرا محفوفا بالخطر ، وشاع نظام السخرة وساد السوط في إسكات صوت مَن لا يحوز برضاه عباس ، بينما غدت لمن يحظون بثقته سلطات بغير حدود . ولم يكن سليمان باشا بطبيعة الحال في مثل هذا المناخ لشاد يحظى بكل الرضاء وإن كان محاطا بالاحترام والإجلال لماضيه الحافل بالمآثر والزاخر بالنزاهة . وكان يقطن ضيعة فسيحة على النيل بمصر القديمة[81] يعيش فيها بأسلوب مزيج من عاداته الأصيلة وطبعه المرح ولسانه اللاذع وبعض من عاداته الفرنسية التي تلحّ عليه عند بلوغ سن الاعتزال أن يلوذ بالطبيعة ويشغل بشيء من الزراعة وتربية المواشي لا سعيا وراء مزيد من المال الذي كان موفورا لديه وإنما حرصه على الاستمتاع بما اعتاده من غذاء شهي سائغ يستملحه ويستمسك به كل فرنسي أصيل . وقد قبل بعد أن ولي أكبر المناصب - كما قدمت - إلى أن يعتنق الإسلام حتى لا تحول ديانته الأولى وهي المسيحية بين أن يحضر الحفلات الرسمية الإسلامية ، ولكي يكون مصريا حقا بدين بما يدين به عامة المصريين . وقد حفل بهو قصره بالعديد من الجواري ، وما أكثر ما كان يدللهن في الفترة بعد

(٨١) هدم قصر سليمان باشا الفرنساوي بمصر القديمة ، وتحل محله الآن إحدى المدارس ، غير أن ضريحه هو وزوجته مريم لا يزال قائما .

الفترة، فكان يقضي نهاره مستسلماً للنوم حتى يستعيد قواه التي أنهكتها سهراته البيضاء في مضغ أشهى الأطعمة وعب أجود الأشربة وما يتلو ذلك من جهود شاقة مضنية بين أحضان إمائه.

وكان شارل إدمون من المحظوظين الذين يشاركون في بداية هذه السهرات بعد أن أنعم سليمان باشا عليه بوظيفة شرفية في قصره أتاحت له أن يسمع من نساء الحريم قصصاً يخالف ذلك القصص الذي اعتاد سليمان باشا أن يرويه في زهو وخيلاء وهو يتناول إفطاره. ومع مرور الأيام زاد عطف سليمان باشا على هذا الأفاق الذي يحيا بلا مورد، فبدأ يصطحبه في تنقلاته غير الرسمية ويبوح له ببعض ما يضيق به ويُسِرّ له بحنينه إلى فرنسا وتعلقه بأرض مصر وأهلها وروحانية الإسلام. وحينذاك طرأ بخاطر شارل إدمون أن يقنع سليمان باشا بأن يملي عليه مذكراته خشية أن يضيق بطول ضيافته فيطرده. وعلى الرغم من تردد سليمان باشا حرصاً على عدم البوح بما يختزنه من أسرار عن أسرة محمد علي وعن أغلب رجال الدولة خلال فترة تجاوزت الأربعين عاماً، إلا أنه أذعن في النهاية وقرر أن يقضي معه في الصباح فترة يُملي فيها خواطره وملاحظاته عن الكثير من العادات والتقاليد المصرية وذكريات المعارك وأنباء أفراد الجالية الفرنسية، وإن ضاق بعد فترة وجيزة بهذه المهمة الثقيلة ومل هذه الجلسات. غير أن ما حكاه كان بداية لأحداث القصة التي كتبها شارل إدمون بعنوان «زفيران كازافان»[٨٢]، تلك الشخصية القميئة التي حاك حولها وقائع هزلية قصد كاتبها أن يسرّي بها عن قرائه الفرنسيين المتلهّفين للتعرف على أسرار حياة مواطنيهم من الأبطال المغتربين على ضفاف النيل. وكان شارل إدمون قد زيّف شخصية سليمان باشا على أنه أحد المماليك الذين التحقوا بجيش نابليون وحارب معه حتى موسكو إلى أن تولى قيادة جيش مصر في عهد أسرة محمد علي؛ ولم ينشر قصته التي كتبها في عام ١٨٥٠ إلا بعد مرور ثلاثين عاماً على تأليفها خشية تأنيب الشخصيات التي تعرّض لها عبثه. وإذا كان هناك اليوم من يذكر شارل إدمون في عالم الأدب بسوء جحوده لسليمان باشا الفرنساوي وتنكّره له، فهذا لأن الحكم على الكاتب بعد وفاته قد يخالف الحكم عليه في حياته، إذ يملك النقاد في الحكم عليه بعد موته حرية أوسع وتجتمع لديهم من المعلومات ما لم يجتمع لهم من قبل[٨٣].

(٨٢) Charles Edmond. Zephyrin Cazavan en Egypte. 1880

(٨٣) E.Gouin. L'Egypte au XIX Siècle. Histoire Militaire, Politique,Anecdotique et pittoresque de Mehemet Ali,Ibrahim Pacha, Soliman Pacha (colonel Seve). Paris 1846 - 1908. Marguerite Lichter-Berger. Ecrivains Français en Egypte Contemporaine (de 1870 à nos jours.) Paris. Leroux 1934.

عملاق يلهو
على أرض مصر

إدوار شوريه

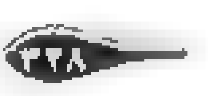

Edouard Schuré: (٨٢) Sanctuaire d'Orient 1898.

كتب ثمرة الرحلة المصرية التي قام بها إلى مصر الأديب ذائع الصيت «إدوار شوريه» كتابا نابضا بروح مؤلفه المرحة هو «محاريب الشرق»[٨٢] الذي وصف فيه القاهرة بقوله: «لقد فقدت أبراج الحمام الاسطوانية سحرها الشرقي وباتت غريبة الملامح وتهيّأت لاجتذاب السائحين كي يستغلّهم التراجمة المرتدون ثياب الشارات المخملية المطرزة بالقصب. وفي نفس الوقت الذي تقتحم فيه علينا شرذمة من الحمّارة ممتطين دوابهم بوجوههم الباسمة الملّحوحة بشعر عن يجذب أقدامنا ليمسح أحذيتنا قسرًا». ومع ذلك فإنه لا ينفر من هؤلاء ولا من أولئك بل كان يحسّ بانجذاب غريب نحوهم، ولا يلبث أن يداعبهم ويمرح بينهم جذلا في براءة الأطفال (لوحة١٥٦).

ويخلبه حيّ الموسكي بعبقرية تجّاره الذين رأى أن فلسفتهم هي «أن أسلوب التجارة هو الدعة والتأمل، وهي إلى هذا مغامرة تخالطها الحنكة والمفاجأة هدفها اعتصار العملاء بقدر المستطاع». ومع هذا فإنه لم يضق بمسلكهم بل وجد أنهم على هذا يستحقون تقدير جهودهم حق قدره واعترافا بمهارتهم وبما كانوا يضمرونه من وَهْم شرقي لذيذ في روعه وروع بني وطنه. وإذ كانت هذه الصور تتفق وطبعه الميّال إلى الخيال فقد كان يغدق المال على الجميع بلا حساب عرفانا باللحظات التي يسعد فيها إلى جوارهم.

وعلى حين ذهب الفيلسوف المستشرق إرنست رينان إلى أن المصريين مجرّدون من الشاعرية والقدرة على الخلق بل ومن التقوى والوعي الميتافيزيقي لأنهم شعب سطحي النظرة مغلق الفكر فقير الخيال محافظ جاهل ببلاده، رأى شوريه في سماء مصر وفي منف وطيبة وفي الهرم الأكبر وإيزيس المقدسة وأبي الهول الخالد وفي النور الساطع وجلال الصحراء رموزا حيّة «للروح الخالدة» وشعور المصريين الذي لا يتبدّل في صلابة حضارتهم، فمصر هي الجنّة الوفور لتوحيد الإله والوحدانية اليهودية وتعدّد الآلهة الإغريق.

عاشق مصر وآثارها

بيير لوتي

لوحة ١٥٦: محطة سعاة الحمير أمام الفندق

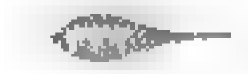

Pierre Loti: La Mort (٨٥) de Philae, 1908.

ويقدم لنا بيير لوتي الأديب الفرنسي الكبير وأحد أساطين أدب الرحلات وعضو الأكاديمية الفرنسية كتابه الخالد «موت فيله»[٨٥] بعد رحلة قام بها إلى مصر عام ١٩٠٧ طاف خلالها ببلدانها المختلفة ، واستطاع أن يلمح بعينه الثاقبة الطابع الفرعوني والمسيحي والإسلامي لمصر ويتذوقه، ذلك الطابع الذي يجعلها فريدة بين أمم العالم ، لها نكهتها الخاصة وشخصيتها المميزة . وقد أهدى كتابه هذا «لذكرى صديقه النبيل مصطفى كامل باشا الذي قضى نحبه عام ١٩٠٨ وهو يؤدي واجبه العظيم نحو بعث العزة الوطنية والإسلام في مصر» .

لقد أدرك لوتي بحسه المرهف ما تنطوي عليه أعماق الإنسان المصري من الإذعان للحكام والصبر على الشدائد والتعلق بالأرض وكرم الضيافة ، ثم عدم مبالاته بما حوله الذي يبدو وكأنه لون من الاسترخاء بعد هذا الجهد الطويل ، ويهيم الكاتب بتراث مصر ويقدس ماضيها في دهشة حتى إنه ليفزع من طغيان مظاهر المدنية التي تغزو البلاد فيناشد المثقفين من المصريين ليتصدوا لسلبيات الزحف الأوروبي حتى لا يطغى على طابع مصر ، ويستنكر ما أتاه الإنجليز في مصر مدة عشرين عاما عبروا خلالها معالمها ، فشوهوا -في رأيه- قداسة المعابد والأطلال وأخرسوا شلالها وأغرقوا معابد فيله المقامة على ربوة عالية بإقامتهم خزان أسوان . واتخذ الكاتب من غرق جزيرة فيله لؤلؤة مصر وإحدى عجائب الدنيا رمزا لموت مصر القديمة وبدءا بنهاية هذه الأمة التي صنعت أول حضارة في العالم وأروعها ، بعد أن شاء الإنجليز أن يجعلوا من مصر مزرعة بمقصف ومنتدى لأثرياء العالم الفارغين ، وكأنما شاء لوتي عن غير قصد أن تبقى مصر متحفا للتاريخ وأن تجمد الإنشاءات الضرورية لحياة الشعب ورفاهيته . والكتاب بعد ذلك لا يحوي تحليلا علميا أو اجتماعيا بل هو مجرد انطباعات أديب لماح يملك أن يرسم بقلمه مختلف الألوان في بهجة تجذب القلوب وتشد العقول .

وفي القاهرة عاش لوتي حاضر مصر وماضيها القريب قبل أن يوغل في تاريخها القديم . صافحت عيناه الجامع الأزهر الذي كان مركز التثقيف الأول في البلاد وروضة العلم والدين معا «فناء فسيح غير مسقوف ، ثم سور خشبي رائع التركيب يحجز الطلاب في جبّاتهم وعمائمهم متحلقين حول الأعمدة أمام شيوخ أجلاء يدرسون لهم علوم القرآن والرياضة التي هي من اختراع العرب، يتخرجون بعدها علماء أفذاذا ، ولكنهم للأسف متخلفون عن عصرهم إذ لم تتغير كتبهم منذ العصر الفاطمي تقريبا ، يعيشون على أموال الأوقاف ويتعاونون معا في كنس المسجد

بسعف النخيل ، يتخطف الطير عيشهم ويحركون الصوف بترتيلهم القرآن في هذه الأيام التي بدأ يختفي فيها الإيمان من قلوب الناس جميعا . لقد أعجب بلاد الشرق بعد مجد الإسلام الأول وتلك طبيعة الشعوب ، غير أن نداء الصحوة يعلو اليوم مؤذنا ببعث جديد » .

وفوق الربوة على مقربة من الأحياء الوطنية يشهد قلعة محمد علي ومسجده الذي يبدو وكأنه تحفة تركية ، حيث الرخام أبيض مجزع والأسطحة حمراء والعقود مذهبة بينما يرقد محمد علي في ضريحه بطلا أسطوريا تتعانق فوقه سمعتان من التحنن . وفي هذا المكان يتخذ الإنجليز معسكرهم حيث يطلون من شرفة أمام المسجد على القاهرة بحضرتها ورمالها ومآذنها ونخيلها المتأرجح في الهواء وأهراماتها الخالدة ، على حين تشمخ على بعد مداخن مصانع جديدة قرب الخط الفضي الذي يحطه النيل ، ينتشر دخانها وكأنه سيحجب بكثافته كل ما للماضي القديم من جمال . وفي أسفل القلعة : « تمضي وسط المصابيح الخافتة المعلقة على الحوانيت وزحمة الدور وتكاثف مشربيات كما يرتطم ببرك الوحل المتخلفة عن مياه الأمطار التي بدأت تتساقط بعد ري مصر آليا . والأهالي يخوضون في الأوحال المنعمة بالجراثيم مشمرين عن سيقانهم في استسلام غريب شبيه بسحر القراءة لا تخص لهذه المشاكل الجديدة التي خلقها التمكن » . ويسقط بيير لوتي وهو في حي مصر القديمة كيف تتلاصق بيوت الأقباط وتحط على أبوابها الصلبان . ويحصي [illegible] فوق أطلال قلعة رومانية كنيسة القديس سرجيوس [illegible] مسيحية بدائية ، وكيف تزخر يوم عيد القيامة بالرجال والنساء والأطفال إذ كانت معبد الأقباط وملاذهم ، يشيع في جنباتها بخور العرب ويخيم فيها الظلمة رغم شمس الصيف اللافحة التي تلهب الأرض خارج الكنيسة ويتبين لوتي من هنا كيف وجدت المسيحية التي نشر دعائمها الرهبان في المصريين الذين اعتادوا أن يعدوا العدة للموت منذ الزمن الغابر .

وعلى حدود القاهرة المشعة بالأضواء الكهربائية تصيبه الدهشة أمام مدينة غريبة طرقاتها رملية رحبة بلا عابرين وبيوتها موصدة بلا إضاءة ولا حركة فيها « هي مدينة مسورة تحصر فيها حدائق صغيرة وينتصب في كل منها شاهدان رخاميان فوق بناء مكعب يتسع للإنسان » . ويدرك أنها جبانة القاهرة : « بيوت صامتة يرقد فيها الموتى ، قد يطل من بعض نوافذها ضوء شموع أو تتردد فيها [illegible] من بعيد ، يحتشد فيها أقرب الموتى أيام الأعياد . وتزحم هذه البيوت وتتكاثر لتكون سدا منيعا أمام زحف مباني القاهرة التي أصبحت لابد لها من أن تمتد بضواحيها الحديثة صوب غربي النيل . وسط هذه المدينة أطلال مدافن مماليك القرنين الرابع عشر والخامس عشر الذين يرقدون تحت قبابهم ، متروكة للزمن الذي أنسى حياتهم لا تجد لها من زائر » . غير أن المفاجأة تصدمه ساعة شهدته التجربة التي ينتقل إلى مدينة أخرى تشبه مدن أوروبا بمركباتها الكهربائية وعلبها الليلية ومشروباتها الروحية وبنات هواها ويتساءل في فزع : أو تكون هذه عاصمة المستقبل ؟ ذلك أنه يخشى ألا يلتفت المصريون إلى أن لهم تراثا إن لم يتشبثوا به تلاشت إحدى مدن التاريخ الرائعة في زحام المدن الحديثة التافهة وتحولت مصر . كما أراد الإنجليز . إلى سوق للقطن ومنتدى للأثرياء [illegible] .

وفي أرجاء المدينة نوافير ومكتبات [والأنتيكة] ومساجد تحدها شرفاتها وأوكار الطير بها وجدرانها العالية المزينة بالزخارف يخيم عليها الصمت الذي تقطعه زقزقة الطيور وهمهمة

الصلوات ، كما تنتشر بها الخنادق والأضرحة . ومن حولها الأهالي البسطاء يتأملون السقوف المذهبة ونوافذ الزجاج الملون المعشق والمحاريب المكسوة بالرخام الرائع المتعدد الألوان . وتقوم أعمدة بعض المساجد المنحدرة من آثار فرعونية أو قبطية شاهدة بعظمة تاريخ الوادي ، وتضم الأضرحة رفات شهيد أو ولي أو سلطان أو محارب ومن فوقها قباب دقيقة يعشش فيها الطير . لقد امتدت يد الإصلاح إلى المسجد لتبقى شاهدا على روعة الحياة العربية القديمة في مصر ، تبقى شاهدا إذا ما تغيرت القاهرة من هذه الحال إلى حال أخرى » .

ويهرع إلى الأهرامات [illegible] أبو الهول [illegible] .

« [illegible] رغم الشفافية تومض بألوان لا ينبض بها مناخنا ، تغشي موقعا سحريا يكتنفه الغموض . يتوهج القمر فيها بلونه الفضي فيحرك فينا الانبهار ويضيء عالما لم يعد من عالمنا ، بعيد الشبه عن كل ما وقعت عليه عيوننا من قبل ، عالما يتحد نمطا واحدا في وردية نجوم ومض نجوم منتصف الليل ، تنتصب فيه رموز عملاقة كالأطياف ، أتراها هضبة انبثقت أمامنا من بين الرمال ، أم تراها موجة عارمة أحالها الزمن سحابة وردية فسيحة دفع بها لتستقر ساكنة في هذا المكان إلى الأبد وقد [illegible] ، وتكتنفه وردية خاصة عصية تتراءى وتتوارى ؟ أي روعة هذه ! أتراها روعة متخيلة هي انعكاسات انبعثت بوحيها [illegible] ؟ ومن ورائها [illegible] وفوق قمم الكثبان [illegible] علامات ، [illegible] خطوط هندسية وتكتنفها [illegible] حتى توشك [illegible] ، [illegible] ورديتها شاحبة وسط زرقة الفراغ المحشود بالنجوم . . . على أن استحالة مثل هذا الإشعاع الذاتي يزيدها حبا ويضفي عليها مزيدا من جلال » .

ويجول لوتي في متحف الآثار المصرية حيث تتمدد التماثيل والمومياوات أو تقف في ردهاته الفسيحة تعلو شفاهها المكسرة البسمات ويشع من عيونها المحملقة البريق . وقد علقت على الجدران خراطيم إطفاء الحريق مطوية لامعة الأطراف تقف مترصدة أية شرارة تهدد بحرق غالي الثياب ونفيس الحلي : « هو بالنهار بيت الجميع وبالليل قصر المخاوف والأشباح . وأقف أنا بالليل ذاهلا [illegible] في إحدى الممكات وعند قدميها وليدها الميت [illegible] بعد أن نقلا من مدفن إلى آخر خوفا عليهما من لصوص المقابر ، وبين رمسيس الثاني عملاق التاريخ وأفراد أسرته ، أتأمل نظراتهم الغريبة وبسماتهم الغامضة وأتساءل أية أفكار يتبادلونها بالليل حين يخلّيهم في وحدتهم الزائرون » . ثم يتجه لوتي إلى صعيد مصر ويتأمل في رحلته النيل العظيم الذي شقته الأمطار المنهمرة على أواسط أفريقيا طريقا له تمكنه إلى البحر المتوسط وكيف صنع على جانبيه شريطين خضراوين يصطبغان بالنبت والخصب تحت سماء مشرقة لا يحجبها ضباب ، وصادف الفكر الإنساني هذا منبته ، وازدهر وسط هذا الشعب الذي سبق الشعوب وابتدع فكرة الألوهية [illegible] والخلود . واليوم يبدو النيل وكأنه يريد أن يبقى كل شيء على ما هو عليه ، غير أن الغزاة الجدد جادون في تغيير معالم الوادي . إنهم يخنقون النيل بالسدود ويستذلونه من أجل [illegible] الأراضي القاحلة ، وينسحي في خضم ضجيجهم ودخان بواخرهم هدوءه وسحره ، وتفقد رحلات البواخر النيلية عبرة روعتها في فصل الشتاء ، هذه الرحلة العربية التي يلاحق المسافر فيها أشباح

الأهرام عدة أيام. أهرام خيرة ودهشور وسقارة إلى أن تختفي معالم كل شيء وسط الماء وخضرة الأرض، ولا يعود المرء يدرك مرور الأيام إلا مع اختفاء الشمس وظهورها. الفلاحون على الشاطئ هُم هُم، والنساء يملأن الجرار نفسها، والقطعان تروي ظمأها والمواشي تستحم على هو هد، والسواقي والشواديف تتعاقب على الصورة نفسها التي كانت لها أيام الفراعنة، تذهب بهدوئها بعض مداخن الآلات البري الحديثة. ووراء الخضرة تقوم وسط الرمال أطلال المصريين القدماء، علامات دعائية شركة كوك السياحية تحجب وراءها جمال النخيل، ودخان قطار يلهث بين الدلتا والصعيد يعتاد المحتلين الأوروبيين، والصخور الصفراء تحتضن الوادي من جانبيه ممتدة حتى النوبة التي تبدأ عندها صخور الجرانيت المعتمة. وكلما ارتقينا نحو الجنوب زاد الإشراق وتوهّجت الحرارة وطالعتنا وجوه أشدّ سُمرة. مسكين ذلك النيل الذي شهد عبر آلاف السنين مواكب الآلهة والملوك تجثم عليه اليوم بواخر شركة كوك، وتعتصر كل قطرة من قطراته ليُنبت أقطانا إنجليزية. تلك هي هزيمة النيل!!

ويجوس لوتي محزونًا خلال مدينة أبيدوس حيث ضريح أوزيريس إله العالم الآخر الذي تسابق الناس في الماضي ليدفنوا موتاهم قريبا منه. غير أن هذه المدينة الكبيرة تحوّلت إلى أطلال لم يبق قائما وسطها غير معبدي سيتي ورمسيس الثاني المهديّين إلى الإله أوزيريس تحف بهما أطلال مقابر الدولتين القديمة والوسطى. وكما تتراكم الرمال فوق كل حجر في الصحراء لتغطيه يوما من ذراتها تراكمت فوق معبد رمسيس، فلم يبق شاخصا من فوق الأرض غير أمتار أربعة ما تزال نقوشها بيّنة وجدرانها جليّة. وتتناثر في معبد سيتي الردهات الفسيحة والمقصورات الصغيرة. وتحمل أعمدته سقفا سماوي الزرقة تنتشر فيه نجوم أشبه بسماء مصر ونجومها. لقد تصدّع السقف بمرور الأيام وبقيت تماثيل أوزيريس وإيزيس وحورس وكأنها نُحتت بالأمس القريب تكشف عن موهبة مثّاليها وإن ظلوا يرسمون العيون والسيقان والأقدام مجانبة، فقد كان على الإنسانية أن تسلخ عمرا طويلا لتبلغ ذروة الكمال الفني. ويحيط الصمت وإجلال معبد سيتي إلا ساعة الغداء حيث تُبسط الموائد فيتحلّقها السائحون الإنجليز ليشوّهوا بأحاديثهم وضجيجهم جلال المكان.

ويقف لوتي أمام شعب مصر وقفة إعجاب وتعجّب ويتساءل:

«أي جنس ذلك الذي أنبته النيل على شاطئيه؟ عضلات أفراده كأنها المعدن لا تنال منه الحركة، وأجسادهم تتحدّى الريح، عيونهم مستطيلة وحواجبهم كثيفة ومناكبهم عريضة وخصورهم نحيلة، إذا جمعهم عمل واحد استعانوا عليه بالغناء الرتيب. تلك عادتهم منذ عهد الفراعنة، وإذا ما نظرت إلى الحقول وجدت صفوفا ممتدة من رجال سُمر يجدفون بسواعدهم، ونساء ينتشرن على الشاطئ حاملات جرارهن على رؤوسهن فارعة أو مملوءة، فالنيل وحده مصدر الحياة في أرض لا تتساقط عليها الأمطار إلا في القليل، ثم يعدن في مواكب يخطرن في رشاقة وخيلاء. وترى الأرض وقد امتلأت بأبناء الفلاحين يتجولون حفاة أنصاف عراة، يحط الذباب على عيونهم ولا يجد منهم يدا تمتد لتبعده عنهم».

ويستحضر لوتي في ذهنه الوجود الإنجليزي الكثيف في مصر فيناجي نفسه. تُرى كيف بات المصريون عبيدا لهؤلاء الأدعياء وهم الذين شهد لهم الماضي بأعظم الجهود، يوم كان العالم كله ما زال يحبو على التراب؟ لعله الإرهاق بعد العمل الشاق، أو لعلها غفوة طال عليها الأمد. لقد عاشوا بالأمس في رفقة الملوك وسط المجد والخلود، واليوم تشاركهم بهائمهم في بيوت لها لون التراب الذي هو لون ثيابهم. ويتمنى لوتي في أعماقه لهذا الشعب الكريم المضياف الصبور العاشق للحياة [illegible]. ذلك أنه ينتظر من هذا الشعب أن يطالع العالم بمعجزات جديدة يوم تكتب [illegible] من جديد.

«ها هي ذي طيبة مصدر النور الذي غمر الأرض كلها والتي شهدت المجد منذ أربعة آلاف عام، وألهمت العالم الفن والدين والجمال، تثير الإعجاب بهو الأعمدة القائم باسم الإله آمون إله الحياة والخلود. لقد كانت الآلهة المعبودة في مصر تتغير بتطور الفكر الإنساني ماضية بمصر [illegible] رمسيس وسيتي الأول والرعامسة معابد الكرنك وواصل من أتى بعدهم، حتى الغزاة [illegible] متابعة البناء حول أحد المعابد، إلى أن جاء المسيحيون ثم المسلمون فعدّوا طيبة موطن [illegible]

إلى كبرى مناطق الأطلال في العالم، ولم ينقذ من آثارها إلا ما أخفته تحت طيّاتها الرمال. ثم بدأ الغرب في إيقاظها من جديد، هذا الغرب الذي أنكر كل شيء والخذل أمام لغز موته، ينحني احتراما لأطلال طيبة يستخرج كنوزها ويحفظ ما بقي من آثارها من الضياع».

وأمام أطلال طيبة المترامية يحس لوتي بضآلته، ويأتي النور أمامه وإن لم يخمد فقد استحال [illegible] أزرق باهت وكأنه قد غشيت عينيه بزجاج أزرق يرى من خلاله كل هذه الغرائب: بحيرة [illegible] [يقصد آمون] ومياهها الراكدة يغطي الكنوز الثمينة التي خبّئت منذ قرون أيام غزو الفرس والنوبيين، وقاعة الاحتفالات تحتضر الثالث الفسيحة بالكرنك تعشش فيها الغربان التي لا تكف عن النعيق، والمسلات القائمة أو الراقدة كأعواد اللوتس، وأعمدة معبد آمون العديدة المنحوتة رؤوسها على هيئة زهرات لم تتفتح بعد، يصطف مئتون منها عن يمين ومئتون عن شمال. والقمر المتسلل يسكب شعاعه على الآلهة التي يحدق بعضها في بعض، صامتين رغم تشوقهم إلى الحديث، أصابعهم مرفوعة ورؤوسهم تحيط بها الهالات. وتبدو أطلال طيبة بالليل وكأنها مسترخية في التفكير تسترجع ماضيها البعيد. أما في الصباح فتبدو أطلال طيبة التي تنبهها الشمس ممتدة على الضفة الشرقية من النيل كهيكل عظمي ضخمة دانت منذ آلاف السنين ثم ينجح الزمن في الإتيان عليها تماما. الأعمدة الجبارة التي تحمل [illegible] تتحدث عن عهد الجبار لشعب حديدي العضلات أمضى القرون في بناء هذه المعجزات. ألوان تيجان الأعمدة الزرقاء والخضراء والصفراء ما زالت تتألق وتشرق بها أوراق الزهور، وبعض الأعمدة [illegible] تصدّع يغطي الأسمنت صدوعها. ورجال يحفرون ليزيلوا الرمال التي تكدست ارتفاع إلى ستة أمتار. إنها مساحات شاسعة من المحال أن تعاد إلى ما كانت عليه مبانٍ وعمارة مهما سُخّرت في سبيل ذلك جماعات العمال والعديد من الآلات.

وتمس الأعناق وسط الأعمدة الضخمة التي يأخذ بعضها بخناق بعض لتستند [illegible] الصخري، ويتجه الممر الرئيسي بمعبد آمون إلى الشمال الغربي بحيث تدخله الشمس ساعة الغروب مرة واحدة كل عام، فيضيء الممر كله ساعتها وتعزف الموسيقى تمجيدا لإله طيبة العظيم. أية بداية للفكر الإنساني صنعها شعب لم يكن يفكر إلا في الخلود. إنها بداية إنسانية أخرى غير هذه التي أغرقت نفسها اليوم في البؤس والكحوليات والمخدرات.

وصلى الضفة الغربية للنيل ، وفي ظل جبال ليبيا الوردية اللون تضع مقابر ملوك طيبة مستودع تمثالي ممنون وحقول الحنطة التي تحوطهما ثم التلال المليئة بالمغارات والكهوف الغربية التي يجوس البدو خلالها بحثا عن المومياوات . وتصعد داخل الجبل عبر ممر مرهق لنجد أنفسنا في وادي الملوك، وتصبح جبال هضبة ليبيا التي كانت جميلة عن بُعْد وكأنها فم هائل مخيف . ونقرأ على الصفحات المربعة المنحوتة في صخرة ضخمة أسماء المومياوات رمسيس الخامس، سيتي الأول، تحتمس الثالث ، رمسيس الثالث ، غير أن هذه المومياوات نُقلت إلى متحف القاهرة عدا أمنحتب الذي تُرك في أعماق الأرض والتي أقيمت محطة توليد كهرباء لتضيء طريقه ومخدعه من الثامنة صباحاً إلى منتصف نهار الساكنين فوق سطح الأرض . الدَّرج مرهق والمنحدر الهاوي يكاد يكفُّونا على وجوهنا فنهبط عَنْوا ، والسراديب متاهة مضلّلة بالمتاريس التي تسدّ آبار الدفن ، وتتفتّت لتدهلنا النقوش على الجانبين بتميّز ألوانها ، وإذا بنا أخيرا في المقبرة التي يرتفع سقفها الأزرق المحتشد بالنجوم فوق ستة أعمدة، ثم أمنحتب[86] في خلوته مغمض العينين ، وجهه عابس تأكّل بعضه ، وجسده نصف عار وسط بقايا أغطية مهترئة ، وعلى قسماته شبه استجداء بأن نتركه وحده وادعاً في مخدعه الغائر في الأعماق . فنأخذ في الصعود ثانية لنخلّفه في عزلته ينشد الخلوة والهدوء .

(٨٦) نقلت مومياء امنحتب الأول وامنحتب الثالث فيما بعد إلى المتحف المصري بالقاهرة، ولم تبق بوادي الملوك سوى مومياء توت عنخ امون.

[illegible] أعوام وقطار حديدي حوّلت أسوان إلى مدينة حديثة ترحّب فنادقها الأنيقة بالسائحين الوافدين لرؤية الآثار . اختفى شلال أسوان ليحلّ محله خزان ضخم ذو طراز إنجليزي يحتجز مياه النيل ليروي بها أراضي الدلتا الظامئة ، وأطلق اسم الشلال [كتراكت] على فندق ذي خمسمائة حجرة

ويعترض النيل أمام أسوان صخور جرانيتية ناتئة تتأوّد مياهه بينها وتحيلها إلى جزر مخضرّة ساحرة [illegible] الأوروبية [illegible] أنفسنا وسط بحيرة يحتضنها الخزان والجبال الصاعدة كأنها مدرّجات رهيبة تحاصر البحيرة، [illegible] من جزيرة فيلة العريقة قمتها التي يتربّع عليها معبد إيزيس وذلك الجوسق الرخامي الرهيب الذي يبدو لنا وكأنه [illegible] ثماثيل الملوك الجرانيتية فنرسي قاربنا إلى جدار من الجدران منتظرين انتظاراً لإطلالة القمر حتى [illegible] إلى المستوى الذي يرسل منه ضياءه علينا فتتجلى لنا الرؤية . ونرهص بقدوم القمر سحابة وردية فوق قمة البوابة ما تلبث أن تتخذ شكل مثلث مضيء بين الجوانب يتسع شيئا فشيئا حتى يعمّ الجدران العريضة ثم يأخذ في الهبوط إلى قاعدة المعبد كاشفا جزءا جزءا عن [illegible] النقوش الغائرة ونصب الآلهة والإلهات ونقش الحروف الهيروغليفية ، وجموع الشخوص الذين يتهامسون بالإشارة . ثم بعد وحلنا ، إذ لا يلبث بصيص القمر أن يكشف لنا عن عالم من الأشباح [illegible]

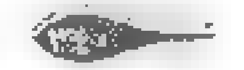

بدلا من بلاطات الرخام التي تعرفها منذ ألفي عام صورتها منعكسة على صفحة الماء بطول وطول حتى يبتلعها الماء.

وفي سكون الليل الذي يغمر هذا المعبد المعزول وسط البحيرة نُفاجأ بهدير جدولي [illegible] ثمة رواسي تنهار وصخور جليلة تتفتت وتتساقط محلّقة على سطح الماء ألوف التجاعيد الدائرية المتحدة المركز تتشكّل ثم ما تلبث أن تبدّل أشكالها متلاحقة دون أن تكفّ عن تعكير سطح هذه المرآة المحصورة بين كتل الجرانيت الضخمة بينما إيزيس تتأمل في أسى صورتها تتبدد ثم تنمحي .

ما أعمق الشجن الذي ينضح في هذه الكلمات الصادقة المخلصة من كاتب يعرف لهذا التراث حق قدره ، ولكن ما أبعد هذه الصورة الرقيقة عن الوضع اليوم . لقد تم إنقاذ معابد فيلة التي شهدها بيير لوتي وكان يظنها على وشك أن تسلم أنفاسها الأخيرة ، والماء يعلو رويداً رويدا ستبتلع كل يوم مزيدا من رفعتها . غير أن حكومة ثورة ٢٣ يوليو التي أقامت السد العالي لم تشأ لهذا الجزء من حضارة الوطن أن يندثر أو أن يطويه الماء في جوفه على الرغم مما كانت تشعر به من هموم المصريين ، ولم يكد جسد السد العالي يكتمل حتى هُرعت نفس الأيدي بنفس الحماسة متآخية مع ألوف الأيدي النبيلة المتضامنة والوافدة من شتى أنحاء العالم إلى إنقاذ هذه الجزيرة وما عليها من معابد وآثار لتعصمها من ابتلاع الماء لها ، ثم لتسحب المياه من تحت قدمي إيزيس ولتصعد بالإلهة بعد ذلك إلى قمة جزيرة إيجيليكا المجاورة كي ترفرف من جديد رايه من رايات الحضارة الإنسانية خالدة

[illegible] بيير لوتي يُبعث من موته ليشهد بعينيه كيف بُعثت إلى الحياة معابد فيلة ، ويدين لأصداف كتابه حكمة بعنوان «بعث فيلة» ، فلم تكن اللحظة التي شاهدها لوتي هي لحظة «موت فيلة» بل كانت لحظة التأهب للعودة إلى الحياة من جديد

الفصل الثانى

الرحالة الإنجليز

لفتت الحملة الفرنسية أنظار العالم كله إلى مصر عام ١٧٩٨ فأثارت الاهتمام بالشرق الذي تجلّى في حركة الاستشراق النشطة وما صاحبها من العكوف على ترجمة [illegible] الشرقية وزيادة عدد كتب الرحلات. ولم يلبث الشرق أن استحال إلى هدف مقصود لذاته تدور حوله الدراسات بمنهج عقلاني بعيد عن الخيال. وكان هذا هو وضع مصر، إذ لم يعد إشباع الفضول والشغف بكل ما هو غريب هو الذي يلفت انتباه الإنجليز إلى مصر بعد ظهور أهمية موقعها الاستراتيجي حتى نادى بعض الإنجليز بضرورة احتلالها، وعكف البعض الآخر على الكتابة عنها لإشباع فضول الرأي العام الذي بات مولعًا بكل ما يتعلق بمصر من تصاوير وكتب رحلات ومقالات وقصائد ورسوم كاريكاتورية وكتب فرنسية مترجمة إلى الإنجليزية وأخبار انتصار الإنجليز على الفرنسيين في موقعة النيل. وهكذا بدأت مصر بصفة عامة تحظى بنظرة جديدة عمادها الواقعية. وقد دفعت هذه النظرة العملية التي [illegible] الحملة الفرنسية الإنجليز إلى إقامة الاتصال المباشر بينهم وبين مصر التي لم تقتصر أهميتها على أنها كانت مسرحًا لأحداث تاريخية ورد بعضها في الكتاب المقدس وبعضها الآخر في كتب التاريخ القديم، بل لما تضمه كذلك من عاديات كشف عنها علماء الحملة الفرنسية، فقد انفسح مجال غير محدود أمام نزح هذه الآثار وجمع الفرنسيون منها جملة كبيرة خلال سنوات الاحتلال الثلاث، غير أن معظم هذه الآثار قد وقع في أيدي الإنجليز بعد هزيمة الفرنسيين عام ١٨٠١ حين وصل إلى مصر دبلوماسي في الرابعة والعشرين من عمره هو وليام هاملتون وكان سكرتيرًا للورد إلجين سفير بريطانيا في إستانبول. وكان أول عمل اضطلع به عند وصوله هو المطالبة بحجر رشيد الذي كان الفرنسيون على وشك الإفلات به مخالفين نصوص الاتفاق، فاستولى على سفينة كانت تتأهب للإقلاع خلسة فإذا هي تضم ثروة من الآثار من بينها حجر رشيد الشهير. وكان لنجاح هاملتون في مهمته أثره في أن عهد السفير إلى سكرتيره في العام التالي بالإشراف على انتهاب منحوتات البارثينون الخالدة [illegible]

[illegible] الإنجليز [illegible] الطريق إلى الهند عبر مصر [illegible]

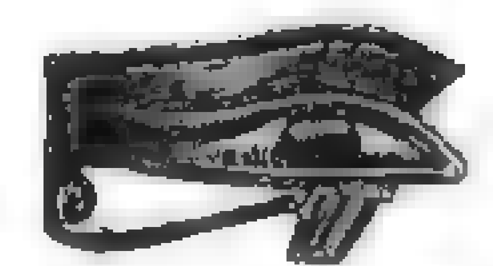

تكن هذه أول مرة يسمع فيها الشعب البريطاني عن مصر ، فقديماً تسلّى الشعراء الرحّالة جورج ساندير (١٥٧٨ ـ ١٦٤٤) هرم الجيزة عام ١٦١١ وعرض ألوانا من تقاليد أهلها وعاداتهم وتاريخهم ضمن كتابه ذي الأجزاء الأربعة عن رحلته إلى تركيا وفلسطين ومصر وإيطاليا ، كما رسم شكسبير من قبل صورة رائعة لمصر ومليكتها كليوباترة وخاصة في وصف آلهتها متأثرا بقراءاته لبلوتارخوس وميتون

وخلال القرن الثامن عشر زار مصر لفيف من العلماء والرواد الأركيولوجيين ونفر من الشباب [illegible] « الجولة الكبرى » كي تشمل [illegible] وقد [illegible] جرى في إنجلترا خلال القرن الثامن عشر مع شباب الأسر النبيلة والموسرة أن يوفدهم أهلوهم مدة سنة في رحلة بين ربوع أوروبا يطلقون عليها « الجولة الكبرى » Grand Tour برفقة قسيس يلقنهم تعاليم الكنيسة الإنجيلية [illegible] ويحميهم من الوقوع في براثن العقيدة الكاثوليكية . وكانت « الجولة الكبرى » تبدأ بأوستند في بلجيكا ولاهاي بهولندا ثم الإمارات الألمانية البروتستنتية وتنتهي في جنيف أو لوزان بسويسرا لتعلّم الفرنسية . وفي منتصف القرن الثامن عشر اتسعت رقعة « الجولة الكبرى » لأسباب طبقية لتشمل كاليه وباريس للاختلاف إلى صالونات الطبقة الأرستقراطية ولتعلم أدب الحديث واللباقة وأصول اللغة الفرنسية ، وكانت عين القسيس لا تغفل عن رعاية الشبان الذين في رفقته أينما حلّوا خوفا من أن يعتنق أحدهم الكاثوليكية أو أن يتردّى في رذيلة . وفي أواخر القرن الثامن عشر امتدت « الجولة الكبرى » مع ظهور الاضطرابات في أوروبا ونشوب الثورة الفرنسية وباتت تشمل الإمارات الإيطالية حتى مملكة نابولي . وأصبح من بين أهداف « الجولة الكبرى » تعليم الشبان الدراسات اليونانية واللاتينية القديمة « الكلاسيكيات » في مواطنها الأصلية برعاية القس الذي كان يصطحب معه عادة مكتبة تضم مؤلفات الشعراء اللاتين الكبار أمثال فرجيل وهوراس وأوفيد ، وخلال تلك الجولة كان الشبان يقتنون من الآثار القديمة تحفا تذكارية [illegible] وبعد وصول « الجولة الكبرى » إلى شواطئ [illegible] ازداد شغف شباب الإنجليز [illegible] أشد اتساعا فامتدت إلى بلاد اليونان مع بدء حركة الرومانسية بأوروبا في أواخر القرن الثامن عشر ومطالع التاسع عشر . وفي [illegible] الشبان الإنجليز الذين كانوا لا يتجولون إلا في حراسة الفرسان المدجّجين بالسلاح [illegible] الأتراك ، وكان هذا التقدم هو الأول من نوعه مع المسلمين منذ الحروب الصليبية . وقد تأثر الخيال الإنجليزي بوصول « الجولة الكبرى » إلى تلك الأقاليم الجديدة حتى لقد استوطن إيطاليا الشعراء الإنجليز الرومانسيون من أمثال بايرون وشيلي وكيتس واستقروا فيها . ثم ما لبثت « الجولة الكبرى » أن امتدت إلى الأناضول وشواطئ البحر المتوسط الشرقية وجزر اليونان وسوريا وفلسطين وسيناء ومصر .

وكان الفرنسيون قد بدؤوا منذ نهاية القرن السابع عشر أبحاثهم الأثرية الهامة في مصر ، وتبعهم بوكوك الإنجليزي (١٧٣٧) والقس توماس شو (١٧٣٨) ونوردن الدنمركي (١٧٣٧) . وقد أثير جدل كثير حول بعض المسائل التاريخية خلال القرن الثامن عشر ومن بينها الموقع الدقيق لمدينة منف إلى أن قطع الرحّالة الفرنسي سافاري الشك باليقين . حتى إذا جاء العلماء الفرنسيون المصاحبون لحملة نابليون وسجّلوا رصد حضارة مصر وفق منهج علمي مرسوم في دقة وبراعة ثم قطعهم عزلتهم التي فُرضت عليهم بعد تحطيم أسطولهم من أن يتموا عملهم الدؤوب بأن يحملوا

من [illegible] تلك العزلة حافزا يؤجّج مشاعرهم حتى سجلوا خلال أسوار هذا الحصار أمجاد عشية حدث [illegible] أوروبا إلى الحضارة المصرية .

وقد تجلى نشاط « الجمعية المصرية » التي كانت أول مظهر من مظاهر اهتمام إنجلترا بمصر في [illegible] التي غلبت على أعضائها في دراساتهم عن مصر . وباستثناء نوردن قصد الجميع مصر على نفقتهم دون أن يلتزموا بعرض ثمار رحلاتهم أمام أية هيئة علمية . على أن مصر قد شهدت خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر وصول فئة جديدة من الرحالة تموّلهم جمعيات علمية أو شركات كبرى كي يضعوا بين أيديها ما تُسفر عنه دراساتهم . وأوفدت « هيئة تسبب كشف مجاهل أفريقيا » التي أسست عام ١٨٧٧ عددا من المكتشفين المدرّبين مرّوا جميعا بمصر ، كما أوفدت شركة الهند الشرقية غيرهم لاكتشاف الطريق البري إلى الهند . وكان هناك غيرهم من الرحالة المبشّرين الذين تموّلهم جمعيات الكتاب المقدس الإنجيلية ، غير أن عدد هؤلاء الرحالة إلى عدد أولئك الذين زحفوا على مصر بعد جلاء الفرنسيين عنها كان قليلا .

وشاعت الزخارف المصرية في العديد من الدور والقصور بالريف الإنجليزي دون الاقتصار على الاقتباس من رسوم فيفان دينون التي صدرت طبعتها الأولى وقتذاك ، فشيّد توماس هوب Thomas Hope في قصره بلندن فيما بين عامي ١٧٩٩ ، ١٨٠٤ قاعته الشرقية التي تعدّ أشهر إنجازاته بعد خروج الجيش الفرنسي من مصر وبعد صدور كتاب فيفان دينون ، لتضم من الصور والرسوم والتحف ما يفوق غيرها من جميع الإنجازات المعاصرة المعبرة عن هوس التعلق بالمصريات آنذاك

كانت الرحلة إلى الشرق تعدّ في مطلع القرن التاسع عشر مغامرة بطولية تقتضي المهارة والجلد [illegible] على الاحتمال والتكيّف مع الظروف وسعة الحيلة وحسن التدبير وسرعة البديهة ، وكلها [illegible] ومن هنا كان معظم الرحّالة من الشباب المولع بالمخاطرة وركوب [illegible] لا تفارقه سواء وهو في مضرب الخيام بالصحراء أو وهو في قاربه فوق صفحة النيل يستخدمها للتسلية أو للصيد . ثم ما لبثت وسائل المواصلات أن تقدمت مع مرور الأيام خلال القرن ، وانتهى عهد ما كان الفرنسيون يدعونه « العهد البطولي للرحلات إلى الشرق » [illegible] على الطريق [illegible] القارة الأوروبية ، وإذا وسائل الراحة تتوافر في فنادق أوروبية الطابع ، فضلا عن تجهيز [illegible] النيل بحيث تصبح سفنا فاخرة بالغة الترف .

ومن هنا كان الإغراء بأن يتابع السائح رحلته الصيفية الأوروبية بقضاء الشتاء في مصر [illegible] بلدفئه ومتعة الفنادق الرغيدة أو جريا وراء المشاهد الجذابة الجديرة بالتصوير . وهكذا أضيف الشرق الأدنى منذ عام ١٨٦٠ إلى « الجولة الكبرى » بالنسبة للفنانين الذين كان بعضهم يقنع برحلة واحدة يعود بعدها إلى وطنه ليعرض ما رسمه من موضوعات شرقية ثم يرتدّ إلى تصوير الموضوعات المحلّية . أما البعض الآخر فكان يعود إلى الشرق المرة إثر المرة ليستقر به فترات طويلة بعد أن عشق الشرق وأهله ، وتعلّم نفر منهم اللغة العربية أو لهجات البربر ، كما أجادت قلة منهم اللغة التركية . بل لقد قام البعض بشراء دور بفلسطين وشمال إفريقيا ليعقبوا عيشها من دخل

لوحاتهم التي يرسلونها إلى باريس ولندن ونيويورك وبوسطن حيث يعيش عملاؤهم.

أما الفئة الأولى من الرحّالة الفنانين فهم «المصوّرون الوصفيّون» (التوضيحيّون) Illustrators، ولم يكن أغلبهم مصوّرين محترفين بالمعنى المتداول بقدر ما كانوا رسّامين طوبوغرافيين محترفين يعملون في خدمة دور النشر والطباعة. ومع مطلع القرن ظهر الرسّامون الرسميّون والمرافقون للبعثات العلمية لتسجيل نشاطاتها وما يُستخرج من حفائرها، أو يستأجرهم الرحّالة الأثرياء الحريصون على الاحتفاظ بذكريات رحلاتهم مسجّلة - فلم يكن التصوير الفوتوغرافي قد عُرف بعد - أو لتزويد ذكرياتهم المنشورة في كتبهم بالصور التوضيحية.

فنجد لورد ڤالنتيا - على سبيل المثال - يصطحب معه هنري صولت في مستهل القرن باعتباره مصوّره الرسمي أثناء زيارته الرسمية للحبشة، مستخدما رسومه لتوضيح ما اشتمل عليه تقرير رحلته. كذلك ارتحل المصوّران وليام بارتليت وتوماس آلوم إلى مصر وفلسطين لتزويد أحد كبار الناشرين في لندن بالصور الإيضاحية المطبوعة بطريقة الحفر على الأسطح المعدنية اللازمة لما ينشره من كتب عن مصر وفلسطين وتركيا. كما ظهرت أيضا طبقة المراسلين الحربيين المصوّرين المصاحبين للحملات الحربية لتسجيل أحداثها ووقائعها مثلما حدث في حرب القرم.

وقد أعدّ الأستاذ جيرالد آكرمان[٨٧] بآخره إحصائية حول ٢٨٨ فنانا إنجليزيا عملوا كمصوّرين وصفيّين، أعني فنانين ارتحلوا لاستجلاء موضوعاتهم التصويرية خارج بلادهم، كان من بينهم ١٠٪ رسّامين مأجورين، و١٠٪ مصوّرين للكتب والمجلات الدورية، و٥٪ مراسلين حربيين، و٦٪ ألّفوا كتبا تضم تصاويرهم، على حين كان ٢٠٪ من بين هؤلاء من الاستشراقيين مصوّرين وصفيّين. ولا يجوز إغفال الفنانين المتديّنين الذين كانوا يسعون إلى تصوير مشاهد الكتاب المقدس وكانت نسبتهم ١١٪، وكانوا إما طوبوغرافيين يسجّلون المواقع التاريخية في فلسطين وما حولها لعرضها للبيع بعد تحويلها إلى صور مطبوعة بطريقة الحفر على الحجر أو على الأسطح المعدنية، وإما كانوا مصوّرين حرفيين يطمحون في تصوير المعاني الروحية والأماكن المذكورة في الكتاب المقدس والأزياء المحلية، إذ كانوا يعتقدون خطأ أنه لم يطرأ أي تغيير في مصر وفلسطين وسوريا منذ مولد المسيح. كما عانى بعض المصوّرين البريطانيين فعكفوا على استحداث إيقونوغرافية دينية «مطهّرة» من البدع الكاثوليكية، اشتهر من بينهم داڤيد ويلكي David Wilkie الذي انبرى يؤدي في مجال التصوير ما يؤدّيه رجال اللاهوت البروتستانتي لتخليص عقيدتهم من الشوائب الكاثوليكية، وحاكاه في نفس الاتجاه المصوّر المشهور وليام هنت. وكان من المتوقع أن يكون هذا الفريق من المصوّرين أشدّ المصوّرين خصومة للإسلام باعتبارهم شديدي التدين، غير أن رسائلهم وكتبهم خلت من التعصّب إلا في القليل النادر الذي لا يقارن بالشناعات التي نشرها الرحّالة البروتستانت من رجال الدين، في حين انصرف أشدّ أنواع التعصّب ضد السامية التي يمثّلها اليهود الذين اختلطوا بهم.

وثمة سبب آخر لا علاقة له بالفن لزيارة الشرق هو اعتدال المناخ، فقد كان دفء الشتاء وجفافه فرجًا لمرضى الصدر والتهاب المفاصل، إذ كان طقس الشتاء في أوروبا بالغ القسوة، فضلا عن حاجة المصوّرين إلى ضوء الشمس لرسم مشاهدهم.

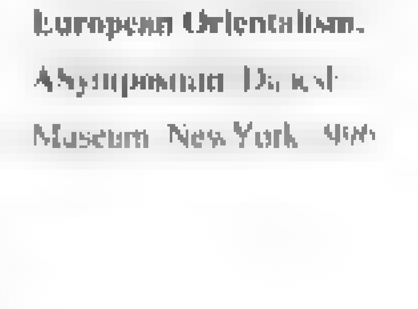
(٨٧) Ackerman, Gerald
Picturing the Middle East. A Hundred years of European Orientalism. A Symposium. Dahesh Museum. New York. 1996

[illegible] كان هناك مبعوثو الحكومات من عدد من المعمرين الإمبراطوريين كالدبلوماسيين ورجال الإدارة وضباط الجيش. و[illegible] من بين هؤلاء كانوا مصوّرين فضلا عن بعض رجال الدبلوماسيين أو ضباط الجيش.

وما من شك في أن تصوّر الغرب للشرق باعتباره مرتع العشق والفجور كان أحد أسباب جذب الرحالة والفنانين إلى المنطقة [illegible] في هذا الموضوع في كتابات الرحالة [illegible] التي اتسمت إلى حدّ ما بالتحفّظ، نرى أن الرحّالة الفرنسيين الذين اشتهر عنهم [illegible] على نوحه [illegible] لذكريات الأديبين جوستاف فلوبير وجيرار دي نرڤال عن رحلتيهما إلى مصر. ومن هنا اتسمت لوحات [illegible] مشاهد الحريم في أغلب الأحيان بنفس التحفّظ، وإذا جون فردريك لويس يُقدّم نساء الحريم الشرقي كاسيات تماما، متجنّبا الوضعات المثيرة التي دأب المصوّرون الفرنسيون على تضمينها لوحاتهم. وجدير بالذكر أن عددا من الفنانين الأوروبيين قد استهوته طبيعة المواطنين وأسلوب حياتهم متشبّها بهم، مثل جون فردريك لويس الذي قضى بالشرق الأدنى أربعة عشر عاما لم تطأ قدمه فيها موطنه، أمضى منها عشر سنوات بالقاهرة يحيا حياة مترفيها.

وكشف البروفسور آكرمان في إحصائيته عن أن ٥١٪ من الفنانين الإنجليز كانوا مصوّرين استشراقيين بمعنى الكلمة، وأن ٣٣٪ جاءوا إلى الشرق الأدنى سعيا وراء المشاهد [illegible] وأن ٢٠٪ منهم عكفوا على هذا اللون من التصوير [illegible] وراء الكسب [illegible] الرحلات [illegible] وأن ١١٪ منهم كانوا [illegible] مشاهد التوراة، وأن ١٠٪ منهم جاءوا [illegible] وأن ٤٪ منهم كن زوجات موظفين حكوميين. ومن هنا اعتبر أن «المستشرق الأمثل» هو مَنْ قام بالعديد من الرحلات إلى الشرق، أو أقام فترة طويلة في أحد أقطاره، أو تعلّم لغة أو لهجة محلية، أو اتخذ أحد الأمصار الشرقية محلاً لإقامته، أو أقدم على المغامرة بالعيش بين قبائل البدو. واستخلص من دراسته أن ١٨٪ من بينهم قاموا بعدة رحلات، و٣٧٪ أقاموا بالشرق الأدنى فترات ممتدة، و١٦٪ تعلموا لغة أو لهجة محلية، و٢٩٪ كانوا معمرين، و٧٪ أقاموا مع البدو. كما أسفرت دراسته عن أن ٢٠٪ - قرابة نصف عدد الاستشراقيين المحترفين - كانوا فنانين جادين أدّوا رسالتهم بشغف وإخلاص، وزاروا المواقع التي صوّروها، وقضوا فترات ممتدة في بعض الأقاليم، وخاطروا بولوج الصحراء وشبه جزيرة سيناء وشرقي الأناضول والبتراء والواحات الواقعة إلى الجنوب من بسكرة بالجزائر، وتعلموا لغة أهل البلاد المحلية، وناقشوا الأهالي وارتبطوا معهم بعلاقات ودّية. كما تكشف مثابرتهم ودأبهم عن حماستهم في التعرّف على حقيقة البلاد التي زاروها والوقوف على ثقافتهم.

الدبلوماسي المتسربل
بالعجرفة البريطانية

وليام هاملتون

نشر هاملتون كتابه «مصريّات» [إيجيبياك][٨٨] ١٨٠٩ بعد ثماني سنوات من زيارته لمصر فكان لفترة من الزمن الوثيقة البريطانية التي يُعوّل عليها عن مصر وآثارها ، ومن هنا أفاد منه الكثير من الرّحالة الذين جاؤوا في أعقابه . وكان القصد من كتابه أن يسدّ به الثغرات التي خلّفتها أعمال بوكوك ونوردن وفولني وفيفان دنون ، ولم يكن الكتاب على الرغم من تلك الجهود التي بُذلت كتاب رحلات بالمعنى المتداول بل كان أشبه ما يكون بخريطة للحقائق ، إذ اختفت انفعالات المؤلف من المشهد فلا نكاد نرى مثلما نرى عادة في كتب الرحّالة ما يدل على تأثير الرحلة من حوله صحةً ومرضاً أو شدةً ورخاءً أو انبهاراً وبرماً . وإذ كان معنياً بأن يكون كتابه غاية في الدقة والوضوح آثر أن يكتب كتابه هذا بأسلوب اليوميات وإن كان قد قدّم في مطلع كتابه عجالة عن المسالك التي سلكها خلال رحلته ، ثم نسج ملاحظاته في فصول توفق الموضوع دون أن تتبع تسلسل الأحداث ، فلم يقصد وصف مصر بل قصد إلى نقل معلومات عن مصر بصفة عامة وعن آثارها بصفة خاصة ، حاصراً جهده في استكمال أو تصحيح ملاحظات من سبقوه [illegible] اهتمام متجاوزاً إياها باعتبارها معلومات عن [illegible] لم يجد وصفه للقاهرة واقعياً بعيداً عن كل خيال مهما رفرفت أمامه أجنحة أساطير ألف ليلة وليلة ، ولا يكاد القارئ يطالع شيئاً عن أفق القاهرة المحتشد بالمآذن والذي ألهب خيال الكثير من الأوربيين ، وكل ما سجّله عنها هو مساحتها وحدودها واستحكاماتها : «فالشوارع طويلة متعرّجة ضيّقة حتى لا يستطيع [illegible] إلا [illegible] منها إلا ضيّقة» والواقع أنه كان أشد اهتماماً بالقلعة وبالتحصينات التي شيّدها الفرنسيون وبالموقف السياسي بين الإنجليز والأتراك [illegible] [illegible] إلى الإهمال [illegible] ومع ذلك [illegible] [illegible] ما أورده عنهم من تفاصيل عشوائية لا رابط بينها ، وقرنهم في النهاية بالفلاحين المصريين [illegible] [illegible] الفلاحين المصريين [illegible] [illegible] الهمج [illegible] ووصفه للمصريين كما تذهب د. فاطمة موسى في دراستها الشائقة لهاملتون . ريفيين كانوا أم حضريين لم يأت بأسوأ مما ورد على لسان من سبقوه من الرحّالة ، فهو لم ير فيهم تلك الروح الشرقية الحالمة التي تتطلع من وراء شرفات قصور «ألف ليلة وليلة» ، ولا بساطة الهمج من [illegible]

Moussa, Fatma. (٨٨)
W.R. Hamilton
"Aegyptiaca,
An Evaluation", 95٤

في البيداء ، حتى فقد ذاته أن يحصي لهم شيئا يستحق الذكر ، وعدهم نكرات محضة . وحينما عدّد هاملتون القوى السياسية التي يجب حسابها بمصر بعد جلاء الفرنسيين حدّدها بالأتراك والإنجليز والمماليك ولم يتجه خياله إلى أن المصريين يمكن أن يشكلوا قوة عسكرية مناوئة . ولم يكن راضيا عن تخلُّف حكومته لوعدها لبكوات المماليك بمناصرتهم ضد الحكومة التركية ، لا إعجابا بالمماليك الذين لم يغب عن ناظريه تعنّتهم في معاملة الأهالي المصريين وإنما حرصا على مصالح بلاده الإستراتيجية

والواقع أنه عندما التفت نحو الفلاح المصري نظر إليه بنظرة الطبقة الوسطى الإنجليزية المحدثة التي جمعت في الهند ثروات طائلة وباتت تتطلع إلى المزيد منها في ... ... بكره كذلك إلى أسباب تفكُّك الإمبراطورية العثمانية وهو يحلم أن تقوم مقامها إمبراطورية جديدة ، وهو ما جعله يبدو إلى لفت أنظار مواطنيه إلى أهمية الموارد الاقتصادية التي لا حدّ لها في مصر حتى بعد أن اغترف منها الطغاة ما ملؤوا به خزائنهم . وكان هاملتون يحلم في مطلع القرن التاسع عشر بقيام إمبراطورية إنجليزية على النهج الروماني في مصر ، فأفرد فصلا من ثلاثين صفحة في كتابه يسرد فيه تاريخ الحكم الروماني في مصر ويعدّد مثالبه . ويأخذ تعقيبه النهائي شكل التحريض حين يقول : «وهل يمكن أن تنتج نفس الشمس ونفس ... إلا ذات الثمر من ذات التربة؟» . ومن المؤكد أنه نظر إلى الشعب المصري على أنه نفس الشعب المستكين الراضي بالخنوع لحكم أي غاز جديد .

وإلى نظرة أمثال هؤلاء الرحالة الإنجليز التي تشوبها الرغبة في استغلال المصريين وثرواتهم خلال هذا القرن ، نجد ازدراءهم للمصريين المعاصرين آنذاك ، فقد كانوا يقارنون دائما بين ما كان عليه المصريون الأول من عظمة وبين ما انحدر إليه السلف من بؤس وتخلّف ، وهو ما يتجلّى خلال صفحات الكتاب كله

ومن الطريف أنه وقف مثل غيره أمام النقوش المصرية القديمة وقفة دفعته إلى الحزن والتحمس محاولا استكناه أسرارها غير أنه أخفق كما أخفق مَنْ قبله ومَنْ بعده حتى حُلّت أسرار الرموز الهيروغليفية . وبالرغم من محاولاته الجادة لتسجيل المقاييس وموازنة الخرائط القديمة بالجديدة وترجمته الدقيقة لبعض النصوص اليونانية التي وقعت له لم يستطع تقدير آثار المصرية حق قدرها بوصفها إبداعات فنية ، إذ لم تكن قدراته على التذوق الجمالي تؤهّله لاستيعاب صيغة تتنوّع من خلال وحدة الأسلوب ، ذلك أن ثقافته الكلاسيكية قد حالت بينه وبين أن يدرك كل أسرارها الجمالية ، كما حال تعصّبه الديني ضد المسلمين وجهله بلغتهم بينه وبين أية مشاركة وجدانية مع المصريين . ولعل عيب كتابه هذا هو عيب عصره ، فقد كان اهتمام الإنجليز في ... الأول من القرن التاسع عشر مركّزا لا على مصر المعاصرة بقدر ما كان مركّزا على مصر القديمة ، ولم يتجه إلى المصريين المعاصرين إلا خلال العقد الثالث من هذا القرن على أيدي إدوارد لين وبور كهرت .

وما لبثت مصر أن غدت ميدانا لأشهر الكشوف وأهم ساحة لتطور علم التنقيب والحفائر العلمي بالحرص على سلامة الآثار التي يستخرجها ثم الحفاظ عليها . غير أنه لم يكن هناك حدّ لجشع المموّلين ، ولولا العدد الكبير من الآثار الذي بلغ ... ضخامة هائلة لتحولت ... الأثرية إلى خرائب وأطلال . وقد انصرف إلى رعاة الفنون الموسرين في القرن الثامن عشر أمناء

المتاحف الغالون في جشعهم الشخصي خلال القرن التاسع عشر فتهالكوا على تكديس الآثار المصرية في كل من المتحف البريطاني ومتحف اللوفر ومتحف برلين . وكانت هذه الآثار من الكثرة بحيث اقتضت إنشاء متحف يختصّ بها في لندن ، فأنشئت القاعة المصرية عام ١٨١٢ في جناح المتحف البريطاني بمصر بمجموعة الآثار التي حملها إليه الثراة والرحّالة والمعمرون . ورافق هذه المصائب تزايد شغف الرأي العام وتعلّقه بها ، وظهرت الكتب التي تتناول الأزياء المصرية القديمة والأساطير الفرعونية والعمارة الإسلامية وغير ذلك من مظاهر الحياة المصرية بأعداد ... كما أخذت صور ورسوم أبي الهول وطيبة ومعبد فيلة والأهرام ... في ... ... حتى استثارت هذه الظاهرة ... تشيد ... ... فعقّب عليها بقوله ... بين الأولاد بعد الخروج من أسر مصر والتعرّف على مخلوقات أخرى غير العرب وجمالهم؟» .

على أن هذا التأثير المصري قد امتد كذلك إلى ميدان الشعر حين أوحى رأس تمثال رمسيس الثاني إلى الشاعر شيلي بوضع قصيدته المشهورة المعروفة باسم أوزيمانديس[89] عام ١٨١٨ التي يقول فيها ما ترجمته :

(٨٩) أحد علماء المجمع العلمي المرافقين لحملة نابليون على مصر اسم أوزيماندياس خطأ على معبد الرامسيوم

حدثني رحّالة وافدٌ من أرض ذات حضارة عريقة ،
... في صحرائها تنتصب ساقا تمثال ضخمتان ،
قدّتا من حجر ولا تحملان جذعا
وعلى مقربة منهما غاص في الرمال جزء من رأس مهشّم ،
تنبئ جبهته الجهمة وشفته الممصّتان وتعاليه الآمر في جمود ،
عن قُدرة النّاحت في سَبْر غور العواطف وتجسيدها ،
فظلّت عبر الدهر ينبض بها الحجر الخامد ،
بعد أن توارت اليد التي صاغتها ،
وانطوى الوجدان الذي بثّ فيها النبضات
وعلى قاعدة التمثال نقشٌ هذا نصّه :
[أنا أوزيماندياس ملك الملوك ،
... ...
... ...
... ...]
... ... شيء في الجوار ،
وما هي إلا رمال جرداء منبسطة مستوحشة
حول التمثال المتداعي الحطام
مترامية إلى بعيد . . . . بغير حدود »

شمشون الحفائر

بلزوني

قنصل وتاجر

هنري صولت

لقد أصبحت مصر [illegible] الرّحالة الإنجليز حتى فاق عدد زوّارها خلال العقدين الأولين من القرن التاسع عشر عدد من زاروها خلال النصف الأول من القرن الثامن عشر ، وذلك [illegible]: أولهما انتهاء حروب نابليون التي حجزت الرّحالة الإنجليز خلال العشرين سنة الأولى من القرن التاسع عشر عن الوصول إلى سواحل البحر المتوسط . وثانيهما استقرار الظروف السياسية في مصر بعد اعتلاء محمد علي عرشها مما أحسّ معه الرحالة بالأمن وبوجود [illegible] وهو ما كان يفتقد في عهد المماليك ، حتى كتب أحد الرّحالة في عام ١٨١٧ : «يستطيع السائح أن يمضي حاملا نقوده معه من أدنى البلاد إلى أقصاها دون أن يتصدّى له لص يستولي على ما معه قهرا ، كما اختفت جريمة القتل ولم يعد لها أثر»

وقد جاء فيما كتبه سير فردريك هنيكر في كتابه «ملاحظات خلال رحلة إلى مصر»[90] في عام ١٨١٩ أن طنطا بأكملها قد غدت ممتلكات خاصة للقنصلين البريطاني والفرنسي ، ففي عام ١٨٠٦ زار هنري صولت[91] مصر ورسم عدة تخطيطات مدنية [illegible] ثم سعى إلى الظفر بتعيينه قنصلا بمصر مؤملا أن يوفّق في الحصول على كمية من الآثار لحساب أحد أغنياء الإنجليز طمعا في مزيد من الثراء، وظل يمارس هوايته حتى وفاته عام ١٨٢٧ بعد أن استولى عليه هيام رومانسي بمصر وآثارها . وقد استخدم صولت لتنفيذ مخططاته المغامر الإيطالي جوفاني بلزوني الذي كان قد وصل إلى مصر عام ١٨١٥ بغية بيع آلة زراعية لنقل مياه النيل ، غير أن [illegible] أخفق فتقدم الرحالة السويسري جون لويس بوركهارت بأن أوصى به هنري صولت [illegible] . في غضون سنوات ثلاث استطاع بلزوني فتح المنفذ إلى معبد أبو سمبل الذي اكتشف [illegible] قبل ذلك بعدة سنين . كما أزاح الرمال عن مدخل الهرم الأوسط بالجيزة [illegible] تنحصر في معاملته مع اليد العاملة . وإذ كان ذا قوة جسدية خارقة لضخامة جثته يدعى بشمشون [illegible] ومارد پادوا كما قدّمت فإنه حين احتدم الخلاف بينه وبين العمال النوبيين في أبي سمبل لم يتردّد في الاستغناء عن خدماتهم جميعا وعكف بمساعدة زميلين من الإنجليز له على الحفر بأيديهم حتى كشف عن مدخل المعبد . وكانت شخصية بلزوني مزيجا من الغرور والجهل والطموح إلى [illegible] إلى فصم العلاقة بينه وبين هنري صولت ، كما كانت أساليبه في التنقيب متهوّرة غير علمية ، ولعله قد دمّر من التحف أكثر مما اكتشف . وفي الحق إنه بالرغم من ولعه بهذه الآثار لم يكن يضمر لها أو لشيديها احتراما كبيرا ، حتى قال وهو يصف كيف شقّ

(٩٠) Fredrick Henniker: Notes during a visit to Egypt, Nubia, the Oasis, mount Sinai and Jerusalem, 1823.

(٩١) [illegible] Salt: Twenty four views at St. Helena, the Cape, India, Ceylon, the red Sea, Abyssinia and Egypt, 1809.

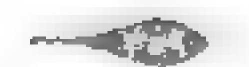

بلزوني

[illegible] كان يجلس فوق أكوام من المومياوات تتداعى من تحته مثل العلب الكرتونية التي تُحفظ فيها القبعات ، وإذا افتقد الوقود [illegible] النار في عظام المومياوات ومخلفاتها للإضاءة أو لطهي الطعام . ومع ذلك فإن المجموعة الرفيعة من الآثار المصرية التي يزهو بها المتحف البريطاني يرجع الفضل في جمعها إلى كل من بلزوني وهنري صولت

رائد الأركيولوجيين الإنجليز

ولكنسون

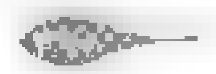

وما لبث بهم جامعي الآثار أن حتى ظهور متخصصين عند المصريات ، وكان أحد كبار هؤلاء الأركيولوجيين هو جون جاردنر ولكنسون الذي وصل إلى مصر عام ١٨٢١ ليمضي إثنى عشر عاما بالقاهرة وشتى مناطق البلاد ، وبعد وصوله بعام استطاع شمبليون الفرنسي فك رموز الكتابة الهيروغليفية على حجر رشيد مما أعطى دفعة قوية لعلم المصريات ووضع نهاية لمرحلة نهب الآثار ونزحها . وقد أدت خبرة ولكنسون في التنقيب إلى الكشف عن عدد من أجمل مقابر طيبة ارتفعت باسمه إلى رأس قائمة الرواد الأركيولوجيين الذين كان من بينهم الثري الأسكتلندي روبرت هي ممول الكثير من هذه الحفائر والذي قضى أكثر من شتاء بين عامي ١٨٢٨ ، ١٨٣٦ في إحدى مقابر طيبة بحثا دون كلل عن المزيد من المقابر ، عاكفا على إعداد الرسوم ووصف المقتنيات في سجلات وصفية ، بعد أن استخدم عددا من الرسامين المحترفين والمساعدين لتنفيذ مشروعاته الطموحة . وفي عام ١٨٣٤ نشر ولكنسون كتابه «طبوغرافية طيبة ومسح عام لمصر القديمة» وكان أول تنقيح لما ورد في كتاب علماء الحملة الفرنسية الشهير «وصف مصر» من معلومات ، وإن كان قد استهدف به أن يكون دليلا في أيدي السائحين الإنجليز الذين بدأوا يقصدون مصر بأعداد متزايدة . وبعد سنوات ثلاث نشر كتابه «عادات المصريين القدماء وتقاليدهم»[92] ، وكانت معظم الرسوم في كتاب ولكنسون من إنجاز بونومي الذي اشتهر بوصفه أبرع رسامي الهيروغليفيات . وهكذا غدا كل من ولكنسون وبونومي أهم ناشري علم «المصريات» الحديث [إيجيبتولوجي] .

(٩٢) John Gardner Wilkinson, Manners and Customs of the Ancient Egyptians 1837

حياة نابضة
تحت سقف مقبرة
روبرت هاي

وفيما بين عامي ١٨٠٠، ١٨٢٠ ظهر ما يربو على خمسة وثلاثين كتاب رحلات إلى مصر يتناول معظمها الآثار المصرية القديمة التي تستهوي بغموضها وبقدّم تاريخها الروح الرومانسية في الرحّالة. وما يكاد عام ١٨٢٠ ينصرم حتى نلحظ تغييراً واضحاً يطرأ على الرحّالة، فبالرغم من أن عدداً متزايداً منهم بدأ يتدفق على مصر لمشاهدة الآثار فإن أحداً منهم لم يعد يعتقد أن من واجبه الكتابة الوصفية لها. ولعل مردّ ذلك إلى أن كتباً عديدة قد ظهرت عن هذه الآثار، وإلى أن نواحيَ أخرى من حياة المصريين قد بدأت تجذب إليها الأنظار. فضلاً عن أن الاهتمام بالآثار قد أخذ شكل الدراسة الجادة التي تُعنى بالتعمّق أكثر مما تعنى بالتوسّع، حتى أصبح ذلك امتيازاً لفئة خاصة من أصحاب المواهب والقدرات ذات الأهلية لتفسيرها لا لوصفها، وخاصة بعد أن نجح شمبليون في تصنيف حروف الأبجدية المصرية. فقد أخذ هؤلاء المتخصّصون يقصدون مصر لا بدافع الفضول لمشاهدة آثارها مثل غيرهم من الرحّالة، ولا بدافع التنقيب، ولكن لحل رموزها وتفسيرها وفهم كنهها. وكانوا في أغلب الأحوال فنانين ورسامين يمكثون لفترة محددة ينقلون فيها الأشكال والشخوص المصورة فوق هذه الآثار ويسجّلونها غير متعجّلين في نشر ما توصّلوا إليه كالرحّالة السابقين الذين كانوا على حد قول أحد كتّاب ذلك العصر يجيئون متجوّلين فيها ليجمعوا من تلك الجولات كتاباً. وفي الحق إن قلة ضئيلة من بين هؤلاء الفنانين هي التي نشرت كتباً، فأدّوا بذلك رسالة مجيدة بتسجيلهم تفاصيل دقيقة عن آثار لم تلبث أن عدا عليها الزمن ولم يبق ما يذكّرنا بها إلا تلك الصفحات التي سجّلوها.

وكان من أبرز هذه الشخصيات - كما قدمت - روبرت هاي الذي شكّل البعثة المصرية التي عملت ما بين عامي ١٨٢٨، ١٨٣٦. وقد احتضن هاي ورفاقه أسلوب الحياة الشرقية، فأرسلوا لحاهم وتعلموا اللغة العربية أو أتقنوا ما يعرفونه منها، وكان لأغلبهم دار في طيبة وأخرى في القاهرة حيث يقيمون المآدب وحفلات الموسيقى الشرقية لأصدقائهم المصريين والشوام. وكانوا يؤثرون السكنى في الأحياء الشعبية من القاهرة حيث يحسبهم سكانها حتى ظنهم الأهالي أتراكاً. واتخذ هاي إحدى مقابر طيبة لنفسه ولزوجته وأعضاء بعثته مستقراً فأعدّها برفوف تصطف عليها الكتب والمعاجم وزوّدها بالأرائك والنرجيلات، وكان يستضيف بها زوّاره يناقش معهم حول المائدة العديد من موضوعات العصر ويشربون

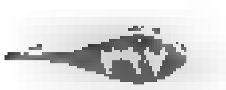

لوحة (١٥٩) روبرت هاي. كتاب صور وصفية للقاهرة، بولاق

فخر أبناء فرنسا ومديرا حتى قال أحد زواره من الرحالة: «ما علمت فيما مضى أن مقابر الموتى تشهد مثل هذه الجلسات المرحة الصاخبة». وإذا استثنينا كتاب هاي «صور وصفية للقاهرة»[٩٣] الذي نعرض منه سبعة عشر لوحة (من ١٥٩ ـ ١٧٦) فإن معظم النشاط الذي استغرق منه هو ورفاقه زهاء عشرة أعوام لم يقدّر له أن يُنشر. ويصف الرحّالة جيمس سنت جون الحديقة البريطانية التي حرّبيها صيفا في طيبة قائلا: التقيت في إحدى المقابر الفرعونية بالسيد هاي وأسرته المعروفين لكل الرحالة الأوروبيين في مصر بأدبهم الجم ولطفهم. على حين كان السيد بونومي يقضي في مقبرة مجاورة حيث عاش لبضع سنين. لقد كانت طيبة طوال مدة إقامتي بمثابة مستعمرة إنجليزية أكثر منها مدينة قديمة مهجورة

(٩٣) Robert Hay Illustrations of Cairo 1840 وجميعها محفوظة بالمتحف البريطاني

لوحة (١٥٨) مقبرة رمسيس التاسع من الداخل حيث عاش شمبوليون عام ١٨٢٩.
ويبدو في اللوحة المصور أوين جونز ومساعده بدخان النرجيلة
من رسم أوين جونز عن كتاب «مساجد النيل» (١٨٤)

لوحة (١٦١) روبرت هاي صور وصفية للقاهرة
صحن الجامع الأزهر باب الصعايدة

لوحة (١٦٢) روبرت هاي صور وصفية للقاهرة سبيل الندوية

لوحة (١٦٠) روبرت هاي صور وصفية للقاهرة.

« إن من لم يشاهد القاهرة لم يعرف عظمة الإسلام . فهي حاضرة العالم وجنة الدنيا ومهد التمدن وباب الإسلام وعرش السلطنة . هي مدينة تصفي عليها قلاعها الحصينة وحصونها الشامخة جمالا فريدا وتزينها خانقاوات المتصوفة وتكايا الدراويش والمدارس التي تتألق منها أقمار العلوم ونجومها»

ابن خلدون

لوحة (١٦٣) روبرت هاي صور وصفية للقاهرة. مسجد السلطان برقوق

لوحة (١٦٤) روبرت هاي صور وصفية للقاهرة. شارع بالقاهرة بجوار باب محق

لوحة ([illegible]) روبرت هاي. صور وصفية للقاهرة. [illegible]

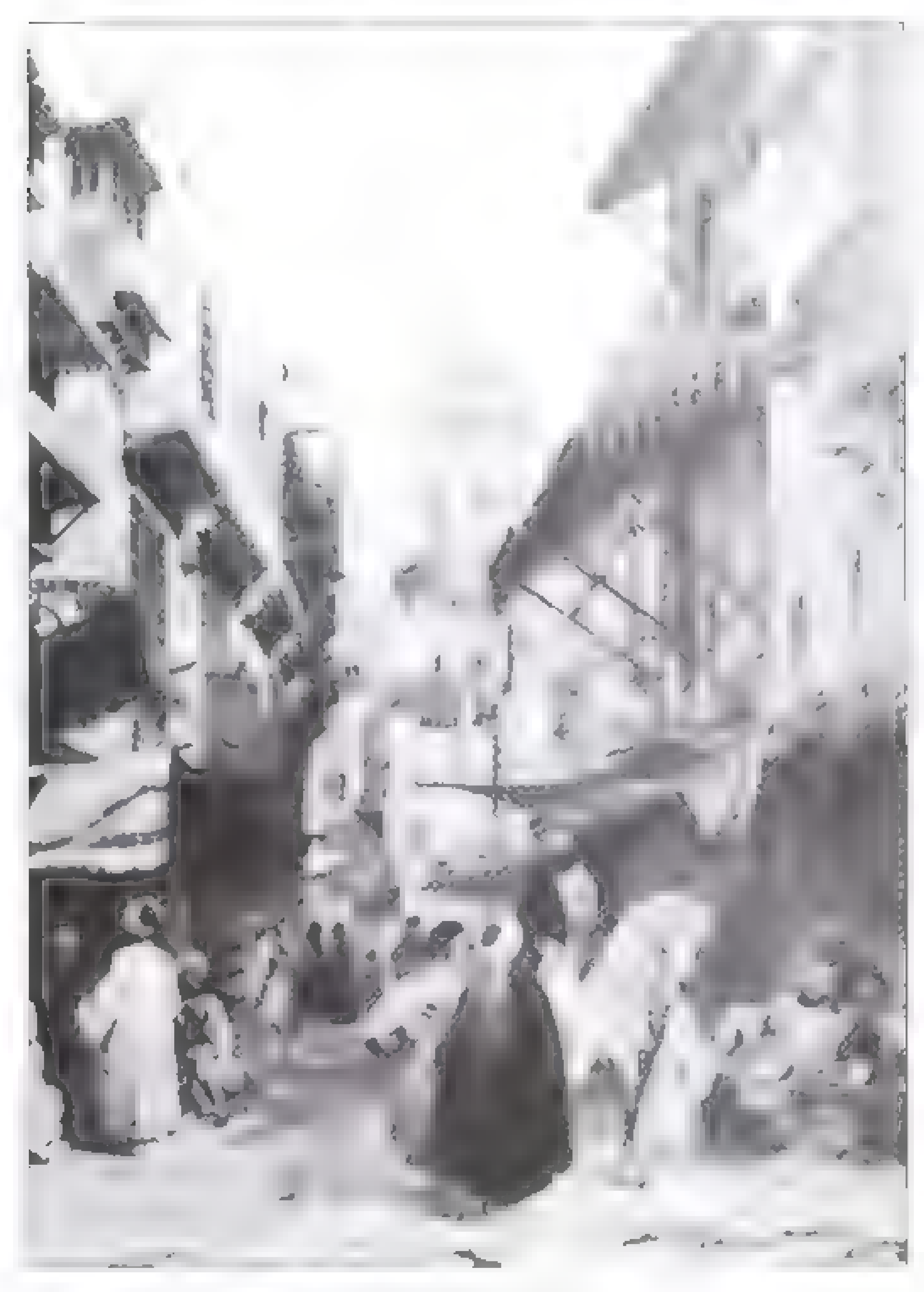

لوحة (١٦٥) روبرت هاي.
صور وصفية للقاهرة. الجمالية وجامع المبرسة

لوحة (١٦٧) روبرت هاي صور ووصف للقاهرة خان الخليلي

لوحة (١٦٦) روبرت هاي صور ووصف للقاهرة خان الخليلي

لوحة (١٦٩) روبرت هاي: صور وصفية للقاهرة: سبيل طوسون باشا «أم عباس»

«لم تكن كل كميات المياه المستخدمة من النيل تباع مباشرة في حواري القاهرة، وكان جزء كبير منها يوضع في أسبلة المدينة حيث يستطيع الفقراء العاجزون عن شراء الماء من السقائين الحصول على حاجتهم منها دون مقابل. وفي عام ١٨٠٩ كانت القاهرة تضم حوالي ثلاثمائة سبيل شيدها الأمراء والموسرون باعتبارها منشآت خيرية وتزدان الأسبلة عادة بالزخارف البديعة وتضم طابقين على الأقل أعلاهما كتّاب للصبية، والسفلي عبارة عن حوض تحت الأرض يفرغ فيه السقاؤون قربهم التي يحملونها على ظهور الجمال»

لوحة (١٧٠) روبرت هاي: صور وصفية للقاهرة: باب زويلة

لوحة (١٧٣) روبرت هاي . صور وصفية للقاهرة. مسجد الجيوشي فوق جبل المقطم

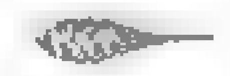

لوحة (١٧١) روبرت هاي صور وصفية للقاهرة. بين القصرين، ويبدو في اللوحة مئذنة السلطان قلاوون

لوحة (١٧٢) روبرت هاي صور وصفية للقاهرة. مئذنة الحاكم بأمر الله

لوحة (١٧٤) روبرت هاي . صور وصفية للقاهرة باب مصر وسور القاهرة

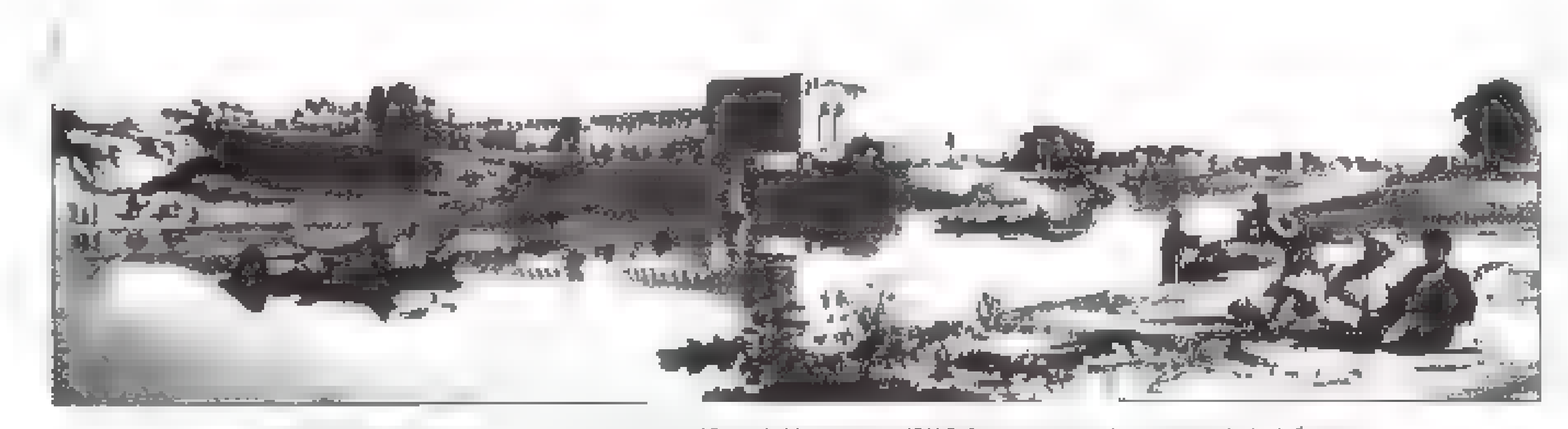

لوحة (١٧٥) روبرت هاي . صور وصفية للقاهرة سور المياه بالقاهرة وجانب من مصر العتيقة وجزيرة الروضة

لوحة (١٧٦) روبرت هاي . صور وصفية للقاهرة قصر شريف بك

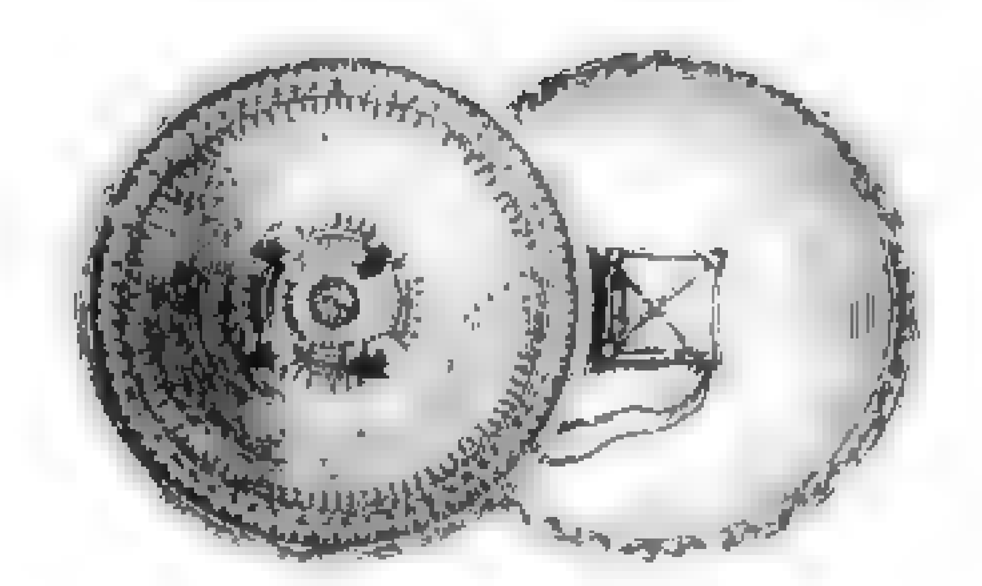

الجـرّاح

مــاديــن

وسمه الزعـاف

تسجل نهاية العقد الثاني من القرن التاسع عشر نقطة تحول في اتجاهات الرحالة الأجانب والكتّاب الذين أولعوا بدراسة آثار مصر حين اجتذبت اهتمامهم المناظر الطبيعية المصرية ومشاهد القاهرة وطباع المصريين وعاداتهم، فنرى سير فردريك هيكر يحول في عام ١٨١٩ إن اهتمامه بات ينصبّ على الطبيعة أكثر مما ينصبّ على الأعمال الفنية. وفي عام ١٨٣٠ كتب سين جون[94]: «لم أعد أشدّ الرحال جريا وراء البحث عن الآثار، فلا الأهرام ولا المعابد أو أي شيء آخر يمكن أن يصرف انتباهي عن أحوال الناس الذين أعيش بينهم».

(94) James Augustus St. John: Egypt and Mohammad Ali, or travels in the Valley of the Nile. London 1834.

وهكذا شغلت المناظر الخلوية المصرية الرحالة فأخذوا يتفحّصونها ويصورونها بدقة وتفصيل، مثل ضفاف النيل وجني محصول القطن وقرى الصعيد التي تغرقها المياه خلال موسم الفيضان وبزوغ القمر في الصحراء وشروق الشمس وغروبها. كما انتقل اهتمام الرحالة بعد عام ١٨٢٠ إلى الإنسان المصري حتى قال جيمس وبستر[95] الذي زار مصر عام ١٨٢٨: «إذا كانت ثمة بلاد قد أسرتني أكثر من غيرها فإنها بدون تردد مصر. ففيها التقيت بمجتمع يختلف كل الاختلاف عن مجتمعنا وبحكومة وعقيدة وطباع تباين معنا كل التباين». غير أن معظم كتاباتهم كانت مع ذلك تنطوي على سمٍّ معسول كما جاء في رسالة للدكتور مادين الجرّاح الإنجليزي الذي عاش في مصر بين عامي ١٨٢٤، ١٨٢٧ يقول فيه: «أرى أنه من غير اللائق أن نصدم مشاعر سيداتنا المسيحيات بوصف لهن النساء المصريات، بل قد يكون من مجافاة الذوق أن نمتدح جمالهن، ومع ذلك لا أملك إلا أن أفصح عن أنهن بالرغم مما على وجوههن من أصباغ ومما على أذقانهن من وشم أزرق ومما على أكفهن من صفرة الحناء ومما على حواجبهن من سواد الكحل، فثمة كثرة منهن يتمتعن بجمال فائق لا يبارى. غفر الله لي هذا القول فقد يكون ذوقي الخاص هو الذي يرجع إليه هذا النقص».

(95) James Webster: Travels through Crimea and Egypt (1825 - 28)

ويصف مادين [illegible] في كتابه رحلات في تركيا ومصر وفلسطين[96] قائلا: «هي مدينة [illegible] بل إن [illegible] مساجدها [illegible] ولا يكاد يتسع عرض [illegible] لتحميها من أشعة الشمس، وتتراكم فيها أكوام القطن وفضلات الذبائح المضرجة بالدماء معروضة على أبواب الحوانيت. وإن أول ما يصدم الزائر الأجنبي في القاهرة هو ما يتبدى على

(96) R. Madden: Travels in Turkey, Egypt and Palestine in 1824 - 27.

الأهالي من نوبيين مثير للدهشة، ومن أنهم يظهرون بعكس الأتراك، وبالي بعد ذلك تعدد الأزياء، شعره، كما يسترعي الانتباه رؤية الرؤوس صلعاء تسطع عليها شمس الضحى. ويرتدي الرجال سراويل حتى يرتدي بعضهم السراويل الحريرية أو القصيرة، ولا من القبعة التي يعتمر بها الأوروبيون يلف الرجال رؤوسهم بأوشحة من الموسلين، كما لا يرتدي الرجال معاطف بل يسدلون العباءات على أكتافهم. وتشغل السجادة مكان السرير، والطاس الخشبية مكان الطبق والعصبة المعدنية مكان مفرش المائدة، وتقوم أصابع اليدين بوظيفة الملاعق والشوك، ويحيي الرجل غيره دون انحناء ويفترش الأرض دون حاجة إلى مقعد. وقد يلتزم الصمت دون أن يكون هناك ما يشغل فكره، كما قد يتخذ سمت الوقار دون أن تكون وراء ذلك حكمة، وإياك أن تجامله بالسؤال عن صحة زوجته فقد تفقد بهذا السؤال عنقك، واحذر كذلك أن تشيد بجمال أبنائه حتى لا يتطرق إلى ذهنه أنك من الحاسدين الحاقدين. ويكاد اسم الرسول يتردد على كل لسان دون أن تكون خشية الله ناصعة إلا في قلوب القلة». ويحدثنا ماديل عن زيارته لمستشفى الأمراض العقلية التي أنشأها محمد علي في عهده وكيف تعودهم الدولة على الصدمات الشديدة، «إذ تضاءل الإحساس بالإحساس يوما مات بعضهم جوعا»

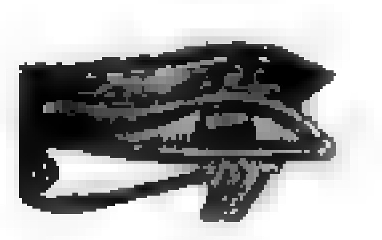

قمتان للتعصب

ولسون وريتشاردسون

الرحّالة الإنجليزي ينظر إلى الشعوب الأخرى متعاليا، يحذر أن يقرب من أهلها مخافة أن يناله من هذا القرب سوء أو أن يمسّه ما يلوّثه. وإذا عرض لوصف المواكب الشرقية وصفها في سخرية لاذعة وتهكم واضح، كما فعل الرحّالة ولسون[97] (١٨٢٣) حين وصف موكب زفاف صادفه بالقاهرة قائلا: «تُزفّ العروس سائرة على قدميها تحت مظلّة مرتفعة على أربعة عيدان، محجّبة الوجه مزدانة بحليّ فجّة الذوق، وتنسدل عليها عباءة تضفي عليها هيئة معوّضة. وتسير عن يمينها وشمالها امرأتان بديتان، ويتقدمها وتأتي وراءها فرقتان من الموسيقيين ... يعزفون في عرف سائر ويرتدون أثوابا غريبة، كما يضم الموكب خليطا عجيبا من النماذج البشرية. وليس في تصوّري أنه يمكن أن نجد منظرا أشد مدعاة للضحك والسخرية من هذا المنظر حتى لو كان ذلك حفل مولد القديس بارثلوميوس في لندن».

W. R. Wilson (٩٧) Travels in Egypt and the Holy Land, London, 1823

ويقدم ريتشاردسون[98] (١٨٢٢) صورة لفساد خلقي يدّعي وجوده خلف الأحجبة التي تتستر بها النسوة فتثير في النفس شيئا من السخرية وذلك حلال وصفه لموكب من السيدات قائلا: «حين تخرج سيدات كبريات الأسر تتغطى الواحدة منهن من قمة رأسها إلى أخمص قدميها بثوب من حرير الأسود ويحمار أسود منسدل هو أيضا حتى القدمين، تبدو البدينة منهن كالزكيبة المحشوّة أو الهرم المتحرك. وهو ما يدفع إلى تحريك الخوف في نفس من يراها ممتطية دابة من أن تهوي من فوق ظهرها أو أن تنفق الدابّة. ولو أنا تصوّرنا نعشا قديما فوق ظهر بغل أو حمار ثم غطيناه بثوب أسود لما كان أكثر إيحاء بجو الجنازة من موكب هؤلاء النسوة وهي يتجوّلن خلال شوارع القاهرة ... إن غيرة الرجال في الشرق على نسائهم مما يثير في نفوسنا الامتعاض والاشمئزاز، فهم عندما يلزمون هؤلاء الحلوات حين يتنقلن من مكان إلى مكان يتستّرن بالعباءات وبإسدال الحجاب الذي جعل منهن أشبه ما يكون بالمسجونات في غياهب الظلمات، فلقد كانوا يعدّون خروج إحداهن سافرة في وضح النهار جريمة لا تغتفر».

R. Richardson (٩٨) Travels along the Mediterranean and parts adjacent, during the Years 1816-18

على أن بعض الرحالة الإنجليز لا يتوقفون عند اعتبار النساء المصريات ضحايا من دعوهم ضحايا الشرق من الرجال بل لقد ذهبوا أيضا إلى وصفهن بالخلاعة والمجون، ذلك أنهم لم يروا في الحجاب إلا وسيلة تستر به النساء مفاسدهن وانغماسهن في الرذيلة. وليس من العصيّ على القارئ المنصف أن يكتشف ما في حديث مثل هؤلاء الرحالة من تناقض وتحامل لا يصدر عن سلامة طويّة، فرجال الشرق في نظرهم وحوش لحرصهم على التمسك بأهداب الفضيلة، والنساء المحجّبات متسترات على تهتك لا ندري من أين استشفه أولئك الغرباء عن الشرق وعاداته!

الورع المبدع

البارون كيرزون

كان من أبرز من عبّر عن الاهتمام بالجانب الإنساني في الساحة المصرية بعد عام ١٨٢٠ من بين الرحّالة الإنجليز اثنان هما روبرت كيرزون وإدوارد وليام لين اللذان تصادف وجودهما بمصر في نفس الوقت ، غير أنه كان لكل واحد منهما أسلوبه الخاص الذي يختلف عن أسلوب الآخر . وكان البارون روبرت كيرزون قد زار مصر وفلسطين عام ١٨٣٣ سعياً وراء مخطوطات أثرية في مكتبات الأديرة القديمة ، وأسفرت رحلته عن كتاب شائق ظهر في لندن عام ١٨٤٩ بعنوان «زيارات لأديرة الشرق الأدنى»(٩٩) ، لقي نجاحاً منقطع النظير حتى أعيد طبعه ما يزيد عن عشر مرات لغاية عام ١٨٩٧ . وهو لم يكتب كتابه كرحّالة يسجل ملاحظاته بدقة لكل موقع زاره أو يحاول استنباط مغزى أخلاقي من خلال ملاحظاته لعادات الناس ، كما لم يزعم أنه يزوّد القراء بالمزيد من المعارف ، بل كتبه كفنان كانت تجربته في مصر هدفاً في حد ذاتها دعته إلى الإبداع الأدبي . وقد استطاع من خلال المواقف المختلفة التي يرسمها بقلمه للأماكن والأهالي والعديد من النوادر وخرافات الناس التي يحكيها والتجارب الشخصية المتعددة التي عاشها ، أن يشكّل صورة جذّابة لمصر حاول بحماس شديد التقاط ألوانها وظلالها المتباينة . انظر إليه يصف لحظة الأذان للصلاة في القاهرة : «. . . تسري ترنيمة المؤذّنين من منارات القاهرة الألف خلال الأجواء الصافية الساكنة تشقّ خشية في القلوب ، وتسمو بهم ابتهالاتهم التي تتسامى فوق المدينة في فيض من الورع . . . يرتفع في البداية صوت مؤذن أو اثنين خافتاً من بعيد ، يتبعهما ثالث من مئذنة قريبة منك ، ثم إذا بالنداء يتردد من منارات مساجد أخرى ، وفي لحظة من طرف المدينة إلى طرفها الآخر تتوالى الترنيمات البديعة الإيقاع على الأذان تدعو المؤمنين إلى الصلاة ، وتشبهه حتى لتحسب أن ثمة جوقة من المرنّمين تشدو في الأثير وكأنها الأرواح تنشد بعضها بعضاً تدعوه إلى عبادة خالق الكون ، وسرعان ما يخفت الصوت رويداً رويداً وتمتد لحظة سكون يتلوها صخب المدينة وضجيجها . إن صيحة الإنسان يدعو أخاه الإنسان إلى الصلاة تبدو لي أكثر اتساقاً وأشد انسجاماً مع الشعور الديني من قرع النواقيس الأوروبية ورنينها» .

(٩٩) Robert Kurzon, Visits to the Monastries of the Levant, London 1849

اكتشاف الواقع
بالصدق الفني

إدوارد لــين

سلك إدوارد لين في وصفه للمجتمع المصري مسلكاً مختلفاً كل الاختلاف عن مسلك كبروب ، إذ زودنا بصورة مستمدة من خبرة لا من الخيال ، عن فترة ظلت طويلاً عبر مشوهة بالخلط حتى إنها مثل صورة حية قوية ظلت حتى اليوم ، فلقد اتسعت رقعة عمله لم يجارها فيها كاتب آخر ، وفي خلالها كتب دراسة تهدف إلى تصوير حياة مصر الحاضرة حسبما كتب المصريون المعاصرون عاداتهم وتقاليدهم[100] لم يترك لعمره شيئاً . عمل عنه داقيد إركرت ، بأنه كتاب يسهم بدرجة كبيرة في حسن موقفه في الشرق . ولا تستطيع رحالة من بعد أن يتوجه إلى مصر بعد صدور هذا الكتاب دون أن يكون على إلمام تام بمجتمع له دستوره الواضح المعالم للعادات والأخلاق وآداب اللياقة» . على أنه بالرغم من تفاؤل إركرت بصدور هذا الكتاب إلا أن الدبلوماسيين والموظفين الإنجليز الذين وفدوا على مصر لمعالجة الشؤون المصرية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر لم يحصلوا كثيراً بعض الأعراف المصرية التي عني لين بتسجيلها (لوحة ١٧٧)

وقد قصد لين مصر لأول مرة عام ١٨٢٥ واستأجر بيتاً بعيداً عن الحي الأوروبي وتسمّى باسم منصور أفندي ، ولم يقصر بحثه على الأدب المصري فحسب بل على كل مظاهر الحياة في مصر في عصره . وبذلك لم يكن يختلط إلا قليلاً بغير المسلمين من سكان القاهرة ... ولم تكن الحياة وقتذاك تختلف اختلافاً كبيراً عما كانت عليه القاهرة في العصور الوسطى فقد غدت رؤيته من آثارها ملاحظة خير معلق على روايات المؤرخين العرب أنفسهم خلال العصور الوسطى أو ما دونه الرحالة من معاصريه . وحين عاد لين إلى إنجلترا عام ١٨٢٨ كان قد انتهى من دراسته الأولية المعنونة «وصف مصر» غير أنه لم يتمكن من نشرها إذ لم يستجب الناشر لشرطه لارتفاع تكاليفها نظراً لكثرة عدد الرسوم التي تصحبها . وبقي لين يواصل دراساته عن مصر حتى عام ١٨٣٣ ليكمل كتابه الجديد «المصريون المعاصرون ، عاداتهم وتقاليدهم» الذي تحمست له الجمعية نشر المعارف المفيدة بإنجلترا في عام ١٨٣٦ وتعهدت بنشره على أن يكون مجلداً مصاحباً لكتاب جون جاردنر ويلكنسون المسمّى «المصريون القدماء ، عاداتهم وتقاليدهم» . وقد تناول لين في كتابه هذا عدداً لا يحصى من الموضوعات كالعقيدة الإسلامية ونظام الحكم وجهاز الدولة الإداري والحياة الأسرية والمعتقدات الخرافية وأمور السحر والصنعة ووسائل التسلية وفن القصص والملاحم وعادات الزفاف والختان والمآتم والاحتفالات ، كما عقد فصلاً مستقلاً عن زينة المرأة المصرية وآخر عن أزياء الرجال ، وثمة تشابه ملحوظ بين المنهج الذي احتذاه لين في ترتيب مادته وتبويبها وبين المنهج الذي اتبعه في كتابه «وصف مصر» عن عادات المصريين . وموجز القول أنه قدّم في كتابه تفسيراً جاداً لنظم المجتمع الإسلامي الذي شكّل بالنسبة للأوربيين خلفية تلك القصص الخيالية التي يطالعونها في كتب الشرق مثل «ألف ليلة وليلة» وكان لين قد قام بترجمتها ترجمة جديدة

Edward Lane. An (100) Account of the Manners and Customs of the Modern Egyptians. Written in Egypt during the years 1833 - 35. With 65 illustrations and 27 full page engravings. Alexander Gardner, London 1836.

لوحة ١٧٧ تمثال إدوارد لين من عمل ...

ويقع كتاب « المصريون المعاصرون » لإدوارد لين في ثماني مجلدات تشتمل خمس منها فحسب على رسوم وصفية [إيضاحية]. وقد نُفذت هذه الرسوم كما شرح لين في صدر الكتاب بمساعدة آلة الكاميرا المضيئة[101] التي أعانته على ضبط ما يرسمه. وتمتاز هذه الصور بالوضوح ودقة الخطوط والتفاصيل، كما أنها تسجل تأثير الضوء والظل ودرجات شعاعات ضوء الشمس نعرض منها تسعة وعشرين رسما (من ١٧٨ ـ ٢٠٦). وقليلة هي الكتب التي تكاد لا تشتمل إلا على رسوم فحسب والتي ظهرت في العقود السابقة على كتاب لين مثل كتاب «مناظر في مصر» من رسم لويجي ماير[102] الذي نعرض منه أيضا لوحات متعددة في أجزاء شتى، ويشتمل على مناظر القاهرة والإسكندرية وبعض القرى المجاورة، وكذلك كتاب «مناظر في جزيرة سانت هيلانة ومصر» الذي لم تظهر به لمصر سوى بضع لوحات قليلة، فضلا عن كتاب بلزوني « لوحات مصورة لأعمال التنقيب» الذي ضمّ لوحات عن الآثار التي اضطلع بها بلزوني وحده. وهكذا يكون لين قد خطط مشروعه ليكون مختلفا عن أعمال من سبقه في هذا المضمار من حيث شمول صوره واشتمال كتابه على أوصاف دقيقة لها. ولايزال المتحف البريطاني يحتفظ بأصول كتاب «وصف مصر» لإدوارد لين الذي لم يكتب له أن يُنشر والذي يعتبره الأركيولوجيون من أهم السجلات التي يرجعون إليها لما احتواه من تفاصيل عن آثار ضاعت معالمها أو أصابها العطب والبلى، كما أنه لم يقتصر على الآثار الفرعونية وحدها بل اشتمل أيضا على وصف للقاهرة وسكانها.

(١٠١) يكون الوسيط [...] حجرة مظلمة [...] بواسطة عدسة [...] ويستعمله المصور [...] رسمه له صورة على صفحته فيمكن الرسم من فوقها بالقلم الرصاص

(١٠٢) Luigi Mayer, Views in Egypt, London 1804

ولقد اندمج لين خلال زيارته الأولى في الحياة المصرية بعاداتها وتقاليدها ليصبح واحدا من أهلها وبهذا استطاع أن يشترك في مختلف الأنشطة المصرية والإسلامية، وبلغ من اكتسابه السلوك الإسلامي المصري أثناء زيارته الأولى أنه لم يعد يملك أسباب عاداته الأولى عند عودته إلى إنجلترا، الأمر الذي دفع أغلب أصدقائه إلى مخاطبته باسمه العربي المكتسب بدلا من اسمه الإنجليزي. وعند عودته للمرة الثانية إلى القاهرة استأجر مدرسين للغة العربية والعقيدة الإسلامية والشريعة، وكتب إلى صديقه روبرت هاي قائلا: « لا أنوي هذه المرة أن أكون تركيا [أي أجنبيا] إلى الحد الذي كنته في الزيارة الأولى. فأنا أتناول طعامي الآن دون الشوكة والسكين وأترك حذائي على مبعدة من الحصير قبل الجلوس». وتلفتنا السيدة ليلي أحمد في دراستها المستفيضة لإدوارد لين إلى أنه قد استعمل كلمة تركي بنفس المعنى الذي كان يستعمله المصري أي الأجنبي.

لوحة (١٧٨)
لين: صحن دار بالقاهرة

ولقد استغرقت هذه الدراسة كل وجدان لين حتى بدأ أثرها يظهر على سلوكه هو، فقد كتب حفيد شقيقته ستانلي لين بول في كتابه عن حياة لين: «على الرغم من أن لين قد أخلص إلى آخر لحظة من حياته للعقيدة التي نشأ عليها منذ طفولته فمما لا شك فيه أن فهمه لأسلوب التفكير العربي قد حوله عن رأيه فيما هو عرضي من عقيدته المسيحية، غير أن إيمانه بأصول العقيدة المسيحية البروتستانتية الأصيلة لم يتغير تغيرا جذريا. وكذلك الأمر بالنسبة لسلوكه الإنجليزي إذ لا مفر من أن يكون قد تأثر إلى حد ما بيئته الجديدة، ولو أنه لم يسلك مسالك الناس الذين عاش بينهم لما استطاع سبر أغوارهم والكشف عن طبيعتهم». ويضيف قائلا إن لين قد استطاع تحقيق ذلك في يُسر بعد أن رأى أنه يُزكي إيمانه الدفين بالمسيحية بتلك الصلاة التي يؤديها بالمساجد الإسلامية. ولقد كفّ لين عن تناول النبيذ ولحم الخنزير لأن في طعمه النفور منهما، كما بقي بعد مغادرته مصر لا يبدأ عمل اليوم إلا وهو ينطق بالبسملة.

ولاشك أن ما قام به لين كان عملا جبارا تطلب من الكاتب قدرة فذة على تحرير نفسه من الأفكار المسبقة وذهنا مؤهلا للتمييز بين الشكل والجوهر في موضوعات مفرطة التعقيد، ثم قدرة على التعبير عن ذلك كله بحيث يصوّره تصويرا دقيقا في نفس الوقت الذي ينقل فيه إلى القارئ رؤية جديدة لحقائق مختلفة الأبعاد، وإن كان بين الفينة والفينة يدسّ بعض التفاصيل الغريبة المتسمة بالعنف والقسوة مثل نقْر أحد الدراويش لبطنه عارضا أحشاءه على صينية متصدّر موكب زفاف السيد عمر أفندي نقيب الأشراف إعرابا عن ولائه واحتفاءً بعرسه، ومثل المبالغات الحسية ولشدة إيمانه بأن حرارة الجو خلال موسم الصيف تؤجّج طاقة المصريين الجنسية فتدفعهم إلى الإفراط في إشباع شهواتهم والنهل العارم من الملذات الحسيّة.

(١٠٣) يذهب عبدالرحمن زكي إلى أن المقصود بالحارة من المصطلحين لم يكن الطريق الذي تتفرع فيه المساكن كما هو متعارف عليه اليوم، بل قسم من مجموع مساكن [...] يضم [...] الأسواق والحمامات وغيرها

كتب لين يصف طرق القاهرة ومساكنها ودكاكينها:

«تحتل القاهرة حوالي خمسة كيلومترات مربعة، ويبلغ تعداد سكانها حوالي مائتين وأربعين ألفا من مجموع عدد سكان مصر البالغ مليونين ونصفا. يحيط بها سور تُغلق أبوابه مساء ويسيطر عليه قلعة تربض فوق تل مرتفع. وقد يبدو للسائح الذي يراها للوهلة الأولى أن القاهرة مدينة مزدحمة، غير أن هذه النظرة ما تلبث أن تتغير عندما يُطلّ عليها من فوق أحد المنازل أو إحدى المآذن. وطرقات القاهرة ضيّقة متعرّجة غير مرصوفة يطلق على الرئيسة منها اسم الشارع وعلى فروعها الدرب والعطفة والحارة[103]. وتكتنف الشوارع العامة صفوف من الدكاكين على كلا الجانبين تعلوها مساكن غير متصلة بها ونادرا ما يحتلها مستأجرو الدكاكين. وأكثر ما تكون المنازل متلاصقة في مجمعات كبيرة تحوطها الجدران ويلجها الناس من خلال بوابة تؤدي إلى ممر تتفرع منه الحارات للوصول إلى دور السكنى. ومع أن معظم الدروب هي طرقات عامة إلا أنها تبتدئ وتنتهي ببوابة خشبية يقوم عليها حارس بعد إغلاقها ليلا، وتتفرع من الحارات عطفات ضيقة تحرسها ليلا بوابة مغلقة.

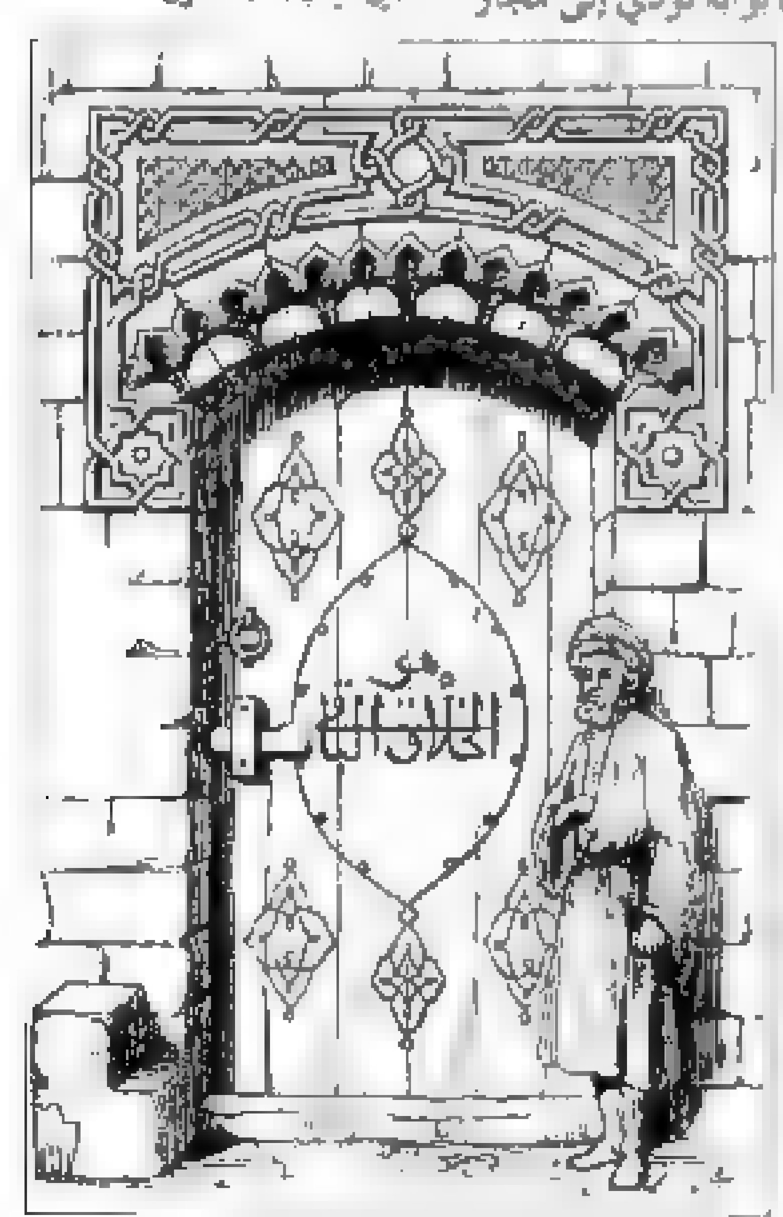

لوحة (١٧٩)
لين: باب أحد المنازل

وتتألف دور السكنى عامة من طابقين أو ثلاثة، ويكاد كل منزل يشتمل على صحن غير مرصوف يدعى الحوش، يصل الوافد إليه من خلال دهليز منحني مرة أو مرتين حتى لا يقع بصر المارة في الطريق على ساكني الدار، وتمتد في هذا الدهليز بالقرب من الباب مصطبة من الحجر على امتداد الجدار الخارجي لاستخدام الخدم والحراس. والحوش الذي يُرَشّ خلال فصل الصيف بالمياه لترطيب الجو به بئر يتسم مذاق مائه الذي يتسرب إليه خلال التربة من نهر النيل ببعض الملوحة. وعلى مقربة من البئر ينتصب عادة في جانب ظليل يرطّب ماء النيل الذي يحمله إليهم السقاءون. ففي خلال موسم الفيضان بعد فتح ترعة الخليج التي تخترق العاصمة يغترف السقاؤون ماءهم من الترعة على حين يغترفونها من النيل في غير هذا الموسم، ويحملونها في قرب جلدية فوق ظهور الحمير والجمال. وحين تكون المسافة قصيرة يحمل السقاؤون الماء في قرب صغيرة ويمضون بها

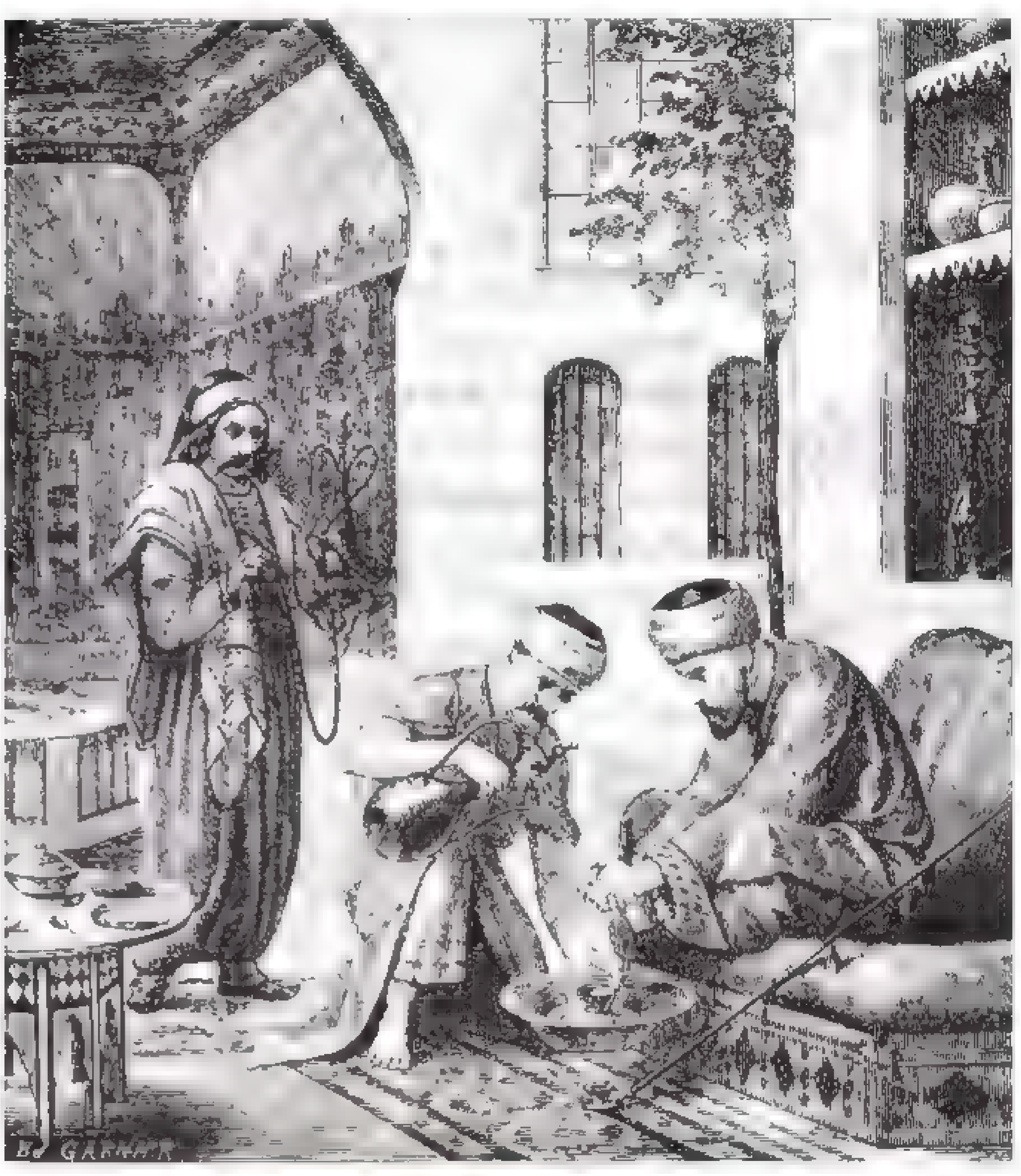

لوحة [illegible]٨: [illegible] غسل [illegible] الطعام وبعده

لوحة [illegible]٨: [illegible] حول مائدة العشاء

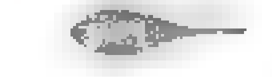

لوحه (١٨٢) بعن الكاتب العمومي

لوحه (١٨٣) لبن عالمه

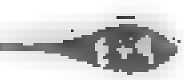

[illegible]

[illegible] أشكالها زيادة ما تضفيه من الظل على [illegible]

[illegible] العناصر التي تسترعي انتباهنا في دار السكنى هي الصحن أو الحوش [illegible] في [illegible] ليهبط إلى أدنى مستوى ليلاً ثم ما يلبث أن [illegible]

[illegible] الأرائك [الدكك] الخشبية بمحاذاة جدرانه الثلاثة . ولا يكاد يخلو صحن الدار من نافورة [فسقية] أو حوض [illegible] صفحة السماء

[illegible] حوض [illegible] فتدفع منه بعيداً عبر قنوات ضيقة . وينخفض مستوى [illegible] مستوى أرضية الإيوان . ويحدد هذا [illegible] المكان الذي [illegible] تطأ قدماه فاخر السجاد و [illegible] التي تكسو أرض الإيوان [illegible]

[illegible]

لوحة (١٨٤) لين الحريم في خلوتهن

لوحة (١٨٥) لين [illegible] وتزين شعرها بالصفة

لوحة (١٨٦) لين الجواري

لوحة (١٨٧) لين: سيدة ترتدي ثياب المنزل

لوحة (١٨٨) لين: سيدة ترتدي الملاءة والبرقع

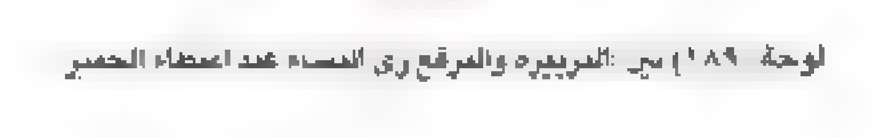

لوحة (١٨٩) لين: الحبرة والبرقع زي النساء عند امتطاء الحمير

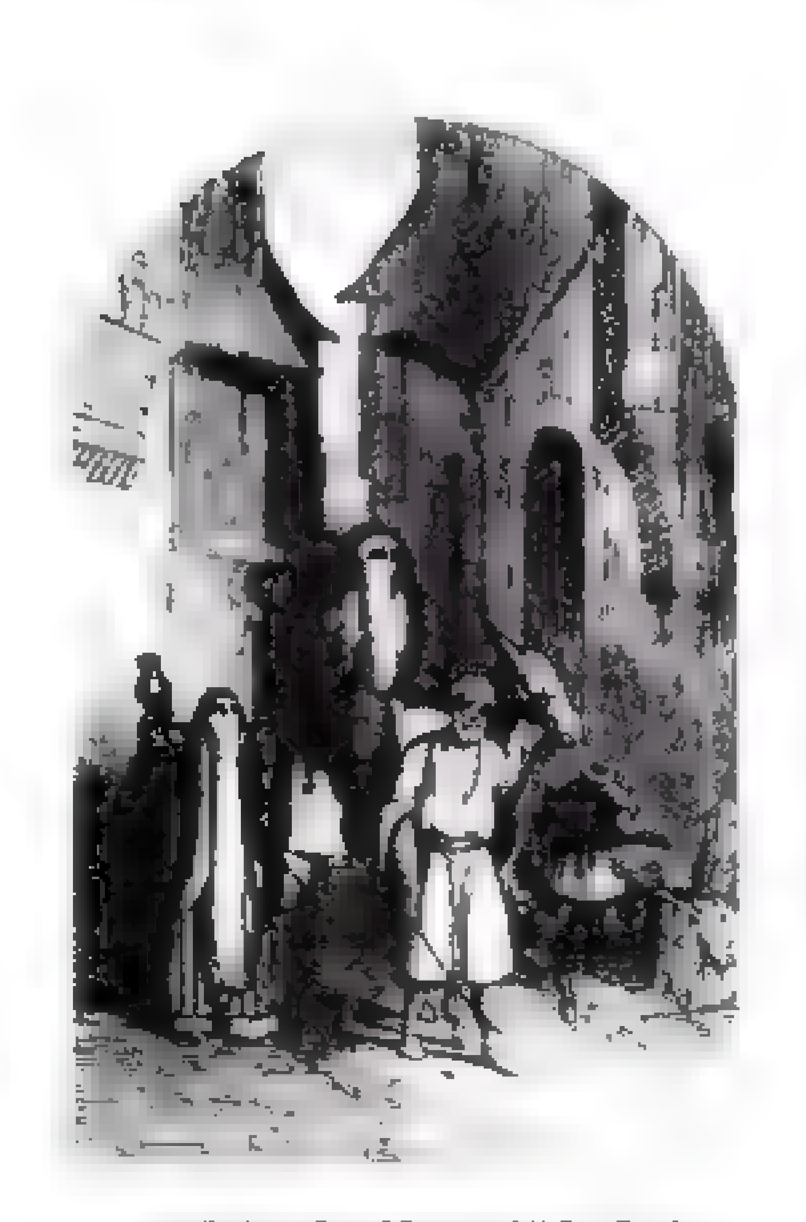

لوحة (١٩٠) لين: سيدة قاهرية تمتطي الحمار

لوحة (١٩١) لين: زي مياسير القاهرة

لوحة (١٩٢) لين: زي الطبقة الدنيا

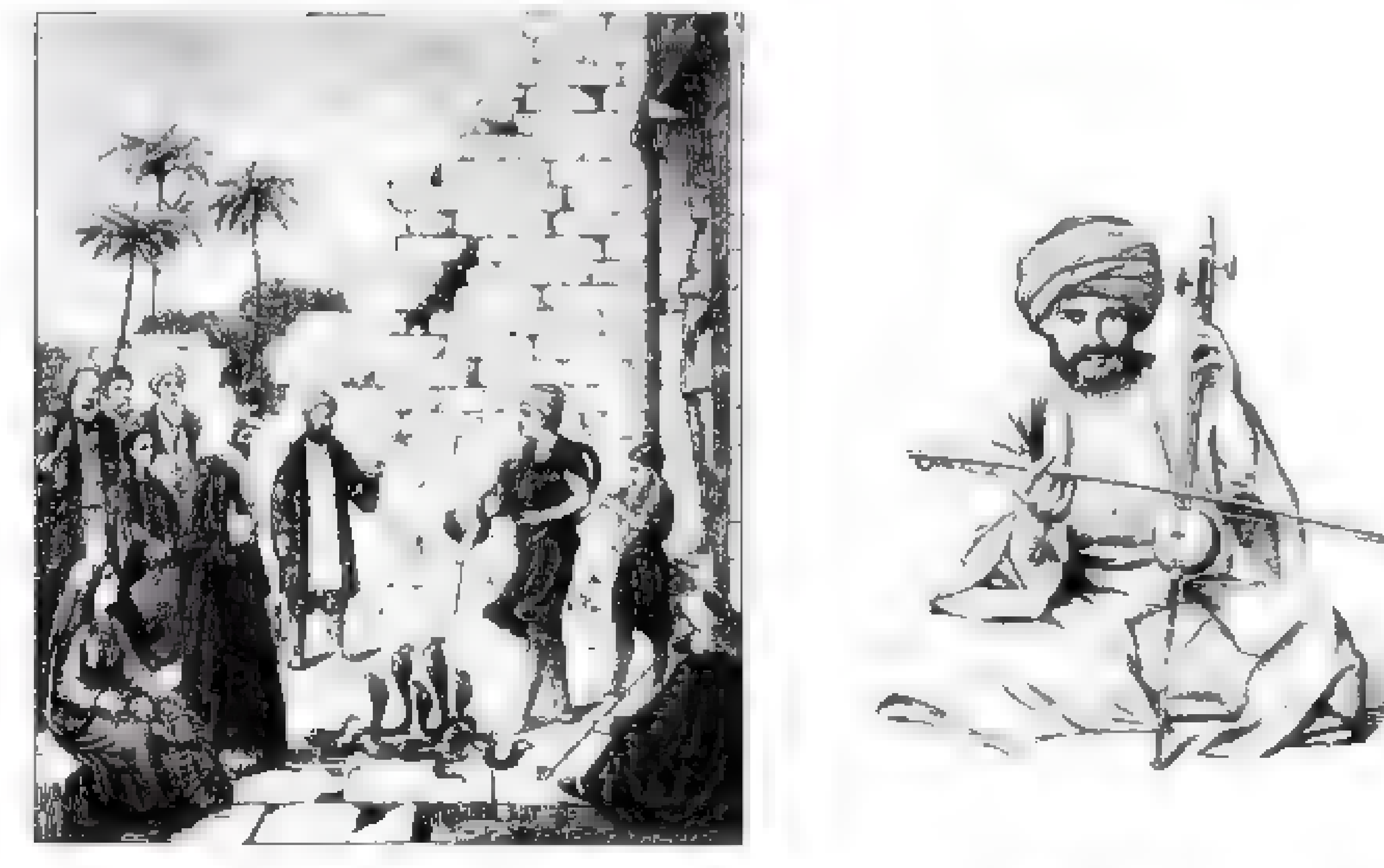

لوحة (١٩٣) لين: عازف الربابة

لوحة (١٩٤) لين: الرفاعي مدرب الأفاعي

لوحة (١٩٥) لبس حفل الدوسة

لوحة (١٩٦) لبس الحذاء والخف والقبقاب

[illegible]

والمربعات والمعينات والنجوم [illegible]

وخلال هذا الأطر النجومية [illegible]

[illegible]

فتحة شدهة محمل من الخشب الدقيق في [illegible]

أمامها في تدرّج [illegible] المشاهد [illegible]

شبابيك المكسوة بالمشربيات على كلا جانبي [illegible]

عرفت عنه خلال موسم الصيف [illegible]

[illegible] إذا ما نشب حريق في أحد [illegible]

سكان يصفّون القُلل على حافة المشربية لتبريد مياهها. ومن [illegible]

وما أكثر ما تعلو نوافذ المشربيات طاقات من الزجاج الملون المعشّق يشكّل صوراً لباقات الزهور أو الطواويس وغيرها من الأشكال المبهجة التي تتحدر بها أهل الدار. وسمّيت هذه النوافذ [illegible] الولاة الطولونيين في نهاية القرن التاسع [illegible]

[illegible] لابدّ من المشي كما هو الحال في الطرقات العامة والدروب [illegible] فوقه إلى مساكن محددة المعالم يسمّى كل منها "ربع" مستقلاً عن الآخر مثلما هو مستقل عن [illegible]

[illegible]

[illegible] لم يطلق عليه اسم المسجد الواقع في جواره، فثمة سوق للنحاسين [illegible] سوق العنبرية الذي اشتق اسمه من مسجد السلطان [illegible]

[illegible]

عن المرحوم الأديب بشر فارس

[illegible] وتتساوى
[illegible] الدكاكين مع سطح المصطبة المشيدة من الحجر أو الطوب أمام مقدمة الدكاكين، وتحتل هذه
الدكاكين [illegible] والمحاسين [illegible] [يسمي
[illegible] [illegible] [يسمي الأديب] [illegible] والدخاخنية والفكهانية
و[illegible] [يسمي [illegible] المحققة] [illegible] والعطاطرية
[illegible] القاهرة [illegible] الإسلامية ببعض الخصائص، منها
شارع رئيس طويل هو المعروف بالقصبة يخترقها من الشمال إلى الجنوب من باب الفتوح إلى باب
زويلة [المتولي] يبلغ عرض أجزاء المخصص منه للمرور [illegible] دكاكين تشغلها
الأسواق التي تمتد في الشوارع [illegible]
الفاطميين تلتها منشآت أخرى [illegible] سلاطين [illegible] فيما
بعد، كما كانت تشمل أقساما خصص كل منها لنوع من أنواع التجارة كالخيامية والنحاسين
والعطارين والمغربلين إلى غير ذلك، ومثل هذا نجده أيضا في شوارع أخرى مثل «الدرب الأحمر»
أو في بعض الأسواق مثل سوق السلاح»

ثم يمضي لين يصف عيد فتح الخليج فيقول

وعيد فتح الخليج في القاهرة أو عيد وفاء النيل كان عيدا لا يتصل بالمعتقدات الدينية ويعود إلى أزمنة ضاربة في القدم. ويتصدّر الاحتفال الوالي وكبار رجال الدولة بينما تغطي القوارب سطح ترعة الخليج. وتبدو قوارب السيدات من بين القوارب متميزة بستائرها التي تحجبهن عن عيون المتطفلين. ويخلع الوالي جبّة على علية القوم، وما إن يعطي الإشارة حتى يلقي بعض الأفراد [illegible] عمود طيني في المجرى الرئيس للنيل وسط صخب الهتافات ورنين الآلات الموسيقية [illegible] [illegible] على [illegible] [illegible] [illegible]

[illegible] تكشف هذا العناء في ثيابها، فلا تضم خزائنهم سوى ثلاثة أثواب أو أربعة لا يستبدل بها غيرها إلا إذا بليت أطرافها

ويرتدي الرجال سروالا من الكتان أو القطن يعقدونه حول وسطهم [illegible] إلى ما تحت الركبتين أو حتى العقبين. وقمصانهم المنسوجة من الكتان أو الموسلين أو خليط الحرير والقطن [illegible]

لوحة (١٩٧) لين: جنازة

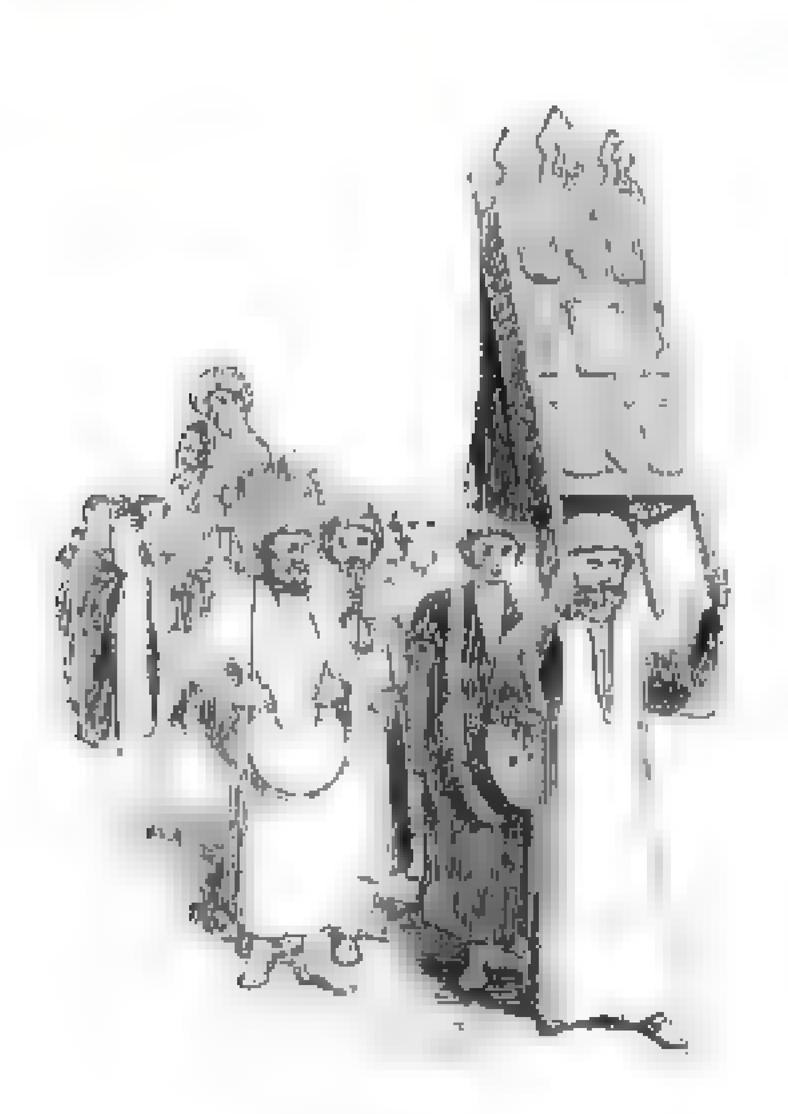
لوحة (١٩٩) لين: المحمل

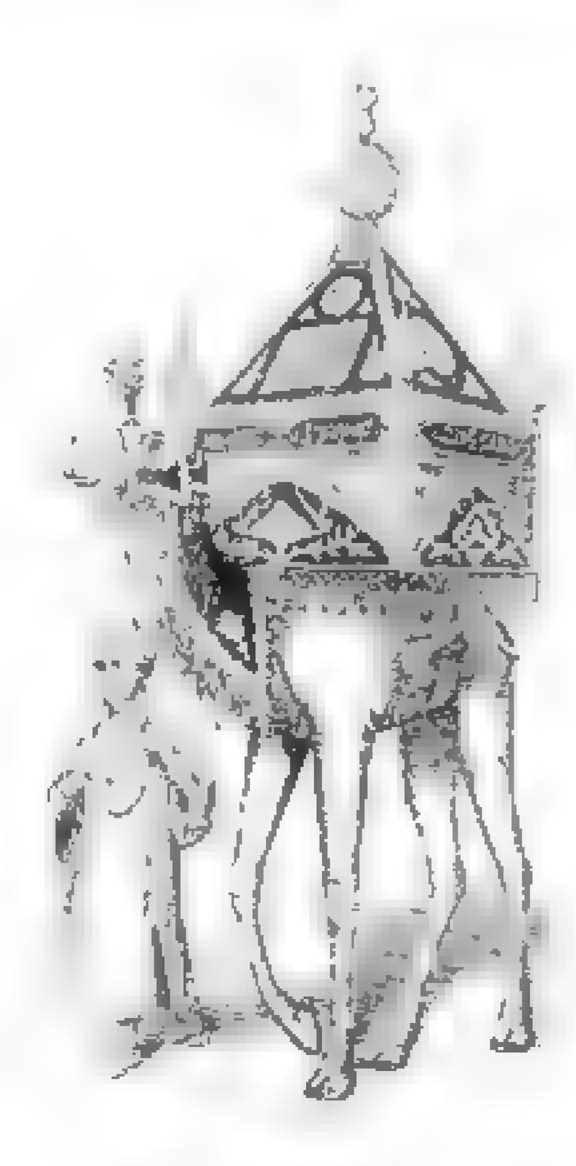
لوحة (١٩٨) لين: موكب ختان الأطفال

طويلين يتجاوز طولهما أطراف أصابع اليدين ولكنهما يشطران فوق المعصم أو عند منتصف الساعد من الخلف فيصبح الكمّان أكثر تحررا بينما تتاح لهما أن يستخفيا خلف طول الكم في حضرة الكبار أدبا وحياء . ويلتف حول القفطان شال من الكشمير أو وشاح من الموسلين الأبيض المنقوش يُجدل أحدهما ليصير حزاما يشدّ القفطان فلا ينفتح . ويتمثل الثوب الخارجي في الجُبّة التي يتنوّع لونها والتي لا تكاد أكمامها تصل إلى الرسغين ، فإذا قسا البرد تدثّر الرجل فوق ذلك كله بعباءة سوداء . والعمامة غطاء الرأس وهي طربوش أحمر ذو زر قاتم اللون يلتف حوله وشاح من الموسلين الأبيض ، وعادة تُلبس العمامة فوق لاطئة قطنية [طاقية] وقد تتخذ العمامة من [illegible] شال من الكشمير [illegible] معروفة [illegible] قلة تستخدم جوربا قصيرة من الصوف أو القطن في الطقس البارد . ولباس القدم مركوب من الجلد الأحمر طرفه الأمامي مدبّب يرتفع إلى أعلا . ويلبس المصري حول خنصر كفّه اليمنى خاتما فضيّا ذا فص من العقيق محفور عليه اسمه مسبوقا بعبارة «العبد [illegible]» [illegible] في التوقيع على الرسائل والوثائق ، وكانت لبصمة هذا الخاتم قيمة أكبر من التوقيع . ويصطحب الرجل أرجيلته [أو نرجيلته] معه إلى كل مكان عير المسجد ، وقد يتبعه خادم يحملها له ، ويحتفظ بكيس التبغ بين طيّات القفطان فوق الصدر مع منديل مطرّز بالقصب والحرير الملون مطوي بعناية .

[illegible] ثياب الرجال من الطبقة الدنيا فكانت أشد بساطة وتتكون من لباس وقميص طويل من [illegible] أو القطن الأزرق «الزعبوط» واسع الأكمام مفتوح عند العنق حتى الوسط ، ويلف البعض حول وسطه حزاما أحمر أو أبيض من الصوف يستبدل به الخدم عادة حزاما عريضا من الصوف أو الجلد يحتّون فيه كيس النقود . وتتألف عمامتهم من شال صوفي أبيض أو أحمر أو أصفر أو من نسيج قطني مع يلتف حول طربوش فوق الطاقية . غير أن الفقر قد لا يتيح للبعض أن يرتدي غير البدة ويقتصر ملبسهم على القميص الأزرق أو البنّي دون لباس أو حذاء . ويرتدي الكثيرون من عامة الناس خلال موسم الشتاء عباءة ملائية النسيج ذات خطوط بنّية وبيضاء عريضة . وقد يميز الأقباط عن المسلمين ألوان عمائمهم إذ يعتمر الأقباط بعمامات سوداء وزرقاء ورمادية أو بنيه . وكان الملك الأشرف شعبان (١٣٦٢ـ١٣٧٦) هو أول من أمر الأشراف من سلالة الرسول الكريم بارتداء العمامة والجبّة خضراء .

لوحة (٢٠٠) لين: القاهرة

وثياب المرأة المصرية دليل ثرائها وبذخها . وعلى الرغم من أنها لا تملك أن تكشف عن زينتها وحسنها إلا لزوجها وأفراد أسرتها وصديقاتها فإنها لم تكن قليلة الولع بالأبهة والأناقة ، فهي تتزيا بأغلى الثياب المزدانة بأروع الحلي جمالا وأناقة ، وتحلّي جيدها بالعقود الذهبية في صفوف تتالى حتى صدرها ، ويتدلى منها مصحف دقيق وقنينة عطر . وتزدان سواعد نساء الطبقة الثرية بأساور من ذهب وتحيط بأدنى سيقانهن خلاخيل ذهبية وتثقل أصابعهن الخواتم المرصعة بالأحجار الكريمة . وما تكاد المرأة تنزل إلى الشارع لأداء زيارة أو قاصدة الحمام العام حتى تخفي كل زينة . وترفل المرأة المصرية المرفّهة في أفخر الثياب المصنوعة من الأنسجة [illegible]

[illegible] وهي ترتدي [illegible] الأسفل [illegible] فيتطلع من [illegible] وفوقه [illegible] تبعا لثراء المرأة ، فقد يكون من القطن أو الكتان أو الحرير أو الموسلين أو [illegible] الذي تكتسي به المرأة في الدار أثناء وجودها مع [illegible] زوجها . وهو ثوب طويل الأكمام ضيّقها ومفتوح من الجنبين من الخصر حتى القدمين . وقد ترتدي المرفّهة في المنزل عوضا عن الملك صديريا قصيرا يدعى العنتريه ، حتى إذا خرجت أسبلت على نفسها [illegible] يسمى [illegible] وهو في الغالب أبيض اللون رقيق [illegible] وجهها [illegible] العرباء كما فرض الولاة والحكام وليس [illegible] ملاءة تشبه الحبرة أو الملاية السوداء ثقيلة القوام تلف جسدها من قمة رأسها حتى عقبيها .

لوحة (٢٠١) لين: دكان تاجر تركي بسوق خان الخليلي

على أن ثياب الطبقات الشعبية كانت تعبيرا عن البساطة ورقة الحال ، فلا ترتدي الأنثى غير ما يستر به جسدها ويقيه لفح البرد ووهج الحر ، وهو رداء من نسيج رخيص قد لا تغيره لفترة طويلة تسدل فوقه عباءة من قماش خشن . وتزين البدويات في شعرهن ورؤوسهن بالكثير من العملات المعدنية او الذهبية في أطراف الضفائر تسمى الصفّة .

[illegible] الحمامات [illegible] القاهرة فيقول :

[illegible] من مائة حمام تزداد أهميتها في الشتاء ، وهي مصدر متعة يسهل على الفقراء الظفر بها ، بل إن الأثرياء الذين يحوزون في دورهم حمامات خاصة يطيب [illegible] التردّد على هذه الحمامات العامة ، فهيه إلى جانب الحصول على نصيب من النظافة يتجاوز ما يتحقق في الحمام الخاص متعة اللقاء مع كثرة من المعارف والأصحاب والترويح عن النفس [illegible] يطلق المرء إلى الحمام العام حتى يستقبله الحمامي في قاعة الاستقبال حيث يودع ملابسه [illegible] حول جسده بشكير ، ثم يُقاد إلى دهليز يحتضنه ويغمره بوهج تتزايد حرارته كلما أمعن فيه حتى يصل إلى [illegible] تكشف [illegible] على [illegible] صوفي [illegible] يدس كفه في كيس من الصوف السميك الناعم الملمس ، ويفرك قليلا حتى تكون [illegible] البشرة كلها فيبدأ في فرقعة مفاصل النزيل ثم يدلك جسده بالكيس الصوفي حتى لا يبقى [illegible] أثر كان عالقا بها . ثم ينهض الرجل وقد لف جسده كله لفرق السخن ، ويمضي إلى قاعة مجاورة تضم مصدرين لمياه الساخنة [illegible] ويتحول بعدها إلى قناة بها حوض مليء بمياه شديدة السخونة [illegible] بعدها وقد لفّ جسده في قميص يعود به إلى قاعة الاستقبال [illegible] معه أنفاسا من الأرجيلة مسترخيا على الأريكة التي ما يلبث أن يغادرها ليستقبل جسده نفثات من عطر فاغم ويأخذ في ارتداء ثيابه المعممة بأريج بخور أعواد شجر الصبّر .

والسائد تخصيص حمام للنساء وآخر للرجال يفصل بينها باب خاص ، فإذا لم يكن هناك في الحي غير حمام واحد خُصّصت بعض أوقاته للرجال والبعض الآخر للنساء ، وفي هذه الحالة يُسدل على الحمام ستار معلنا أنه وقت النساء . والحمام العام للمرأة يعدّ مجتمعا محتفلا ، فمنه

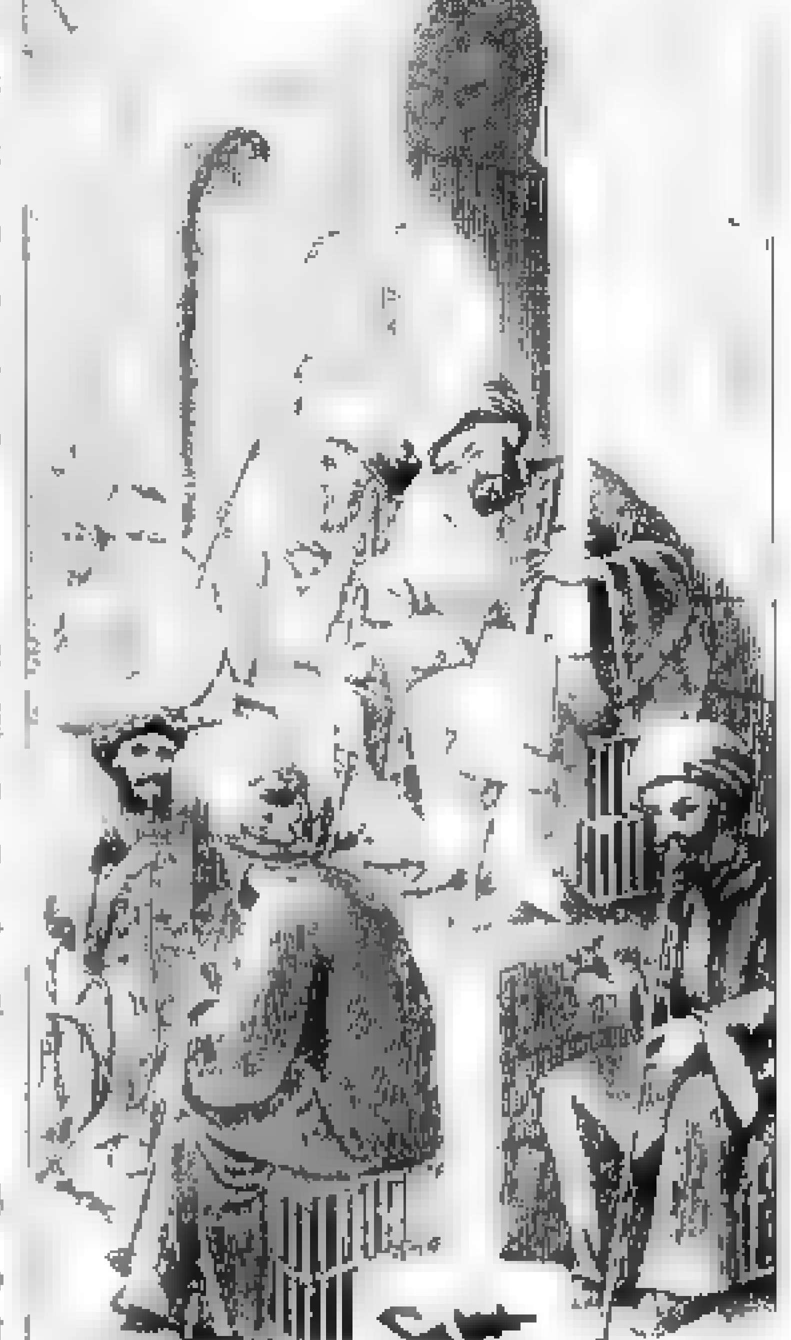

لوحة (٢٠٢) لين: الشاعر وعازفو الربابة

تسرع خطى التي ترتديها في الطرقات لتحميها من عيون الرجال، وفيه تستعرض أمام الأخريات ثيابها الثمينة وحليها النفيسة التي لا تملك أن تبرزها للرجال فتزهو بها هنا أمام رفيقاتها في دل يرضي غرورها، ويصبح المكان حفلا بهيجا يشيع فيه النساء ميلهن إلى الثرثرة والعبث والتقال والتهامس وتناقل الأخبار والتباهي بمقتنياتهن الجديدة. وتقدم عاملات الحمام للنساء خدمات فوق ما يلقاه الرجال كتصفيف الشعر والتجفيف والتزيين وما إلى ذلك»

ولا تفوت لين حوانيت الحلاقة فيحدثنا عنها بأنها:

«منتديات هامة أيضا للرجال شأنها في ذلك شأن الحمامات، فالحلاق يؤدي أيضا بعض اختصاصات الطبيب إذ يقوم بالحجامة وختان الصبية إلى جانب حلاقته لشعر الرأس بالموسى عدا خصلة في مقدم الرأس وكانت اللحية تحلق كلها عدا العنفقة [الشعيرات أسفل منتصف الشفة السفلى] مع إطالة السوالف بينما تُقص الشوارب عادة اتباعا لسنة الرسول عليه الصلاة والسلام. وكان الحلاق يصبغ اللحى أيضا بالحناء وإن لم يكن هذا يحدث إلا نادرا إذ كانت اللحية الشهباء موضع تقدير وتوقير»

ويشير لين إلى الكاتب العمومي فيصف مهنته بأنها.

«من الوظائف المهمة، فمع شيوع الأمية كان الرجال والنساء يقصدونه لكتابة الرسائل إلى الأهل والأصدقاء أو الشكاوى والعرائض للحكام والرؤساء، ومكانه السوق في محطات معروفة يعتلي فيها أريكة خشبية أو مصطبة حجرية مفترشا سجادة يتربع فوقها ممسكا بريشته التي يغمسها في محبرة من النحاس أو الفضة، محتفظا بأوراقه داخل رداءه»

ثم يتعرض لين لوسائل المواصلات بالمدينة فيقول.

«الحمار هو دابة الركوب الميسرة لعامة الشعب، يقوده مكاري يسرع خلف الحمار إذا كان هذا سريع الخطو، [illegible] كلما وهن عزمها أو تراخى. على أن رجال الدين وكبار التجار كانوا يختارون مطيتهم من البغال وكانت الجياد معروفة وإن بقيت مقصورة على الأمراء من المماليك حتى دخول الفرنسيين مصر».

وهذا وصف حفل «الدوسة» الذي شاهده لين وعاينه وكتب عن تلك المعاينة قائلا:

«بعد أن أمضى خطيب المسجد ليلة الجمعة في خلوة يتعبد ويتهجد ويصلي ويتلو القرآن ليؤهل نفسه بذلك لخطبة الجمعة وما يعقبها أدى الصلاة، ثم امتطى بغلته المشوقة قاصدا منزل الشيخ البكري نقيب الأشراف الذي كان يتزعم جميع دراويش مصر، وكان منزله في الجهة القبلية من بركة الأزبكية. وكان وهو في طريقه من المسجد إلى منزل الشيخ البكري ينضم إليه الدراويش «السعديون» من مختلف أحياء العاصمة، وإذا بالموكب يتوقف على مقربة من منزل نقيب الأشراف، وهنا انبطح على وجوههم عدد يجاوز الستين من الدراويش وغيرهم وقد التحم بعضهم ببعض ووضعوا أيديهم تحت جباههم وانبسطت سيقانهم وهم يجهرون باسم «الله»، ثم انطلق عشرة دراويش حفاة يعدون فوق هؤلاء الذين افترشوا الأرض بينما يقرعون بالرخمة على النار [طبلة صغيرة نصف كروية] التي يمسكونه بأيديهم اليسرى مهللين باسم «الله». وتقدم

لوحة (٢٠٦) لين: أدوات الكتابة

الشيخ على بغلته التي كانت تمشي وئيدا من هول الموقف، وما إن أقبلت تدوس فوق ظهور المنبطحين حتى أحجمت، فقادها أحدهم من مقدمها وأخذ آخر من خلفها يحثها حتى خطت فوقهم جميعا بخطى سريعة، وأمامها رجلان يعدو أحدهما فوق الرؤوس والآخر فوق السيقان، وهنا صاح المشاهدون باسم «الله» يمدون به أصواتهم. ومن الغريب أن الرجال المنبطحين لم يُصب أحدهم بسوء، وكان كلما مرت البغلة فوق واحد منهم وثب واقفا يتبع الشيخ ويدل إن هؤلاء جميعا الشيخ والذين ينبطحون كانوا يهيئون أنفسهم لتحمل هذا العناء بأدعية وابتهالات يرددونها قبل حفل الدوسة بليلة، وإذا ما تخلف واحد منهم عن أن يبتهل أو أن يدعو كان لابد من أن يلحقه أذى الدوسة. وكانت الدوسة تعد كرامة من كرامات شيوخ السعديين، وكانوا يزعمون أن البغلة كانت تنزع حوافرها، ولكن المؤكد عندي أن هذا الزعم غير صحيح. وبعد أن تجري هذه الكرامة دون أن يصاحبها حادث ما يتجه الشيخ إلى حديقة منزل نقيب الأشراف بصحبه عدد قليل من الدراويش، وما إن يصل حتى ينزل عن بغلته ويفترش سجادة فوق منصة كانت تعد عند نهاية التختروش فناء الدار ويجلس مكفتا مسبلا عينيه متأملا والدموع تسيل من مقلتيه غير كاف عن التسبيح، أمامه فوق الحصر المفروشة الدراويش الذين كانوا لا يجاوزون العشرين على شكل نصف دائرة، ويتقدم منهم ستة يأخذون في الذكر قائلين «الله حي... ياداي» مرددين ما يقولون مع قرعات الباز. وبعد انتهاء الذكر يؤخذ في تلاوة القرآن وقتا ثم يعودون إلى الذكر، وكانوا يكررون ذلك مرة وراء مرة. وفي النهاية عندما يريدون الانصراف يهرعون إلى تقبيل يد الشيخ الذي [illegible]

[illegible]

[illegible] يضم أكثر من ألف ومائتي مقهى يتزايد عددها في ساحل بولاق ومصر القديمة. ولا يزيد أثاث المقهى عن بضع أرائك تستند إلى الجدران وبعض الحصر المجدولة من سعف النخيل، فضلا عن منضدة خشبية بسيطة. وثمة قدر نحاسي كبير يغلي ماؤه فوق موقد الفحم المتقد، وتصطف فناجين القهوة بجوار القدر لتشكل كل العدة اللازمة حول صاحب المقهى الذي يحظى في العادة بتقدير كبير. وتُقدم القهوة ساخنة غير محلاة في فناجين من الصيني أو الخزف مدسة في أوعية نحاسية تسمى «ظروفا». ويتربع الرواد [illegible] فوق الحصر أو يضطجعون فوق الأرائك وهم يشدون أنفاس أراجيلهم التي [illegible] الخاص. ويبلغ متوسط عدد المترددين على المقهى اثنين والخمسين في اليوم [illegible] كل واحد منهم حوالي سبعة أقداح من القهوة. ولكل مقهى [illegible] حكايات الشخصيات الأسطورية من أمثال أبي زيد وعنترة، وشوع سرد [illegible] أو الغناء بصحبة عزف على الربابة. ويجمع هؤلاء لشدون أجورهم من صاحب المقهى أحيانا ومن رواد المقهى الذين يعطون عن طواعية في غالب الأحيان».

لوحة (٢٠٣) لين: العطار

لوحة (٢٠٤) لين نساء وأطفال الطبقة الدنيا

لوحة (٢٠٥) إدوارد لين . الوضوء

ثم يعرض [illegible] قصات فيصف ليالي القاهرة التي كانت تُحيّا على أيدي: «مغنيات يُعرفن
[illegible]
[illegible]
[illegible]
ثياب نساء الطبقة الوسطى داخل الدور [illegible] سروال ويُردن عليه شالا يعقدنه حول
أردافهن لتظهر بذلك مفاتن أجسادهن، ويفرطن في التحلي بنفس حلي نساء الطبقة الوسطى
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
رقصاتهن في حريم بعض البيوتات المحافظة فكثيرا ما كن يعملن في بيوت اللهو والمتعة. ومن بين
[illegible]
على باشا الفضل في انحسار هذه المهنة عن القاهرة والدلتا وانحصارها في أقصى الصعيد [illegible]

السائحون يأخذون مكان الرحّالة

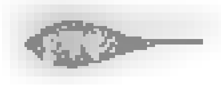

أثار غزو نابليون لمصر عام ١٧٩٨ ، ثم انتصار الأميرال نلسون في موقعة أبي قير في العام نفسه الافتتان بكل ما هو مصري قديم في كل من إنجلترا وفرنسا . فإذا بيدي هاملتون عشيقة نلسون [illegible] في [illegible] رسائلها [illegible] لو كنت [illegible] لبحثت عن الصور الألقاب [illegible] فوق [illegible] مركز نهر النيل وكوب الإسكندرية وقمة الأهرام، وبارون التمساح وأمير النصر المظفر؛ حتى تستطيع التشكل في عالم الخلود في أية هيئة تحلو لك».

وكان ظهور كتاب «المصريون المعاصرون» لإدوارد لين عام ١٨٣٦ نقطة تحول بارزة في تاريخ العلاقة بين مصر والرحالة والكتاب والفنانين الإنجليز . فحتى ذلك الوقت كانت مصر تجتذب عددا من المهتمين بالآثار مثل ولكنسون أو العلماء مثل لين أو الرواة المغامرين مثل هيكر . ومنذ ظهور هذا الكتاب نلحظ ازدياد الاهتمام بمصر واتساع نطاق زوارها وتزايد أعدادهم عما قبل ، حتى زار مصر ما بين عامي ١٨٣٥ و ١٨٥٠ كل من وليم ثاكري وألكسندر كنجليك وإليوت وورَبيرتون ونورد لندساي وغيرهم . لقد غدت مصر منتجعا ذائع الشهرة لقضاء الإجازات يجتذب الزوار من كل نوع ، من السياسيين المبعوثين من حكوماتهم ليُدلوا بآرائهم في حكومة محمد علي ، إلى التجار الساعين إلى عقد الصفقات ، إلى المرضى الملهوفين إلى استرداد الصحة والعافية ، إلى جماعات السائحين ، إلى دارسي الكتاب المقدس ، إلى الكتّاب والفنانين المتطلعين إلى ما يحرك أقلامهم وفرشاتهم . ومما زاد من الاهتمام بمصر استحداث البواخر لتدني قرب المسافة بين مصر وأوروبا . ولقد كانت رحلة ثاكري بدعوة من شركة P&O الملاحية الشهيرة بعد أن سيّرت خطا ملاحيا بالباخرة بين مصر وأوروبا . كذلك شرع توماس واجهورن في استخدام البواخر النيلية في مصر عام ١٨٤١ ضمن الطريق البري إلى الهند بدءا من قناة الإسكندرية ، ونُظّمت وسائل المواصلات بالمركبات الإنجليزية التي تجرّها الخيول عبر الصحراء ، حتى أصبح الطريق بين القاهرة والسويس طريقا ذائع الشهرة تتخلله استراحات من بينها محطات تتيح للنزلاء احتساء الشمبانيا وأجود الأنبذة ، على حين أعدّت ظهور الخيول بما يشبه المقاعد لنقل النساء والأطفال والمرضى . لقد توافرت كل وسائل الراحة اللازمة للأوربيين حتى نجد الكاتب الساخر وليام ثاكري في كتابه «ملاحظات حول رحلة من كورن هيل إلى القاهرة الكبرى» يتوج الفصل الذي عقده عن الإسكندرية بتفاصيل قائمة طعام أشهر المطاعم لديه . لقد غدت الرحلة كما يقول أحد الرحالة «حفلاً ممتداً» . ومضت وسائل توفير الراحة للزوار تتكاثر حتى بات بوسع

توماس كوك في غضون بضع سنين أن يأوي مريه ألف نفس تحت سقوف الخيام في وقت واحد ، وغدا عدد قاصدي رحلة النيل مساويا لعدد زوار الريفييرا الفرنسية [١٠٥] .

وأصبح قضاء موسم الشتاء في مصر بدعة شائعة في منتصف القرن التاسع عشر بعد أن ابتدعها ولي عهد بريطانيا في عام ١٨٧٢ عندما اختار مصر ليقضي بها فترة نقاهته بعد مرضه . وما كادت تنقضي بضع سنين حتى زاد إقبال السائحين إلى مصر نتيجة لتلك الجهود التي طورت أساليب السياحة على يدي شركة كوك السياحية . ثم جاء من بعد توماس كوك ابنه جون كوك الذي اكتسب خبرة عظيمة بالملاحة في نهر النيل بعد تكليفه بنقل الجرحى الإنجليز من القاهرة إلى الإسكندرية في أعقاب معركة تل الكبير ثم اضطلاعه بنقل الجنرال جوردون إلى كوروسكو عام ١٨٨٣ ثم نقل حملة الجنرال هكس المشئومة لإنقاذ جوردون في العام التالي ، فحظيت مراكب كوك بسمعة عالية بوصفها « أبسطة الرفاهية العائمة » ، كما دشنت في عام ١٨٩٠ أولى البواخر النيلية المضاءة بالكهرباء والتي تتسع فيها قاعة مطالعة تضم الكتب والصحف اليومية ، ويقدم فيها الإفطار الإنجليزي وشاي الساعة الخامسة ، كما تتضمن أمسياتها فقرات ترفيهية يؤديها أفراد طاقم الباخرة بعد تناول العشاء . كذلك شيد كوك فندقا خاصا بالأقصر كي يأوي إليه الناقهون الذين اجتذبهم وصف ليدي داف جوردون في « رسائلها » لشمس الشتاء في مصر

وانتشرت الكتب المرشدة التي وضعها أفضل المتخصصين مثل : « دليل ماريز » Murray's Guides to Egypt الذي كتبه العالم ولكنسون ، و « دليل كوك » الذي كتبه واليس بادج . وكان المجال الذي تعرض له هذه الكتب فسيحا لدرجة مذهلة ، إذ تضمنت قوائم طويلة لما ينبغي أن تتزود به رحالة النيل ، من بينها أحواض غسيل الأقدام ومكنسة وجاروف لكنس الغرف ، والكتب الواجب الاطلاع عليها ، وأدوات القنص ، والبنادق وعناوينها ، والمواقع التي يمكن الحفر فيها والآثار التي ينبغي الالتفات إليها والصور والنقوش التي يحسن استنساخها ، فضلا عن التحذير بعدم النزول إلى الشاطئ دون حراسة مما أسفر عن تدفق أجيال من التراجمة إلى القرى والمدن المجاورة لضفة النهر التي شاء حظها أن تقع إلى جوار الأطلال الأثرية . كذلك اهتم « دليل ماريز » بالسائح غير المتعجل الذي يتطلع إلى قضاء بضعة شهور في المنطقة ، ومن ثم كان في حاجة إلى من يرشده إلى استئجار البيوت المناسبة في القاهرة حتى يمضي على نهج التقاليد العريقة التي أرساها إدوارد لين والمصور جون فردريك لويس . وكان « دليل ماريز » ينصح بتكليف ثلاثة خدم أو أربعة بتنظيف غرف الدور قبل سكناها لتطهيرها من البراغيث . وابتداء من عام ١٨٧٠ بدأت النصائح تترى على السائحين بتجنب ارتداء الزي الوطني إلا إذا كانوا يجيدون الحديث بالعربية ، إذ أن ذلك قد يعرضهم للسخرية بهم على حين كان ارتداء الزي الوطني في النصف الأول من القرن أمرا ضروريا بالنسبة لسلامة الرحالة .

وفي عام ١٨٣٦ أسس دكتور وولف « الجمعية المصرية » لتكون مركز لقاء للرحالة ولجمع المعلومات المتعلقة بمصر وتسجيلها وتيسير الدراسة والأبحاث من خلال مكتبة تضم أهم الكتب عن البلاد ، إلى جانب جمعية أخرى أسسها دكتور أبوت الإنجليزي والفنان الفرنسي بريس دافن وجعلا هدفها نشر المؤلفات عن مصر وتزويد الباحثين بالكتب والمراجع التي تضمها مكتبتها وفي الحق لقد أصبحت أية محاولة لتقديم مزيد من المعلومات بعد التفاصيل الدقيقة التي تضمنها

(١٠٥) Rashad Rushdy: The Lure of Egypt "n.d."

كتاب لين كأنها محاولة لاعتصار ليمونة قد استنفد ماؤها حتى لنجد معظم الرحالة الذين قصدوا مصر بعد عام ١٨٣٥ لم يقصدوها لدراسة البلاد أو تقديم التقارير عنها ، فقد تم ذلك كله من قبل وعلق بأخيلة القراء ، فرأينا ثاكري لا يندهش وهو يرى الأهرام لأول مرة لأن رؤيتها لم تضف جديدا إلى صورتها المرتسمة في ذهنه من قراءاته السابقة .

وبدأ الرحالة يسجلون انطباعاتهم وآراءهم عما يشهدون إلى جانب نقد ما لا يروق لهم منها ، غير أن هذه الانطباعات والآراء لم تكن كلها على صواب ، بل لقد ذهب بعضهم إلى كتابة ما هو أقرب إلى الخرافات والأساطير . ولاشك أن عددا لا يستهان به من كتب الرحلات الصحيحة قد ظهر خلال القرن التاسع عشر أكثر مما ظهر في أي قرن آخر قبل ذلك أو بعده حتى أصبح من المتعذر ظهور كتاب رحلات يرقى إلى مستوى الكتب الأدبية . على أن أدب الرحلات في الشرق الأوسط عامة جاء مترعا بالكشف عما في صدور الكتاب ومراقفيهم بقدر ما كشف عن مشاهداتهم في البلاد التي مروا بها ، إذ استطاعت قلة من بين المئات الذين نشروا انطباعاتهم الإيحاء إلى القراء بالتعاطف مع أهل هذه البلاد وتراثها فضلا عما أثروا به قراءهم من معارف علمية عن هذه الأقاليم . وما من شك في أن الكتب الرائعة الصحيحة التي كتبها جيمس سيلك باكنجهام[١٠٦] هي حلقة وسطى بين كتب الرحلات القديمة المحشوة بالإشارة إلى الآداب الكلاسيكية القديمة وبين كتب منتصف القرن التاسع عشر التي انطوت على جانب أكبر من الذاتية . وإذا كان باكنجهام هو رائد هذا الاتجاه نحو السرد الذاتي في أدب الرحلات الإنجليزي فإن وليم ألكسندر كنجليك هو دون شك ذروة هذا الاتجاه .

(١٠٦) J.S. Buckingham. **Excursions on the Banks of the Nile.** Oriental Herald 1827.

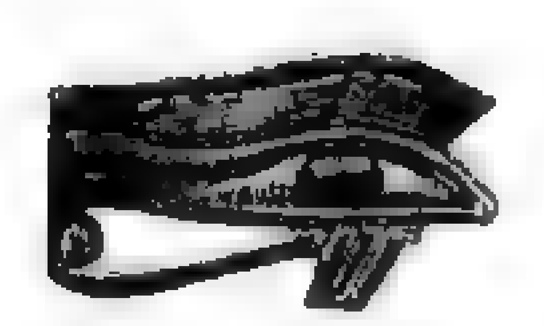

وهكذا لم تعد حصيلة مطالعاتنا صورة دقيقة للواقع بل انطباعات متنوعة فحسب ، كما لم تعد تصويرا للبلاد بقدر ما كانت تعبيرات ذاتية يستقيها المؤلف من انفعاله بما يقع عليه بصره. ولعل هذا هو سر سعي الكتّاب الدؤوب نحو « الشرق » جريا وراء الألوان «الإكزوتية»[١٣] الإغرابية الثابتة ، أو بعبارة أخرى جريا وراء الخيال الرومانسي الشائع في هذه الأمصار ، فإذا الرحّالة يتعلقون بكل ما هو غير مألوف وغريب بعد أن طالعوا قصص ألف ليلة وليلة وجسوا خلال الديار والبلاد التي شهدت ميلاد هذا القصص الأسطوري ، وكان يغلب عليهم ذلك الشعور العارم بالاختلاف الكبير بين الشرقي المسلم وبين الأوربي المسيحي . وكان هؤلاء الكتاب الإكزوتيون قد صبغوا مؤلفاتهم بهذه الأحاسيس التي لم يفلت من تأثيرها أي زائر للشرق حتى بات الأوربيون يخطون في أسواق البلاد الإسلامية وكأنما تغشّى عيونهم غمامة تجعلها تبصر أدنى الباعة بالسوق وكأنه أحد سلاطين القصص الشرقية الخيالية ، وإذا دزرئيلي يسجّل في رسالة إلى أبيه عام ١٨٣١ ما اعتوره من أسى جارف بعد أن غاب عنه خادم يوناني كان يرتدي زي المماليك الأرجواني المطرّز بخيوط الذهب ويعتمر بعمامة يبلغ طول شالها عشرين مترا ويتقلّد سيفا يتألق بألوان قوس قزح . ثم يثير دهشتنا بمكاشفته أباه باضطراره آسفاً لقبول تابع مصري بقميصه الأزرق وحذاء قدميه ، مما يدلنا على ولعه بالغريب من الأزياء التي تشدّ حباله إلى الجو الإكزوتي . وعلى هذا النحو تنوّعت اهتمامات الرحّالة بتنوّع ما يبدو لهم من غرائب ، فيكتب أحدهم في عام ١٨٣٢ : أنه مستغرق بكل جوارحه في دراسة الرموز الهيروغليفية ، ويحاول ثان أن يثبت أن العمارة القوطية مصرية الأصول ، بينما يعكف ثالث على دراسة السّحر على يد شيخ مغربي حتى يذهب إلى أنه وقف على اسم فرعون الذي استوزره النبي يوسف ، وأنه اكتشف اسم الفرعون الذي اضطهد اليهود ، وأنه انتهى إلى إعداد قائمة بأسماء الفراعنة جميعا ، وأن قمته بدقتها تفوق دقة قائمة ملوك إنجلترا !.

كان الكل يلهث وراء « الإكزوتية » حتى سخر ثاكري بهذه الظاهرة بقوله : « أليس عجيبا أن نكتشف أن الحرير الذي اشتريته من بدويّ يرتدي عباءة من وبر الغنم جاء به إلى سراي القوافل محمولا فوق ظهور الجمال قد صُنع في حقيقة الأمر في مدينة ليون الفرنسية؟ » .

ومع مطلع القرن التاسع عشر قضى ما كمرلين بما سجّله في كتابه «القسطنطينية» ١٨٢٨ إلى غير رجعة على وهم الرومانسيين الذين خالوا أنه ثمة ستة آلاف جمجمة وأكداسا هائلة من عظام

توماس رومالدسن: عشق العاديات المصرية.
صورة مطبوعة بطريقة الحفر. متحف المتروبوليتان

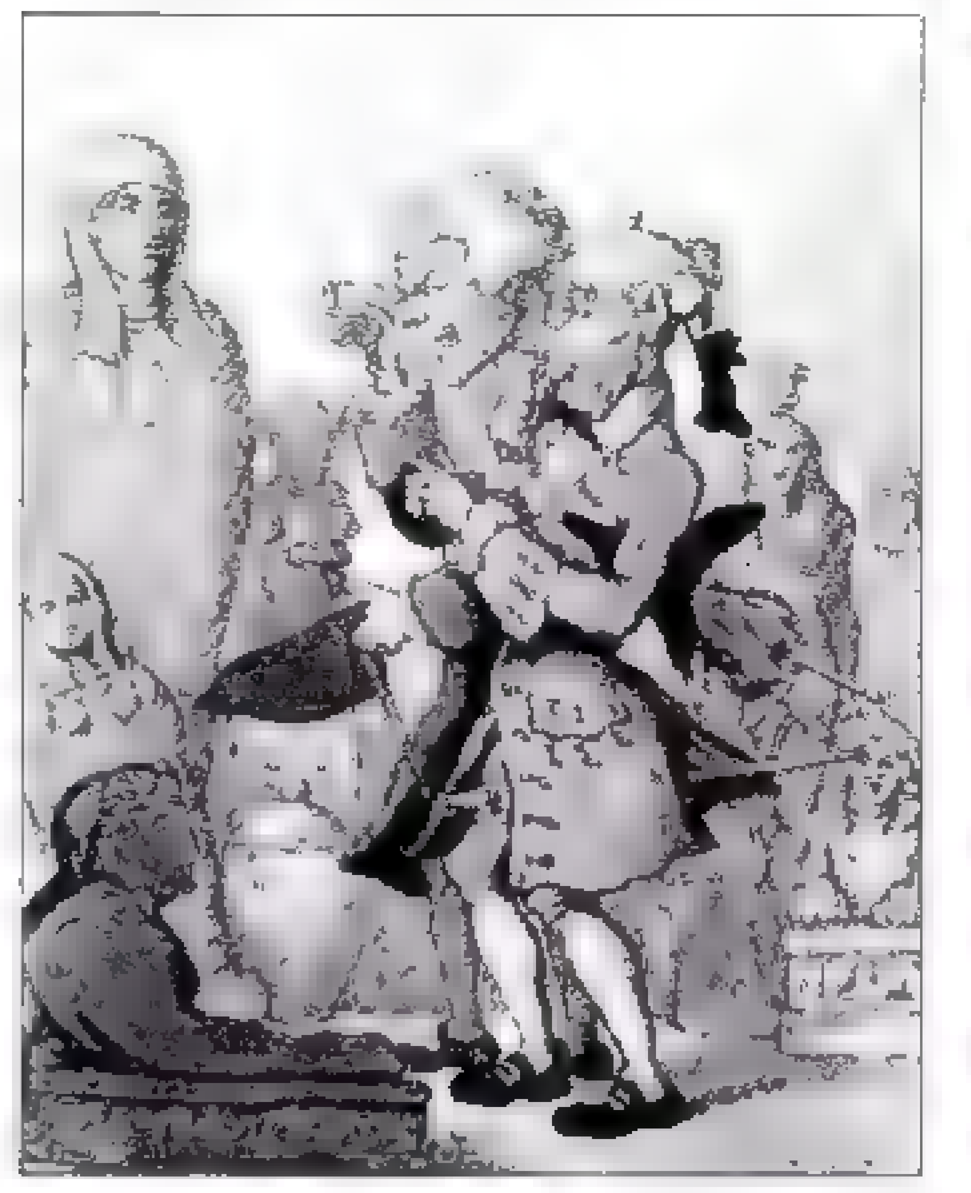

توماس رومالدسن: عشّاق العاديات المصرية.
متحف المتروبوليتان

ضحايا السلطان العثماني مطمورة تحت أسوار الحريم ، وهكذا اكتشف الرحّالة الأوروبيون أنهم كانوا واهمين فيما صدّقوه من ست الحر دت . وأخذوا يتطلّعون في شوق وحنين إلى ما انتهت به العناصر الإكزوتية المثيرة بلخيال في الشرق عامة ومصر خاصة من انحسار . وإذا بليدي براسي تختتم ذكريات رحلتها حول العالم في أسىً وحسرة بقولها: «لقد مُست القاهرة قد مُسخت به باريس على يد المحافظ «أوسمان» . فلم يعد ثمة غير بضع طرق ضيقة وقلة من البيوت القديمة التي نستطيع من خلال مشاهدتها استعادة ذكريات ألف ليلة وليلة والاقتناع بأنها كانت حقيقة لا مراء فيها» . وظهرت في تلك الآونة سلسلة من الصور الكاريكاتورية للفنان توماس رومالدسن تعبّر بصورها عن روح الولع المحموم بكل ما هو مصري قديم

سخرية هادئة

مارك توين

ومن الكتاب المشهورين الذين قصدوا مصر الأديب الأمريكي مارك توين (١٨٣٥ - ١٩١٠) الذي كان ذا قدرة فائقة على النقد الاجتماعي الساخر وإن كان في نقده أقرب إلى [illegible] ، ومن أروع كتبه «مغامرات توم سوير» (١٨٧٦) و«مغامرات هكلبري فين» (١٨٨٤). وقد رحل فيما رحل إلى الأراضي المقدسة ووضع كتابه «الأبرياء في الخارج» (١٨٦٩) الذي لقي رواجا شديدا. وكتب توين عن الشرق في سخرية ولكنها كانت دون سخريته بالكنيسة الكاثوليكية، كما كانت روحه الفكاهية قاتمة هادمة مستهترة. من ذلك تشجيعه الفتى المصري الذي عرض أن يتسلق الهرم في تسع دقائق مقابل دولار، و[illegible] عدة مرات متتالية أملا - كما يروي - في أن يهوي الفتى من فوق قمة الهرم حتى تتخلص جماعته من مضايقاته. متصنعة على أنه من الإنصاف أن نقول إنه لم يخصّ مواطنه المصري وحده بهذه النظرة، بل كان يشرك معه فيها جميع البشر من غير مواطنيه الأمريكيين. غير أن هذا المصري الذي هزم الهرم مرات متتالية دون أن يحقق أمنية توين التي تنافي أبسط قواعد الإنسانية قد حرّك حفيظته التي عبّر عنها قائلا: «من المؤسف أن باءت محاولتي بالفشل، فثمن المصريين في وطنهم مرتفع تنوء به طاقتي، ألا ما أغرب هؤلاء القوم الذين يتظاهرون بالتحضّر بحال لا تتفق وما هم عليه من همجية».

ويغالي توين في هذا اللون من السخرية غلوا يثير التبرم والاشمئزاز حين يقول: «ثمة فارق شاسع بين أن يقتحم فريق من السائحين مسجدا يطؤون حُصُر الصلاة بأحذيتهم ويقتطعون قطعا من زخارفها يتخذونها تذكارا، وبين أن تقتحم مجموعة من الأجانب الملحدين كنيسة قروية في أمريكا فيحطمون زخارف قضبان الهيكل لكي يتخذوها تذكارا ثم يصعدون المنبر ويطؤون الكتاب المقدس ووسادته، إذ أن ثمة تدنيسا لمعبد مخصّص لعقيدتنا نحن، في حين أن ما يحدث في الأولى ليس إلا تدنيسا لعقيدة وثنية، وأعني بالوثنية كل ما هو غير المسيحية». أيّ غرور مسخط وأيّ تعصّب مقيت!

ويتعمّد توين تقمّص النزعة المضادة للرومانسية حينما يعبّر عن أسفه على زوال الأوهام الرومانسية فيقول متهكّما: «كلما فكرت في مدى ما خدعتني به كتب الرحلات إلى الشرق وسوست إلى نفسي أن ألتهم سائحا في إفطاري . . . ولست أحفل الآن بالرحيلة والدراويش والنهود المعطّرة والحمام التركي وكل تلك الأشياء التي احتذتني منذ صغري وأمست بي [illegible] [illegible] لا [illegible] في الدنيا من زيف [illegible] المغرور». ثم يستطرد: «لقد [illegible] أسوار

الرقيق الكبرى التي طالما قرأنا عنها حيث كانت تُنزع ثياب الصبايا البائعات للكشف عن مفاتنهن أو مثالبهن وكأنهن الخيل في السوق، ولم يعد لشيء من ذلك وجود!. ولا يُمسك مارك توين لسانه عن الطعن في أخلاقيات العرب معلنا ساخراً: «من أكثر المساجد ومن أكثر الكنائس ولكن ما أندر الأخلاق والويسكي. فالقرآن لا يبيح للمسلمين شرب الخمر، وغرائزهم الطبيعية لا تسمح لهم بالتمسك بالعصمة، حتى ليقال إن للسلطان ثمانمئة زوجة وهو ما يدل على شيوع مبدأ تعدد الزوجات». لكنه لا يلبث أن يكشف عن تعصب أعمى وتناقض جلي حين يزعم احمرار وجناته خجلا عند مشاهدته هذه الأمور مسموحا بها، ومع ذلك فإنه لا يكترث كثيرا إذا وقع ذلك في مدينة صولت ليك حيث كان المرمون الأمريكان يبيحون تعدد الزوجات. وهكذا يكشف مارك توين بنفسه عن ازدواج في الرؤية والمعايير قائم على نظرة عنصرية منبتّة الصلة بالإنسانية إلى حد ازدرائه بكل شعب آخر، وإن كان يشفع له مقابل قحته المسرفة أن قد توقف بين الفينة والفينة ليتهكم على نفسه التي يبدو أنها هي الأخرى لم تجد فرصة تفلت من لدغات نابه الجارح.

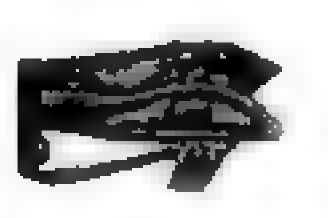

تأثر
الأدب الإنجليزي
بالشرق

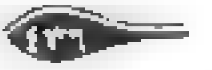

وقبل أن تظهر الترجمات الإنجليزية لكتاب ألف ليلة وليلة من بعد تعريبه مباشرة خلال العقد الرابع من القرن التاسع عشر كانت الحكاية العربية قد غدت مصدر [illegible] القصص الخيالي المثير والقصص العاطفي الخفيف. وكانت اللغة الفرنسية ماتزال هي اللغة المعترف بقدرتها على ترجمة الحكايات الشرقية الأصيلة، فكتب وليام بيكفورد روايته «واثق» باللغة الفرنسية غير أن الترجمة الإنجليزية هي التي ظهرت أولا في عام ١٧٨٦ [illegible]، وكان بيكفورد ينوي أن ينشر النص الفرنسي أولا مصحوبا بجملة من القصص الشرقية عرفت باسم The Episodes of Vathek، ولذا عجّل بنشر الأصل الفرنسي عام ١٧٨٧. واستطاع بيكفورد أن يثبت في هذه الحكاية كيف أن الإطار العام للقصص الشرقي يمكن صبغه بطابع يواكب الذوق العام المتعطش إلى الصور الخيالية النابعة من بيئات نائية غريبة. وكان بيكفورد قد طالع أكثر ما كُتب عن الشرق في وقته [illegible] أكثر [illegible] قصصي عربي [illegible] وصحبهن ودماتسهن [illegible].

كذلك وجدت قصة «لالا روخ» (١٨١٧) لتوماس مور رواجا واسعا في وقتها حتى بيعت [illegible] في غضون سنة واحدة، كما تحولت إحدى قصصه الشعرية «الفردوس والحية» إلى مسرحية [illegible] في منتصف القرن التاسع عشر [illegible] بنجاح كبير حتى [illegible] تحت ضوء القمر [illegible] الفرنسية [illegible] على نفسه [illegible]. إلا أنه في الحقيقة قد اعتمد أكثر ما اعتمد على [illegible] بتفاصيل الوصف. كذلك استغل بيرون في الكثير من أشعاره معارفه «الإكزوتية» إلى أبعد مدى، غير أنه يسخر في مذكراته [illegible] من تطبيق معايير مختلفين على [illegible] واحدا في الشرق والغرب، ففي رأيه أن الشرقي هو الآخر يمكن أن يحس [illegible] الأتراك لليونانيين ومعاملة الإنجليز للإيرلنديين [illegible] ويتساءل في سخرية [illegible] الأيرلنديين؟ [illegible] في هذه [illegible] المسيحيين يأكثر مما [illegible] وإلى جانب ذلك نلاحظ أن بايرون قد نشر عدد من «القصص التركية» نظمًا بين عامي ١٨١٣ و١٨١٦ مستلهما زياراته لإستنبول واليونان وألبانيا التي جاء وصفها في الكتاب الأول من «تشايلد هارولد» وفي رسائله المنشورة عن تلك الفترة.

ويذهب نورمان دانييل في كتابه الممتع المنصف «الإسلام والإمبريالية الأوربية» إلى «أن

المترجمين الأوروبيين قد فشلوا في محاولتهم إضافة الأدب الإسلامي إلى حصيلة الأدب الكلاسيكي المعروفة، بدءا بريتشارد بيرتون الذي قدّم أول ترجمة كاملة «لألف ليلة وليلة» (١٨٨٠) وإن حوت أكثر الأساليب بذاءة مما تعُد بها عن الأصل العربي المتّسم بالبساطة والتلقائية لقد كان من المؤسف أن ينحو هذا الكاتب المعتدل النظرة إلى الاتجاهات الأخلاقية الإسلامية وخاصة الحسية منها هذا المنحى فيتعمّد اختيار أفحش الألفاظ لكي يجعل صورة الغرابة الإسلامية في عيون القراء الأوروبيين أشد إثارة، ولا شك في أن مثل هذا الاتجاه كان مسؤولا عن توسيع الهوة بين العالمين الأوروبي والإسلامي. وإذا كانت قد نُشرت طبعات منقّحة لترجمات أنطوان جالان الفرنسية لكتاب ألف ليلة وليلة طوال القرن الثامن عشر ومطلع التاسع عشر إلا أنه لم يظهر أنه ترجمت بالإنجليزية قبل العقد الرابع من القرن التاسع عشر. وكان جالان قد ذهب في مقدمته إلى أن «ألف ليلة وليلة هي الشرق بعاداته وأخلاقه وعقائده وشعوبه من الخاصة إلى السوقة والصورة الصادقة له، ومن قرأها فكأنه رحل إليه فسمعه ورآه ولمسه لمس اليد». وقد نشر هنري تورنز طبعة لألف ليلة وليلة سنة ١٨٣٨، وأخرج إدوارد لين طبعة أوسع انتشارا فيما بين عامي ١٨٣٨، ١٨٤١ خلت من الشوائب الخلقية، شاء لها أن تكون ترجمة سويّة تصلح للمطالعة في محيط الأسرة، فحذف الحكايات والطُّرف التي تفتقر إلى مثير الاهتمام أو التي تنطوي على ما هو مستهجن خلقيا وإن جاء أسلوبه ثقيلا لم تستسغه كثرة من القراء. وقد شاء لين أن تحل ترجمته محل ترجمة جالان التي عدّها خليعة ماجنة وتنمّ في الوقت نفسه عن جهل المترجم، فانطوت حكاياته على عناصر إخبارية أكثر من العناصر الرومانسية إذ مضى يصف أسواق بغداد وشوارعها التي كان الخليفة هارون الرشيد يتعسّس فيها ليلا مع وزيره جعفر البرمكي، وكذا أساليب الحياة في حاشية الخليفة والمعيشة اليومية في منطقة الشرق الإسلامي وصفا دقيقا يفوق أي وصف في كتاب للرحلات. وقد أرفق لين ترجمته بهوامش موسّعة عن حياة العرب المسلمين وعاداتهم، قام حفيد شقيقته ستانلي لين بول فيما بعد بنشرها مفصلة في كتاب بعنوان «المجتمع العربي خلال العصور الوسطى» Arab Society in the Middle Ages.

المسترخي بين أحضان الطبيعة

لورد لِندسي

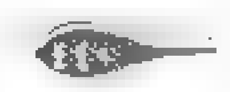

أخذ معظم الرحالة الإنجليز يعبّرون عما يحسّونه تحت سماء الشرق من فراغ واسترخاء لاشك أنهم كانوا يفتقدونه في موطنهم. وقد يكون من الخطأ الظن بأن هذا الإحساس العامر بالراحة والبهجة منبعه ما توحي به المزايا الجوهرية للمشاهد المصرية وحدها، فمن الحق أن ثمة شيئا آخر كان يثير هذا الإحساس في نفوس الكتاب الغربيين هو ما يضيفونه هم أنفسهم من ثقافتهم على هذه المشاهد. فلم يسجّل لورد لندسي حين كتب إلى أمه يصف رحلته وهو يصعد في النيل عام ١٨٣٦ وصفا واقعيا لما وقعت عليه عيناه بقدر ما سجل إحساسه الناشئ عن مشهد مترع بالحياة للحظات عاشها وسط معالم شرقية أدخلت السكينة إلى نفسه، فيقول:

«وأخيرا حققت تصوّر هوراس للراحة المُثلى وأنا مستلق تحت شجيرة خضراء إلى جوار نافورة مماثلة لتلك التي كان يستلقي إلى جوارها في لوكريتيليس. ولكن أي قيمة لذلك التصوّر إذا ما قورن بالاستلقاء تحت سقف خيمة شرقية فوق أريكة تركية أو على سطح مركب عربية تصعد في النيل؟ عندها ينبسط أمامك منظر متسق جمال لا يتناهى. فها هي ذي القرى وأبراج الحمام ومآذن المساجد وأضرحة الأولياء وخلوات النسّاك، ثم إليك شتى المعابد الفرعونية والأهرامات وطرقات تكتنفها أشجار السنط المسنّنة الأوراق. ويفوق هذا وذاك جمالا صوار النخيل يتلو صوار النخيل، تنحني قمم أشجاره المتوّجة بالسعف والمثقلة بالثمار الحمراء في تكاسل كأنها صبايا يدعوهن النعاس إلى فراشهن الحريري. كل هذه المناظر التي تمضي كالرؤى تمر أمام العين مرور الأحلام الناعمة المتسللة خلال النعاس الوادعة في سلام.... في سكون».

الحقد المرّ
على الشرق والإسلام

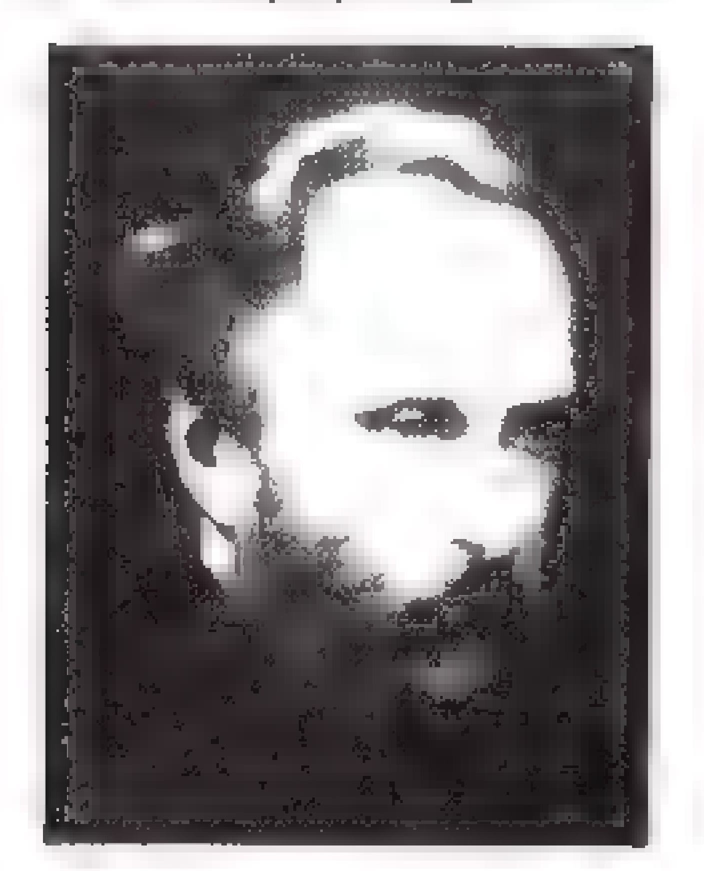

كنجـليك

وكما كان ظهور كتاب «المصريون المعاصرون» عام ١٨٣٦ تتويجا لحركة أدبية، إذ ساعد على ظهور اتجاه جديد في أدب الرحلات المصرية بعد أن كان كل شيء قد سبق بدقة فائقة وغدا من الصعوبة بمكان الكتابة عن حياة المصريين دون التحرر من التكرار، كذلك كان ظهور كتاب «ايوثن»[107] لكنجليك تتويجا لاتجاهات أدبية متعددة معاصرة حين تترنم بالانطباعية والذاتية المتطرفة والرومانسية والسعي وراء اللون الشرقي.

(١٠٧) Alexander Kinglake: Eothen, London 844

واستغرق كنجليك في تأليف كتابه عن مصر والشرق الأدنى برغم عدد صفحاته المحدودة تسع سنوات بذل فيها جهدا جبارا في تسجيل أدق مشاعره وانطباعاته الشخصية عن مشاهد كان أسلافه من الرحالة قد فرغوا من وصفها وصفا تفصيليا دقيقا. وقد أهدى كنجليك كتابه «إيوثن» إلى صديقه إليوت ووربيرتون لعله يتخذ منه دليلا يسترشد به خلال رحلته التي اتبع فيها نهجا مماثلا بعد سنة واحدة فقال: «. . . . أنت خير من يعلم كم أحسّ الهيبة أمام القراء، فمن العسير أن أحسّ أنسا بيني وبين أولئك الغرباء الطارئين. لذلك آثرت أن أصارح الناس سلفا بأني قد وضعت كتابا سطحي الطابع، بالرغم من أني قد اخترت له عنوانا متحذلقا يشكل الكلمة الوحيدة الصعبة فيه، إذ إنني استعرت من اليونانية كلمة «إيوثن» التي تعني من الفجر المبكر أو من الشرق. وحرصت على ألا أستمد أية معلومات من تلك التي حوتها مؤلفات الآخرين. وهكذا جاء الكتاب خلوا من تفاصيل الاكتشافات الجغرافية والأثرية والمعلومات الدينية والصور التاريخية والعلمية وشتى الإحصاءات المفيدة، بل ومن الأبحاث السياسية والأحكام الخلقية، وعزائي الوحيد هو ما ينطق به الكتاب من صدق».

ولقد وفّق كنجليك حين أخذ يسجل انطباعاته عن زيارته للشرق الأدنى عام ١٨٣٤ في الكشف عن أمور لم يتحدث من قبله أحد إلا في مشاهدات حميمة. ونحن نتبين في كتاباته إحساسا بالتوقع المتوعد ونزعة بالأعاجيب والمغامرة. كما نلمس حرصه على إبراز المفارقة الواضحة بين الشرق والغرب. وحين ظهر هذا الكتاب علّق عليه صديقه ووربيرتون بقوله: «ينطوي هذا الكتاب على قدر كبير من الحقيقة، وعلى قسط أوفى من حيوية الوصف، وعلى فكر أشد عمقا، وعلى روح دعابة أرق مما وجدت في أي كتاب قرأته عن الشرق من قبل. . . وإذا كان الرحالة الآخرون يكتبون عن الشرق، فإن ما يقدمه لنا كنجليك هو الشرق نفسه». وهكذا جاء الكتاب محققا لأمل القراء الإنجليز الذين كانوا قد ضاقوا بما قرؤوه من قبل عن أسواق القاهرة وأهراماتها، إذ أشاع في وجدانهم الإحساس بالانتماء إلى عالم مختلف كل الاختلاف، وهو ما كانوا يتوقون إليه. ففي هذا الكتاب يتكامل الجمال المتخيّل مع ما انطوت عليه الرحلة إلى الشرق، هذان العنصران اللذان يُبرزان بوضوح دنيا الشرق في صورة أخرى تختلف عن موطن الرحالة نفسه بل هي على النقيض

منه. ومن من شك في أن مصدر هذا كله كان كامنا في ذاتية المؤلف التي تهيمن على كتاباته هيمنة كاملة. وكان النجاح الذي لقيه هذا الكتاب مفاجأة للجميع بما فيهم المؤلف نفسه، بعد أن كان قد رفضه ناشر حصيف مثل جون مرّي واضطر كنجليك إلى المساهمة في نفقات النشر لطبعه الأولى.

ويذهب د. رشدي رشدي الذي ناقش رحلة إيوثن باستفاضة إلى أن كنجليك قد اتخذ لنفسه منهجا صارما ينطوي على إحساس بالصراع والتحدّي الخارق الموسوم بالشجاعة، وهو منهج قائم على بسط القضية وإردافها بنقيضها. فعلى حين تراه يبدأ بالصحراء المحرقة يتبعها بخضرة وادي النيل النّدية، ثم يربح مشق سفرته المضنية إلى السويس على السرير تظلّله داقي سطره في نهايه الرحلة يغريه بالنعاس كلما سقط».

ويكشف كنجليك عن تجربته الفذة في مواجهة مخاطر الموت التي تصيب بها النفوس والتي يشيعها وباء الطاعون المنتشر في القاهرة فيقول: «حاولت جاهدا أن أقنع نفسي بحجج أشبه ما تكون بالدعابة. من ذلك مثلا أن الطاعون على عكس ما يعتقد الأوروبيون ليس مرضا مُعْديا، فالعناية الإلهية هي التي ترسم له مساره. وقد كان من العسير عليّ أن أتخيل أن لمسي لثوب امرأة مريضة أو مستشفى لأمسها كفيلان بأن ينتهيا بي إلى الموت. ولذلك عقدت العزم على ألا يغيّر الوباء شيئا من مسلكي اليومي أو عاداتي، وكان ذلك أحكم قرار اتخذته لتأكيد ثقتي بنفسي فيدفع عني بعيدا الملاك ذا الأجنحة الصفراء فلا يقوى على أن يرشقني بسهامه المُهلكة. على أني مع ذلك احترمت رأي الأوروبيين فتحسّبت ملامسة ما ليس فيه متعة. وقد أتاحت لي هذه المحاولة لونا من التسلية صرت أمارسه كلما اجتزت شوارع القاهرة متخذا وسيلة الانتقال الشائعة وهي امتطاء الحمير التي تحتشد المدينة بأعداد غفيرة منها على أهبة المسير برفقة سوّاس من الصبية. وكان يحدمني صبيّان رهن الإشارة على بابي دوما إلى أن فتك الطاعون بأحدهما. وقد كشفت لي هذه الوسيلة في الانتقال عن متعة جعلتني استمسك بها دون غيرها، وما كان عليّ إلا امتطاء ظهر الدابة ثم ألبث أن أجد نفسي منزلقا في خطو وادع. وإذ كانت شوارع القاهرة غير مرصوفة تفترشها تربة رملية جافة تكتم الأصوات فلا يكاد يُسمع وقع حوافر الحمير، وإذ لا تكتنف الشوارع أرصفة، فمن ثم ما تلبث أن تختلط أثناء ركوبك بالمارة المترجلين الذين ما يكادون يسمعون صياح المكاري وهو يحذّرهم حتى ينحرفوا إلى الجانبين مخلّفين لك طريقا ضيقا لمرورك تعاود انطلاقك خلاله وسط الحشود الغفيرة دون توقف أو مضايقة حتى يخيل إليك أن المكاري هو الذي يحملك منطلقا بك بصياحه وسط الجماهير الناشئة والهواء الشحين العبق بعبير أفاويه الحارات. ويتيح لك هذا الممر الضيق الذي تشقه لك تلك الصيحات قطع مسافة طويلة دون أن تلامس شخصا ما. ونجحت محاولتي تلك في تجنّب ملامسة الغير في التخفيف من كآبة وحدتي، فإذا انتهيت من شارع دون أن ألمس أحدا أحسستُ فرحة، وإذا مسّني أحد أحسستُ غصّة. لقد كانت مباراة مسليه تدور على قيها المكسب والخسارة كلما أفلتُ من شارع دون أن يمسني أحد أو تعرضت لتمسه من أحد المارة في شارع آخر»[١٠٧].

وفي الحق أن هذه اللفتات الخيالية في كتابات كنجليك هي التي تثير في أعماق القارئ الأوروبي شعورا بأن الشرق الذي يصفه عالم غريب عليه، وأنه كما أوضح المؤلف في موضع سلف «ليس مزار يُقصد منه طرح الملل بل يُقصد منه حفز العزيمة، ذلك أن هذه الرحلة هي رحلة المولعين بالغرائب والساعين في دأب وراء المغامرة والمجهول».

ومن نافذة منزله راح كنجليك يحصي ضحايا الطاعون بينما يرقب جنازات الموتى من الصباح الباكر حتى الظهيرة فيقول في وصفها.

«... يستند النعش على أكتاف رجال يغذّون به في خطو سريع على حين يتقدم النعش منشدان أو ثلاثة يتبعهم النائحون الذين يزْجرون نظير جهودهم في الجهر بأصواتهم، ثم يأتي في إثرهم المشيّعون من أقربائه وأصدقائه القادرين على مسايرة هذا الخطو السريع. ومن بين هؤلاء ولاسيما النساء من يعجله اللُّهاث فيبطئ من خطوته حتى يبتعد الموكب عنه ويخلّفه. ولم يكن لهذا الخطو السريع أن يبقي على أي أثر للحزن على وجوه المشيّعين، فقد كان إيقاع السير السريع أقسى من أن يحلّف على الوجوه ارتسامات الحزن الوقورة... وتنتشر الجبانات فوق ساحة فسيحة وسط التلال الشاسعة من القمامة المتراكمة عبر العصور والمحيطة بالمدينة، كما تفتقر المقابر على البقيعي من المدافن التركية التي تُظلّلها أشجار السرو. إلى ما يخفّف من جو الكآبة ويلطّف من ضراوة الموت، إذ تتسطر الحيوانات الضارية والطيور الجارحة على الجبانة خلال الليل. ولا يكاد النهار يطلّ حتى تعود الحياة من جديد إلى المنطقة بالوافدين الجدد من الموتى ومشيّعيهم. على أن الطاعون الذي تفشّى في المدن لم يمنع الناس حين اقترب موعد عيد الأضحى من أن يهرعوا إلى الإعداد له في حماسة وفرح فيقيموا السرادقات والخيام وينصبوا الأراجيح للأطفال، وأحدث الأحزان والأفراح يتقاسمان نفس المكان... فيا له من عيد غريب مروّع! إذ يتمسك القوم هنا في اعتزاز بأعرافهم القديمة لا يحرفهم عنها حتى الموت. والعجيب أنه لم يطرق سمعي طول إقامتي بالقاهرة بأ إقامة صلاة جماعية في مسجد ما تضرّعا إلى الله أن يرفع عنهم الوباء. ويبدو لي أن المسلمين يواجهون الوباء بصبر طويل لا يلجؤون معه إلى الله إلا بعد أن يكون الوباء قد طحنهم، وحينئذ يلتمسون من الله أن يأخذ الوباء بعيدا عنهم... إلى بلد آخر»[١٠٧].

هذا الذي يقدّمه كنجليك هو خليط من المفارقات الحادة تؤكد إدراكنا لعالم يتعانق فيه الأسود والأبيض ولم يستطع أحد من قبل أن يصوّره لنا بمثل هذه الصورة المثيرة، ولم يكن هدفه وهو يصبغ الشرق بهذه الألوان الرومانسية إلا أن يسوقه لنا في صورته الواقعية الدنيوية مثلما فعل وهو يصف الأهرام وأبا الهول:

«لقد لعب الزمن دوره في هذا الأثر الذي تقع عليه أبصارنا، حتى أن قدم أصله وإيغاله في النسب جعلاه يبدو لنا عصيّا على الفهم، فنحن لا نتصور أنه قد شُيد بأيدي الإنسان، وكأنه عملاق هبط علينا من عهد سحيق ليجثم فوق هذا الكوكب الأصغر منه سنّا. ومع ذلك فإن الحقيقة هي أن هذه الأهرامات جزء من الواقع الدنيوي تم تشييدها على هذه الصورة الصاعدة إلى السماء استجابة لنزوة ملوك طمحوا في أن تحقق لهم الخلود، أو لعل هذه الضخامة قد جاءت وليدة جشع الكهنة الذين كانوا يطمعون في مزيد من أجر يتضاعف مع ارتفاع حجم البناء. ولست أرى في هذا المبنى لا شبه بالنّصب المرتفعة شيّدتها حشود من الكائنات الحيّة الدقيقة، فقد ارتفع هذا المبنى بجهود حشود المصريين البائسين الذين كانوا أدوات مسخّرة للسلطة فحسب، لا يتناولون من أجر على جهودهم الخالدة غير قصعة من خبز وحزمة من بصل... إن الأهرام بالفعل تنتمي للعالم الدنيوي... وإلى جوار الأهرام يرقد ذلك الكائن الذي يفوق كل شيء آخر في مصر... أبو الهول الوسيم وإن لم تنته وسامته إلى هذا العالم... وهو تمثال أحمر اللون معبود ذي شكل في هيئة وحش شديد بعث الرعب في نفوس أجيال... ومع ذلك فإن بعض الغضب حيال تلك الملامح المكسورة

لشكلتين وفق معايير جمالية قديمة ما لبثت أن طغت عليها معايير يونانية جديدة حين قدّمت إلى لعالم أفروديتي المنبثقة من زبَد بحر إيجه متألقه بشفتيها الرقيقتين [illegible] ومع ذلك [illegible] لا تملك إلا الإعجاب أمام الصبايا القطمات اللاتي تطلّعن إليك بنظرة [illegible] لسحية بتكمن [illegible] واسحرو [illegible] والتماثيل قد أمعنتم النظر لحظة إلى أبي الهول الحجري [illegible] بالوهية، ولرأيتم استحالة قابليته للتعبير [illegible] الذي يبدو وكأنه وافد من عالم الغيب يطلّ بنفس النظرة [illegible] إلى سلالات الفراعنة القدماء وللملوك الإثيوبيين وإلى الغزاة الإغريق والرومان والعرب والأتراك، وإلى نابليون الحالم بإقامة إمبراطورية شرقية، وإلى الحروب والأوبئة، وإلى تتابع البؤس على المصريين، [illegible] هؤلاء وغيرهم. وبينما يتخطفنا الموت نحن، ويذوي الإسلام تتابع خطوات المقاتلين الأخير بعيدا عن وطنهم للاحتفاظ بالهند الأثيرة ويرسّخون أقدامهم على صفاف [illegible] بالإسلام من مقاعدهم واحتلالها. وحينئذ يطلّ هذه الصخرة التي لا تعمل على هؤلاء [illegible] بنفس النظرة الحادة المتأملة ونفس السحنة الحزينة الوادعة، فيستحيل عليهم أيضا السخرية من أبي الهول»

على هذا النحو يُفصح كنجليك عن ميوله الاستعمارية التي تزدري الشرق وتطمع فيه في نفس الوقت، وكأنه فارس صليبي قديم بُعث من قبره حاملا نفس روح التعصب المقيت والعدوان الأثم. ولقد اعترف كنجليك نفسه بلا حياء بأن لديه استعدادا غريزيا للشطط يتجلى على سبيل المثال في تفضيله المسيحيين الشرقيين على المسلمين في حين أن أغلب الإنجليز كما كان يتصور يميلون إلى ازدراء المسيحيين الشرقيين باعتبارهم مجرد شيعة في الدولة المحمدية . . . بمعنى أنهم زنادقة إسلاميون. على أن كتاب «إيوثن» يجمع إلى جانب الحديث عن البلاد التي رآها مزيته والمصاعب التي [illegible] الفكرية. ولذلك ظفر الكتاب بتقريظ شديد لما يتدفق به من حيوية حتى عقّب عليه أحد المعلقين بقوله [illegible] قدرة خارقة على [illegible] في أعماقه

ويصف كنجليك أسلوبه في كتابه «إيوثن» [illegible] هو يقدّم المشاهد والمواقع والأحداث من خلال الانطباعات التي [illegible] تفجّرت فيه تلك الأحاسيس دون أن يتسرّب إلى ذهنه أثر لأفكار غيره. على أنه إلى جانب ذلك قد اعترف بأن هناك تناقضا في كتابته بين الانطباعات التي ارتسمت في وجدانه عن الأماكن التي أثارت انتباهه وبين الأسلوب الساخر عند الحديث عن معالم تحمّس لها أشد الحماس. ثم إنه قد عني عناية كبرى بالأمور التي حركت وجدانه بأكثر من غيرها لالتصاقها به، كأن يسهب في وصف شخصية دليله وزيّه وتفصيل مخيمه ومرقد قافلة جماله وملامح البدو الذين يستأجرهم وبعثرة حقائبه على الرمال على حين يغفل الأوابد الخالدة وروائع الزمن الغابر التليدة دون ذكر، أو يكتفي بوصفها وصفا عابرا باهتا اعتمادا على أن غيره قد طرق هذا الموضوع من قبل

ويتضح من كتاب «إيوثن» كيف حالت الأخيلة الإكزوتية بين الرحالة وبين الغوص إلى أعماق تجربتهم الفعلية. فكنجليك يسخر من أي أجنبي لأنه ليس إنجليزيا، في حين أنه يسخر أيضا من [illegible]: «أنهمت العرب أني كنت آسف على موتهم جوعا بينما كنت أستطيع تقبّل مصيرهم هذا بروح وادعة مثلما أستطيع أن أتقبل أية كارثة ليست كارثتي، وموجز القول أني كنت مستسلما تمام الاستسلام لما يصبّه عليهم القدر من قسوة». من الواضح إذن أنه كان يحتقر أهل البلاد الإسلامية التي كان يُقابَل فيها بترحاب شديد، وأنه حتى في عباراته الفكاهية لم يكن يتحرّز من سوداوية مقيتة في الكآبة. ثم إن السطحية التي وصف بها المؤلف نفسه طابع كتابه تُعفينا من التعقيب على ما كتب من تحقير للمصريين واستهانة بمنار يعترف العالم كله بجلاله وخلوده. وفي الحقيقة إنه لم يكتب كتابا عن مصر والمصريين بل إنه قدّم عملا فنيا استوحاه من البيئة المصرية. وفي هذا المعنى يذهب إدوارد سعيد في كتابه الشائق «الاستشراق» Orientalism إلى أن ما يصفه كنجليك في كتابه [illegible] في سوق شرقي أكثر منه حوض مغامرة كما يزعم، ولا يعدو كتاب «إيوثن» الرائع والذي اكتسب شهرة [illegible] عن إعجاب المؤلف [illegible] والأوصاف [illegible] عن الشرق [illegible] فقد كان قصده الواضح من كتابه أن يثبت للقارئ أهمية رحلة الشرق لأنها حسب تعبيره تصقل شخصية الإنسان صقلا أو بمعنى آخر تعمّق شعوره بهويته الإنجليزية، غير أن هذا القصد ما يلبث أن يتحول عداء خالصا للعرب وكراهية للأجانب بعامة وتعصبا عنصريا ضد كل الأجناس باستثناء جنسية الكاتب. ومع أنه يسلّم بأن «ألف ليلة وليلة» هي عمل يتميز بالحيوية والعبقرية الخلاقة إلا أنه لا يستطيع أن يتصوّر أن مؤلفها إنسان شرقي لأنه لا يرى في الشرق أية قدرة على الخلق والإبداع. وبالرغم من أن كنجليك لا يخفي جهله [illegible] فهو لا يخجل من ذكر أحكام متجنّية على الشرق وحضارته ومجتمعه، فيعرب عن أنه كلما زاد احتكاكه بالشرقيين رسخ إيمانه بأن خير الوسائل للتعامل معهم هي [illegible] في قلوبهم، [illegible] في يد الغرب المتربع على عرشه. والخلاصة [illegible] كتابات كنجليك من [illegible] لا نجد شكًّا في أن [illegible] تعكس تعاليا إنجليزيا قوميا كان هو أحد أدوات التعبير عنه».

على أنه بقدر ما جاء هذا الكتاب متجنّيا بعيدا عن الصدق فقد جاء متماسكا من الناحية الفنية حتى بدا أقرب ما يكون إلى قصة أدبية عايشنا فيها الراوي معايشتنا لبطل قصة ذائعة. وإذا كنا لا نملك إلا الاستهانة بهذا البطل الزائف النظرة للواقع الحقيقي فإننا نعترف للكاتب بقدرته على نسج عمل فني استقبله مواطنوه الإنجليز خاصة بالتقدير وإن خلّف فينا نحن غصّة مريرة، لأن الكاتب لم يغص في أعماق المصريين. باعترافه. كما كان ينبغي، ولو فعل لكُتب لعمله نجاح أوسع. صحيح أنه قد اختار لكتابه قالبا رصينا كان مصدر شهرة له، إلا أنه صبغ المشهد الشرقي بألوان متنافرة مع ذاته الشخصية، ولم يكتف بذلك بل نفث فيه أيضا تعصّب روحه الإنجليزية المؤمنة بتفوّق شعبه على من عداه، وبهذا الشعور الدفين في أعماقه نجد سطوره اللاذعة تزخم بشناعة المشهد الشرقي. ومن ناحية أخرى فلا شك أن تمجيده الذي لا ينقطع لكل ما هو إنجليزي واستعداده المقصود لكل ما طرقه غيره من الرحالة قد أضفيا على ألوان لوحاته بريقا جذابا شدّ إليه مواطنيه الذين يؤمنون بما آمن به

نزعة التعصّب
البغيض والتحريض
على احتلال مصر

وُورْبيرتون

مع تعصب وورببرتون [illegible] كحديث [illegible] أسلوبه [illegible]
[illegible] في صوء القمر

جاذبية من العصيّ الإفصاح عنها. فهو يرقّق من كل مشهد ويغشّي كل صوت بالنغم، ويجعل كل نسمة تعبق أخو بأريج عطر. وتكشف الأضواء المتألقة في شحوب بين المآذن التي يشقّ على العين تبيّنها، عن مدينة القاهرة التي تترامى إلى آذاننا أصواتها خافتة [illegible] وحينما تعكّر صفو هذه السكينة صرخة أوزّة أو قرقرة سمكة تنساب في الماء، غير أن الهدوء ما يلبث أن يمحو هذا كله. لقد عشّى الوجوم الطبيعة كلها، ولفّت الأحلام الكون بأسره حتى بتنا لا نكاد ندرك هويّتنا... لم نعد في حاجة إلى النوم كي نستغرق في الرؤى والأحلام».

يؤكد وورببرتون على هذا العالم الحالم في سائر أوصافه، عالم يفقد المرء فيه هويّته ويوحي إليه الشعور بالفراغ والعدم والبعد والغموض والاستغراق في حالة من اللامبالاة تتباين بحدة مع ما يشيع في الحياة الأوروبية من هموم ومعاناة. ولكن إلى جوار هذا الطابع الرومانسي الذي يستطيب الاسترخاء والسكينة يكشف كتاب وورببرتون «الهلال والصليب»[١٠٨] عن تعلّق عارم بالحياة الأوروبية الشديدة الخفق وتمجيد لها حين يوازن مشاهدها بالمشاهد الشرقية مفضّلاً إياها.

R E G Warburton (١٠٨)
The Crescent and the Cross, 1844

وفي هذا التباين المتواتر يتجلّى لنا تعاليه المشوب بقلة الاكتراث بعنصر الخيال الرومانسي، هذا التعالي الذي يعدّ سمة قومية غالبة على كتّاب الرحلات البريطانيين، تتبدّى في وصفه على سبيل [illegible] : «... تلفّها أوشحة حريرية ذات ألوان رقّاقة في رقّة قوس قزح من أعلى جبينها الثلجي البياض إلى ساقيها الدقيقتين عبر الردفين وهي تغوص بين حشيّات وثيرة [illegible] وصفها هذه هي في ذاتها ترجمة لشاعرية الاسترخاء المتجلّية في الجو الغامض والعزلة المحيطة بالجارية البيضاء. ومع ذلك فإن مسقاة إنجليزية أو جبلاً [illegible] في بلاد العرب. فإن [illegible] النقيّات السريرة الراجحات العقل المعتبرات بقسمات ريفية متواضعة أحق بأن نعامر بحياتنا في سبيلهن من كل حسناوات الشرق المعمّمات والمفعمات بالشهوات».

لقد توافد الإنجليز على مصر فرادى وجماعات، لا لمشاهدة آثار حضارة قديمة غريبة عنهم فحسب، بل تحدوهم الرغبة إلى الحديث عند عودتهم عن مشاهداتهم مع مقارنتها بحضارتهم، للزهو بتفوق بلادهم على بلاد العالم كله جمالاً وعظمة

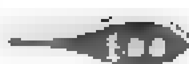

وفي الحق إن الجديد في كتاب ووربيرتون « الهلال والصليب » هو ما ينطوي عليه من اتجاه سياسي ، حقيقة إن كنجليك من قبله قد تنبأ بنبوءة غامضة حين ذكر أن الإنجليز سيرسّخون أقدامهم على ضفاف النيل ، ولكن أحداً قبل ووربيرتون لم يقل « إن مصر موشكة على الوقوع [illegible] لا تحت قبضة الشعب الذي يمدّ جيشها بالضباط [يقصد الأتراك] وإنما تحت قبضة الشعب الذي يزودها بالتجار ورؤوس الأموال التي تساند اقتصادها المنهك ، فهي تلقي العون شيئاً فشيئاً من الثروات التي تجود بها عليها إنجلترا غير مدركة لما سيترتب على ذلك من نتائج . ومع مرور الأيام تنزلق رويداً رويداً في شرك الأغلال الذهبية التي لم يحاول شعب أن يتخلّص منها . إن الشرق في انتظار مسارعة الإنجليز إليه دفاعاً عن الهلال وعن ممتلكاتهم لا ذَوْداً عن الصليب الذي حارب الإنجليز من أجله منذ قرون ستة ، فإن أطماعنا في الهند تفوق أطماعنا في استرداد قبر المسيح » . وفي هذا الحديث الناشز يتجلّى نموذج خارق لاختفاء القيم الخلقية أمام إغراء الذهب المخزون في الأمم النامية .

وإذا كان كنجليك بعباراته اللاذعة عن الشرقيين قد هبط بهم إلى مرتبة الأقزام إلى جوار العملاق الإنجليزي ، فإن ووربيرتون يضع الصليب في مواجهة الهلال بصراحة ووضوح يكشفان عن أطماعه الاستعمارية وازدرائه للشرقيين والبعد عن الدقة والإنصاف بإطلاق سلسلة من الأحكام العامة العشوائية ينطوي الكثير منها على تناقض وتعالٍ وصلف أحمق . ويُثني على ترجمانه بقوله إنه أفضل المترجمين وإن كان يستكثر هذا القول على واحد من المصريين ، ويشجب الأغاني المصرية دون أن يعرف حرفاً من اللغة العربية ويستخفّ بأهل القاهرة حين يصفهم قائلاً : « لا يلبث المرء أن يصيبه الإنهاك من قوم لا تتجاوز مشاركاتهم نحو المجتمع تدخين الشيشة ، وتتناقض جميع مبادئهم - إن كانت ثمة مبادئ لهم - مع مبادئنا ، وتتضاءل معلوماتهم - إذا [illegible] الإدلاء بمعلومات - إلى حد التفاهة » .

رائد السخرية اللاذعة

وليـام ثاكري

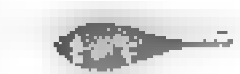

وصل وليم ثاكري إلى مصر خلال فترة ازدهار الكتابة الساخرة في العصر (١٨٤٦)، وكان هو نفسه أحد عمالقة الكتاب الساخرين ورئيس تحرير مجلة «بنش»، ولم يستطع أن يتحرر من سيطرة هذا القالب الفني الذي يكتب به حين بدأ يصف مشاهداته في مصر خلال زيارته لها في كتابه «مذكرات من [شارع] كورن هيل [بقلب لندن] إلى [قلب] القاهرة الكبرى»(١٠٩).

(١٠٩) W.M. Thackeray, A Journey from Cornhill to grand Cairo. 1846

وعلى الرغم من أنه أكد في بداية حديثه عن مصر أنه جاءها وقد أعد نفسه ليحيا فترات من التأمل العميق وليستجمع كل مشاعره الجياشة عند مرأى عمود بومبي الذي تصوره شامخا كجبل وسط سهل أصفر تحيط به غابة من المسلات، وعند مرأى أبي الهول وهو يلقي بنظرات عميقة هادئة فوق مياه النيل، وليرقب وجهي تمثالي ممنون وهما يتطلعان أمامهما بنظرة وادعة، وليستحضر في ذهنه صور الآثار والكتابات الهيروغليفية المنقوشة عليها، إلا أنه حين يقف في مواجهة الأهرام لا يجد ما يقوله غير أنها: «عمائر شامخة وردية اللون تنتصب وقورة متباعدة ساخرة بغموض أسرارها الملكية ولكنها مع ذلك قريبة إلى النفس». بل إنه يعترف في سذاجة بأنه لم ينفعل بروعة ما شاهده لا هو ولا رفاق رحلته لأنه [illegible] في حقيقة الأمر سوى كومة هائلة من الأحجار... ألا ما أضحل الوصف الذي يعنى بتسجيل الواقع في تفاصيله الدقيقة في حين أن الوصف الشاعري قد يفوق بجماله جمال الواقع، فإن أجمل منظرين للأهرام في نظري هما اللذين يوحي بهما إلى خيالي حينما يسترسل بعد مطالعة قصيدتي شيلي عن الأهرام، إذ يعسر على ذهني في هذه اللحظة أن أستحضر هنات الواقع البائس». ثم ما يلبث ثاكري أن يعترف بعد هذه السخرية العربية بأن ضميره قد وخزه فيما بعد لأن منظر الأهرام لم يثر في نفسه شيئا من الهيبة أو التبجيل، وما نشك في أنه محق في لوم نفسه إذ لم تتأثر بروعة الأهرام. ونحن نكتشف بعد الكشف عن [illegible] على مشية حتى الأهالي [illegible] وتصبح هذه [illegible] عن أن هذا المسلك لا يبدو لنا غريبا بعد أن [illegible] في الرحلة سواء من يغالون في إطراء المشهد أو يمعنون في الاستهانة [illegible] كما يسخر من أحد خريجي جامعة أوكسفورد وهو ينتهر متوحشيه في ظلال الأهرام بحدة [illegible]

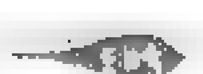

باردة . ومن موقعه [illegible] [illegible] الأهرام [illegible] عشوة [illegible] في بهم [illegible] (لوحة ٢٠٦).

على أن مناظر الطبيعة هي الأخرى لم [illegible] إعجاب ثاكري فهي في نظره [illegible] محدودة التنوع وليس فيها ما يجعلها جديرة بمشاهدة [illegible] [illegible] الذي يعلوه سماء زرقاء [illegible] [illegible] [illegible] زرقاء وغيمات لا يسترهم غير جلودهم الداكنة التي زودتهم بها الطبيعة . ومع ذلك [illegible] ماء [illegible] بلونها الداكن الحمرة وانعكاس ضوء الشمس عليها هنا وهناك من بين سعفات النخيل وأكواخ الطين . ومع إحساسه بعظمة النهر الذي يعده : «أب [illegible] الأنهار [illegible] لا يزال أبهاً كما كان في الماضي» ، فإنه لا ينسى أن يغمز كعادته فيزعم : «أن أرباب أنهار أصغر منه قد خلعته عن عرشه» . ومع هذا فإنه يتمتم أمامه في إذعان : «تحية لك وإجلالا يا أبا التماسيح العتيق الوقور» .

ويكاد [illegible] أن ثاكري قد وفد على مصر وفي حسبانه أن متعا كثيرة [illegible] ليرتشف منها على هواه ، لكنه للأسف لم يظفر بشيء منها ، فهو يعترف أنه لم يتح له أن يقلب طرفه خلال «الحريم» الذي سمع عنه الكثير ، كما أنه لم يسعد برؤية [illegible] [illegible] [illegible] اللاتي كان يأمل أن يشهدهن ويسجل عروضهن تسجيلا شائقا لا يخرج فيه عن الأصول المرعية» ، ذلك أن أمرا بطردهن إلى الصعيد كما أسلفت كان قد سبق وصول ثاكري ، وهو ما حدث كذلك مع فرق الحواة المشعوذين . ويعرج بسخريته على «الحمير» التي كانت وسيلة الانتقال السائدة في ذلك الوقت [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] لإقدام هيبة . وقد رأى في الحمار [illegible] [illegible] [illegible] . ومع ذلك [illegible] العديد من الأوروبيين والمصريين [illegible] ظهور الحمير شجعه على [illegible] على [illegible] بعد أن يروى عن عيون مواطنيه ، متصورا أنه لن يكاد يعلو الحمار الضامر الخفيض حتى يدفع به [illegible] إلى الأرض ، غير أنه فوجئ به يندفع إلى الأمام في حيوية مذهلة جعلته يقطع ستة أميال أو سبعة في الساعة دون حاجة إلى مهماز يستحثه ، فقد كان صراخ الغلام المصري الذي [illegible] كافيا لكي يعدو بينما يجري الصبي وراءه .

ثم [illegible] من محمد علي حاكم مصر [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] بها شائعات يتهامس بها أهل الإسكندرية [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] في كهولته ، [illegible] [illegible] أدمنه حتى [illegible] [illegible] في حكمه . ثم يعود بعد لقائه وملاقاته بالوالي الموفور الصحة والحيوية فيؤكد أنه بريء من هذه [illegible] [illegible] [illegible] التنحي عن الحياة ولا عن العرش .

وترتفع حدة سخريته وهو يسدد سهامه اللاذعة إلى الفرنسيين وجيوش حملتهم التي قادها نابليون شاهرا سيفه وهو يعدو هنا وهناك بينما تتطاير ضفيرته وراء رأسه في الهواء ، فهو يرى أن [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] ترك [illegible] في [illegible] على [illegible] [illegible] [illegible]

لوحة (٢٠٦) جولة السائحين الإنجليز قرب الأهرام، عن مجلة إلليستريتد لندن نيوز في ٩ يناير ١٨٥٨

ويصولون مقرقعين بسيوفهم مسددين فوهات بنادقهم سافكين للدماء ، قد بدّن أكثر سعادة وأشدّ مرحا وهن يعلقن على السائحين الإنجليز الجائلين حول الأهرام في دعة وهدوء يكرعون الجعة الإنجليزية ويجمعون الثروات الطائلة» .

ومع كل [illegible] [illegible] ثاكري في كتابه عن وطنه [illegible] [illegible] لا يتردد في السخرية من [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] حكومته [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] محمد علي أن يهديها لها ، ومع ذلك فهو [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] ضخمة ملقاة على الأرض دون أن يكترث بها أحد ، ملطخة بالقاذورات [illegible] [illegible] [illegible] إلى اعتلائها ويتساقطون حولها دون أن [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] المطروح إن هو إلا حيانة حكومتهم التي [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] رمزا لانتصار الإنجليز على الفرنسيين في مصر عام ١٨٠١ [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] يتوسط ميدان [illegible] الأعراس [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] حكومته [illegible] [illegible] [illegible] إلى مصر كي [illegible] [illegible] المسلة المصرية فيلتقي الحجران الكريهان معا بين [illegible] !

على أن كل هذه السخريات اللاذعة لا تُخفي شماتة ثاكري في الفرنسيين لفشلهم في البقاء بمصر ، كما لا تخفي [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] مصر [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] الفرنسيين ويمنحوا [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] ، كما أنه لا يخفي [illegible] بأن [illegible] الرومان التي كانوا يجلبونها [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] يجمعونه بدون [illegible] من آثار مصر [illegible]

[illegible] [illegible]

وفي ضروب الحياة، ومن الاختلاف في مواقع الجمال المثيرة للخيال ، ومن تعدد الألوان وتنوعه ، ومن اضطراد الأضواء والظلال ، فثمة صورة جديدة تطالعك تحت العين في كل شارع وعند كل حانوت بالسوق . وقد حاكى مصورنا الشهير الفنان جون فردريك لويس بعض هذه المناظر بالألوان المائية في تصاوير تتميز بالصدق المبين وبالدقة المفرطة وبالجمال الأخاذ ، غير أن المجال لا يزال مفتوحا للمئات من الفنانين كي ينسجوا على منواله . وإذا كان ثمة فنان مرهف الحس وكانت في وقته فسحة ، وكان ذا عزم لابتكار الجديد في فنه فليمض ليجرب الشتاء في القاهرة، ولسوف يقع على أجمل الأجواء وخير الموضوعات لفرشاته »

حتى إذا صعدنا إلى القلعة وجدنا جبينه يشد به إلى الجامع الجديد الذي كان محمد علي قد أخذ في بنائه على مهل وفي غير عجلة فيسجل أنه يُشاد من المرمر الناصع البياض المشوب بحمرة خفيفة ، غير أن زخارفه كلها تكاد تكون أوربية . ثم يبدي دهشته من أن الفن الشرقي الجميل العريق المفعم خيالا قد أُهمل كل الإهمال : «إن المساجد القديمة بالقاهرة التي أمعنتُ النظر في جملة منها وكان لي حظ دخول اثنين منها تفوق هذا المسجد كثيرا ، إذ إن التنوع في زخارفها مثير للإعجاب. وما من شك في أن اختلاف أشكال القباب وتنوّع طرز المآذن التي جاوزت قواعد النسب المألوفة جرأة وجاءت رشيقة غاية الرشاقة قد أثارت إعجاب كل مهندس معماري شهدها . وحين يتاح لك السير في الشوارع ما تلبث أن تكتشف أن هذه التحف المعمارية تسحر العين بلا انقطاع ، فهنا تجد «سبيلا» من الرخام بسقفه الناتئ والمحلّى بالزخارف العربية ، وإذ تمعن النظر في روعته التي تحتار معها في تعدد زخارفه ... ثم إذا أنت بعد ذلك أمام مدخل لأحد المساجد معقود شامخ ، مثل مدخل ... مثل القلعة مربعة للأبراج رشيقة ... فبعد هذه العمارة ... كأنهما ماردان المعمارية التي ... بالكولوزيوم و ... مبتدلين عليطين كأنهما ماردان عريضا المنكبين أمام الإله جوبيتر واهب الأمبروزيا[110]. إن هذه المآذن والقباب والقنوات والأروقة تثير الخيال وترقّ عنه بل وتداعبه مداعبة تسحر العين . على أني لم أجد إلا القليل من المختنمين إلى الصلاة في مسجد السلطان حسن الشهير ، بل لم أجد به غير خادم المسجد الذي كان يتضجع ... شأنه شأن مثيله في أي كاتدرائية إنجليزية ، وهو الذي هيأ لنا استعمال خف من القش كي لا ندنّس أرضية المسجد الطاهرة حين رحنا نتجول في داخله . إنه مبنى خارق من حيث انفساح الفراغ وسطوع الضوء ، بل أستطيع القول بأن أحسن نماذج الفن النورماندي التي وقع عليها بصري لم تفُق هذا المسجد رشاقة وبساطة وجمالا . وما من شك في أن ... قد أخذوا معهم إلى أوطانهم في أحاسيسهم ... التي شهدوها لهذه المعابد التي تمت إلى دين غير دينهم . لقد ذهب ... إلى أن العمارة المقوضة ما هي إلا كاثوليكية منحوتة حجراً ، وإذا كان صحيحا ... العمارة القوطية لأنها جميلة كانت الكاثوليكية هي الأخرى جميلة . إذا صح هذا فما من شك في أن المحمدية كانت هي الأخرى ... جميلة ... لم يؤثر قط أن عقيدة كانت لها معابد أكثر رشاقة من هذه المساجد التي ... رواق ومعمودية بيزا. غير أن الحال قد تغير الآن فالمساجد خلت من المصلين ولا تجد بها غير الخدم الرسميين ... الآن ... عن أن يشيدوا مثل هذه العمائر ... مثل هذه الأشكال ... الرخيص في مسجد ... الجديد ... التي ... في ... إسطنبول ...

(110) Ambrosia كان طعام الآلهة عند الإغريق القدامى يسمى أمبروزيا على حين كان شرابهم يسمى النكتار ، وكلمة أمبروزيا تدل على كل مادة خلود ولا يقربها ... وكان ... [م. م. ث]

صفاء التأمل

هارييت مارتينو

ومن بين السيدات الأوروبيات اللاتي زرن مصر تتألق أربع سيدات بعيدات من الكاتبات الموهوبات ، أولهن الآنسة هارييت مارتينو الكاتبة والروائية المعروفة . والثانية السيدة صوفيا بول شقيقة المستشرق ادوارد لين ، والثالثة [illegible] لوسي دف جوردون ، ثم الروائية الذائعة الصيت أميليا إدواردز ، وقد استطعن بحسّهن الأنثوي أن يسجّلن أمورا لم تكن متاحة للذكور من الرحّالة أن يصلوا إليها . وهارييت مارتينو[١١١] كاتبة مسيحية تنكر التثليث وتقول بالتوحيد ، عملت بالصحافة ونشرت العديد من الروايات ، اجتذبتها الفلسفة وقدمت ترجمة موجزة لكتاب أوجست كونت بعنوان « الفلسفة الوضعية » (١٨٥٣) فكان لها بذلك فضل نشر هذه الفلسفة بإنجلترا . وزارت مصر عام ١٨٤٦ وأصدرت كتابها « الحياة الشرقية » (١٨٤٨) الذي ضمّنته ذكرياتها عن رحلتها في مصر وفلسطين . ونلمح أولى انطباعاتها عن مصر في تلك الدهشة العميقة التي تعبّر عنها قائلة : « كم أتضاءل حين أبدأ الحديث عن مصر فإذا أنا قد تعثّر عليّ نقل صورة دقيقة لها . فمصر ستظلك بشمس ساطعة وضوء باهر يحاصران شعورك النفسي الذي قدمت به ، [illegible] وكل ما أستطيع أن أفعله هو أن أنقل ما وقع عليه بصري بكلماتي القاصرة ».

وإلى جانب اهتمامها بوصف العناصر الموضوعية اتسم أسلوبها بالرقة والوضوح بما تتسم به أساليب الكثيرة من الرحّالة الآخرين ، ثم إننا لا نلمس أثرا كبيرا للتعصب في كتاباتها ، وتسري انطباعاتها صافية تلتقطها عين دقيقة الملاحظة تغوص إلى الأعماق ويمتزج بها حس مرهف متأمل ، غير أننا لا نتلقى ما تكتبه كأوصاف لحقائق بقدر ما تثير فينا ذكريات [illegible] عنها ، فهدوء [illegible] في وصف منظر يتماوج مع النسيم نثرها الشفاف . ولا ريب أنها كغيرها من رحالة ذلك العصر كانت مغرمة باللون الشرقي غير أنها كانت تفصح عنه دون إسراف أو محاولة مواربة أو تغريب ، مكتفية بالمنظر ذاته تعدّه متعة مثلى للعين الأوروبية . وكانت تعتقد أن التأثير الذي يحدثه [illegible] هذا الشعب من الصحراء في عقول أبنائه وطباعه لا يستطيع أحد أن يقدره حق قدره فتقول : « كان من الطبيعي أن يقدّس المصريون الأقدمون نهر النيل ، فقد كان إلها للجماهير كما في عيون الكهنة مظهر الآلهة . وإذ كان النيل منبع ما بين أيديهم من خيرات وما في قلوبهم من آمال ، كما كان مكمن القوة الدائبة التي لا تكفّ عن الحركة الدافقة أمام أبصارهم [illegible] ما يصادفهم من صعاب ، وإذ كان النيل عندهم هو قوى الخير والصحراء هي قوى الشر ، نشأ الجانب الرئيس في عيدهم الرامز إلى دفن أوزيريس في النهر المقدس حيث يُبعث مرة كل عام لكي يمنح الكون بركاته ».

(١١١) Harriet Martineau. Eastern Life, Present and Past, 1848

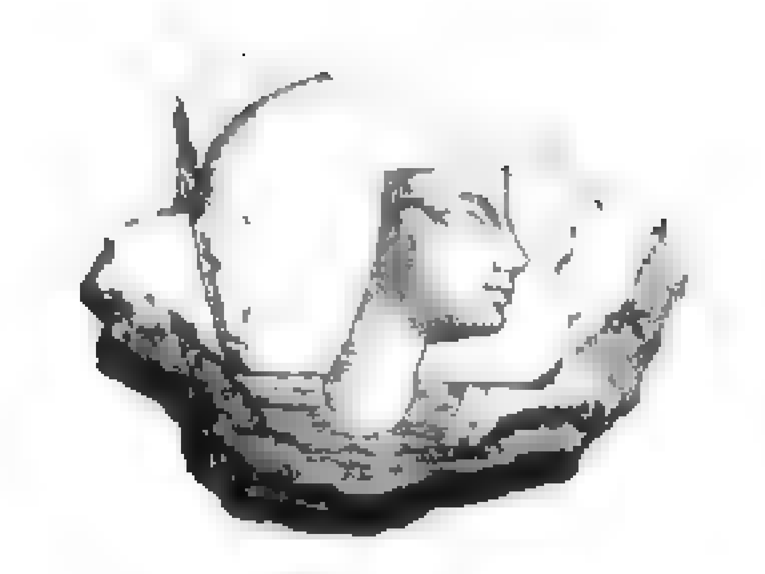

اقتحام عالم الحريم

صوفيا پول

ونلتقي ثانية الكاتبات في شخصية صوفيا بول ، وكانت قد اصطحبت ولديها وشقيقها إدوارد لين عند زيارته لمصر عام ١٨٤٢ ، وعاشت بالقاهرة سبع سنوات زارت خلالها حريم محمد علي ، كما حصلت على معلومات وافرة عن الحياة الأسرية في المجتمع الإسلامي الذي تطرقت إليه بعض التأثيرات الأوربية . وقد أسفرت هذه التجربة التي خاضتها عن مجموعة من الرسائل نشرتها تحت عنوان « امرأة إنجليزية في مصر »[١١٢] (١٨٤٤ - ١٨٤٦) . وقد أفاضت المؤلفة في وصف الطبيعة المصرية ومناظر النيل والشوارع والمتاجر في الأحياء الوطنية ، كما أوردت بعض الملاحظات التاريخية عن القاهرة استخلصتها من مذكرات شقيقها وقام هو بمراجعتها بنفسه . غير أنها حين تحدثت عن المرأة المصرية احتفت بها احتفاء يدل على حيدة موضوعية ، كما عكفت على ذكر تفصيل التقاليد المتبعة عند استقبال الضيوف من السيدات في بيوتات الكبراء بما نستشعر معه تقديرها العميق لحسن الضيافة . وقد كشفت عن أن « الحريم » في هذه البيوت ليس جناحا خاصا في أحد الطوابق بل هو منزل قائم بذاته مستقل عن المنازل المسموح بدخول الرجال إليها . كما بهرها الاستقبال الكريم الذي لقيته من أسر المجتمع الراقي المشوب بالود والاحترام والمتميز بالملاطفات الأسرية ، مثل إقبال بنات صاحبة الدار على خلع معطفها عند الدخول ثم التسابق به لإلباسها عند الخروج ، ومثل الإسراف في تقديم الشراب والقهوة والحلوى في أوان وأكواب وصحاف تجتذبها بغلاء ثمنها لا برقة صنعتها ، إلى غير ذلك من تفاصيل جذابة قد لا يكون هذا الكتاب موضعها ، وخلاصة القول أنه كتيب صيغ في مودة وتعاطف يستحق التقدير . وكانت صوفيا قد وهبت حياتها بعد أن انتهت من مهمة تربية ولديها لخدمة شقيقها إدوارد لين حتى وفاته عام ١٨٧٦ . وكان حفيدها إدوارد ستانلي بول عالما في اللغة العربية وهو الذي أشرف على إعداد الطبعة الحديثة من كتاب « ألف ليلة وليلة » (١٨٥٩) الذي ترجمه خاله والطبعة الخامسة من « المصريون المعاصرون » (١٨٦٠) .

(١١٢) Sophia Poole: An English Woman in Egypt. Letters from Cairo written during residence there in 1842,3,4 with E. W. Lane. London 1844

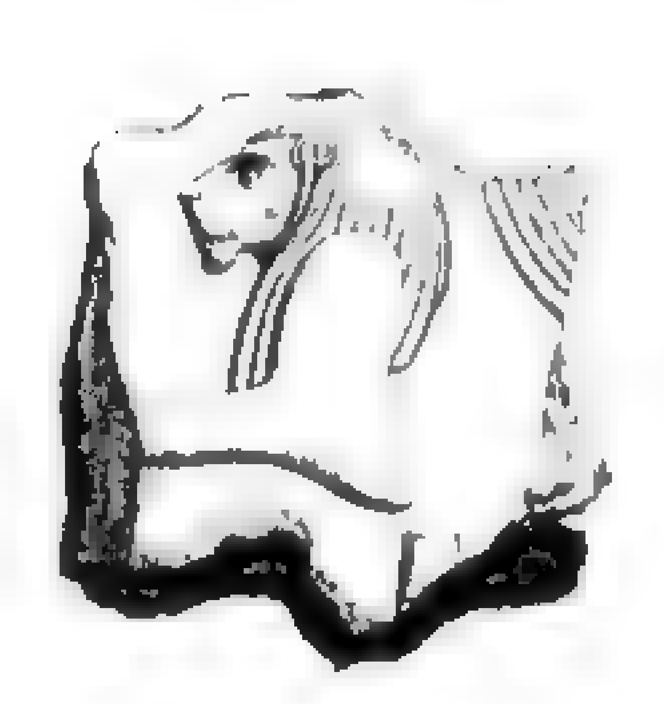

ملاك الرحمة

لوسي داف جوردون

ونلتقي بالكاتبة الثالثة في شخصية لوسي [ليدي] داف جوردون التي ظهرت رسائلها خلال العهد الفكتوري حيث كان ثمة كثرة من كتاب الرسائل الأدبية الممتعة ولم يبلغ غير القليل منهم من الروعة ما بلغته لوسي ، فإن رسائلها من مصر تستحق القراءة لا من أجل دقة ملاحظتها فحسب ، بل كذلك من أجل استشرافها للمستقبل الذي تسود فيه حكومة صالحة وتقل فيه الفوارق بين الطبقات ويجري فيه إصلاح الريف ، وفوق ذلك كله شجاعتها في إعلان رأيها . وكانت ليدي داف جوردون قد أصيبت بالسل وهي في سن الأربعين فكان عليها أن تقضي ما بقي لها من عمر في مناخ جاف فجاءت إلى مصر لتبقى فيها بعيداً عن زوجها وأطفالها ، تقطع سني ذهابها وإيابها مع اختلاف الفصول وراء الأسباب الجافة . ومع ذلك تحمّلت قدرها بشجاعة مذهلة ، وعقدت العزم على أن تجد بين المصريين الصّحبة التي فقدتها في بلادها ، ولم تختر أصدقاءها من بين طبقة الباشوات وإنما من بين البسطاء ومن الفقهاء وأئمة المساجد والسقائين وسيدات الحريم والأطفال والصّبية الذين أنسوا جميعاً بلطفها وبساطتها فأفضوا إليها بمشكلاتهم يسألونها النُّصح ، كما تطوّع الملاحون لرتق صندوق مركبها دون أن يتقاضوا على ذلك أجراً ، لأنها كانت تتمثل بعادات المصريين فتشارك صحبها الطعام كما كانت تأكل مع «ريّس» مركبها في طبق خشبي ، مؤمنة أن ذلك يجلب الفأل الحسن أو [البركة] كما يقول المصريون . وبهذا السلوك كانت تُرضي صحبها حتى [illegible] «عمر» يردد لها قوله : «ما أحلى العيش الذي أطعمه معك» .

لقد منحتنا لوسي كتاباً من أشدّ الكتب رقة وإنصافاً عن طباع المصريين وعاداتهم وحياتهم اليومية ، هو كتاب «رسائل من مصر»(١٦٢) ، وتوحي لنا رسائلها التي بعثت بها إلى زوجها وأمها وأبنائها وأصدقائها بأنها لو لم تكن معتلة الصحة الجسدية لتصدّت لانتقاد أسلوب حكم الخديو إسماعيل بصورة إيجابية . ومن المؤسف ألا تكون مثل هذه المشاعر المرهفة لهذه السيدة الرحيمة [illegible] الذين عاشوا أو عملوا أو تنقلوا في مصر ، فإن اللامبالاة بالمصريين التي اتصف بها كل من لم يتكلموا العربية من بينهم قد أسفر مع مضي الزمن عن قيام علاقة يعوزها الاحترام المتبادل بينهم وبين المصريين . ولو تفهّم الكثيرون كما تفهّمت لوسي مشاعر المصريين لما مال الإنجليز إلى ارتكاب حماقات دنشواي ثم حرب السويس فيما بعد ، فقد كان يميزها حنق مثل بني وطنها الإنجليز إلى اعتبار «العصا» الوسيلة المثلى لحكم العرب .

وبعد صدور كتاب «رسائل من مصر» الذي يتضمن نقداً لاذعاً لأسلوب إسماعيل باشا في حكم البلاد وما يلاقيه الشعب من عسف وقهر أمر الخديوي بوضع لوسي تحت المراقبة حين تتنقل

(١٦٢) Lady Duff Gordon. **Letters from Egypt.** London

حبيسا إلى القاهرة، ومصادرة رسائلها التي تبعث بها من الأقصر، وهو ما حملها على أن تعهد برسائلها إلى الرحّالة والسائحين الأجانب.

ولقد كشفت هذه السيدة لمن صحبهم من المصريين عن رقة صادقة فكانت تغمرهم بحنان الأمومة بالرغم من اختلاف الجنس والدين، كما كانت سريعة التعاطف مع كل من لزمهم سوء الطالع، وكانت دائما حربا على استبداد الحكام الطغاة وذلك في عصر لم يكن الانتصاف فيه للبائسين والمحرومين سائغا ولا مقبولا. وكان معروفا لكل من أنس إليها أنها لم تكن تكيل المديح زيفا لأحد أو تبيح لنفسها أن تتحدث في غبطة انتقاصا من قدر إنسان، ولم تُغْرها روح الدعابة التي كانت تتمتع بها بالخروج يوما واحدا عن حدود اللياقة، بل إنها تتحدث عن مشاهد الصعيد بتقدير وإعجاب فتقول: «الدور هنا لا يعلوها طلاء ولا طبقة من الجص الأبيض ولا تجملها نوافذ، بل هي لا تعطي للوهلة الأولى الانطباع بأنها مساكن للبشر. ولكن سرعان ما تعتاد العين كل ما غاب عنها في دور السكنى الأوربية، وما يلبث الانطباع البغيض أن يتوارى ويفطن المرء إلى جمال تلك الدور بأشجار النخيل المحيطة بها وأبراج الحمام تحلّق حولها والقباب المتناثرة هنا وهناك فوق أضرحة الأولياء. وعلى مرمى البصر تشهد الفلاحين الكادحين على ضفة النهر وقد اتخذت أجسادهم لون مياه النيل بينما تسري دفقة دافئة من الدماء تحت بشرتهم وكأنما شكّلهم بروميثيوس[113] من مواد الأرض ونفختهم الشمس روحها. ما أشد بؤس هؤلاء الفلاحين الذين يرثي لحالهم حتى ملاحو مركبي المهلهلو الثياب حين يروني مستغرقة أتأملهم وهم يكدحون».

وكانت لوسي قد لمحت في زيارتها الأولى لمدينة الأقصر بيتا كبيرا بعض الشيء عند الطرف الجنوبي من القرية العشوائية المشيّد داخل حرم معبد الأقصر نال إعجابها. فإذا هي تنطلق جاهدة لاستئجار هذا البيت التابع للحكومة الفرنسية إلى أن تحققت لها هذه الأمنية على يد قنصل فرنسا في القاهرة. وتوجّهت على الفور بصحبة خادمها الوفيّ عمر إلى خان الخليلي لشراء ما يلزمها لتأثيث دارها من أرائك وموائد وسجاجيد صلاة وصوان وحوض نحاسي للاستحمام، عاقدة العزم على أن تحيا حياة المصريات.

كان البيت مبنيا بالطوب المحروق المطلي بالجير الأبيض شيّده هنري صولت قنصل بريطانيا العام سنة ١٨١٥ أثناء قيامه بحفائر في معبد الرامسيوم بطيبة تحت إشراف المغامر الإيطالي جوفاني بلزوني - كما مرّ بنا - الذي عاش هو الآخر في هذا البيت عام ١٨١٧. وما لبث صولت أن باع البيت عام ١٨٢٠ إلى الحكومة الفرنسية، ومن هنا أطلق عليه اسم «بيت فرنسا» Maison de France. وفي عام ١٨٢٩ نزل به عالم المصريات الأشهر شمبوليون، كما أقام به الضباط الفرنسيون المكلفون بنقل المسلّة الشهيرة أمام الصرح الأول لمعبد الأقصر إلى باريس، والذين زرعوا حديقة بديعة خلف المبنى. ولعل أشهر مَنْ شغل «بيت فرنسا» قبل لوسي هما الأديبان الفرنسيان جوستاف فلوبير ومكسيم دوكان في عام ١٨٥٠ اللذان كانا يقضيان أمسياتهما - ومن بعدهما لوسي - في رحاب أشجار النخيل والموز وشجيرات الليمون والياسمين. وبعد وفاة لوسي عام ١٨٦٩ غدا «بيت فرنسا» أحد المعالم التي يحجّ إليها الرحّالة والسائحون والعلماء، ومن بينهم أميليا إدواردز عالمة المصريات التي لا شك قد طالعت كتاب «رسائل من مصر». غير أن البيت ما لبث أن هُدم مع أطلال القرية العشوائية داخل حرم المعبد عندما أقدم عالم المصريات

(١١٣) Prometheus في الميثولوجيا الإغريقية هو الإله الذي منح البشر النار متحدّيا بهم في حياة المدنية والحضارة. ويعتبر كلمة بروميثيوس ... أو ... البصيرة ... وهو الذي خلق الإنسان من طين حتى نفخت فيه أثينا من روحها [م. م. س].

الفرنسي ماسبيرو مدير مصلحة الآثار المصرية عام ١٨٨٥ على تطهير المعبد من كل ما هو دخيل.

وعلى الرغم من أن معظم الأوروبيين كانوا يرون البيت الذي افتتنت به لوسي مشيرةً إليه باسم «قصرها الطيبي» عاريا مفتقرا إلى وسائل الراحة - وهو الوصف الذي سجلته أميليا إدواردز في كتابها الشائق «ألف ميل صعودا في النيل» عام ١٨٧٣ - إلا أن البيت ظل يكتسب في عينَيْ لوسي يوما بعد يوم المزيد من الروعة والجمال. كان العديد من نوافذ بيت لوسي تنقصه ألواح الزجاج وكذا العديد من عتباته، غير أنها ما كانت تعبأ بذلك، ولا حتى بطير البُوم الذي يعشّش في أركان الدار على هواه، أو بمختلف أشكال الحرباء المتقلّبة الألوان الزاحفة فوق السقف والجدران. فلم يكن ما تعشقه لوسي في قصرها الطيبي ما تضمّه جدرانه، بل هو المشاهد الخلاّبة التي يقع عليها بصرها سواء من الشرفة الأمامية المطلّة على النيل أو من النوافذ الخلفية المطلّة على الحقول الخضراء والفسيحة الممتدة والهضاب البرتقالية التي تحدّها. كانت هذه المشاهد هي التي حوّلت فقر الدار المدقع إلى ثراء مبدع.

وكانت لوسي في شبابها متألقة الجمال ذات عيون داكنة وبشرة ناصعة البياض ووجه روماني القسمات باستثناء أنفها الإغريقي الطابع. وكانت النساء يعترفن رغم ولعهن بنقد بعضهن البعض بأن دخولها إلى قاعة الرقص كان يأخذ بمجامع ألباب الحاضرين، على حين أجمع كل مَنْ عرفها من الرجال على أن لها قلبا من ذهب. وأنها من ذلك النوع من النساء الذي لا يقابله الرجل المحنّك إلا مرة أو مرتين خلال حياته كلها. وقد عبرت في إحدى رسائلها لزوجها عن مدى تعلق المصريين بها إلى حد تقدّم أحد شيوخ العرب لطلب يدها وكيف وصفها لها ... من غيرها من ... المصريات الحمقاوات إذ هي تبدو في عينيه أميرة عربية عريقة تستحق ... من شداد أو أبي زيد الهلالي، وأنها جديرة بأن يقتتل الرجال في سبيل الفوز بها أو يضعون نهاية لحياتهم ... يظفروا بها. وقد ... هذا المولّه بها استعداده لدفع كل ما يملك مهرا لها. وهي تكشف في هذه الرسالة عن عادات المصريين في ... عن طريق إرسال الخاطبة لها، وعن عدم الاكتراث بفارق السن بين الزوجين، إذ تشير إلى أن شيخ العرب هذا الذي كان قد عقد العزم على الزواج منها ... يكن قد جاوز الثلاثين من عمره وهي وقتئذ ابنة الثالثة والأربعين.

وإن الأدب الإنجليزي[114] ليدين لمُعتزَل هذه السيدة في مصر بظهور كتاب شديد الرّوح هو «رسائل من مصر» المفعم بالحيوية وبالأوصاف النابضة للشعب الذي عاشت وسطه، وبآمالها المعقودة على مستقبل أفضل له، وبالامتزاج التام بين سلوكها ومشاربها وسلوكه ومشربه. فما أسرع ما كان رثاؤها لمن تُجالسهم وتلمس مدى معاناتهم أن يتحول إلى عاطفة مشبوبة، بل لقد كانت تضيق بعتداءات مواطنيها على هؤلاء الكادحين، وتودّ أن تثير كتاباتها فيهم الرأي العام الإنجليزي حتى ترفع عن كاهلهم ما يثقلهم من هوان.

وقد تعادة المصريين ... بعضهم بعضا بأبي فلان اعتادت أن تشير إلى زوجها سير ألكسندر دف جوردون لا باسمه «أبو موريس»، بل لقد كانت تناديه في رسائلها أحيانا بهذا الاسم. ولقد ... اللغة العربية التي كانت تعلّمها أطفال الأقصر فخلّفت وراءها ذكرى عاطرة مترعة برقّتها وطيبها التي لم تحظ بها أية سيدة أوروبية مرّت بمصر، ولقت كيف تجوّد كتابة اسمها بالعربية، ثم ... توقع به رسائلها مستخدمة التقويم الهجري في تأريخها.

كانت تجمع ... الفلاحة المصرية وتجد فيها جمالا لم تشهده من قبل، كما لفتت نظرها براعة راقصة شابة تستطيع تحريك ثدييها واحدا في إثر الآخر وفي استقلال تام عنها، ووجدت في

(١١٤) جاء في تعليق صحيفة وستمنستر ريفيو عن كتاب «رسائل من مصر»: «مشت كثير ... كان هناك أي أوروبي قد نفذ إلى أعماق مصر الحديثة ورسم صورة صادقة لها مثل ما فعلت ليدي داف جوردون التي تختلف كل الاختلاف عن سائر الرحّالة المعاصرين، لأنها لا تنظر إلى أفراد الشعب - على غرارهم - ... أو ... مشهد شرقي ... ».

أهل الصعيد لطفا أعمق من لطف أهل الدلتا ، وترد ذلك إلى سريان الدماء العربية في شرايين أهل الصعيد مما يجعلهم أوفر رجولة وأشد استقلالا وأكثر تحررا في ممارسة عقائدهم . ثم إنها وجدت شبها كبيرا بين حفلات زفاف الفلاحين المصريين وحفلات العطلات الريفية الألمانية حيث يجري إطلاق رصاص البنادق وعرض أثاث منزل العروس الجديد فوق ظهور الجمال لا فوق العربات ، كما أنها تعزو تفاصيل طقوس الزفاف المصري إسلاميا كان أو قبطيا إلى طقوس أسرار إيزيس .

لقد عاشت لوسي دف جوردون حتى وفاتها بين المصريين تشاركهم وجدانيا أفراحهم وأتراحهم ، وتمد لهم يد المساعدة وتعالج مرضاهم لا سيما في أوقات الأوبئة ، فلم تدخر وسعا في سبيل مساعدة البسطاء من الناس بدوا أو فلاحين ، مستغلة خبراتها المكتسبة في التمريض والإسعافات الأولية ومداواة الحمى والجروح حتى لهج الناس بالثناء على «الست الحكيمة» وأغدقوا عليها حبهم وتقديرهم بشتى الأساليب التي في متناولهم . ومن لم يكن يعرفها من قبل يسارع إلى سؤالها عن اسمها لكي يدعو لها في صلاته عرفانا وامتنانا ، فتشرح لهم بوداعة أن اسمها معناه «النور» . وإذ كان النور هو أحد أسماء الله دعوها «نور على نور» . وكم تغنى القوم بمآثرها عليهم ، فمنهم القائل – كما جاء في إحدى رسائلها – : «بنت الإنجليزي زهرة على رؤوس العرب ، وعلى من يعانيه المرض أن يقصدها ليستاف عبق الزهرة ويستمتع بألق نور على نور .. فيبرأ» .

وفي نهاية احتفالات مولد الشيخ أبي الحجاج بالأقصر شهدت مسيرة الموكب الذي يحمل الناس فيه على أكتافهم كسوة ضريح الشيخ الجديد والمركب المقدسة القديمة فكتبت تصفه : «خيل إلي أن الموكب يتبعث من معابد الكرنك إلى معبد الأقصر وينعكس مثلما كان يحدث في الأزمنة القديمة[١١٥] مع فارق واحد هو الغبار المتناثر حوله والثياب المهلهلة التي يرتديها مريدو رسلا من آلهة الفراعنة وجلالهم . . . ما أشبه هذه الاحتفالات بتلك التي أشار هيرودوت إليها بأنها كانت تقام تشريفا «لذلك الراقد في قبله الذي لا يجرؤ واحد على التفوه باسمه» ، والفارق الوحيد هو أن الاسم قد تغير والمومياء قد غابت» . وهي عبارة كثيرا ما كان يرددها السائحون وقتذاك دون استناد إلى قراءتي .

كان كتاب «رسائل من مصر» أعظم إنجاز توجت به ليدي دف جوردون حياتها الأدبية ، وإن كان نشره قد تولد في الحق عن حاجة مادية بعد أن ثبت بما لا يدع الشك أن حالتها الصحية لن تسمح لها بالعودة إلى مدرستها حيث بقيت العائلة بين زوجها وأولادها في إنجلترا . فعلى الرغم من رخص المعيشة في مصر مضاهاة بلندن إلا أن نفقات معيشة لوسي غدت عبئا ثقيلا على زوجها ، ومن هنا كان قرارها بضرورة نشر رسائلها من مصر لاستخدام ما تدره عليها حصيلة بيع الكتاب في تغطية نفقات إقامتها وترحالها ما بين الصعيد شتاء والقاهرة صيفا .

ولم يكن يدور بخلدها حينما قصدت مصر للاستشفاء أنها قد تضطر إلى احتراف الكتابة مهنة بعد ما أمضت حياتها أديبة هاوية ومترجمة بارعة عن الفرنسية والألمانية .

كذلك تصدت لوسي لتفنيد بعض الحقائق التي وردت على لسان هارييت مارتينو مما حالفه مجانبة الصواب . ونحن إذ نعترف بأن كتاباتها جدية رائعة غير أنها عابتها بقلة تفهمها للناس وبقلة اهتمامها بأن تعرفهم حق المعرفة ، إذ تدور في خلدها المشاعر نفسها التي يحسها معظم

(١١٥) تقصد عيد أوبت «عيد حصب» حيث كان ثالوث الكرنك آمون وموت وخونسو يزور بيته بمعبد الكرنك إلى حريمه بمعبد الأقصر فتوضع تماثيل المقدسة للآلهة الثلاث في قارب كبير يجره قارب آخر يحتله الملك ، ويصاحب الموكب على الشاطئ الشرقي للنيل احتفالات مثل تلك التي نشاهدها اليوم في الموالد وعند وصول الموكب إلى معبد الأقصر تنقل القوارب المقدسة إلى داخل المعبد لتأدية الطقوس اللازمة لزواج إلهي يرمز إلى أخصب النيل وإلى عودة الخصب إلى الأرض بعد فيضان النيل

الإنجليز في مصر من أن اختلاف الطباع بشكل هوة لا سبيل إلى اجتيازها بين الشعبين ، في حين تؤكد لوسي تشابه مشاعر الشعبين الإنجليزي والمصري ، وتحمل على مواطنيها قائلة : «غريب أن كل كتب الرحلات القديمة التي قرأتها حين تعرض للشعوب دون غرابة عنها تذكرهم دون استعلاء وبصدق أشد بكثير مما تذكرهم به كتب الرحلات الحديثة . أتراك قد سمعت يوما من المدنية حد تفوق ما كنا عليه منذ مائة عام حتى تبدو الشعوب المختلفة دمى تحسب في أيدي غيرهم لا مخلوقات بشرية؟» . وتتعجب من التعصب الأعمى للآنسة مارتينو ضد الأقباط بل هو يثير استغرابه عندما تزور توقيرها الشديد الصائب «لذلك الراقد في قبله» ، كما أنها تندد بهجومها على الحريم وتشبه دورهن ببيوت الدعارة . وإذا كانت لوسي قد اعترفت بأنها لم تشهد بيوت الحريم فإنها تؤكد أن الآنسة هارييت لم يقع بصرها هي الأخرى على بيوت حريم ما . وتذهب إلى حد لفت أنظار الأوروبيين إلى أن النساء في مصر أن يقاضين أزواجهن في المحاكم للمطالبة بنفقاتهن الشرعية أو لطلب الطلاق إن كان ثمة خلاف بينهن وبين الرجال . كما تذهب إلى أن الأغلب في تعدد الزوجات يرجع إلى رغبة الرجل في رعاية أرملة أخيه المتوفى وأبنائها ، وترى أن الفسق المتفشي بين الرجال في مصر شبيه بالفسق بين رجال أوروبا ، فالرجال كلهم في نظرها سواسية ، وكلهم إلى آدم ينتسبون . وانبرت لوسي تفند كل ما يشاع عن فجور بين الحريم وعدت ذلك كله باطلا ليس له ظل من حقيقة ، إلى أن تورد حديثا كان بين إنجليزي وتركي متمصر شوه فيه الإنجليزي صورة ما يدور في الحريم ، فرد عليه التركي الوقور متسائلا : «هلا تفضلت بأن تخبرني أنت الشاب اليافع كم عدد النساء اللاتي خالطتهن في حياتك؟ وإذ عجز الإنجليزي عن إحصاء عددهن ، رد التركي قائلا : حسنا يا سيدي إنني رجل مسن تزوجت حين كنت في الثانية عشرة من عمري ، وقد ماتت أربع زوجات لي وأنا اليوم أعيش مع زوجات ثلاث في منزلي بطلب حياة هانئة . ترى أين هذا من كل من خالطت أنت من نساء حتى الآن؟» .

وكم أحست لوسي بالأسى حين لم تجد مصورا يصور مسجدها القديم الأثير الذي أنهته وقد بدا يتداعى بينا تشق من وسطه ثلاث نخلات ، ولو تسنى لها ذلك لاحتفظت بسجل حافل بتصوير بديعة لعمائر هي للأسف الشديد في سبيلها إلى الزوال : «فاختي القبطي القديم بالقاهرة على وشك الاندثار بينما ترتفع بسرعة عجيبة المباني الفرنسية التي لا تروقني ومثلها الدار التي أسكنها ، على حين أنه في مثل هذا المناخ ليس ثمة ما هو أفضل من صحن الدور العربية بمصاطبه ونافوراته» . وتستنجد لوسي بزوجها أن يبعث لها بمن يملك التأثير عليه من مصور كي يسجل للتاريخ مشاهد بديعة نادرة لا حصر لها[١١٦] . فليست هنالك كلمات قادرة مهما بلغت فصاحتها على التعبير عن الجمال الأخاذ للمشاهد في القاهرة أو عن روعة أجساد أهل الصعيد وخاصة أهل النوبة الذين تبلغ نشوتهم ذروتها حين تقع عيناها على وسامة أحدهم امرأة كان أم رجلا .

وتعرض لوسي ما تحدثه تجربة من جلسة في شوارع القاهرة : «غير أنه ما يكاد جمعهم يلتقي في المقهى حتى تجدهم أهدأ مخلوقات الله ، حيث لا يتحدث في الوقت الواحد إلا رجل واحد يستمع الآخرون له دون مقاطعة . وهكذا تجد أن عشرة من المصريين لا تصدر عنهم الجلبة التي تصدر عن ثلاثة من الأوروبيين» .

الحق أن هذه السيدة كانت – كما قال زوجها – مولعة بطباع العرب ، ولقد بذلت من الجهد كي ترى وتعرف المزيد عن حياتهم الأسرية ما لم يبذله أي أوروبي عاش هنا سنوات . وهي تعزو نجاحها

(١١٦) كان ثمة مصور ... يعيش بالأقصر وقتذاك يدعى أنطونيو بياتو [يصمم له فضل التصوير الفوتوغرافي في نهاية هذا الكتاب صورتين] بعض بيتا متواضعا إلى الشمال من معبد الأقصر ، التقط فيما بين عامي ١٨٦٠ و١٨٨٠ العديد من الصور الرائعة غير المسبوقة للمعابد والآثار المصرية باع الكثير منها لمرحلة والسائحين الوافدين على الأقصر . وقد اقتنى معهد جامعة شيكاغو للآثار بالأقصر مؤخرا مجموعة ضخمة غير معروفة من قبل لسلبيات أفلام المصور بياتو ، ومن بين هذه السلبيات صورة نادرة ... التي ... لوسي

في معرفة الكثير من العرب إلى أن الإنسان العربي إذا أحس أن هناك من يهتم به بدر منذ ما اهتمام كثير. وهكذا كان الإنسان المصري هو همّها الأكبر . ومع هذا فإنها قد خصّت آثار مصر القديمة بعض ذلك لتسهب في قولها : « أظن أنه قد بات من نافلة القول الآن الخوض في الحديث عن الآثار القديمة بعد أن كُتب عنها كل ما يمكن أن يكتب . على أن معبد فيله قد جاوز في عظمته كل تصوراتي ، فلا عجب إذن إذا جاءت أساطير العرب عن قصر أنس الوجود مترعة بالرومانسية . وإن ما يثير حنقي حقًا ضد الأوروبيين هو نزوعهم إلى تسجيل أسمائهم بجانب النقوش القديمة البديعة . ولعل أسوأ ما صادفت هو فعلة الأمير بوكلر موسكاو الذي حفر اسمه مقرونا بوسام الصليب الحديدي على الصدر العاري للعملاق الحرس ... أمام معبد أبي سمبل وهو ما أعدّه تدنيسا معيبا ، وكم وددت لو أن أحدا صفعه نظير انتهاكه حُرمة المعبد » (لوحة ٢٠٧ ، ٢٠٨) .

وسجّل لوسي روح التسامح التي لمستها في كل مكان حيث يسود الوئام التام بين المسلمين والأقباط . وتلحظ في دهشة مشاركة المسلمين للمسيحيين في احتفالات القديسين من أمثال القديس مارجرجس وتبركهم بالأماكن التي حلّت فيها «ستنا مريم» و«سيدنا عيسى» ، وتسلل بعض التقاليد الفرعونية إلى عدد من طقوس المسيحية والإسلام في بعض المناطق . وتحدثنا أنها عرفت أن ثمة وليًا في المنيا إليه زمام التماسيح ، كما كانت تُطعم وهي في مركبها على غرار هيرودوت الطيور التي كانت تحطّ عليه لالتقاط فتات الخبز ، تلك الطيور التي كانت تعبر بصفرها حبل القوارب التي يأبى ملاحوها أن يطعموها ، ولاحظت أن القطط التي كانت معبودة ... في بوباسطة [الزقازيق حاليا] بوصفها قاتلة الأفاعي وحامية الدور تحظى برعاية كبيرة حتى إن الدولة كانت تتولى إطعامها على نفقتها! ، وترى أن القديس مارجرجس الذي يحتفل إلى كنيسته المسيحيون والمسلمون على السواء ليس إلا إلهًا فرعونيا قديما ، كما تذهب إلى أن الحفلات التي تقام بمناسبة مولد السيد البدوي في طنطا ليست إلا صورة من أعياد أوزيريس الصاخبة .
ولاحظت قيام الفلاحات المصريات بتقديم القربان إلى النيل في عيد وفائه كما كان يحدث في عهد الفراعنة ، وأنهن يطفن حول التماثيل القديمة طلبا للإنجاب ، وأن حفلات الولادة ومراسم الدفن تستمد طابعها من التقاليد الفرعونية القديمة .

لقد أدركت لوسي بعد اختلاطها الوثيق بالمصريين أن الإسلام قد طبع المسلمين بطابع شاعري حتى اكتسبه بعض منهم ممن لم يكن متأصلا فيه هذا الطابع ، بل إنها غالت فذهبت إلى تصور أن «دون كيخوته» لابد وأن يكون من سلالة عربية!

وتؤمن لوسي بأن ... هو القدر المشترك الذي يقوم جسرا ... من الشرق والغرب ... العرب ... عن الشرق ... اختلاف العقيدتين ... العرب من التراث ... والرومانسي فحسب .

وهي تقدّر شخصية النبي محمد صلى الله عليه وسلم كل التقدير وتعده نموذجا يحتذى فهو ... وإن كان ... إلا أنه كان إنسانا مثاليا بمعنى الكلمة ، فهو يعبد الله وفي الوقت نفسه يجاهد في ... ويشارك الناس دنياهم ويتزوج كما يتزوجون . وكان تفهمها لروح الإسلام هي التي ... لا تجد ... المبشرين الذي يرمي إلى تنصير المسلمين ، وقد عدت ذلك ... إذ هي ترى أن العقيدة الإسلامية بسيطة ومنطقية لا يقوم عليها كهنة وهو هدف مقصود بلا جدال . كما وجدت في العادات حفزا للنشاط الإنساني وحضا على

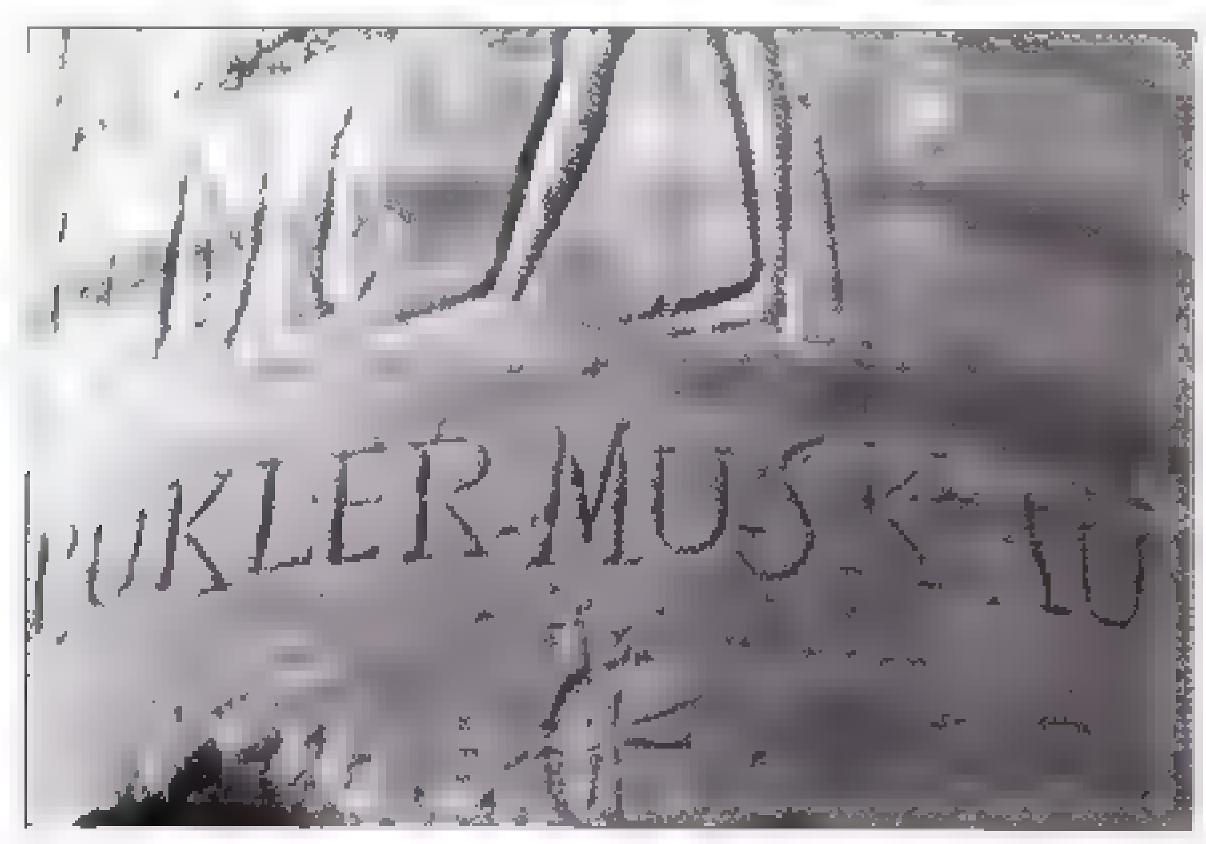

لوحة (٢٠٧)
النقش المعيب الذي حفره الأمير بوكلر موسكاو مسجلا اسمه مقرونًا بوسام الصليب الحديدي على عمود بمعبد رمسيس الثاني الجنائزي بطيبة . وعندما شاهدت لوسي نقشا آخر بنفس الأمير بمعبد أبي سمبل كتبت قائلة في إحدى رسائلها : «كم وددت لو أن أحدا صفعه نظير انتهاكه حرمة المعبد» .

لوحة (٢٠٨)
«بيت فرنسا» الذي كانت تقيم فيه لوسي بالأقصر ، وهو البيت الأبيض المربع على يسار الصورة . تصوير بيتو

خمول الكسالى ، وأشادت بما في الدين من فرص للاغتسال والوضوء ، وعدّت الصلاة رياضة مثلى

ولاشك أن السيدة لوسي داف جوردون كانت شديدة الاهتمام بالمسائل العقائدية ، ولأنها لم تكن بالقارئة العجلة ، فقد ألقت نظرة دقيقة فاحصة على نصوص التوراة ، وأدركت ما ينطوي عليه سفر اللاويين وسفر التثنية من ظلال وثنية ، وهو الأمر الذي لم تجد له أثرا في القرآن الكريم.

وإذا كانت قد اتجهت إلى وصف قدماء اليهود بالشعب القذر الذي اضطر أنبياؤه إلى ملاحقته بقواعد التحليل والتحريم ، فقد حرصت على ألا تفصح عن هذا الاتجاه إلا إلى زوجها في رسالة ناشدته فيها ألا يذيع ما بها من آراء حتى لا يحرقوها كما أحرقوا غيرها ، وإلا لم تجد ملاذا من ذلك . . . إلا أن تعتنق الإسلام

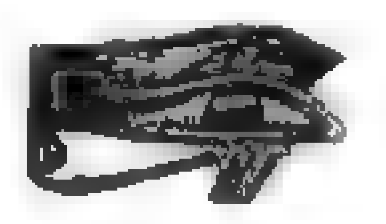

روائية شهيرة يجتذبها
علم الآثار المصرية

أميليا إدواردز

١٨٣١-١٨٩٢

وهذه روائية شهيرة ألفت أكثر من عشر روايات أذاعت صيتها بالإضافة إلى كتابين عن الشعراء القدامى والمحدثين، ثم تكررت زيارتها لمصر عام ١٨٧٣ - ١٨٧٤ حتى وقعت في أسر علم المصريات فعكفت على دراسته، بل لقد أجرت عدة حفائر كما بذلت جهودا جبارة لجمع دعم مالي للإنفاق على الحفائر في مصر خلال عام ١٨٨٢، وحاضرت عن مصر في الولايات المتحدة، ونشرت محاضراتها عن «الفراعنة والفلاحين والمكتشفين» عام ١٨٩١. وقد وهبت مكتبتها الأركيولوجية إلى «يونيفرستي كوليدج» بلندن كما أوصت بجزء من ثروتها لإنشاء كرسي لعلم المصريات بها. على أن أهم ما تركته لنا في مجال موضوعنا هو كتابها «ألف ميل صعودا في النيل»(١١٨)، وهو عمل ضخم في مجلدين أعده من بين أجمل المؤلفات التي عالجتها عن وصف مصر بأقلام رحالة القرن التاسع عشر. وإذا كنت لا أفتأ أسترجعه فما ذلك إلا لارتشف من عذوبة أسلوب الكاتبة الشاعري الغنائي الذي لا تعوزه في الوقت نفسه دقة العالم، فضلا عن المداعبات الساخرة خفيفة الظل غير الجارحة التي تتخلل سطوره بين الفينة والفينة. وقد تناولت في كتابها القاهرة بمساجدها وأسواقها وأهراماتها ومساجدها وبواباتها وموكب المحمل، ثم انتقلت إلى الرحلة عبر النيل لزيارة جميع المعالم الأثرية بدءا بالبدرشين وسقارة ومنف ومرورا بالمنيا وأسيوط ودندرة وطيبة والأقصر وأسوان وفيلة والنوبة وأبي سمبل حيث شاركت في إزاحة الرمال عن مقصورة منحوتة في الصخر. وقد حرصت خلال عرضها لما كان يصادفها من عادات الشعب وآثاره على الصدق والدقة دون إقحام مشاعرها مسبغة على وصفها أسلوبها الروائي الخلاب وإن تردت مع ذلك في بعض الأخطاء الهينة. ولست هنا بطبيعة الحال بصدد نقل هذه الأوصاف الأركيولوجية وسأكتفي بانتقاء بعض الفقرات الجذابة التي تعكس أسلوب الكاتبة وروحها

(١١٨) Amelia Edwards: A Thousand Miles Up the Nile, Leipzig, B. Tauchnitz, 1878

استهلت المؤلفة كتابها بالإشارة إلى الانطباع الأول لجان جاك أمبير عن مصر المعاصرة: «بأن نزهة الوافدين إليها تنحصر في التجول على ظهور الحمير والإبحار على المركب والجوس خلال الأطلال»، ولكنها تضيف إلى ذلك أنه إذا تزود المرء بسرج إنجليزي وأقام داخل «ذهبية» على النيل باتت نزهته أشد بهجة، كما أنه إذا درس تاريخ مصر غدت رحلته أوفى إمتاعا. غير أنها تكشف عن أن المؤلفات المنشورة عن هذا الموضوع غير متجانسة برغم وفرتها، كما تكشف سر ذلك في أن علماء الآثار المصرية المنكبين على دراساتهم هم عادة قليلو التنقل والترحال، حتى

حتى يفتقر الرحالة برغم دقة ملاحظتهم إلى دراية بحقيقة المواقع التي يصفونها وتاريخها.
وبعد أن بعدت عن السن التي يهدبني الشرطين، وغيره كتابها أنه حوى الأوصاف التي سجلتها في غير مواضعها، كما أن كل محاذيه تخصصية ظهرت في الطبعة الأولى من هذا الكتاب قد رسمتها أيضا في الموقع حرصا على الدقة والأمانة.

وقد عادت من رحلتها إلى مصر بانطباع بأن مصر وأهلها لم يتغيروا كثيرا عما كانوا عليه قديما: فهيئة الفلاح المصري وتكوينه الجسماني لا يختلفان عما كانا عليه في العصور القديمة: فها هو ذا الفلاح المنقوش في التصاوير الجدارية بالمقابر يبدو بنفس الأكتاف العريضة والأطراف القوية رغم نحولها والشفاه المكتنزة والبشرة السمراء. وها هو ذا الفلاح المعاصر يرتدي نفس المئزر ويستخدم نفس الشادوف ونفس المحراث، ويطهو طعامه بنفس الأسلوب ويتناوله بأصابعه من نفس الصحن الذي كان يستخدمه أسلافه منذ ستة آلاف عام. كذلك لاحظت بقاء التقاليد الاجتماعية لعلية القوم في الأقاليم، فالماء يُصبّ على الأيدي قبل تناول العشاء من نفس الأبريق ليستقر في نفس الطست الذي تشاهده مرسوما في مشاهد الولائم بطيبة. وإذا كانت زهرة اللوتس قد اختفت فما زال العرف يقضي بتقديم باقة زهور إلى الضيف قبل أن يتخذ مكانه إلى مائدة الطعام، كما لا تزال عادة التصدق برأس الخروف المذبوح قبل المأدبة إلى الفقراء سارية، وما يزال الموسيقيون يتخذون مجلسهم في الطرف الأدنى من القاعة، والمغنون يصفقون بأيديهم في مصاحبة غنائهم. وما تزال أواني الماء هي نفس الأواني الفخارية التي تُصنع في نفس المدينة على عهد خوفو وخفرع، وتُدس في فوهاتها نفس أوراق الشجر والزهور كسابق العهد.

وتشهد أميليا إدواردز: «أن طبق الخيار المحشو باللحم المفروم الذي كان شائعا في الأيام الخوالي مزال شهيًا في عام ١٨٧٤. كما لا يزال الصبية في بلاد النوبة يتحلّون بخُصلة جانبية من الشعر على نسق رمسيس صبيًا [أغلب ظني أنها تقصد على نسق صورة الإله حورس الطفل]، كما تلفّ الصبايا حول خصورهن نفس الزنار الذي كانت تتمنطق به أميرات عهد تحتمس الأول. ولا يسير الشيخ إلا قابضا على عصاه على غرار تمثال شيخ البلد تجسيداً لما يتحلى به من قوة، وتضفر الفتاة النوبية شعرها في العديد من الجدائل المتدلية، وتتخذ المراكب النيلية المخصصة لمرهه المدير أو المحافظ وكذلك الذهبيات التي يستأجرها الرحالة الأوروبيون نفس شكل السفن الشراعية ذات المجاديف المصوّرة على جدران مقابر وادي الملوك».

على أنه تنصح السائح الذي يود الاستمتاع بانطباع أوليّ سحري لا يُنسى عن الحياة الشرقية خارج الدور بأن يبدأ جولته في أحد الأسواق الوطنية دون أن يبتاع أو يرسم أو يجمع المعلومات، إذ يكفيه أن يتأمل مشهد تلو المشهد بما يحوي عينه كل مشهد من أضواء وظلال وألوان وأزياء وعناصر معمارية. فكل واجهة حانوت وكل ركن في الطريق وكل مجموعة من الأهالي المعممين تشكّل لوحة متناسقة، مثل التركي الذي يتخذ مجلسه إلى مائدة مع القهوة في مدخل مسجد ذي بوابة أندلسية الطراز، والمكاري في رفقة الأتان ذات السرج المزركش بألوان تطفر منها البهجة في تعطر الزبائن، والشحاذ الغارق في سباته فوق درج المسجد، والمرأة المحجّبة تملأ جرّتها من سبيل الماء. كل هؤلاء يبدون جميعا في عين السائح وكأنهم قد احتلوا أماكنهم خصيصا كي يصوّرهم. وتكتظ طرقات المدينة بالناس من كل حدب وصوب يتدفقون ويتحسرون بلا انقطاع،

لا يكفّون عن الجلبة، ولا يستقرّون كاللوح المتعدّد الألوان، منهم الشرقيون ومنهم الأوروبيون، سائرين أو ممتطين الخيل أو راكبين العربات. وهنا التراجمة الشوام بسراويلهم المنتفخة الفضفاضة وستراتهم المطرّزة، وهناك الملاحون المصريون الحفاة في حلل زرقاء مهلهلة ولبدات من الجوخ. وهنا اليونانيون الذين يثيرون الضحك بجلاّباتهم البيضاء المنشّاة وكأنهم أعمدة أسطوانية تتحرك على أقدام، وجماعة فريق من العجم بقلنسواتهم العالية القاتمة النسيج كتيجان الأساقفة، وآخر من بدو داكني البشرة في أرديتهم المتهتكة العاجية اللون تتخللها خطوط بنّية عريضة. وهناك الأحباش بمعاطفهم وخصورهم النحيلة الواسعة المرسومة عند الركبة تتدلى سيقانهم الطويلة حول الحمير التي تكاد لا يظهر لها أثر تحتهم، ونساء مصريات من الطبقة الدنيا متحجّبات ببراقع سوداء لا يبدو منها غير عيونهن مكتسيات بحبرات فضفاضة ذات خطوط زرقاء وسوداء، ودراويش في سترات مرقّعة تتسدل شعورهم المجدولة من تحت طراطيرهم العجيبة، والأحباش بلون بشرتهم الأزرق الداكن وسيقانهم الهزيلة المقوّسة وكأنها قضبان سياج أبنوسية نحيلة، والقسس الأرمن في عباءاتهم السوداء الطويلة وقلنسواتهم العالية المربّعة على غرار قلنسوة بوشيا بطلة مسرحية شكسبير الخالدة «تاجر البندقية» وقد تسربلت بزيّ رجال القانون، والأطياف الجليلة لعرب حوران يلبسون كوفيتهم تزيّن بعض من قمة رؤوسهم إلى أخمص أقدامهم، وفرسان الإنكشارية بسيوفهم المصلصلة وستراتهم المفضّضة، والباعة والمتسولون والجنود والسوقة والعمال كلٌّ في زيّه المتنوّع، وكلّ بلون بشرة مختلف يتراوح بين الأبيض والأسود وبين الأسمر المائل للصفرة والنحاسي وبين البرونزي القاتم والأسود المشوب بالزرقة.

وكان أشدّ ما لفت نظرها تلك الأسواق التي تحتل فيها كل سلعة منطقة قائمة بذاتها حيث تجتاز بوابة حجرية قديمة أو تدور مع رفاق ضيق لتجد نفسك وسط مستعمرة صانعي السروج المكبّين على سروجهم يخيطون ويدقّون. ولا تكاد تخطو بضع خطوات حتى ترى بين واجهات الحوانيت أطقم ركوب الخيل العربية والشرابات والسروج المحلّاة من مختلف الأنواع والألوان معلّقة، فهنا سروج جلود البنات وهناك سروج جمال كبار رجال الدولة، وسروج الحمير والسروج الحربية والسروج المغشّاة بالجلد الأحمر تفرشها عصبة من المخمل القرمزي والبنفسجي أو القماش الأحمر الداكن أو الأرجواني، والسروج المطرّزة بالقصب والفضة والمزوّقة بأزرار نحاسية أو المزركشة بالشرائط.

ولا تكاد تستدير نحو رفاق آخر حتى تقع على سوق الأحذية فتجد نفسها سائرة وسط طرق تكتظ بالمراكيب المغربية الحمراء المصنوعة في مصر والصفراء المصنوعة في تونس، والنعال المختلفة أنواعها، منها ذو الطرف المدبّب والمدبّب الملتوي والمسطح. وإلى جوار الأحذية السميكة الكعوب أحذية خفيفة صفراء بلا كعوب، وأحذية الأطفال المزيّنة بالشرائط، والأحذية البنّية المغربية المخصّصة لسواس الخيل، والأحذية المخملية والمطرّزة بالقصب والخرز واللآلئ لنساء الحريم الموسرات. هذه الأحذية جميعا معروضة للبيع بأسعار تتراوح بين خمسة شلنات وخمسة جنيهات.

ثم تمتد أمامها سوق السجاد وكأنه بغير حدود لأنه يضم شبكة من الأزقة الضيقة إلى يمين الموسكي. وتزخر الدور في هذه الأزقة بالمشربيات القديمة والأبواب العربية.. وثمة ميدان صغير

الفرشة الأبسطة العجمية والشامية وسجاجيد الصلاة التركية وأخراج [جمع خُرج] السروج الدمشقية، بينا يستلقي الباعة وسط سلعهم يدخّنون أراجيلهم. وفي ركن من الميدان «بادل» مقهى عجوز يذرع المكان جيئة وذهابا وهو يؤدي مهنته المتواضعة وقد نصب موقده الصغير وصفّ رفوفه [illegible] مدخل أحد [illegible] المتهدمة التي تكتسي جدرانها بزخارف الأرابيسك المحفورة على الحجر [illegible] سجاجيد تونس المخطّطة وأبسطة الجزائر ذات اللونين الرمادي والأزرق أو الرمادي والأحمر [illegible] وسجاجيد تركيا ذو الألوان الزرقاء والخضراء والحمراء الرقيقة، هذا فضلا عن نماذج السجاد الفارسي الشهير المتناغم الزخارف. وتُتابع أميليا خطواتها دون كلل عبر الطرق التي لا يتطرق إليها إلا بصيص من ضوء النهار بينما تتألق بالألوان [illegible] للمعروضات، وتكتظ بالمارة والعابرين الذين يوحون إلى المشاهد الأوربي بالممثلين المشتركين في مسرحيات عيد الميلاد المقتبسة عن قصص ألف ليلة وليلة.

ولا نرى شيئا معروضة في سوق الصاغة الذي تضيق أزقته عن عبرها حتى لا تكاد تتسع لشخصين [illegible] وكل كلا منهم صوان، ولا يتجاوز عرضه مترا. وقد أعدّ كل صوان منها بصفوف من الأدراج الصغيرة [illegible] التي تُحفظ فيها الحلي. وتنتصب أمام الحانوت مصطبة حجرية مغطاة بالحصير تُستخدم مقعدا ومنضدة [illegible]، يجلس المشتري على طرفها على حين يتربّع التاجر القرفصاء في الداخل، وبذلك يستطيع استخراج الدُرج وراء الدرج دون حاجة إلى النهوض. وتشمل الحليُ المصنوعة في القاهرة العقود وأقراط الأذن والأساور والخلاخيل والقلائد التي تتدلّى منها النقود أو الحبيات الهلالية [illegible] [illegible] أو [illegible] والطرق، ومع أن [illegible] قد يكون [illegible] إلا أنها تنطوي على تصميمات عريقة متوارثة، وتشيد الكاتبة بلطف [illegible] وجمعهم وصبرهم [illegible] لا نهاية له، فقد يحدث أن يقلّب أحدهم ما يحتويه الحانوت من بضاعة ويفحص كل معروضاته ويغادره دون أن يشتري شيئا مرة ومرات، ومع ذلك يقابل دائما بالترحاب ويُشيّع بالبسمات.

ولا تفوتها الأسواق المتخصّصة بالقاهرة مثل سوق الحلوى وسوق الخردوات وسوق الدخان وسوق السلاح وسوق النحاسين وسوق المغاربة حيث تباع البرانس والقلنسوات القاسية، بل والأسواق الرائجة لبيع البضائع الإنجليزية والفرنسية التي تُصنع خصيصا للشرق كنسيج الموسلين القطني المطبوعة عليه أشكال جان سوداء صغيرة تثب فوق أرضية صفراء يُعدّ خصيصا لثياب الأعمال في مصر.

ولم تكن أسواق القاهرة وحدها هي التي أثارتها فحسب فقد اجتذبها عدد من المساجد والبوابات الإسلامية العريقة والكنائس القبطية القديمة وأضرحة الخلفاء وآثار هليوبوليس والأهرام وأبو الهول. وقد كان عليها أن تقصد إلى مرفأ بولاق كي تستأجر الذهبيّة التي ستقطع بها رحلتها عبر النيل. والذهبيات كما وصفتها سفن متشابهة كلها لوفق تصميم واحد لا يختلف، على العكس من الدورة فهي تتشابه إحداها مع الأخرى كما يتشابه المحار، ولا تختلف أي منها إلا من حيث حجمها أو من حيث نظافتها أو قذارتها. كذلك تغيّر الذهبيات أماكن رسوها على العكس من [illegible]، فقد ترسو الذهبية اليوم على الضفة الشرقية ثم ترسو في الغد على الضفة الغربية أو تحتمي وسط العشرات من زميلاتها على مسافة ميل من موقعها بالأمس. وتضيق الذهبيات

الصغيرة عادة بركابها، ولا توفر لهم [illegible] الراحة [illegible] لا سيما حين تهب الريح الشديدة. أما الذهبيات متوسطة الحجم [التي عادة ما تستخدم أثناء الصيف في نقل البضائع] فتصل في أغلب الأحيان إلى الطاقة، بينما تضم الذهبيات الكبيرة التي يصل طولها إلى ثلاثين مترا من ثمانية إلى عشرة كبائن فضلا عن قاعة طعام تضم بيانو وغرفة جلوس، وهي عادة باهظة الإيجار.

وقد كانت النظرة الأولى التي ألقتها إلى الأهرام هي تلك النظرة التي يلقيها الرحّالة عادة عليها من نافذة القطار القادم من الإسكندرية والتي لا تترك في النفس انطباعا مؤثرا. ولكنها لا تكاد تجتاز الصحراء المتاخمة للقاهرة صاعدة المنحدر لتصل إلى الهضبة الصخرية التي تستقر فوقها الأهرام حتى يتراءى لها الهرم الأكبر بكتلته الضخمة الرهيبة وجلاله المهيب محوّما فوق الرؤوس فتحسّ: «برهبة مجانية تملك عليها مشاعرها إذ يوصد الهرم صفحة السماء والأفق، وكما يحول دون رؤية بقية الأهرام يحول دون الإحساس بغير مشاعر الرهبة والإعجاب». وتضيف قائلة: «ويفاجئنا الهرم الأكبر بأنه على غير الصورة التي عرفناها عنه منذ علّمونا في الصبا أن الكتل الخارجية التي كانت تكسوه قد نُزعت عنه منذ خمسمائة عام لتشييد المساجد والقصور [وهذه معلومة خاطئة لم تحدث، وكل ما في الأمر أن سقطت بعض الأحجار بفعل الزمن فاستخدمت في بعض العصور]. ولقد باغتنا هذا الدرج الصخري العملاق بروعته، ولم يبد الهرم وكأنه أثر عدا عليه الدهر بل وكأنه بناء شامخ انصرف عنه العاملون فيه ليأخذوا قسطا من الراحة ثم يعودوا لمواصلة العمل في صباح اليوم التالي، كما كان لون الهرم هو الآخر مفاجأة مذهلة، فقليل هم الأوربيون الذين يعرفون اللون الأصفر المغبرّ الذي يغشّي الحجر الجيري المصري بعد تعرّضه لوهج السماء المصرية على مدى الزمن، وإذا بهذه الأهرام تبدو تحت أضواء معيّنة وكأنها أكوام هائلة من سبائك الذهب».

وقد استطاعت بمساعدة الأدلاء الأعراب تسلّق الهرم الأكبر، ولم تكن هذه بالمهمة اليسيرة لولا عون أولئك المواطنين البالغي الرقة الذين يحفزون همّتها ويرفقونها لانتزاعهم من صخرة [illegible] أخرى [illegible] بمختلف اللغات الأوربية. فكان منهم من يقول بالإنجليزية «صبراً يا سنيورة»، وبالفرنسية «تقدّمي رويدا رويدا»، وبالإنجليزية «كل شيء على ما يرام. لقد قطعنا نصف الطريق» أو «بقيت ست درجات»، وبالألمانية «لم يبق إلا نصف الطريق يا فراولين»، وحين استمعت إلى أحدهم يقول لها بالإيطالية «ها هي ذي القمة. من يتقدم بحرص يتقدم بعيدا» التفتت إليه قائلة: «كان يجدر بك لو أضفت النصف الآخر من هذه الحكمة الإيطالية أيها الصديق، وهو أن من يندفع بلا تبصّر ينطلق إلى حتفه». فإذا بالبهجة تغمر الأدلاء بهذه الحكمة التي لم يكونوا قد استمعوا إليها من قبل، وإذا بهم يردّدونها وقد وعتها ذاكرتهم اليقظة فأثاروا دهشتها. وحين اقترحت أن ينحتوا درجا يسهل على النساء تسلّقه إذا بها تستمع إلى إجابة تنم فيها صراحة هؤلاء القوم وسرعة بديهتهم إذ كشفوا لها عن حمق ذلك، فلو أنهم صنعوا درجا أمكن للسائحات تسلّقه وحدهن دون عون من دليل وهو ما يفقدهم مورد رزقهم. وحينما بلغوا قمة الهرم أدهشها الأدلاء حين عرضوا عليها أن ينشدوا أغنية «يانكي دودل» الشعبية الأمريكية، ولكن ما كادوا يكتشفون أن مجموعة السائحين هي مجموعة إنجليزية حتى انطلقوا في ترديد نشيد «حفظ الله الملكة».

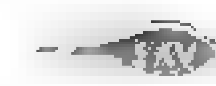

وقد كان من المنطقي أن تعرج في اليوم التالي بعد زيارة الهرم على مسجد السلطان حسن وهو أحد العمائر الإسلامية والتاريخية العظمى، استخدمت في تشييده أحجار من الكسوة الخارجية للهرم الأكبر [كما تزعم]. وتجد الكاتبة أن هذا المسجد الذي بناه الناصر حسن هو أجمل مساجد القاهرة بل لعله أجمل مساجد الإسلام على الإطلاق، ولا ترجع عظمته إلى ضخامة حجمه أو إلى روعة ما استخدم في تشييده من رخام، فحجمه لا يصل إلى حجم المسجد الأموي بدمشق، كما لا يبلغ رخامه مستوى رخام مسجد أيا صوفيا في إستنبول، غير أن هذا المسجد بتصميمه ومقاييسه ورشاقته والهيبة العصيّة على الوصف يتجاوز سائر المباني وجميع المساجد. ولقد بدت للكاتبة أن سيغدو في القريب العاجل أحد الأطلال البديعة، غير أن القدر ما لبث أن كشف عن خيبة ظنها، مع أنها شهدت بداية الاهتمام بالمحافظة على هذا المسجد وإزالة بعض البيوت المحيطة به حتى أصبح الطريق المعطى إلى المسجد يجتاز مساحة مكشوفة كان الإعداد يجري لتحويلها إلى ميدان عام. وقد كانت تشهد كل يوم ستة من العمال يحملون الجمال بالأمتعة في كسل وتراخ دعاها إلى تقدير أنهم إذا ظلوا مثابرين على عملهم وظل وزير الأشغال يدفع أجورهم بانتظام فلن ينتهوا من تمهيد الأرض قبل ثماني سنوات أو عشرة. وقد لاحظت بعد أن جهدت في صعود درجات المسجد المحتشدة بالمتسكعين المسترخين في بلادة وهم يشدّون أنفاس الطرق شرخا طويلا في سبيله إلى الاتساع يكاد يحتل واجهة المبنى كلها بالقرب من المئذنة، وبدا لها مثل الشروخ التي تحدثها هزات الزلازل، وهالها ألا تكون الحكومة قد شرعت في رأب هذا الصدع حتى همس لها بعض الخبثاء بأن القاهرة على غرار إستنبول تشتق منها المباني الحديثة بسرعة فائقة بينما تعاني المباني القديمة مهما بلغ جلالها من إهمال يعرّضها للاندثار ولا يترك منها غير كومة من الأنقاض. وذلك هو ما قادها إلى التفكير فيما سيؤول إليه هذا المبنى العظيم بعد مائة عام لو هوت قبته ومنارته[119] وبات المسجد البديع أطلالا كئيبة وأخذت تتساءل: «ترى هل سيخطر على بال علماء المستقبل أن يفحصوا الأحجار التي شيّد بها المسجد، وإذا فعلوا فهل سيكون بوسعهم أن يستخرجوا من نقوشها الهيروغليفية تلك الأساطير المفقودة التي كانت تغطي سطح الهرم الأكبر؟ فلا شك أن بناة هذا المسجد لم يضيّعوا وقتهم وجهودهم في محو تلك الكتابات القديمة التي لم يكن هناك على سطح الأرض من يدرك كنهها بعد، مكتفين بأن يطمروا السطح المنقوش للحجر الذي تكمن فيه صفحات ثمينة من تاريخ الأسر الحاكمة المصرية مثل خوفو وخفرع. وقد شهدت اجتلاب كتل الأحجار التي تقام بها المباني الجديدة في القاهرة سواء قصور الخديوي أو المباني العامة أو الفيلات المصرية الأنيقة أو المقاهي من طرة، التي اقتطعت منها أحجار الأهرام منذ أكثر من ستة آلاف عام حيث شاهدت ألواحا ذات كتابات هيروغليفية وكهوفا اكتست جدرانها بالنقوش وسط المحاجر القديمة.

وتشير الكاتبة إلى متحف بولاق للآثار بحماس شديد، وتذكر أن الفضل فيما يضمّه من تحف أثرية يعود إلى بُعد نظر الخديوي إسماعيل وإخلاص ماريت باشا. فباستثناء محمد علي الذي سمح بالكشف عن معبد دندرة لم يسبق أن اهتم أحد الولاة بالأركيولوجية المصرية. ولقد كان بوسع كل من يتوق إلى حيازة تلك الأنقاض التي تعترض التربة المصرية أو تختفي تحت رمال الصحراء أن يلتقطها على هواه. ولم يكن هناك ما هو أيسر من الحصول على تصريح بالحفر لاقتناء «الأنتيكة». وتعترف الكاتبة قائلة بأن هذا هو سبب ثراء متحف اللوفر بالآثار المصرية

(119) وقع زلزال ١٢ أكتوبر ١٩٩٢ بعد مائة عام من رحلة الكاتبة وما يزال المسجد قائما دون أن تنال منه الهزة الأرضية.

وسبب وجود العديد من المجموعات الخاصة المتناثرة في أنحاء أوربا. على أن إسماعيل باشا قد وضع نهاية لهذا النهب العالمي وبدأت مصر بذلك تشكّل مجموعتها الخاصة بعد أن «اكتشف الخديوي بثاقب فكره في شخص السيد ماريت المسؤول المساعد عن الآثار الشرقية في متحف اللوفر أفضل مدير للمحافظة على الآثار القومية».

وإذا كانت الكاتبة قد تمتعت بفرصة أوسع مما نعم به غيرها في النفاذ إلى أعماق الحريم المصري وتأمله عن كثب، فقد خرجت منه بانطباع مشوب بالأسى والشجن. فقد تبيّن لها أن ما يشغل نساء القاهرة طوال نهارهن لا يتجاوز الاهتمام بأشغال التطريز، وبعض الآلات الموسيقية المصنوعة في جنيف، والترجيلات والسجائر والحلوى والجواهر والحلي وتبادل القيل والقال. وتحرص أميليا على أن تؤكد أنها لا تقصد نساء الأمراء والحكام والباشوات اللاتي يملأن مقاصير دار الأوبرا ليلا بل نساء الطبقة الوسطى العليا المحرومات من أية رياضة ذهنية أو بدنية، وتذهب إلى أن الزمن ثقيل عليهن وأنهن لا يحفلن بما يدور حولهن كما تقبع على وجوههن على الدوام دلائل الملل.

وتثبت المؤلفة ما يتقله الرحّالة من شائعات تتهم الأقباط بالتجهّم المستمر والتعصب ضد المسيحيين الأجانب، ولكنها تنفي رؤيتها لشيء من ذلك، وتعترف بأنها وزملاء رحلتها سعدوا بالكثير من آيات المودّة التي أحاطهم بها من التقوا بهم من الأقباط. وتنصح كل زائر لمصر ألا يفوته حضور قداس في كنيسة قبطية: «فهي المكان الوحيد الآن الذي يمكن أن تطرق أذنيه فيه آخر ما تداولته ألسن ذلك الجنس العريق الذي حفظتنا الصور الجدارية على ألفة بنشاطه ومتعه. ونحن نعلم أن ثمة تغييرا كبيرا طرأ على اللغة التي كان يتحدث بها رمسيس الأكبر والتي كتب بها بنتاؤر[120]، كما نعلم أن اللغة القبطية المعاصرة تحمل بعض الشبه بلغة المصريين على عهد الفراعنة على نحو ما تحمل إنجليزية القرن التاسع عشر شبها بإنجليزية القرن الرابع عشر. ومع ذلك فهي في جوهرها لسان مصر القديمة. وإنه لشيء مبهر حقا أن تسمع آخر الأصداء المتخلفة عن تلك النغمة على ألسنة السلالة غير المشكوك فيها لقدماء المصريين. ومن المحتمل أن تحل اللغة العربية محل اللغة القبطية في قداس الكنائس بعد حوالي خمسين عاما، ومن ثم سيفتقد تقاليد نطقها [يجري القداس الآن وبعد مائة عام من وفاة الكاتبة باللغة العربية طواعية واختيارا مع جزء بسيط يتردد باللغة القبطية]. ويقال إن الأقباط يتحولون بسرعة إلى الإسلام ولعله عندما يحين مرور ألفي عام على مولد المسيح لن يكون ثمة أثر للقبط أو الأقباط في مصر»[121].

وقامت المؤلفة بوصف «بيت فرنسا» بالأقصر، وقد شيّد من قوالب الطين المحروق وشُدّ عليه سقف من جذوع النخيل، وقد أسند جانب منه إلى الجدار الجنوبي لمعبد الأقصر وأقيمت واجهته مطلّة على واجهة المعبد. ورأت أن هذا البيت قد دخل التاريخ منذ عام ١٨٢٩ حين أقام فيه شمبليون وروسيلليني وعملا معا خلال وجودهما بطيبة، وكانا يجتمعان بالليل لتبادل ثمار جهودهما التي أنجزاها بالنهار. وعلى حين كان شمبليون يعكف على نسخ ما قد يعينه على تحسين قواعد اللغة المصرية، كان روسيلليني ينكبّ على الكلمات الجديدة التي يثري بها قاموسه. وفي هذا البيت أيضا أقام ضباط البحرية الذين أوفدتهم الحكومة الفرنسية عام ١٨٣١ لنقل المسلة التي تنتصب الآن في ميدان الكونكورد بباريس، كما نصب به لیدي داف جوردون مواسم الشتاء

(120) بنتاؤر: أديب شاعر مصري من القرن ١٣ ق. م، سجّل ملحمة معركة قادش لرمسيس الثاني

(121) يبلغ تعداد الأخوة الأقباط في مصر وقت كتابة هذه السطور في نهاية عام ١٩٩٧ وبعد مرور ألفي عام على مولد المسيح ما يربو على سبعة ملايين نسمة وفقا لآخر إحصاء رسمي

الأخيرة من حياتها تكشف وسائلها المسنة التي أدخلت بها البهجة على الجميع. [illegible] أن الكاتبة لم تستطع الوصول إلى الغرف التي كانت تحتلها ليدي دف جوردون والشرفة التي كانت تأنس إليها نظرا لتداعي الدَّرج المؤدي إليها، وإن بقيت أريكتها وبسطها ومقعدها القابل للطيّ في أماكنها، كما بقيت الجدران تكتسي ببعض الصور الرخيصة المطبوعة بطريقة الحفر ويحاملي مصابيح من الصفيح، وقد خمدت الحياة في البيت تماما. وحين سألت الكاتبة القصر عما كانت عليه حال البيت أيام كانت تقيم فيه ليدي جوردون حدّثها عن منضدة ومكتبة كانت تستخدمهما. وأحسّت أميليا في البداية بكآبة المكان إلى أن بلغت النافذة المطلّة على النيل وعلى السهل الغربي لطيبة فإذا بهذه النافذة تكسو الغرفة بالنضارة وتحيل فقرها بهاء حتى تمنّت لو حالفها الحظ لتقضي أكثر من موسم شتاء في هذا البيت مهما خلا من وسائل الراحة طالما يبسط أمامها هذا المنظر الزاخر بجمال أصواته وألوانه وانفساحه وبأريج تاريخه العريق وبغموضه الساحر. ومع أنها تعترف بأن هذا البيت يشوّه منظر المعبد وأنه في سبيله العاجل إلى الانهيار فإنها ترى أن أحدا لا يجرؤ على أن يتمنّى له الزوال. كما تذهب إلى أن أهالي الأقصر لا يكادون يذكرون من سكن هذا البيت [illegible] غيره من العلماء من أمثال شمبوليون أو روسيلليني أو ويلكنسون، غير أنه لا يكاد يوجد واحد منهم إلا ويحتفظ بذكرى ليدي دف جوردون في أعماق قلبه ولا يُذكر اسمها إلا مصحوبا بإحساس من الحسرة ومقرونا ببعض من الدعوات.

وتستشعر الكاتبة روعة اليقظة في الصباح حين تفتح عينيها ويقع نظرها قبل أن ترفع رأسها عن الوسادة على ذلك الصف من الوجوه العملاقة التي تملأ الأفق على مدخل معبد أبي سمبل، [illegible] لبيبة الساحقة على ضوء [illegible] وإذا بها في ضوء الفجر [illegible] شاحب تكتسي عيونها بنظرة محملقة تجمّد أطراف من يرنو إليها وتبث الإحساس بالذهول في نفس مشاهدها. وما إن تدفأ السماء بضوء الشمس حتى تتشح الوجوه [illegible] معها أن الدم يتدفق فيها ويربدها وهجا وتورّدا. وتبدو وكأنها تبتسم وسط هالة الجلال الذي يحوطها، وربما يومض يلتمع التماع الخاطر في ذهن امرئ ترسله الشمس البازغة هنيهة ثم ما يلبث أن يختفي، ويتبدّى الجبل والنهر والسماء في ضوء النهار المضطرد، كما تتجلّى التماثيل وقد غدت مجرد كتل من الأحجار الساكنة تحت أشعة الشمس. وقد ظلت الكاتبة طوال إقامتها على الشاطئ المنحدر حريصة على أن تستيقظ كل صباح مع الفجر كي تشهد هذه المعجزة المتكررة، حيث تمكنت تتأمل أولئك التوائم الأربعة المهيبة وهي تنتقل من الموات إلى الحياة، ومن الحياة إلى الحجر المنحوت، حتى لقد ساورها التوهم أنها ستستيقظ ذات يوم لترى هذا السحر وقد توقف وإذا بهؤلاء العمالقة ينهضون من أماكنهم وينطقون. وترى الكاتبة أنه من الصعوبة بمكان التطلع إلى هذه التماثيل على الرغم من ضخامتها، ذلك أن المشاهد إذا وقف بين الصخرة والنهر يكون شديد القرب، وإذا تطلع إليها من الجزيرة المقابلة لها فإنه يكون شديد البعد، على حين لا يوفر النظر إليها من المنحدر الرملي [illegible] غير المشوّهات في أجمل الوجوه التي أبدعها الفن المصري القديم. وتذهب الكاتبة إلى أن رأس أوجسطس الشهير المحفوظ بروما لم يُنحت نحتا أسمى من هذه التماثيل، فهي بورتريهات بمعنى الكلمة، وهي أربع بورتريهات مكررة [illegible]

«أنه إذا كان رمسيس الأكبر [illegible]

وسم الرحال [illegible]

[illegible] النقوش [illegible] من أنها تحمل أحيانا علامات الصبا [illegible] وامتلاك [illegible] الشيء وفتحتا الأنف عريضتان تنمّان عن شدة الحساسية والشفة السفلى نابتة والذقن قصيرة مربعة».

ولعل أشد ما أثار عجب أميليا إدواردز من عادات النوبة ما يجده أهلها من متعة في زيت الخروع شربا ورائحة، فهم يستخدمونه في إعداد طعامهم استخدام الأوروبيين للزبد، وتسوّي الإناث ضفائرهن به، ويدهن الأطفال به أجسادهم حتى تعبق به بشرتهم وأنفاسهم وثيابهم وطعامهم، بل إنه يشيع في الجو الذي يعيشون فيه بأسره مما لا يمكن أن يحتمله أوربي إلا إذا كان يسعد بما يسعد به أهل النوبة.

وأخيرا أمضت الكاتبة ثمانية أيام ساحرة في جزيرة فيله، وفي عصر اليوم الثامن وجدت نفسها وحيدة بالمعبد. وأضافت إليها عزلة المكان لمسة من إثارة الوجدان والشعور بالبعد عن عالم الواقع في ذلك اليوم القائظ، وكانت قد فرغت لتوها من رسم آخر عجالاتها، وراحت تطوف بالمعبد تكاد تهمس بكلمات الوداع للأعمدة المزيّنة بالتصاوير والنقوش ولسائر الشرفات والمقاصير وأشجار النخيل، وتختلس النظر إلى مقصورة أوزيريس المخصصة للعبادة وتتطلع إلى غروب الشمس لآخر مرة من فوق سقف معبد إيزيس. وتشهد بعد تلاشي كل ذلك التدفق الرائع من الألوان الوردية والذهبية حُمرة الشفق الداكنة تغشّي الأفق، وتعترف بأنه: «ليست هناك كلمات تستطيع أن تفي جمال فيله الحزين حقّه في تلك اللحظة حيث تبرز الجبال المحيطة مسنّة تسبح في ضوء قرمزي متميز عن السماء الكهرمانية الشاحبة. ولا تهبّ نفحة من نسيم ولا تبدو فقاعة لتعكّر المظهر البرّي المنعكس مقلوبا على صفحة الماء، فكل نخلة تبدو مزدوجة وكل صخرة مكررة، على حين تنعكس الجلاميد الصخرية الشامخة في وسط النهر على الماء انعكاسا يبدو من الكمال [illegible] الذهبي [illegible] لتهبط من فوق قواعدها». وأخيرا تناجي أميليا نفسها في أسى: «العزلة هنا تامة. ثمة سكون سحري يخيّم على الهواء. أسمع أمًّا تهدهد رضيعها متمتمة بأغنية وهي جالسة بالجزيرة المجاورة، وعصفورا يشقشق في عشّه الصغير المندس في تاج أحد الأعمدة، كما أسمع صراخ حدأة شاكية وهي تحلّق على مقربة من الصخور [illegible] التي نظرتي وأنصت وأعدّ نفسي أني سأذكر ذلك كله في [illegible] شاردة وسط هذا الحلم الأسطوري حتى أخذت العتمة تخفي في جوفها كل شيء، فاستدارت [illegible]

الفصل الثالث

الفصل الثالث

نظرتان مختلفتان لواقع واحد

«لقد آن الأوان لهذا الشرق المتفكك الذي يضم شعوبا بلا أرض ولا وطن ولا قانون ولا أمان أن يتحول إلى قبضة السيادة الأوروبية المشروعة صاحبة حق احتلال هذه البلدان وتلك الشطآن، كي تنشئ فوقها مدنا حرة ومستعمرات غربية وموانئ تجارية وغربية. لقد بات هذا الشرق مشوقا إلى المرفأ الأمين الذي يركن إليه»

ألفونس لامارتين
[رحلة في الشرق]

«إن مصر في الشرق كنز لابد من الظفر به فهو أشد إغراء لمطامع الأوروبيين، لا يعلو عليه في ذلك السبيل حتى القرن الذهبي [إستنبول] نفسه»

ريتشارد بيرتون
«الحج إلى المدينة ومكة»

«البواخر مخرت عرض النيل أول مرة تحمل المدافع لا الخبز، وسكك الحديد أنشئت أصلا لنقل الجنود. وقد أنشأوا المدارس ليعلمونا كيف نقول «نعم» بلغتهم. إنهم جلبوا إلينا جرثومة العنف الأوروبي الأكبر الذي لم يشهد العالم مثيله من قبل.. جرثومة مرض فتاك أصابهم منذ أكثر من ألف عام»

الطيب صالح
[موسم الهجرة إلى الشمال]

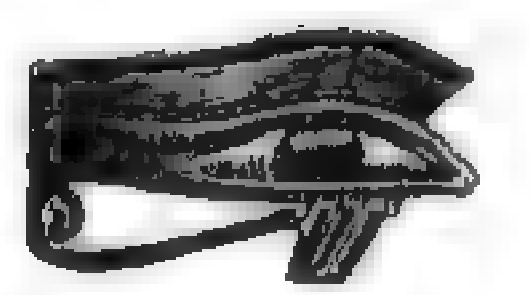

قد يخيّل إلينا للوهلة الأولى وجود فارق بين كتابات الفرنسيين الذين زاروا مصر خلال القرن التاسع عشر وكتابات الإنجليز الذين زاروها خلال القرن نفسه. فعلى حين نجد عددًا لا يستهان به من الفرنسيين يتعاطفون مع مصر والمصريين نجد الكثرة الغالبة من الإنجليز متغطرسة متعصبةً تنظر إلى الشرق عامة وإلى مصر خاصة نظرة التعالي والغطرسة. غير أنّا ما نكاد نمعن النظر حتى نتبين أن هذا الفارق يكمن في الأسلوب فحسب، وأن الفريقين يشتركان في هدف واحد. ولا شك في أن اختلاف الأسلوب مردّه إلى اختلاف المزاجين الفرنسي اللاتيني والأنجلوسكسوني، وإلى جو العداء الذي تأجّج بين الإنجليز والفرنسيين عند اندلاع الثورة الفرنسية ومحاولة الإنجليز إعادة الملكية إلى فرنسا فسروا يستقبلون بالترحيب من هجروا فرنسا من الملكيين إبان الثورة، وأسبغوا عليهم رعايتهم وأمدّوهم بالتأييد والمؤازرة سواء في ديارهم أم في ألمانيا وبلجيكا، وأقاموا شبكات التجسس لخدمتهم، وأوفدوا عملاءهم لإنقاذ النبلاء الفرنسيين من المقصلة. لقد هبَّ الإنجليز يناهضون حركة التحرّر الفرنسية على الرغم من أن جزيرتهم كانت سبّاقة إلى الظفر بالحرية، ومضوا يأخذون على الفرنسيين سعيهم للتخلص من سطوة الملكية الفاسدة في حين أنهم سبقوهم إلى شنق مليكهم من قبل، حتى ازدحمت كتابات هؤلاء وأولئك بالسخريات اللاذعة التي ينال بها بعضهم من بعض، وكلهم مستعمر وكلهم غاصب، ولم ينج إلا القليل من هذا المنزلق حتى من كانت منزلته مرموقة بين الكتّاب العالميين.

على أننا نحدّد الاختلاف بين كتابات الفريقين في نقط خمس أساسية:

أولاها: أن الشرق قد اتخذ عند الإنجليز شكلًا غير ذلك الذي أخذه عند الفرنسي. فكانت الهند إبان القرن الثامن عشر والنصف الأول من القرن التاسع عشر تحت الحكم الإسمي لإمبراطور مغولي، وفي الوقت نفسه مرتعًا خصبًا للنهب الذي تمارسه شركة الهند الشرقية البريطانية إلى أن ضُمّت إلى ممتلكات التاج البريطاني خلال وزارة دزرائيلي بعد ثورة «السيبوي» أو ثورة الفرسان المتمردين عام ١٨٥٨. ومن هنا كان الإنجليزي يتخذ من الشرق الأدنى طريقه إلى أضخم الغنائم البريطانية بعد أن هزمت إنجلترا نابليون وطردت فرنسا من مصر عام ١٨٠١ وأخضعت لنفوذها المنطقة الممتدة من شواطئ البحر المتوسط إلى الهند، فلم تعد الكتابة عن مصر وسوريا وتركيا عند الإنجليزي تعبيرًا عن عوالم الخيال الأسطورية بل تعبيرًا عن مملكة الحقيقة والواقع. على حين بدت رحلة الفرنسي إلى الشرق على العكس من ذلك مشوبة بالإحساس بفقد الشرق وضياع السيادة الفرنسية حتى غدا الفرنسي يتسمّع وهو يطوف بشواطئ البحر

المتوسط إلى صدى هزائم الفرنسيين منذ عهد [illegible] ومن هنا [illegible] خلال القرن التاسع عشر حيلة جميلة حين توسّموا في أنفسهم القدرة على الاضطلاع بها وسمّوها «رسالة نشر المدنيّة» La Mission Civilatrice، وكانت هي الوسيلة السياسية الميسورة للتسلّل إلى المنطقة من جديد. وهكذا كان الرحّالة الفرنسيون بدءاً من [illegible] وشاتوبريان يطلّعون ويحطّون [illegible] مطامعهم في المنطقة التي عدّوها منبع الذكريات وأرض الأطلال الموحية والأسرار المحمومة، منهم من كان يجاهر بأطماعه الدفينة في جسارة ووقاحة، ومنهم من كان يغلّف أدبه بالنسيج الخيالي الذي يخفي هذه الأطماع.

وما أكثر ما تردّى لامارتين في كتابه «رحلة في الشرق» في أخطاء، وما أكثر ما وقع في تناقضات، وما أكثر ما تسرّع في إصدار أحكام وانحاز فيما ذهب إليه من نظريات. كما اتسم حديثه بالغموض حين تناول المسائل الدينية بل لقد خلط بين ما هو عقلاني وبين ما هو روحاني وما هو دنيوي، وأقام نظراته السياسية على حجج [illegible] [illegible] برغم أنه [illegible] كل حججه في حكمه على الإسلام، فهو تارة يعدّه أكثر [illegible] وتارة أخرى يعدّه معوّقاً للحضارة مُطلقاً عليه عبارة «الشَّلل المعطِّل»، [illegible] صورة مشوّهة [illegible] المسيحي [illegible] [illegible] في الشرق حتى لو [illegible] [illegible] رحلة من الأوروبيين على الشرق حيث يعيش الغزاة جماعات تستوطن كل منها مدينة بمعزل عن مدن السكان الأصليين متأثراً بذلك بذور التفرقة العنصرية. ويحاول لامارتين [illegible] تعاطف مع الإسلام [illegible] [illegible] الإسلام رغم [illegible] من [illegible] الإعجاب ينطوي على مزالق تؤدي إلى الانحلال، في حين أن عقيدة العرب المسيحية محددة بحكمها ارتباطها بالمنطق العقلاني، وهو ما يكشف عن تعصب يطغى على كل ما يتمتع به من مثالية شاعرية. وهكذا نكتشف أن الهدف السياسي قد بلبل رؤية الشاعر الكبير وغطّى كل ما هو سام ومثالي فيه، فإذا بالسياسي الواقعي الشديد التعصّب يعصف بكل عاطفة الشاعر المرهف الذي يشدو كذباً بتعاطفه مع الإسلام. وإن كان لامارتين مع ذلك قد خالف شاتوبريان مميّزاً بين أداة الحكم التركي الجائرة وبين العقيدة «المحمدية» - كما يطلقون على الإسلام - [illegible] بمصر اهتمامه كما فعل سلفه على المنشآت الإسلامية [illegible] [illegible] الذي بناها وهو ما أضفى الحيوية على كل ما كتب، مثل قوله إن صوت المؤذّن في نظره يسمو على صوت أجراس الكاتدرائيات الصادر عن معدن لا ينبض فيه الوعي الخافق في صدر الإنسان الذي [illegible]

ثانياً: [illegible] في الشرق [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] أن تحدد مطيّة [illegible] [illegible] الروحانية والعدالة المثالية، [illegible] بقوله: [illegible] وإذا كرومر البريطاني يردّ عليه بقوله: «إذا كانت [illegible] أكثر مما تجذبهم إليها الحضارة [illegible] [illegible]

وحسن [illegible] وبين الفرنسي ومرحه المشهود له به في أنحاء العالم وبُعده عن الحياء [illegible] إلى [illegible] أو يصادقه. إن الشرق - وهو على حظ قليل من العلم - لا [illegible] الإنجليزي بالصدق عن غيره ويَعُد الفرنسي في صلاته عن الصدق. من أجل هذا [illegible] الإنجليزي [illegible] الفرنسي.

ومن هنا كانت [illegible] أنها كانت [illegible] قيامها بنصيبها الإمبريالي في الشرق. ولم يكن [illegible] [illegible] تلك الرقعة الشاسعة التي [illegible] شواطئ البحر المتوسط حتى حدود الهند. [illegible] الرابع من القرن التاسع عشر بدأ الفرنسيون في غزو الجزائر وارتكب جنودهم خلال حملاتهم الفظائع والأهوال مما تقشعرّ له الأبدان، وبلغ حماس فرنسا للتوسّع الاستعماري أشدّه خلال الثلث الأخير من القرن التاسع عشر في أعقاب هزيمتها على أيدي الألمان في الحرب السبعينية، [illegible] الاتفاق بين فرنسا وإنجلترا على اقتسام الإمبراطورية العثمانية حين يحين الحين، فإن لورد سولسبوري يكشف في البرلمان الإنجليزي عام ١٨٨١ عن [illegible] [illegible] لا ينفكّ يتدخل في شؤون بلاد لك فيها مصالح حيوية شتى فليس أمامك إلا واحد من حلول ثلاثة: إما أن تتخلى عن هذه المصالح، وإما أن تتشبّث بها، فتحتجزها لنفسك، أو أن تقاسمه إياها. أما الحل الأول فمعناه أن نخلي بين فرنسا وبين طريقنا إلى الهند، وأما عن الثاني فمعناه أن نكون قاب قوسين أو أدنى من الحرب. ومن أجل ذلك كان لا مفر من الحل الثالث وهو التقسيم». [illegible] إدوارد سعيد على هذا التصريح في كتابه «الاستشراق» قائلاً: «إن ما تقاسماه لم يكن الأرض [illegible] أو السلطة فحسب بل ذلك المجال الواسع للاستشراق والإفادة من هذا [illegible] [illegible] ولم يكن [illegible] الاستشراق الفرنسي والإنجليزي إلا في الأسلوب، فكلاهما [illegible] في حكمه على الشرق [illegible] وكلاهما [illegible] تفوّق الغرب على الشرق، وكلاهما يُصدر عن [illegible] الغرب على الشرق، فالاستشراق في [illegible] سياسية لُحمةً وسُدى، مبناها بيان الخلاف بين ما هو طبيعي أي أوروبا والغرب، وبين ما هو عجيب شاذ وهو الشرق».

وإذا كان ما ذهب إليه إدوارد سعيد من تعميم ينطبق على كثرة من المستشرقين إلا أنه لا يسري بطبيعة الحال على الاستشراق بإطلاقه، فهو لا يفصل بين ما هو استشراقي موضوعي وما هو استشراقي مُغرض يفرض المضمون الشائه الذي يحقق أهدافاً إمبريالية، فضلاً عن إغفاله كثرة من أعمال التحقيق والمراجعة والمعاجم والدراسات التي قامت بها جامعات ألمانيا و[illegible] وهولندة والتي لم تشترك دولها في الحملات الاستعمارية على دول الشرق الأوسط الإسلامية[123]. وإذا كان ما ذهب إليه ينطبق على البعض من المستشرقين إلا أنه لا يسري على الاستشراق جملة.

ومن قبل الأستاذ إدوارد سعيد يعارض أستاذ جليل آخر هو محمود محمد شاكر منهج البحث الأدبي [illegible][123] مؤكداً [illegible] على [illegible] [illegible] العربية الإسلامية. وفي عرضه لوجهة نظر الأستاذ شاكر يقول د. مجدي وهبه[124] [illegible] هذه التأثيرات الأجنبية جاءت نتيجة صراع لا يهدأ بين العالم العربي [illegible] طويلة تعبّر عن نفسها في أربع مراحل: الأولى التعصب الناتج عن سقوط الأراضي المقدسة في أيدي المسلمين، [illegible] الإحباط الناتج عن هزيمة الجيوش الصليبية،

(١٢٢) لا [illegible] من المستشرقين [illegible] سخّروا دراساتهم الاستشراقية منذ القرن ١٧ في خدمة [illegible] الهولندي [illegible] [illegible] في [illegible] [إندونيسيا حالياً]

(١٢٣) محمود محمد شاكر [illegible] المتنبي، الطبعة الثالثة ١٩٨٧ صفحة ٤٩

(١٢٤) د. مجدي وهبه [illegible] An Anger Observed [illegible] في [illegible] [illegible] ١٩٩١

ولشدة الحقد بسبب اضطرارهم إلى التراجع والانحصار داخل الحدود الجغرافية لأوربا الغربية في فترة اتسمت بتأمل الذات. ثم تلت ذلك المرحلة الرابعة، مرحلة الإحساس بالإهانة بسقوط القسطنطينية. وكان لابد أن تنتج عن هذه المراحل رغبة ملتهبة لدى أوربا بأجمعها في الانتقام والانتصار لكرامتها فترسب كراهية المسيحيين للإسلام يذكيها الرهبان والقساوسة حين أثارت جشعهم حكايات الثروات الباهرة التي كان يرويها العائدون إلى الوطن من المحاربين في صفوف الجيوش الصليبية المهزومة في حملاتها السبع. وأصبح من المحتم على رجال الدين المسيحي أن يكتشفوا سرّ قوة المسلمين، ومفتاح هذا السرّ هو إتقان اللغة العربية. فكان هذا هو السبب عند الأستاذ شاكر في تكوين تلك الجماعة من الرجال التي عُرفت بعد ذلك باسم المستشرقين. وكان هؤلاء الرجال يزورون الشرق الأوسط وعلى وجوههم سيماء البراءة فيتملّقون مَنْ هم في ضيافتهم من المسلمين ويتزلفون بهم حتى يفضوا إليهم بأسرار معارفهم، ويسلّموا لهم مخطوطاتهم وكتبهم التي لا تقدر بثمن. وسرعان ما انعقد التحالف بين الاستعمار من ناحية وبين حركة التبشير المسيحية وحركة الاستشراق من ناحية أخرى، كل واحدة من الثلاث تدعّم الأخرى طبقا لخطة موضوعة للتدمير والهدم. وانتُهبت المكتبات الإسلامية حيث عكف المستشرقون من المسيحيين الشماليين على طبع بعض هذه الكتب في طبعات محدودة يوزّعون نسخها القليلة على أنفسهم لأنهم كانوا يعدّونها لكي تكون الوثائق السّرية التي تستخدم في الغزوات التالية لقلب العالم الإسلامي.

وكانت إحدى الوظائف التي يُكلّف بها المستشرق الأوربي أن يتعلم كل ما يستطيع تعلّمه عن العالم الإسلامي لا بغرض البحث الأكاديمي بل من أجل هدف الهدف المحدّد بدقة، وهو تزويد النخبة المحدّدة من الأوربيين بالمعلومات والتوجيهات اللازمة لقيامهم بهذا الغزو. كانت هذه كلها أجزاء من مؤامرة حاكتها المسيحية الأوربية لغزو الأراضي الجنوبية التي تحت أيدي المسلمين. ولهذا، فقد كان من المستحيل مع وجود هذه الدوافع لدى المستشرق أن تكون نظرته موضوعية علمية، أو أن يتوصل من استكشافه للعلوم الإسلامية إلى أنه تدابع أكاديمية ذات قيمة تفيد القارئ أو الباحث في أي مكان في العالم. لقد كان المستشرقون يفتقدون عنصرا ضروريا لقيامهم بمثل هذا الدور أسماه محمود شاكر «ما قبل المنهج» وهو أن يكونوا من أبناء اللغة والثقافة والتكوين الوجداني للإسلام، ولم تكن لدى المستشرقين إلا لغة يتعلمها الواحد منهم بعد أن استوى رجلا، ونوازع متعصبة وليدة تقدم وجداني أجنبي عن الإسلام، تحول دون فهمهم له فهما عميقا».

ويرى كاتب هذه السطور في هذا التعميم - رغم صحّته وسلامته - بعض الميل، فلا نتجاهل أنه لو لم يُسهم المستشرقون في الكشف عن الأدب العربي لظل مجهولا بين أيدي المسلمين، فقد يسّروا لنا المداخل إلى اللغة والحديث والقرآن. فكان فنسنك الهولندي هو أول من أعدّ فهرسا للأحاديث النبوية الشريفة من خلال كتب الأحاديث الإثني عشر. كما كانوا أول من فهرس ألفاظ القرآن الكريم، وأول من جمعوا للغة العربية معجماً. فزوّدنا فليان الفرنسي بالألفاظ التي لم ترد بالمعاجم السابقة في كتابه «إضافة إلى المعاجم العربية»، وأعدّ فيشر الألماني لمعجم موسوعي كبير يجمع ما جاء بالمعاجم وما فات المعاجم، لأنه اعتقد أن ثمة ألفاظا لم ترد بالمعاجم فقرأ الكتب القديمة يستخرج منها الألفاظ التي تصلح أن تكون معجمية والتي جاءت بمزيد من المعاني لم تجئ في الكتب العربية فأضاف جديدا إلى المعاجم العربية. وكان قد أعدّ جزازات هذا المعجم وأراد أن يستكملها في مصر فأفرد له مجمع اللغة العربية مكانا مستقلا وأعطاه بعض المعاونين

وظل يعمل سنين عديدة ثم وافته منيته ولم يتم هذا العمل. وبين أيدينا «تكملة المعجمات العربية» للإنجليزي دوزي الذي احتوى ألفاظا كثيرة لم ترد في المعاجم العربية، و«تاريخ الأدب العربي» لبروكلمان الألماني الذي حصر مكتبة العربية حصرا شاملا لم يستطع عربي أن يدانيه. كذلك كان المستشرقون أول من وضع أقدام العرب على طريق تحقيق التراث، ثم مضينا نحن على نهجهم ولم نكن نعرف تحقيق التراث بمعناه العلمي حتى طالعونا بالكتب العربية التي حققوها فتعلمنا منهم نهجهم وطريقتهم في التحقيق. وبعد أن أخذ العثمانيون معظم الكتب العربية من الأمصار التي فتحوها ضموها إلى مكتبة إستنبول التي أصبحت تضم أكثر التراث العربي، وظل هذا التراث مجهولا غير مفهرس حتى جاء مستشرق ألماني ووضع لهذه المكتبة الحافلة التي لم تكن تُعرف محتوياتها فهرسا جامعا. ثم هناك الأستاذ ريجيس بلاشير المستشرق الفرنسي الذائع الصيت الذي نقل معاني القرآن الكريم إلى الفرنسية، والذي اشتهر عنه ميله القوي إلى العرب والذي حفل سجلّه بالكفاح المشرّف ضد الاستعمار الفرنسي، كما زخرت الصحف بمقالاته النارية ضد المارشال جوان حين عزل السلطان الشرعي للمغرب وضد وزير خارجية فرنسا آنذاك جورج بيدو. لقد كان بحسّه السياسي الإنساني يقف إلى جانب مواطني شمال أفريقيا مدافعا عن حقوقهم المشروعة من خلال رابطة «فرنسا - المغرب» التي أسّسها وضم إليها الكثير من المستشرقين والأدباء الأحرار من الفرنسيين، من بينهم المستشرق المعروف لوي ماسينيون، ولم يكتف بهذا بل راح فيما بعد ينشر المقالات المندّدة بالعدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦. أما المستشرق الفرنسي جاك بيرك الأستاذ بالكوليج دو فرانس فقد ظل طوال حياته الممتدة يواصل رسالته المفعمة بالتعاطف مع العرب والمناهضة للاستعمار إلى أن توفاه الله عام ١٩٩٥. وقائمة الأمثلة على المستشرقين غير المغرضين تعجّ بهم، فما من شك في أن الاستشراق قد عبّد الطريق للعربي والأدبي والديني أمامنا بعد أن وقع على التراث وفهرسه وألمّ بمحتوياته، ومن هنا أصبحت مصادر البحث متوافرة. وما أكثر المستشرقين الذين أنصفوا الإسلام فيما كتبوا أو ترجموا، أما إذا كان من بينهم من طعن في الإسلام فقد نعدّه هذا فضلا لأنه أيقظ فينا ملكة الردّ وروح الحجّة لتوضيح الأمور. فلولا رسائل هانوتو الفرنسي التي نال فيها من الإسلام ما استيقظ عالم جليل مثل الإمام الشيخ محمد عبده وانبرى له بتلك الحجج التي اكتسب بها الإسلام شيئا جديدا. إن المستشرق الذي ينحرف عن طريق الاستشراق فيعمل مأجورا لسياسة أو لأي غرض آخر لا نعدّه من المستشرقين، فالاستشراق يعني العمل خالصا لوجه العلم لا لشيء غيره. وهؤلاء هم المستشرقون الذين نعنيهم ويُطلق عليهم لفظ الاستشراق، أما غيرهم فلا حساب لهم عندنا.

وثالثها: أن الكثرة من الرحّالة الإنجليز، وخاصة خلال القرن الثامن عشر، كانوا من الطبقة الأرستقراطية المترفة من مرتادي النوادي الخاصة في لندن المعروفين بتعاليهم وحذلقتهم، وإسرافهم في التأنق والتقعّر في استعمال اللغة أسلوبا ومعنى، وازدرائهم ذوق الجماهير والتزامهم عادات وتقاليد خاصة لا يحيدون عنها فإن انتقلوا إلى بلاد أخرى تراهم: «لا يقصدون - كما يقول بيير دانينوس[١٢٥] - إلا مشرب الشاي أو النادي الإنجليزي. وسواء كان في بومبي أم في كاراكاس أو في هونغ كونغ أم في لوسرن فإنه لا ينسى دعائمه الأربع: ناديه والشاي والويسكي ولحم الخنزير المدخّن. وما يكاد يحلّ المساء حتى ينام في رعاية الله مطمئنا على أي أرض كان، واثقا أنه حين يلحقه خطر ما سوف يلوذ برعويّته التي تحميه مردّدا بينه وبين نفسه: إني مواطن بريطاني

(١٢٥) انظر: بيير دانينوس، **فرنسا والفرنسيون على لسان الرائد طومسون**، ترجمة عبد الله المصور، الطبعة الثانية، دار الهلال ١٩٨٩

Civis Britannicus sum، متذكرا القول القديم [illegible] أنا مواطن روماني [illegible] على الأمر [illegible] في حل في جزء من [illegible] الإمبراطورية الرومانية. وهم فيما بينهم يستهجنون أسلوبا خاصا حين يتحدثون وحين يكتبون، سمته التهكم والسخرية من كل شيء تتعصر عن علو تخصصهم وامتلاء طبقتهم. هذا عما كان منهم فما بالك بما كانوا يأخذون فيه مع الشعوب الأخرى كتابة وحديثا، فقد كانوا يزدرون كل ما هو غير بريطاني، وكان مما يُعزى إليهم اعتقادهم بأن كل الكائنات التي تعيش خارج [illegible] من كائنة هي من الجنس الأسمر ! وهو زعم نجد دليلا عليه في كتاباتهم عن أنحاء [illegible] لا تخلو من السخرية اللاذعة بالشعوب الأوربية الأخرى، وهي سخرية لا يفلت من قسوتها حتى [illegible] ملحق أبناء الطبقة الوسطى بصفوف الأرستقراطية خلال القرن التاسع عشر نظرا لبلوغ [illegible] [illegible] الثراء واحتلالها مكانة اجتماعية مرموقة. وعلى حين كان عدد كبير من الرحالة [illegible] من طبقة الموظفين في طريقهم إلى الهند أو من رجال الجيش، كانت جملة منهم أفلت [illegible] نبيل من النبلاء يقوم برحلته السنوية المعهودة. وحتى كنجليك نفسه الذي أبدى من ضروب الغطرسة والاستعلاء ما غدا نموذجا يحتذى فيما بعد كان من أبناء الطبقة الوسطى.

ويعتقد الإنجليز أنهم حين ينتقلون إلى بلاد غير بلادهم فإنما يكون ذلك فقط لأداء رسالة علمية أو أركيولوجية أو إثنوجرافية إلى آخره، دون أن يلقوا بالا للنواحي الاجتماعية باستثناء قلة قليلة منهم. ومن هنا كان ازدراؤهم الغاشم للشعوب الشرقية المتخلفة الخاضعة للأتراك دون محاولة منهم لسبر غور السلبية المتمثلة في وداعة الفلاح المصري وقلة اكتراثه بمستعمريه وانكبابه على أرضه يفلحها وإن لم ينل من حصادها غير الفتات الذي يفيض بعد أن يمتص دمه المستعمرون سواء من الأتراك أو الحكام المماليك الذين حرموه هو وأبناءه من فرص التعليم، وهو الأمر [illegible] حتى نهاية القرن التاسع عشر. وعلى حين يزدري الإنجليزي هذه اللامبالاة يحدثنا بيير لوتي في كتابه «موت فيله» لوتا بدهرا من الصمود في انتظار بعث جيل جديد. ويعلق الأستاذ أندريه سيجفريد غطرسة الإنجليز بأنه : «من الصعوبة بمكان على الإنجليزي رسم حد فاصل بين احترام حرية الغير وبين إهماله لغير الذي يكاد يكون احتقارا له، إذ هو يعتقد في قرارة نفسه أنه من جوهر آخر غير جوهر [illegible] البشر». كما ذهب دايتوس إلى «أن الإنجليزي قد تعلم بصفة قاطعة أن هذا العالم يحتوي على جنسين : الإنجليز، ثم قبائل أخرى متنوعة .. إنه يطوف بكوكبنا الأرضي وكأنه بريطانيا العظمى متنقلة في صورة مصغرة». غير أن الإنصاف يقتضي أن نعترف بأن هذه الأوصاف [illegible] على قدر كبير من المغالاة، فنحن لا ننسى أيضا أن المستشرق الذي صور حياة أهل مصر بدقة بالغة وموضوعية جدة بقي أثرها إلى يومنا هذا هو إدوارد وليم لين الإنجليزي، كما سبقه الطبيبان ألكسندر رسل وباتريك رسل إلى تصوير حياة المسلمين في حلب خلال القرن الثامن عشر تصويرا دقيقا [illegible] وتلي مونتاجو زوجة سفير إنجلترا بإستنبول في مستهل القرن [illegible] العائلات التركية تصويرا بديعا جدا في رسائلها التي احتشدت بالإعجاب والثناء والشعور بتفوق المسلمين على أهل أوربا [illegible] الإنجليز في تعاملهم مع الهنود والمصريين والأفارقة هي وليدة نشأة الأمبراطورية في [illegible] القرن التاسع عشر والمنحى الإنجيلي المتعصب في عقيدتهم المسيحية.

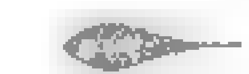

وحقيقة الأمر [illegible] في كل من أوربا وسائر أنحاء العالم خلال العصر الوسيط، [illegible] إلى أن جاء التطور التقني والصناعي فغير من ملامح الغرب ومن ثم تثبت طرق المعيشة في [illegible] الشرق، وبدأ الأوربي يغالي في إبراز أوجه الاختلاف [illegible] الخصاوين في نفس الوقت الذي أهمل فيه أوجه الشبه الأساسية، وكانت هذه هي الخلفية التي انبعثت منها الاتجاهات الإمبريالية. وكان الرحالة الإنجليزي يعتريه إحساسان هما الرغبة في رؤية كل ما هو غريب [illegible] [illegible] وإن يكن من الإنصاف أن نقول إن ثمة فئة من بين الإنجليز [illegible] أشد تواضعا وأكثر بعدا عن الأغراض النفعية، وكانت تحج إلى الأماكن المقدسة وليس لها من وراء هذا الحج أي هدف دنيوي.

ورابعها: أن الإنجليز على الرغم من بُعد ما بينهم وبين أرسطو فإنهم يتظاهرون بأنهم [illegible] [illegible] أرسطو التي تقضي بالتزام الأخلاق المثالية في مجال السياسة، ولكنهم كانوا إذا اتصل الأمر برخاء الشعب الإنجليزي والحفاظ على مصلحة القومية فما أسرع ما كانوا يحيدون عن هذه النظرة المثالية خارجين على القوانين الخلقية دون مبالاة. والإنجليزي مطبوع بطابع التربية البروتستانتية. فعلى حين يصدر الفرنسي ثقافته يحجم الإنجليزي عن ذلك مؤثرا تصدير عقيدة الكنيسة الأنجليكانية والتبشير بها حتى يستمتع سكان الكرة الأرضية جميعا بنعمة «الحرية المنضبطة التي يقتضيها النظام» والتي هي من وحي «المذهب البروتستانتي» وبمبدأ العدالة التي هي من وحي «العهد القديم»، فنشأت الجمعيات الدينية التبشيرية التي سرعان ما امتد نشاطها جهرا إلى معاضدة حركة التوسع الاستعماري.

أما الثورة الفرنسية فكما صرت على أيدي الإنطاعيين قلمت أظافر الكنيسة فتمصت أملاكها وضعف نفوذها وذاعت مبادئ الثورة الفرنسية لا في فرنسا وحدها بل بين الشعوب الأخرى، فساد التسامح الديني بين الفرنسيين الذين بلغوا درجة كبيرة من التحرر العقلي. فالرغم من انطوائهم تحت العقيدة الكاثوليكية إلا أنهم لم يستسلموا لهيمنتها على فكرهم بل تراهم ينخرطون في [illegible] يتلفعون بروح النقد المطلقة تارة أخرى حتى وصل بهم الأمر إلى استقلال فكري لم يعرفه [illegible] البيوريتانية [المتطهرة] التي بلغت فيها البروتستانتية أشدها فجمع ذلك بين [illegible] الكنيسة وشاع بين الإنجليز التعصب الديني الذي دفعهم إلى الإيمان بأن الكنيسة [illegible] من الكاثوليكية الأوربية العتيقة ومن البروتستانتية الألمانية المتطرفة، فلا [illegible] تحظى باعترافهم ولا تزمت اللوثرية الألمانية ينال تقديرهم. وبطبيعة الحال كانت نظرة الأغلبية منهم إلى الإسلام نظرة بعيدة عن الواقعية بعيدة عن الإنصاف، فيكتب سين جون في كتابه «رحلات في وادي النيل» : «إن النظرة الأولى لأخلاق المصريين وعاداتهم لتوحي بتوقيرهم واحترامهم. ولكن ما من شك في أن هؤلاء العامة الذين كان الجهل والدناءة عماد حياتهم إنما يتظاهرون في سلوكهم وحديثهم بالوقار والكرم اللذين هما أعلى مراتب الحكمة. ومثل هذا التظاهر يبعث على السخرية. فالرحالة يعلم في قرارة نفسه أن القاهرة ما هي في الحقيقة إلا صورة مصغرة للعالم الشرقي بأسره».

[illegible] سين جون في الشرق ترك حصيلة يدعم فيها الرذائل المقرونة بطغيان حكام الشرق ذوي السيطرة الباطشة القصيرة العمر، الذين يستطيع المرء بعد التحدث إلى واحد منهم أن يلمس

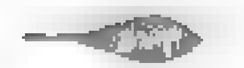

بين مظاهر الأخلاق التي تبهره والسلوك الذي يسحره أفكاراً شيطانية ومبادئ شيطانية تصل كالأفعى أو العقرب بين باقات الزهور. وتصل به المغالاة إلى حد الإعلان بأن : « الفساد هنا إن لم يكن شاملاً فهو لا يكاد يخلو منه مكان ».

ويصف كرومر الشرقيين والعرب في كتابه « مصر المعاصرة » فيقول : إنهم قوم سذج من السهل خداعهم، تعوزهم روح الجد والمبادرة، شأنهم أن يداهنوا مداهنة تبعث على الاشمئزاز، كما من طبعهم المكر والخداع والقسوة على الحيوان. والشرقيون يعيدون عن أن يعرفوا نظام السير في الطرق وعلى الأطوار، فما أبعد ما بينهم وبين الأوروبيين في هذا الشأن. ومن سجايا الشرقيين التورط في الكذب وميلهم إلى الدعة وتشككهم فيما يرون. ثم هم عامة يستحثون بالأنجلوساكسون وما هم عليه من نبل. ولقد وطنت نفسي على أن الشرقي جُبل على غير ما جُبل عليه الأوربيون».

ولعل القارئ لما كتبه كثير من الكتاب الإنجليز الذين عرضوا لوصف مصر عرضا لا يمت إلى الحقيقة بسبب يعرف الآن أن هذا التعريض المشين بمصر على لسان هؤلاء الكتاب أمثاله انطباعاتهم المجانبة للصواب عن مصر والشرق، فكان تصويرهم الإسلام والشرق يُستمد من طعمهم من جور لا يتحولون عنه. ولم يبعد التصوير الأدبي للبيئة عن أن يناله ما ناله غيره من حيف، ولم ينصف هذا التصوير منهم إلا قلة يأتي في مقدمتهم إدوارد لين في كتابه عن المصريين المعاصرين ولوسي ديدي داف جوردن في رسائلها من مصر التي تفيض حبا لمصر والمصريين وتشيد بكريم أخلاقهم وتسخر من ظلم الرحالة الأوربيين لهم. ومن هنا نتبين هذا العداء القديم المتوارث ضد الإسلام الذي لا يزال ممتدا إلى ذلك العهد الذي كتب فيه أمثال هؤلاء الرحالة تلك العبارات النابية التي استشرى أسلوبهم فيها وازداد ضراوة واشتعل حدة. نلمس هذا فيما كتبه رحالة يدعى شيرور (١٨٢٤) في كتابه «مشاهد وانطباعات» حيث يقول : لا غضاضة في أن نتأمل هذه المخلوقات والوجوه والأزياء والأسلحة والأعراف والعادات التي توحي إليك بما كانت عليه الحال في سالف الزمان، ولكن في الوقت نفسه نحس سعادة كبرى وتثلج صدورنا ونحن نلحظ الخراب من حولنا يعم والاضمحلال يسري. فكم من مسجد مهجور قد علاه التراب، وكم من أهلة مآذن زالت عنها وضاءتها، وكم من خانات خلت من قاطنيها، وكم من بيوت أثرية تداعت سقوفها». ونحن نجد إلى جانب هؤلاء الكتاب الإنجليز الذين أسفّوا وأسفروا في عداوتهم آخرين مثل كنجليك تختلج نفوسهم بأصداء الحروب الصليبية. وفريقا ثالثا لبسوا مسوح الورع ليطعنوا الإسلام في أعز ما يملك وهو عقيدته، فيقول أحدهم متمسحا والتشفي يطغى على أمنياته: «أبشروا فإن ظل المحمدية يتراجع ويمحي. وما من شك في أن هذه العقيدة قد بدأت تفقد أثرها في قلوب معتنقيها، وهو ما سوف يخلي السبيل أمام المسيحية المخلصة لتحل محلها في قلوب هؤلاء الناس عامة والقضاء على الإسلام قضاء مبرما، وهو ما نصبو إليه ويرجوه كل واع».

أين هذا مما نجده من موقف شارل بلان عضو المجمع العلمي الفرنسي حين كان مستغرقا في تأملاته بالإسكندرية مستعرضا أمجاد مصر منذ الفراعنة حتى البطالمة متحسرا على ضياع مخطوطات مكتبتها العريقة، وإذا بالرسام ستوب يسخر من ميوله الإسلامية وتعاطفه مع المسلمين فيذكره بأن الزعيم العالم الذي أمر بحرق مكتبة الإسكندرية هو الخليفة عمر بن الخطاب، فإذا بشارل بلان يأخذ عليه غلوه ويلفته إلى ما في ترديد هذا القول من زعم شائن، ويوضح له أن مكتبة الإسكندرية قد التهمتها النيران أول مرة بسبب حروب قيصر حينما كان يدافع عن أسطوله ضد أهل الإسكندرية، واشتعلت فيها النيران مرة ثانية في عهد الإمبراطور ماركوس أوريليوس، إلى أن قُضي عليها تماما في عهد الإمبراطور ثيودوسيوس عندما أمر بإحراق كل ما يمت للوثنية بصلة فانقض جنوده على السيرابيوم وأحرقوه عن آخره بإشراف البطريرك تيوفيل، وعندما فتح عمرو بن العاص مصر لم يكن في مكتبة الإسكندرية من مؤلفات إلا النزر اليسير، إلى أن ينتهي إلى القول : «ومن الحق علي أن أبرئ الخليفة عمر من هذا السلوك الهمجي، فإني في قرارة نفسي أكن إعجابا لا حد له لهذا الزعيم الفذ الذي أثر عنه قوله يوم مبايعته هذا القول الرائع الذي طبقه فعلا خلال ولايته : لست إلا واحدا منكم، ولست خيركم أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم. أعينوني إن أحسنت وقوموني إن أسأت. ألا إن أقواكم عندي الضعيف حتى آخذ الحق له، وإن أضعفكم عندي القوي حتى آخذ الحق منه »[١٢٦]

خامسها، أنه كثيرا ما يُعاب على الفرنسيين حرصهم المحموم على تصدير ثقافتهم باعتبارها أيضا لوامض الاستعمار، إلا أنهم يشيرون إلى الرد على ذلك بأنهم إنما يعنون نشر دولة الفكر مصطلعين برسالة نشر المدنية لأن العالمية هي المناخ الطبيعي لبث أفكارهم، إذ يزهو الفرنسي بأن لكل إنسان في الوجود وطنين : وطنه الأصلي ثم فرنسا، بينما يؤمن في قرارة نفسه بأن فرنسا للفرنسيين وحدهم ولا يفتأ يردد عبارته المأثورة «أجنبي قذر» Sale étranger، كما لا يغيب عن بالنا أن سلوك الجنود الفرنسيين في الجزائر لم يكن أكثر «تمدنا» من سلوك جنود الإنجليز في مصر أو الهند. على أن الفرنسيين في الحق يصوبون لغتهم بنفس العناية التي تُصان بها أداة صاحب الحرفة حتى غدت شفافية الفكر الفرنسي وقدرته على أن ينقل نفسه ويتصل بغيره أعظم إسهام له في حضارة الإنسان ومن ثم طغى على الأفكار كلها. ويتميز اللاتيني عامة والفرنسي خاصة بطاقة خلاقة وقدرة على التحليل وتمسك بالمنطق العقلاني وكفاءة في التعبير جعلته ينظر إلى الأمور من وجهة نظره الشخصية دون قيد. ولعل مرد هذا إلى ذلك الجانب من الأرومة الكلتية[١٢٧] التي ينتسب أيضا إليها فرعت فيه ذلك الجانب الموضوعي في فرديته.

لقد كان كل خير في الفرنسيين وكل شر فيهم وكل عظمتهم وكل ضعفهم ينبع على حد قول أندريه سيجفريد من مفهوم الفرنسيين للفرد وخاصة استقلاله الفكري، فهم تلامذة الفيلسوف ديكارت والشاعر لافونتين، يؤمنون بمذهب الشك ولا يأخذون الكلام على علاته كما يفرقون بين ... [١٢٨] ... الإفصاح عن خصائص ما تقع عليه أبصارهم تارة بذكاء وفطنة وموضوعية، وتارة أخرى بحماسة ... غير مسبوقة لا تزال حية لقدرتها المستمرة على الإثارة الفكرية والعاطفية، كما ... على «التركيب»[١٢٩] أن يستقرئوا من التفاصيل طابعا عاما للظواهر ... العامة دون ... على الناس بتعاليه الممجوج الإحساس بذلك.

على هذا النحو اختلف سلوك الرحالة الإنجليز في البلاد التي يزورونها عن سلوك أقرانهم الفرنسيين، ... الكثير من الإنجليز ... والتفرد والبعد عن الأهالي، تخالط

(١٢٦) لقد التبس الأمر على هذا الأديب الفرنسي الجليل فإذا هو يعزو هذه العبارة المأثورة إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، في حين أنها لأبي بكر الصديق رضي الله عنه بعد أن تمت له البيعة.

(١٢٧) الكلت مجموعة من الشعوب عرفت منذ أوائل الألف الثانية قبل الميلاد وبلغت مرتبة ... والثقافية في غرب أوروبا ووسطها بين ١٢٠٠ و ٢٠٠ ق. م.

(١٢٨) Analysis المنهج التحليلي وهو تجزئة العمل الأدبي أو الفني تجزئة تُعرف بها مكوناته أو عناصره الأولية [م. م. م. ب]

(١٢٩) Synthesis المنهج التركيبي ويعتمد على الاتجاه من الأجزاء إلى الكل الذي يضمها، أي البدء بالجزئي وضم مثله إليه ليكون منه الموضوع المراد تركيبه، على العكس من المنهج التحليلي الذي يعتمد على الاتجاه من الكل إلى الأجزاء [د. م. م. ب]

بكثير من الفرنسيين لطبقات الاجتماعية المحلية وعيش معها مشاركهم أفراحهم وأعيادهم ومسرّاتها دون استعلاء أو برم، بشد لو حد منهم أن يحب ويُحَب ملقيا على عاتقه نشر شعاع فرنسي التمدني ومبادئ ثورة ١٧٨٩، ولا يتورع كما يقول بيردابيوس «عن السعي وراء مغامرة غرامية حتى في مواخير الملايو أو بين الملونين». وقد رأينا كيف أقام جيرار دي نرفال بالأحياء الشعبية مختلطا بالأهالي متظاهرا باعتناق دينهم مقتنيا الجواري الشرقيات مثلهم، وظل الحنين إلى مصر والمصريين يلازمه بعد عودته إلى فرنسا، وهو القائل: لا مناص من أن أتزوج فتاة ساذجة نبتت على أرض هذه التربة المقدسة التي هي أول وطن لنا في الشرق، ومن أن أستحم في ينابيع الإنسانية المفعمة بالحيوية والتي منها انبثق الشعر وإيمان آبائنا. وحينما سئل كيف رأى نساء الشرقيات أجاب بأسلوبه الرومانسي الغنائي مشدوها وكأنه في حلم: «إنهن مشابهات الجمال كالعصفور، منهن الذهبية ومنهن السحنية، ومنهن الصفراء ومنهن البيضاء».

أما شارل بلان الجليل فلم يقو على كتمان ما اعتلج في نفسه من انفعالات حتى ما جنح منها إلى شهوة الجسد، بل لقد استعاد شبابه من جديد حين أثاره مشهد وقعت عليه عيناه بينما كان يتأمل عمود بومبي في الإسكندرية حيث ظهرت فتاة صبيّة مصرية تقود والدها الكهل الضرير نحو مسكنهما المتواضع الغريب فتنته بجمالها وسمرة بشرتها وعينيها وشعرها وقوامها وهي تخطو غير مدركة لسحرها فتصيبه بنشوة مباغتة، ومن ثم يسارع إلى مناداة زملائه من المصورين والمثالين كي يستلهموا هذا «النموذج» الفني المتحرك الذي وصفه بقوله: «إنها سحابية اللمحات يميل شعرها الأسود إلى الزرقة من أثر الشمس، وفي عينيها نعومة المخمل، وقد حالت ألوان ثوبها الرث بينما تقود أباها العجوز الذي ذهب الرمد ببصره فاتكأ بيده على كتفها على حين استندت يده الأخرى على عصا وهو يسير ببطء يستجدي الصدقات. إنهما يمثلان معا نموذجا فريدا يحلم به أي فنان تشكيلي صورة حية لأوديب في صحبة ابنته أنتيجونا.. واندفعتُ أنادي [المصورين] فرومنتان وجيروم وجيرو، لفتُّ أنظارهم إليها غير أن أحداً منهم لم يكن إلى جواري، فأسرعت إلى الفتاة أملأ كفّها بعطاء كان في جرابه ما يعدل ما هي عليه من جمال طاغ لم تلتفت هي إليه».

إننا لا نصادف كثيرا رحالة إنجليزيا يفصح عن مشاعره الذاتية أمام مثل تلك الصور والمشاهد بمثل هذه الصراحة والوضوح، فهو متحفظ يدور داخل نفسه صراع بين ذاتيته وبين إحساسه بمهمته يدوم حتى يرى أعينهم يستنكر لكل ما هو خارج عن موضوعية رحلته وهدفها العلمي أو الاقتصادي أو التبشيري أو الاستعماري، لأنه في قرارة نفسه يؤمن أنه يختار بلادا من أملها في طلّه أن تنضم يوما ما إلى ممتلكات التاج البريطاني الذي أوفده إلى تلك البلاد، فحتى إدوارد لين الذي تظاهر باعتناق الإسلام مراء بعد أن وصف مراسم الزواج ومواكب العرس وحفلات الزفاف التي يستهلها بملاحظته عن العار الذي يلحق بالشاب المصري لتحجم عن الزواج حين يبلغ سنّ معينة دون أن يكون ثمة ما يعوقه عنه، أقول إن إدوارد لين كان حريصا على أن يسجل أنه على الرغم من الضغوط التي استهدفت له كي يتزوج من مصرية فإنه رفض المبدأ بلا تردد، كما رفض عرضا آخر من صديق مصري بأن يهيئ له زواجا عرفيا، وإن كان ثمة من يدحض الزعم بعدم اهتمام لين بالمسائل الجنسية فيكشف عن أنه كان متزوجا من أمة معتقة تدعى نفيسة كانت جارية يونانية أهداها روبرت هاي للين الذي تعهدها بالرعاية إلى أن تزوجها، وقد امتد بها العمر بعده وبعث بمخطوطاته لمكتبة المتحف البريطاني. والراجح أن لين قد آثر التظاهر بالتمسك بهويته

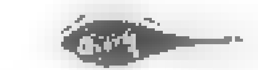

المزدوجة بوصفه مسلم المظهر رهباني الطوية، فتخلى عن متعته البشرية كي يحتفظ بنزاهته العلمية ويصر على الملاحظة الموضوعية المحايدة في دراسته التي أعدّها في الأصل لمواطنيه الأوروبيين. فكان على العكس من الفرنسي الذي لا يكبح مشاعره الإنسانية، حتى نرى كاتبا وقورا مثل بيير لوتي الذي بدأ كتابه «الفدّ» «موت فيله» برصانة وجلال لا يخجل من أن يختلس نظرة شبقة إلى صدر إحدى البوسنيات اللاتي يصفهن بقوله: «تسير الفلاحات برشاقة تستعصي محاكاتها في ثياب سود يجرّون أذيالها فوق التراب أو الرمال شأن سيدات البلاط وهن يجررن أذيال أثوابهن فوق أبسطة القصور. ما أغربهن في أرديتهن القاتمة التي تتجلى فيها سمات الحداد على عتمة هذا السحب العابرة وهن يخطرن بين الحقول أو فوق رمال الصحراء الساطعة بأضواء كأنها أضواء الأعياد، يخطرن غير مدركات لرشاقتهن المضربة التي لم يلقنّها عن أحد مثلما كانت تخطر في الماضي صبايا الإغريق تقطر حركاتهن وإيماءاتهن رفعة ونبلا. وما من امرأة من سائر الأنيقات تستطيع أن تسبغ على نفسها مثل هذا التنسيق البديع في مثل هذه الثياب البدائية السوداء ذات النسيج الفج. لا سيما عندما ترفع إحداهن ذراعها فيتعرى وهي واضعة فوق رأسها جرتها المليئة بالماء، ماضية شامخة في أنفة وقد برز ردفاها المستديران رجراجين على الرغم مما تحمل، متشحة بطرحة شفافة سوداء يكتمل بها زيّها، على حاشيتها شريط أحمر أو حبات من الترتر الفضي. وليس ثمة ما يضم شق صدر جلبابها الضيق الهابط إلى الوسط، فيكشف ثديا عن بشرة عربية وعن ثديين مكورين عجيبين كما في شبابها لم يمسهما الانحطاط، تحملان من جمال مفرط!

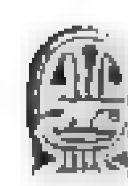

ثبت المراجع

تمهيد تاريخي

المرجع	المؤلف
عبدالرحمن اجبرتي. دراسات وبحوث. المكتبة العربية . الهيئة المصرية العامة للكتاب	أحمد عزت عبدالكريم
• قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية. لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٣	أحمد أمين
• التاريخ السرّي لاحتلال إنجلترا لمصر. سلسلة اخترنا لك!! .	ألفرد سكاون بلنت
• سيكولوجية بعض الشعوب. ترجمة عثيم عبدون . المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر	أندريه سيجفريد
• الأمير المختار عز الملك محمد بن عبيد الله بن أحمد ٩٧٧-١٠٢٩م أخبار مصر . حققه أيمن فؤاد سيد وتياري بيانكي . المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة ١٩٧٨ .	المسبحي
• اسماعيل المفترى عليه. ترجمة فؤاد صروف . دار النشر الحديث . القاهرة ١٩٣٣	بيير كرابيتير
• كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بخطط المقريزية. مؤسسة الحلبي	تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي المقريزي المتوفى سنة ٨٤٥ هجرية
• القيم الجمالية في العمارة الإسلامية. دار المعارف ١٩٨١ .	ثروت عكاشة
• حيّ الجمالية منذ قرن مضى . أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة . مارس - أبريل ١٩٦٩ . وزارة الثقافة . مطبعة دار الكتب ١٩٧٠	جاك بيرك
• تاريخ الحركة القومية في مصر. ثلاثة أجزاء. مكتبة النهضة ١٩٤٨ . •عصر إسماعيل جزءان . مكتبة النهضة ١٩٣٢	عبدالرحمن الرافعي
• عجائب الآثار في التراجم والأخبار. مطبعة بولاق ١٨٧٥	عبدالرحمن الجبرتي
• القاهرة. تاريخها وآثارها (٩٦٩-١٨٢٥) من جوهر القائد إلى الجبرتي المؤرخ . الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٦ .	عبدالرحمن زكي
• موسوعة مدينة القاهرة في ألف عام. مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٦٩ .	عبدالرحمن زكي
الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة (الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٠)	علي باشا مبارك
• مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية. عيد القاهرة الألفي ١٩٦٩ . مكتبة الخانجي	محمد عبدالله عنان
• أتباع سان سيمون. فلسفتهم الاجتماعية وتطبيقها في مصر . مطبعة جامعة القاهرة ١٩٦٣	محمد طلعت عيسى
• راسلاس أمير الحبشة. ترجمة د. مجدي وهبة وكامل المهندس . مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٥٩	صمويل جونسون
• المستشرقون. دار المعارف . مصر .	نجيب عقيقي

* Abu-Lughod Janet L.: **Cairo, 1001 years of the City Victorious.** Princeton University Press. Princeton, New Jersey 1971

* Ayalon David **Gunpowder and Firearms in the Mamluk Kingdom. A challenge to a mediaeval Society.** London. Valentine. Mitchell. 1956

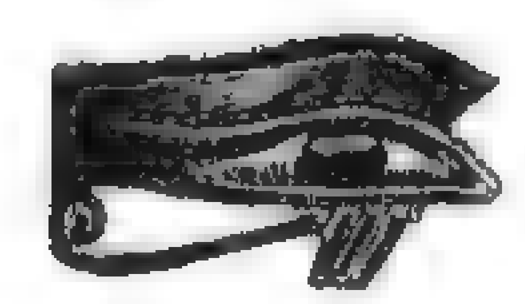

* Faculte des Lettres de Rennes 1951

* Ampère J.J., **Voyage en Egypte et en Nubie.** Paris. Calmann-Lévy 1881

* Auriant. L : **L'Egypte. La Proie de ses Meteques.** (1805-1920) .Chez P. M. Dulesale. Paris 1920

* Blanc, Charles : **Voyage de la Haute Egypte. Observations sur les arts égyptien et arabe.** Paris, Renouard 1876.

* Bertrand, Louis : **Gustave Flaubert.** Ed. du Mercure de France 1923

* Chasseboeuf, C.F. : **Voyage en Syrie et en Egypte pendant les années 1783, 1784 et 1785.** Paris, 1799. Chateaubriand, François René de: **Itineraire de Paris à Jérusalem et de Jérusalem à Paris, en allant par la Grèce et Revenant par l'Egypte, la Barbarie et l'Espagne**. Paris, Le Normant, 1811

* Chateaubriand, François-René de: **Oeuvres Romanesques et Voyages.** Ed Maurice Regard , Paris. Gallimard 1969

* Carré, Jean-Marie : **Voyageurs et Ecrivains Français en Egypte.** L'Institut Français D'Archéologie Orientale. Le Caire 1956. (2Vols.)

* Coste, Pascale : **Architecture Arabe ou Monuments du Caire. Mesures et dessinés 1818 à 1825** par Pascale Coste. Typographie de Firmin Didot Freres Imprimerie de l'Institut de France. Rue Jacob.56

* D'Avennes, Prisse : **L'Art Arabe d'après les monuments du kaire1878. Morel et Cie. Libraires- Editeurs**

* Du Camp, Maxime : **Egypte, Nubie, Palestine et Syrie.** Dessins photographiques recueillis Pendant les années1850et 1851. Paris, Gide et J Baudry, Editeurs, 1852

* Du Camp, Maxime : **Souvenirs Litteraires.** Paris, Hachette 1882-1883

* Du Camp, Maxime : **Le Nil, Egypte, et Nubie.** Paris1854. Michel Levy

* Dumesnil, R. et D. L. Demorest : **Bibliographie de Gustave Flaubert.** Paris Giraud Badin

* Denon, Vivant : **Voyage dans la Basse et la Haute Egypte.** Paris 1803 **Description de l' Egypte ou Recueil des recherches qui ont été faites en Egypte Pendant l'Expedition de l'Armee Française.** Publié par les ordres de sa majeste l' Empereur Napoleon le Grand a' Paris, l'Imprimerie Imperiale 1809.

* C.F. Savary : **Lettres sur L'Egypte -Ou l'on offre le Parallele de moeurs anciennes et modernes de ses habitants, ou decrit l'etat, le commerce,l' agriculture, le gouvernement, l'ancienne religion du pays, et la descente de St. Louis a' Damiette.** tire de joinville et des auteurs Arabes. Paris 1785-86

* Volney (C.F. Chasseboeuf. Comte de) : **Voyage en Syrie et en Egypte Pendant les anées 1783, 1784 et** 1785. Avec deux cartes géographique et deux planches gravees Paris 1787

* Flaubert, Gustave : **Voyage en Egypte** (1849 - 1850)

* Hanoum, Althé : **Les Musulmanes Contemporaines.** Trad. de la langue turque par Nazime- Roukié. Editeur Alphonse Lemerre, Paris 1894

* Blachère, R. **L'Agglomération du Caire vue par quatre voyageurs Arabes du Moyen Orient.** Annales Islamologique VIII. Volume commemoratif du millenaire du Caire. (969-1969) Le Caire. Imprimerie de l'Institut Français d'Archeologie Orientale 1969

* Clerget, Marcel : **Le Caire, Etude de Geographie Urbaine et d'Histoire Economique.** Le Caire. Imprimerie Schindler 1934. (2 Cols).

* Daniel, Norman: **Islam, Europe and Empire.** At the University press. Edinburgh 1966.

* Hanotaux, Gabriel : **Histoire de la Nation Egyptienne.** Librairie plon.

* Herold, J. Christopher : **Bonaparte in Egypt.** London 1962

* Marsot, Afaf Lutfi Al-Sayyid : **A Socio-economic sketch of the "Ulama" in the 18th Century** : Colloque International sur L'Histoire du Caire.27 Mars-5 Avril1969. Ministry of Culture of the Arab Republic of Egypt

* Mansfield, Peter : **The British in Egypt .** Holt, Rinehart and Winston, New York 1971

* Raymond, André : **Les Bains Publics au Caire a' la fin du XVIIIe** Siecle.Annales Islamologiques VIII. Le Caire. Imprimerie de l'Institut Français d'Archeologie Orientale 1969

* Raymond, André : **Artisans et Commerçants au Caire au 18e Siecle.** Institut Français de Damas. 1973-1974

* Rose, J. H : **Life of Napoleon** .George Bell,1901

* Russel, Dorothea : **Medieval Cairo and the Monasteries of the Wadi Natrun.** A Historical Guide. Weidenfeld and Nicolson. London 1962.

* Said, Edward : **Orientalism.** Pantheon books. New York 1978

* Stewart, Desmond : **Great Cairo. Mother of the World**. Rupert Hart-Davis London 1969

* Von Eckardt, Wolf : **The Man who Destroyed Paris.** Horizon Magazine. May 1963

* Wahba, Magdi : **A Dictionary of Literary Terms.** Librairie du Liban 1974.

الباب الأول : الفصل الأول

الرحّالة الفرنسيون

ج. ده شابرول : وصف مصر ، الدول الحديثة . دراسة في عادات وتقاليد سكان مصر المحدثين
ترجمة زهير الشايب . القاهرة ١٩٧٦ .

محمد طلعت عيسى : أتباع سان سيمون . فلسفتهم الاجتماعية وتطبيقها في مصر
مطبعة جامعة القاهرة

* Abdel Meguid, Saad : **Aperçu sur la vie et L'oeuvre de Maxime du Camp.**1822-1894

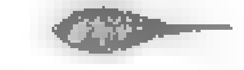

* Lane, Edward W : **An Account of the Manners and Customs of the Modern Egyptians.** Written during the years 1833-1835. With 65 illustrations and 27 full Page engravings. Alexander Gardener, London 1896

* Lane-poole, Stanley : **Cairo, Sketches of its History, Monuments and Social Life.** London . J.S. Virtue and Co. 1895

* Le, Sidney : **Dictionary of National Biography.** Oxford University press.

* Madden, R.R : **Travels in Turkey ,Egypt, Nubia and Palestine in 1824-27.** London 1829

* Moussa, Fatma : **W. R. Hamilton "Aegyptiaca", 1809, An Evaluation** .Annual Bulletin of English Studies . Cairo University 1954

* Raymond, André : **Les Bains Publics au Caire à la fin du XVIIIe Siècle.** Annales Islamologiques VII. Le Caire. Imprimerie de l'Institut Français d'Archéologie Orientale. 1969

* Rushdi, Rashad : **English Travellers in Egypt during the Reign of Mohammed ali** . Bulletin of the Faculty of Arts. Fouad I University . December 1952

* Rushdi, Rashad . **The Literary interpretaton of Egypt 1835-1850.** Annual Bulletin of English Studies, Cairo University 1954

* Rushdi, Rashad. **The Lure of Egypt.** The Anglo-Egyptian Bookshop, Cairo n.d.

* Said, Edward : **Orientalism.** Pantheon Books . New York.1978

* Searight, Sarah : **The British in the Middle East.** East-West Publications, London and the Hague, in association with Livres de France, Cairo. 1979

* Thackeray, W. M : **Lovel the Widower, Etc and A Journey from Cornhill to Grand Cairo.** London. Collins' Cleartype Press

* Urquhart, D : **The Spirit of the East.** London 1838

* Warburton, B.E. G : **The Crescent and the Cross.** London, 1844

* Webster, James : **Travels through the Crimea, Turkey and Egypt. Performed during the years** 1825-1828. London 1830

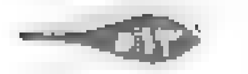

* Lamartine, Alphonse : **Voyage en Orient.** Hachette, Paris 1887.

* Lichtenberger, Marguerite : **Ecrivains Français en Egypte Contemporaine (de 1870 a' nos Jours).** Paris. Libraire Ernest Leroux 1934

* Loti, Pierre . **La Mort de Philae.** Calmann-Levy Editeur. (n.d.).

* Nerval, Gérard de : **Voyage en Orient.** Bibliothèque des Editions Richelieu. Paris 1950

* Pouton, Eugene : **Un Hiver en Egypte.** ,1857

* Sainte Beuve : **J. J. Ampère. Portraits contemporains.** Tome III

* Taha-Hussein, Moenis . **Le Romantisme Français et l'Islam.** Dar El Maaref. Liban 1962.

* Tissot, P.D : **Notice sur Vivant Denon, en tête du Voyage dans la Basse et l**

a Haute Egypte.1829.

الفصل الثاني والثالث

رحّالة الإنجليز ونظرتان مختلفتان لواقع واحد

حسن فتحي * القاعة العربية في منازل القاهرة، تطورها وبعض الاستعمالات الحديثة لمبادئ تصميمها . أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة مارس - أبريل ١٩٦٩، وزارة الثقافة مصر دار الكتب ١٩٧٠

* **Ahmed, Leila : Edward W. Lane. A Study of his life and work and of British ideas of the Middle East in the 19th Century.** Longman , Libraire du Liban. 1978

* Anderson, M.S: **The Eastern Question. 1774-1923** New York. Macmillan 1966.

* Brombert, Victor : **Orientalism and the Scandals of Scholarship.** the American Scholar. Autumn 1979

* Curzon, Robert : **Visits to Monasteries in the Levant.** London 1849.

* Daniel , Norman . **Islam, Europe and Empire.** At the University Press. Edinburgh. 1966

* Daniel , Norman : **Edward Said and the Orientalists.** Extraits de Mélanges de l'Institut Dominicain d'Etudes Orientales. tome 15 1982

* Edwards, Amelia : **A Thousand Miles Up the Nile.** In two volumes Leipzig. Bernhard Tauchnitz 1878

* Gordon, Lady Duff : **Letters from Egypt.** Brimley johnson. London1902

* Henniker, Frederick : **Notes During a visit to Egypt, Nubia, The Oasis, Mount Sinai and Jerusalem.** London1823

* Hill, S.S : **Travels in Egypt and Syria.** Longmans, Green . London 1866

* Kinglake, Alexander W. : **Eothen .** New Edition. University of Nebraska press. Lincoln, 1970

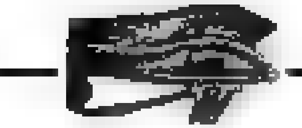

المحتويات

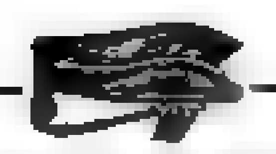

ثــــروت عكـــــاشه

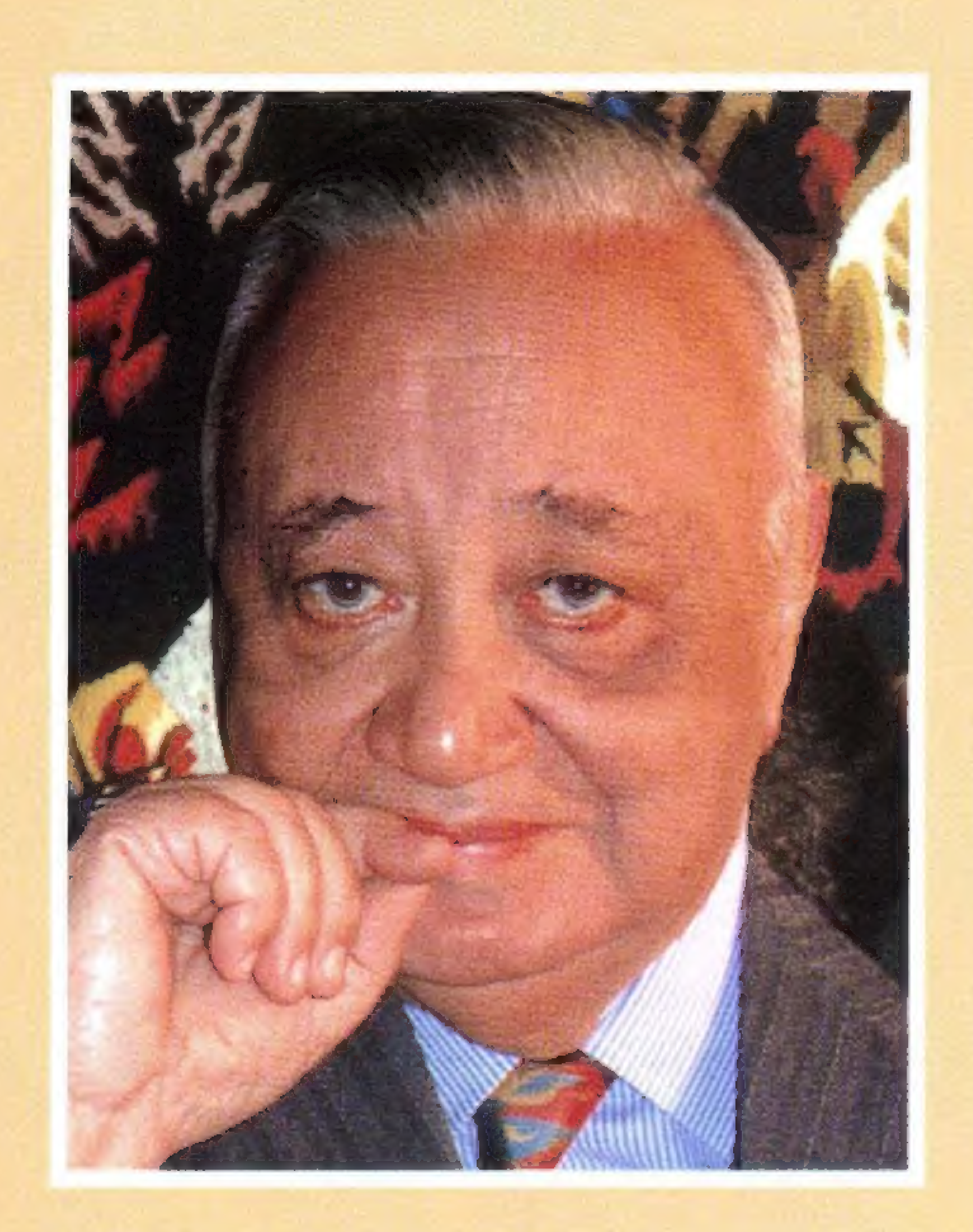

وُلدَ بالقاهرة عامَ١٩٢١، وَتَخرَّج فى الكليَّة الحربيَّة عامَ ١٩٣٩، ثمّ فى كليَّة أركان الحرب عامَ ١٩٤٨. فاز بجائزة «فاروق الأول العسكرية» الأولىِ فى مسابقة القوات المسلّحة للبحوث والدراسات العسكرية عام ١٩٥١. حصل على دبلوم الصِّحافة من كلِّيَّة الآداب جامعة فؤاد الأوّل (القاهرة) عام ١٩٥١، ونالَ درجةَ الدُّكتوراه فى الأدب من جامعة السُّوربون بباريس (١٩٦٠). وشاركَ فى حرب فلَسطين (١٩٤٨) وفى ثورة يوليه (١٩٥٢).

عُيِّنَ رئيسًا لتحرير مَجلَّة التَّحرير (٥٢ ـ ١٩٥٣)، ثمّ مُلحَقًا عسكريًا بالسِّفارة المصريَّة ببرن ثمّ باريس ومدريد (٥٣ ـ ١٩٥٦)، ثمّ سفيرًا لمصرَ فى روما (٥٧ ـ ١٩٥٨)، ثمّ وزيرًا للثَّقافة (٥٨ ـ ١٩٦٢)، وشَغَلَ مَنْصب رئيس مجلس إدارة البنك الأهليّ المصرىّ (٦٢ ـ ١٩٦٦)، ثمّ مَنْصبَ نائب رئيس الوزراء ووزير الثَّقافة ورئيس المجلس الأعلى للفنون والآداب والعلوم الاجتماعية (٦٦ ـ ١٩٧٠). ثمّ عُيِّنَ مُساعدًا لرئيس الجمهوريَّة للشئون الثَّقافيَّة (٧٠ ـ ١٩٧٢)، وعَملَ أستاذًا زائرًا بالكوليج ده فرانس بباريس لمادّة تاريخ الفنّ (١٩٧٣)، وانتُخبَ زميلاً مُراسلاً بالأكاديميَّة البريطانيَّة الملكيَّة (من ١٩٧٥ـ)، كما انتخب رئيسًا لجمعية الصداقة المصرية الفرنسية (من ١٩٦٥ـ).

انْتُخب عُضوًا بالمجلس التَّنفيذىِّ لمُنظَّمة اليونسكو (٦٢ ـ ١٩٧٠)، كما عَملَ نائبًا لرئيس اللَّجنة الدَّوليَّة لإنقاذ ڤينيسيا وآثارها (٦٩ ـ ١٩٧٨). انُتخب رئيسًا للّجنة الثَّقافيَّة الاستشاريَّة لمعهد العالم العربى بباريس (١٩٩٠ ـ ١٩٩٣). منحته الجامعة الأمريكية بالقاهرة درجة الدكتوراه الفخرية فى العلوم الإنسانية (١٩٩٥).

فاز بجائزة الدولة التقديرية عن الفنون عام ١٩٨٨. وانتخب عضوًا بالمجمع العلمى المصري عام ١٩٩٧. فاز بجائزة مبارك للفنون عام ٢٠٠٢.

ومن بين الأوسمة والميداليات التى نالها وسام اللچيون دونير (وسام جوقة الشرف الفرنسى) بدرجة كوماندور (١٩٦٨)، ووسام الفنون والآداب الفرنسى بدرجة كوماندور (١٩٦٥)، والميدالية الفضية لليونسكو تتويجا لجهوده فى إنقاذ معبدى أبو سمبل وآثار النوبة (١٩٦٨)، والميدالية الذهبية لليونسكو لجهوده فى إنقاذ معابد فيله وآثار النوبة (١٩٧٠)، والميدالية الفضية التذكارية لليونسكو عام ٢٠٠١ تكريما له بمناسبة مرور ٣٠ سنة على حملة إنقاذ آثار النوبة (١٩٦٠ ـ ١٩٨٠).

موقع المؤلف على الإنترنت
213.42.123.197/Tharwat/book/file.html.

رودلف إرنست: الرسالة